كتاب
الجمهورية

القرضاوى

بين الإخوان والسلطان

مجاهد خلف

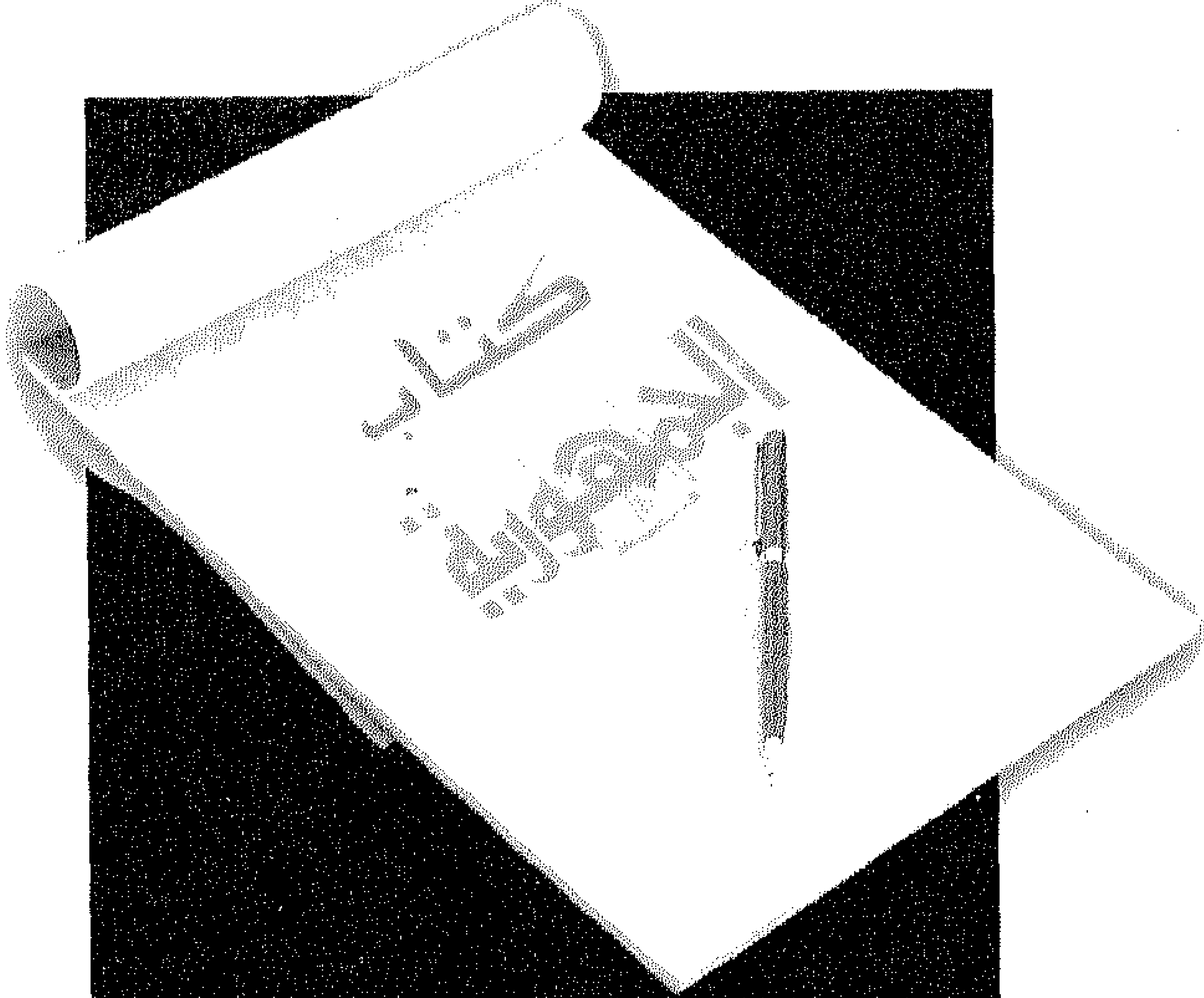
صالح



كتاب الجمهورية

أكتوبر ٢٠٠٨

www.gombook.net.eg



رئيس مجلس الإدارة
محمد أبو الحديد
E-mail:abuelhaded@eltahrir.net

رئيس التحرير
على هاشم
E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg

القرضاوى بين الإخوان والسلطان



مجاهد خلف

دار الجمهورية للصحافة
١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات او
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام:
٢٥٧٨٣٣٣٣ ٢٥٧٨١٠١٠
http://www.eltahrir.net

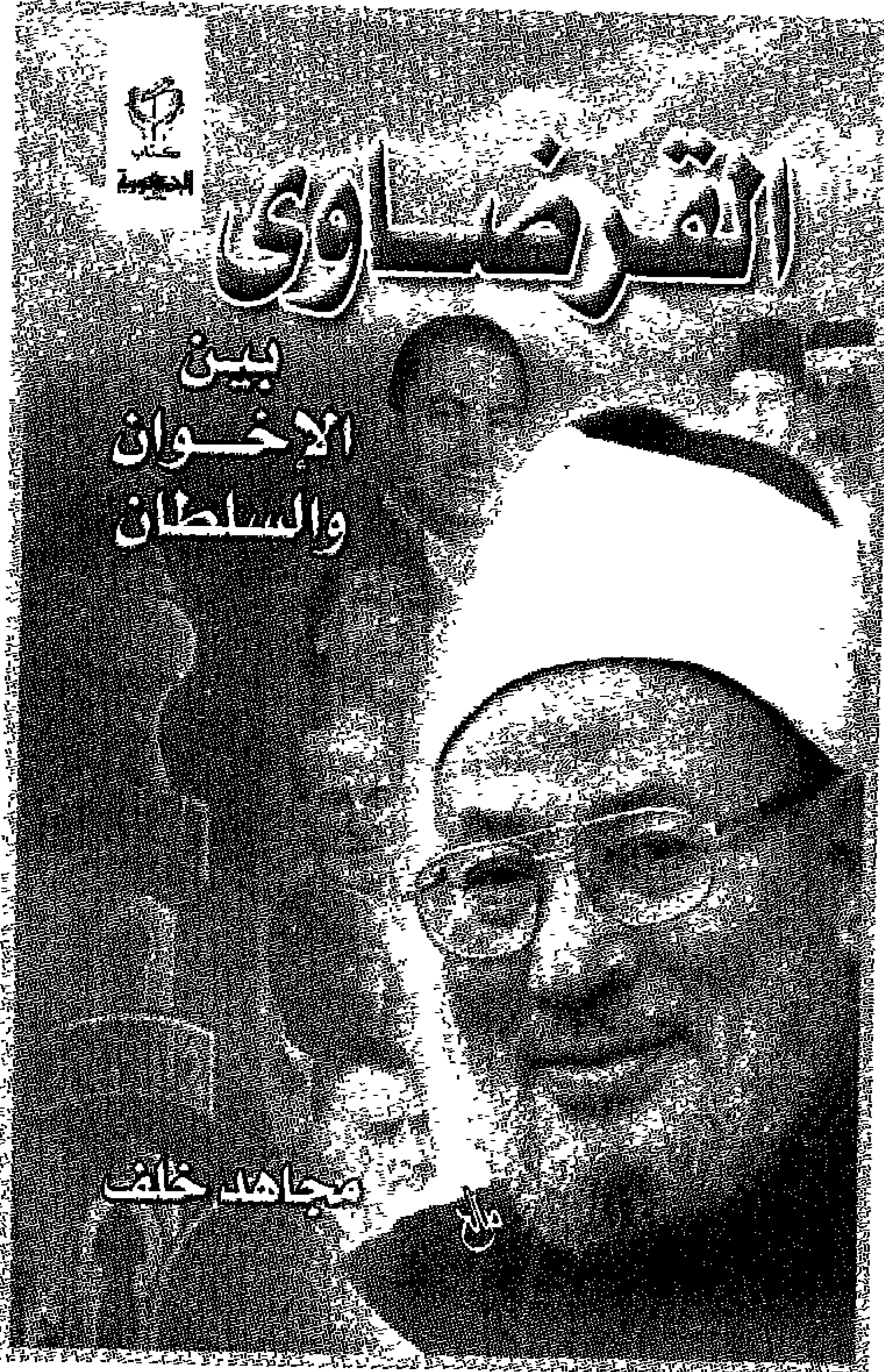
أكتوبر ٢٠٠٨

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل.س
لبنان	٤٠٠ ل.ل
الأردن	١,٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جنيه
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
٦٠ جنيهاً
الدول العربية ٣٠ دولاراً
أمريكيا
اتحاد البريد الافريقي وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكيا
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكياً
باقي دول العالم
٥٨ دولارا أمريكيا



تصميم الغلاف الفنان: صالح صالح

سكرتير التحرير
سيد عبد الحفيظ

القرضاوى



الإخوان والسلطان

مجاهد خلف



لقاءات متكررة للكاتب مع الشيخ القرضاوى فى منزله بالدوحة أثناء تسجيل حوار سيرته



الإهداء

● إلى الشيخ العلامة د . القرضاوى تحية فى عيد ميلاده الـ ٨٢ أمد الله فى عمره ونفعنا بعلمه .

● وإلى منهجه الوسطى المستنير وحرصه على جمع أبناء الأمة على كلمة سواء.

● وكل داعية يبحث عن طريق.

● وكل رقيب يخشى الله ويخاف من عذابه.



لقاء للكاتب مع الشيخ القرضاوى فى
منزله بالدوحة أثناء تسجيل حوار
سيرته وحضر جانبا منها د.هشام
مرسى على المرسى زوج ابنته

مقـــــدمة

هذا الكتاب

تأخر ظهور هذا الكتاب أكثر من عشر سنوات.. كان من المقرر أن يصدر فى العام ١٩٩٦ عقب نشر حلقات الحوار مع فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى عن سيرته الذاتية فى جريدة «الشرق» القطرية.. وصاحب فكرة الحوار هو الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ ناصر العثمان رئيس تحرير جريدة الشرق آنذاك.. ولم يكن فى الحسبان تحويله إلى كتاب لعدة أسباب لعل أهمها: أن كتاباً يصدر عن العلامة يوسف القرضاوى لابد أن يكون فى حجم وقامة وقيمة القرضاوى.. خاصة وأنا أنظر إلى الكتاب نظرة فيها كثير من الإجلال والتقدير.. وأشعر بغصة كبيرة تجاه كثير مما يصدر فى الآونة الأخيرة.. ويسمونها كتباً.. وهى لا ترقى إلى أى من مستويات الكتابة.

إلا أن فكرة الكتاب أثارتها - بجدية - مكالمات هاتفية لم أتوقعها جاءت من الهند وباكستان لقراء كانوا يتابعون نشر الحلقات فى الشرق.. وفوجئت بهم يصرون على إرسال حوالة نقدية بقيمة الكتاب المتوقعة لحجز نسخهم مقدماً قبل أن يطبع.

ورغم الاستغراق فى العمل الصحفى الذى يأكل كل شىء.. فإننى حاولت البدء فى الإعداد للكتاب.. واستجمعت كل القوى أمام مؤلفات د. القرضاوى التى كانت تفوق الثمانين كتاباً حينئذٍ.. فوجدتنى فى محيط عميق من الثقافة والفكر الإسلامى الراقى الشامل والمحيط بجوانب الحياة الإنسانية بكل تفاعلاتها.. عندما وضعت الخطوط العريضة والرئيسية للدراسة وجدت أنها بالفعل تحتاج إلى جهود مؤسسات ومؤسسات تبحث وتدرس وتحلل وتستخلص النتائج.. وترصد التفاعلات وما وراءها.. والتداعيات المتتابعة للأفكار والرؤى والطروحات الإسلامية المختلفة.. خاصة ونحن أمام مدرسة فكرية متميزة لها

منهج واضح ومطلوب وفيها طوق النجاة وهى معقد الأمل.. إنها مدرسة الوسطية والاعتدال.

صعوبة أخرى جاءت فى الطريق بعد طول فترة الانتظار وهى أن الشيخ القرضاوى قدم للمكتبة الإسلامية سفره العظيم «ابن القرية والكتاب».. ورسم فيه ملامح السيرة الذاتية وتتبعها خطوة بخطوة.. صدر منها ثلاثة أجزاء وجزءان فى الطريق، هذا فضلاً عن قلة الدراسات العلمية عن الشيخ القرضاوى فى المكتبة الإسلامية.

وقد تخلصت من الحرج مؤخراً خاصة وأن منهج الحوار مع الشيخ كان مختلفاً - بعيداً عن السرد الخاص - ومحاولة إلقاء نظرة نقدية على الواقع المعاصر بالمقارنة مع ما كان يحدث قديماً.. وشجعنى أكثر أن عدداً كبيراً من الحلقات المسجلة مع الشيخ لم أتمكن من نشرها فى «الشرق».. وظلت بين الأوراق الخاصة.. لم تر النور لسبب أو لآخر.. ووجدت أن من حق القارىء أن يطلع عليها ويستمتع بها.

والحقيقة أن وجود الشيخ القرضاوى فى قطر.. وما حققه من نجاحات هائلة علمية ودعوية وفكرية رسخت له مكانا ومكانة على الساحة الإسلامية العامة.. يثير فى الأذهان العديد من الأسئلة المهمة حول هذا الرجل ويزيد من الحيرة والفضول أيضاً ذلك الوضع والسلطان الأدبى الذى يحظى به فى الأوساط الرسمية والشعبية على حد سواء.. بل إن هناك تقديراً خاصاً من أمير البلاد والشيوخ وغيرهم للشيخ واحتفاء به فى كل المواقع والمناسبات.

وقد دفعتنى هذه الحالة إلى توجيه سؤال مباشر وصريح للشيخ القرضاوى عن سر نجاح هذه العلاقة وتلك الحميمية مع السلطة فى قطر.. بينما هى على النقيض تماماً فى جانب آخر.

وأجاب الشيخ بكل صراحة وجرأة... مما فتح الباب أمام حوار واسع حول علاقة المشايخ بالسلطة وأصحاب السلطان وحالة الصدام الدائمة مع الكثيرين والتى تصل فى بعض الأحيان إلي حد الإبعاد أو الإسكات القهرى.. أو الاستئصال.. والإسكات الأبدى.

وأدلى القرضاوى بشهادته حول عصر عبدالناصر.. وما حدث فى فترة السادات وموقع الدين والموقف من الإسلاميين بطبيعة الحال وحملات الهجوم المتوالية والمتصاعدة أحياناً عليهم.

وكان لابد أن يكون لعلاقة الشيخ مع حركة الإخوان المسلمين نصيب كبير على مائدة الحوار باعتباره بدأ المشوار إخوانياً إلى أن أصبح قرضاوياً خالصاً وعلى المستوى العالمى بعد أن حقق نقلة كبيرة وتجاوز انتماءه الحركى وانحاز إلى انتمائه إلى الأمة.

يرتبط بهذا المحور ارتباطاً وثيقاً الجانب السياسى.. وما أثير من جدل - ولايزال - على الساحة حول علاقة عالم الدين بالسياسة.. وهل يجوز له أن ينغمس فيها ويهجرها تماماً باعتبارها ملعونة وملعونا كل ما اشتق من ساس ويسوس.. ويتحدث الشيخ فى القضية بجرأة ووضوح ويطرح رؤية علمية ومنطقية تؤكد أحقية عمل الشيخ بالسياسة.. بل إنه يؤكد أن ذلك من صميم عمله وأن المسلم لا يكون إلا سياسياً.

ويتطرق الكتاب إلى معارك الشيخ مع العلمانية والتيارات الأخرى الرافضة للتوجهات الإسلامية أو المناوئة للصحوة الإسلامية والمتحالفة عليها ومواجهاته مع التكفير والتكفيريين.. وأدعياء العلم الشرعى.

ويكشف الشيخ القرضاوى الكثير من الأسرار حول حياته الخاصة والعائلية وعلاقته بأهله وأبنائه ومنهجه فى تربيتهم وتعليمهم وزواجهم.

ثم يتحدث د. القرضاوى بالتفصيل ولأول مرة عن قصة زواجه الثانى وارتباطه بالجزائرية أسماء بن قادة وكيف تم اللقاء بينهما حتى الارتباط الكامل.. وردود الفعل المتباينة على هذا الزواج داخل قطر وخارجها.

ويعرض لتفاصيل علاقته بزملائه وأساتذته وتلاميذه فى مقارنة مع ما يجرى وما صارت إليه الأمور على الساحة الآن.

مجاهد خلف

megahedkh@hotmail.com

القاهرة أكتوبر ٢٠٠٨





اقبال جماهيرى
كبير وحب كبير
وحرص من أبناء
الجاليات
الإسلامية على
تقبيل يد ورأس
الشيخ
القرضاوى



الانطلاقة المباركة

هل يعد فضيلة الشيخ د.يوسف القرضاوى إخوانيا - أى من جماعة الإخوان المسلمين؟! سؤال وإن بدا ساذجا للبعض إلا أنه مطروح بقوة خاصة عند شباب اليوم والذى يرى ويسمع ويشاهد الشيخ بشكل شبه يومى عبر وسائل إعلام عربية وأجنبية.. ويبدو كما لو كان مغلولا مكبلا فى نظيرتها المصرية.. فى تطبيق أمين لقول وتساؤل الشاعر:

أحرام على بلابله الروح.. حلال للطير من كل جنس؟!

والحقيقة أن الشيخ القرضاوى بدأ إخوانيا وعلا نجمه وسطع فى أيامه الأولى مع تزايد المد الاخوانى.. وشيوع الحركة منذ بداياتها على يد مؤسسها الأول الامام حسن البنا.. وساعده نبوغه وتفوقه على أن يفرض نفسه فى الصفوف الأولى للدعوة.. غير آبه للتنظيم الحركى وقيوده.. بل أحيانا متمردا على بعض القواعد والقوالب التى تفرضها طبيعة الحركة وضرورات التحرك واعداد الكوادر اللازمة لذلك.

فالشيخ القرضاوى فى بساطة شديدة نجم انطلق فى فلك الاخوان ولكنه ظل يحلق بعيدا بعيدا فى سماء الدعوة والفكر الإسلامى. حتى خرج بسهولة - سواء عن قصد أو غير قصد - من المدار الضيق لجماعة محدودة إلى الفلك الواسع والفضاء الرحيب.. مجتهدا ومبدعا ومصلحا ومجددا.

ورغم أن القرضاوى تحرر تلقائيا من الحركة الإخوانية - على الأقل

تنظيميا . فإنه على ما يبدو فإن الطرفين جاهدا فى الحفاظ على شعرة معاوية بينهما . ولم يشأ أن يعلن أى منهما انفصالا أو خلعا وكان هذا أوضح فى جانب الحركة خاصة وأنه فى حساب المواءمات والمكاسب والخسارة.. ليس فى مصلحتها أن تتخلى عن شيخ بحجم وقوة الشيخ القرضاوى وماله من سلطان علمى وأدبى.. خاصة وأن الضربات الموجهة لها تتوالى ولا تتوقف ليلا أو نهارا، كما أن الشيخ لم تكن تشغله المسألة التنظيمية بعد أن نذر نفسه لخدمة الدعوة.. وتأكد أنه يستطيع تقديم شىء للفكر الإسلامى وللدفاع ضد الهجمات المتلاحقة على الدين والمتدينين عموما والإسلام والإسلاميين خصوصا بعيدًاعن الانتماء لأى جماعة.. وقد أعلن هذا مرارا فى مناسبات عدة.

ومع الانطلاقة القرضاوية إلى العالمية ورسوخ مكانته على ساحة الفكر الإسلامى متصدرا الصفوف الأولى أصاب العطب شعرة معاوية فعتت وانقطعت أو قطِّعت مع وضوح المنهج الذى تبناه الشيخ والذى حرص على التأكيد عليه دائما فى كل المناسبات وفى المحافل الدولية.. منهج الوسطية والاعتدال.. وهو ما لقى ترحيبا كبيرا وواسعا فى مختلف الأوساط.

ومع صدور بعض الانتقادات من جانب الشيخ القرضاوى للحركة وإبداء ملاحظات على خططها الاستراتيجية فى الجانب الفكرى والعلمى ورعاية الأعضاء.. أظهرت بعض قيادات الجماعة غضبها واستياءها من الصراحة والشدة القرضاوية المعهودة.. وبدت فى الأجواء نذر أنه قد آن الأوان لإعلان فك الارتباط بين القرضاوى والإخوان.. وهو ما كان واقعا حقيقة وتأبى الجماعة الاعتراف به.

وقد اعترف الشيخ بهذا وأكد على استقلاليته.. وكان هذا أمرا طبيعيا بعد أن أصبح فعلا أكبر من الحركة وأى حركة.. وبعد أن أصبح قائدا فكريا وروحيا للملايين من أبناء العالم الإسلامى الذين ينتظرون رأيه ليس فى «عويص المسائل» ولكن فى كل ما يعن لهم من أمور دينية أو دنيوية أيضا.. مع ارتفاع حركة المد الإسلامى وتنامى تيارات الصحوة الإسلامية.

وأذكر أنى سألت د.القرضاوى ذات مرة عن سفره إلى الجزائر ومشاركته مع الامام الراحل الشيخ محمد الغزالى فى تأسيس جامعة الامام عبدالقادر

بالجزائر.. ومدى ارتباط الأمر بوجود أو علاقة الاخوان المسلمين فأجاب بوضوح شديد قائلا:

■ لا.. لا.. هذا الأمر لم يكن له علاقة بالإخوان، ولكن له علاقة بشيء مهم، وهو أن فضيلة أستاذنا الشيخ الغزالى - والفقير إليه تعالى «يقصد نفسه الشيخ القرضاوى» نمثل مدرسة متميزة فى فهم الإسلام، وهى المدرسة الوسطية، وهذا ما كانت تحتاجه الجزائر، فقد كانت تحتاج المنهج الوسطى بعيدا عن غلو الغالين، وتطرف المتطرفين، وبعيدا عن تسيب المتسيبين، وتحلل المتحللين من ناحية أخرى وهذا ما كان يحرص عليه الرئيس الشاذلى بن جديد حقيقة وهو ما همس به فى أذن الشيخ الغزالى من أول الأمر.. قال: نحن لا نريد الإسلام المتشدد ولا الإسلام المتحلل، نحن نريد الإسلام المعتدل، الإسلام الوسط. ومن أجل هذا دعى الشيخ الغزالى ودعيت أنا وليس لأننا من الاخوان المسلمين، ولم يكن هذا واردا ولكننا عرفنا بهذا الأمر وأنا أعتقد أن الشيخ الغزالى والفقير إلى الله تعالى اننا ندعى من كثير من البلاد بهذه الصفة، لا لأننا من الاخوان المسلمين بل إننا نذهب أحيانا إلى بلاد بينها وبين الاخوان المسلمين عداوات، وإنما عرفوا أن فلانا هذا وفلانا لهما توجه معين أصبح معروفا من كتبهم ومحاضراتهم وخطبهم ولقاءاتهم الصحفية، من أجل هذا نعامل هذه المعاملة.

واعترف د.القرضاوى بفك الارتباط مؤخرا فى حوار أجرته معه صحيفة المصرى اليوم فى ٨ رمضان ١٤٢٩هـ، ٨ سبتمبر ٢٠٠٨.. سئل فضيلته لماذا خرجت من عباءة الاخوان؟ وهل هذا يعنى خلافا غير ظاهر بينكما؟ أو عدم رضا عن أدائهم؟!

فأجاب: خرجت من تنظيم الاخوان المسلمين لأننى لا أريد أن أحصر جهودى فى جماعة معينة وأريد أن أخدم الأمة بأكملها ففى وقت من الأوقات عرضوا علىّ منصب المرشد العام للجماعة واعتذرت.. أفضل أن أكون مرشدا للأمة بدلا من أن أكون مرشدا لجماعة معينة لكننى أؤازرهم وأدعمهم وأنصحهم.

وعاب القرضاوى على الإخوان استغراقهم فى العمل السياسى.. وقال إنهم لم يعدوا العدة ليندمجوا فى الشعب كما يجب.. ولا فهموا احتياجات الشارع

كما ينبغى.. وانشغلوا بالسياسة. وانتقادى لهم من باب التقويم وأنا والحمد لله لا أميل إلى المغالاة ولا أرضى بالتفريط ولا بالتشدد.

باختصار: فإن الشيخ القرضاوى وإن بدا أخوانيا إلا أنه انتهى قرضاويا عالميا.. بفضل قوة شخصيته التى تستعصى على الذوبان ولا تقبل الانقياد الأعمى.. وبفضل تمكنه العلمى ورجاحة عقله وفكره وجرأته فى الحق.. وغيرته على الدين.. وطموحه الدائم الذى لم تحل دونه أى عوائق أو قيود.

رغم وضوح الرؤية ـ حتى على المستوى الدولى ـ ورفض كثير من المؤسسات الدولية الربط بين القرضاوى والاخوان ـ أو بمعنى أدق.. لا تتعامل معه من منطلقات أو مرتكزات أخوانية أو بنظرات حركة تنظيمية ـ إلا أن مصر أبت إلا أن تؤكد على اخوانيته وترفض الاعتراف بالخلع أو قل إن شئت بالطلاق البائن بينهما بينونة كبرى.. وظل لديهم محصورا فى خانة التصنيف الضيقة التى لفظها الرجل سرا وعلانية حتى بدا الأمر وكأن مصر ترفض كبار علمائها وأجلاءهم.. تقيد حركتهم وتضيق عليهم.. دون ادراك حقيقى لخطورة الأمر فى عالم لا يعرف الحدود ولا الرحمة أيضا.

ولابد من الاشارة هنا إلى أن الخروج من عباءة الاخوان والانطلاق نحو العالمية.. لم تكن حالة فريدة خاصة بالشيخ القرضاوى.. فقد فعلها أخ له من قبل.. الداعية الأجل الشيخ محمد الغزالى.. وقد كان خروجه من الاخوان وعليهم فى زمن المرشد العام المستشار الهضيبى.. نعمة كبرى للدعوة الإسلامية والفكر الإنسانى عموما.. فقد صال وجال وملأ الأرض علما ونورا.. ليس فى مصر وحدها بل فى العالم بأسره.

وكان من أثر هذه الانطلاقة أن شكل الشيخان أقوى رأس حربة فى ساحة الفكر الإسلامى.. وعلى نصليهما تحطمت الكثير من الدعوات الهدامة واندحرت وذوت كثير من الجرذان والأفاعى المتسربلين بالمدنية والحضارة الغربية والمتأسلمين الجدد الذين يحملون أسماء وصفات إسلامية ويضمرون أشد العداء للإسلام والذين آمنوا.. وأصبح الشيخ كما يقول المفكر الكبير المستشار طارق البشرى علامة على عصر وعلى مرحلة من مراحل الفكر الإسلامى فعلى أيديهما ارتأب الصدع الذى عانى منه فقه الإسلام وفكره على مدى قرن كامل.. فعلى مدى القرن الرابع عشر الهجرى الذى بدأ فى

ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادى نحو ١٨٨٣ عانى الفكر الإسلامى نوعا من الانفصام بين حركة التجديد وحركة المحافظة.. وكانت حركة التجديد تنشر وجوها لاستجابة الفكر الإسلامى لأنواع معاملات جديدة وأوضاع نظم اجتماعية وسياسية حادثة.. وتفتق حلولا لمشكلات طرأت لا تجد لها فى فكر السابقين حلولا جاهزة.. وكانت حركة المحافظة تنظر إلى الوافد الأجنبى من الغرب وأوروبا بقلق شديد ترى فيه فكرا يريد أن يجتث الأصول من ركائز الفكر الإسلامى التليد.. وترى فيه أنماط عيش وأوجه سلوك وأنواع معاملات تتعارض مع نظام الواجبات والمحرمات الإسلامية وتنجح فى تحديدها لهذا النظام وتعمل على توليد الاستهانة به.

وكما يرى المستشار طارق البشرى فإن الشيخ القرضاوى وقف مع الشيخ الغزالى على ملتقى البحرين.. بحر المحافظة.. وبحر التجديد.. وصار البحران بحْرا واحدا.. وصار المجدد هو من يدافع عن الأصول ويذود عنها وصارالمحافظ هو من يتوسل بالتجديد لصيانة الوجود والبقاء.. والفكر الإسلامى بهذا صار أحصن وأمنع.. كما صار أحيا وأزهر مما كان فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة.



مع خالد مشعل
رئيس المكتب
السياسى
لحركة حماس



.. وإسماعيل هنية رئيس الحكومة الفلسطينية المقالة

◆ الفصل الأول

الرحلة مع الإخوان

رغم أن الشيخ القرضاوى تربى فى مدرسة الإخوان.. إلا أنه تخرج منها وتحول إلى جامعة بحد ذاته وبالتالى فإنه تجاوز انتماءه إلى الحركة.. وانحاز إلى انتمائه للأمة.. ورغم اعتزازه بخلفيته وتجربته فى صفوف الإخوان إلا أنه اعتبر تلك التجربة مرحلة فى حياته أسهمت فى تأسيسه لكنها لم تستوعبه أو تستول عليه، على حد تعبير الكاتب الصحفى الكبير فهمى هويدى، فقد تعامل الشيخ مع الحركة الإسلامية باعتبارها وسيلة وليست غاية وبابا لخدمة الاسلام لا يصادر أبوابا أخرى توصل إلى الهدف ذاته..

لقد رفض القرضاوى بشدة وكان حريصا على ألا يذوب فى جماعة الاخوان واحتفظ بشخصيته المستقلة القوية دون أن يخالف المبدأ العام فى الولاء للجماعة وشعارها الرئيسى.. وقد ساعده فى بناء هذه العلاقة ودعم هذا التوجه القرضاوى الخاص قدرته المذهلة على تحديد موقعه المناسب له فى الحركة وتطوير هذا الموقع وفق تطوره الشخصى وبحيث يتناسب مشروعه الخاص مع مشروع الحركة العامة.. مبكرا حدد القرضاوى موقعه فى الحركة واختار أن يكون عمله فيما يتصل بتخصصه ومجال اهتمامه ونبوغه.

وللرجل قدرة تثير الإعجاب على أن يحدد وبدقة متى يبدأ التنظيم والعمل التنظيمى ومتى ينتهى فى حياته وأين يلتقى معه وأين يبتعد عنه.. وهو قادر على استشعار التغيرات التى تطرأ والتى يجب أن تتم على علاقته بالتنظيم حضورا وغيابا قربا وبعدا.. على حد تعبير حسام تمام فى سلسلة مقالاته على موقع الشهاب للاعلام على الانترنت «قراءة فى جدلية الشيخ والحركة»..

لذا لم يتردد الرجل الذى بدأ حياته فى جماعة الاخوان واعتقل بسببها مرتين أن يرفض منصب المرشد العام مرتين.. احداهما وهو فى مقتبل حياته الدعوية وقبل أن يسطع نجمه.. لقد رفض منصب المرشد حين عرض عليه عام ١٩٧٦ الذى خلا بعد وفاة المرشد الثانى القاضى المستشار حسن الهضيبى.. وبقيت الجماعة مدة عامين من دون مرشد.

لقد أدرك القرضاوى مبكراً أن موقعه الصحيح لخدمة دعوته وفكرته ليس فى العمل التنظيمى بالجماعة حتى وإن كان فى قمة هرمه منصب المرشد فكتب رسالة إلى الدكتور محمود أبو السعود عضو الهيئة التأسيسية الذى تولى عرض المنصب عليه قائلا: إنى اعتقد أن من مصلحة الدعوة التى أنتمى إليها ومصلحة الاسلام عامة الذى نذرت نفسى لخدمته: أن أظل مشتغلا بالعلم وبالبحث، لإتمام ما عندى من مشروعات علمية أراها مهمة ونافعة إن شاء الله.

وقد أتيح لى الآن - من خلال موقعى ومعرفة الناس بى - أن أتصل بالجمعيات العلمية فى مؤتمرات عربية وإسلامية وعالمية شتى. ومن الخير أن يستمر هذا بعد أن فرضت على العزلة مدة طويلة فى مكان قصى منعزل.

إن جماعتنا لم تخل - ولن تخلو إن شاء الله - من الكفايات القادرة على قيادة السفينة بقوة وأمانة، ولن تعدموا «القوى الأمين» أو «الحفيظ العليم» فى صفوف الحركة، بعون الله.

ثم عاد وجدد الرفض مرة ثانية بعد وفاة المرشد الخامس مصطفى مشهورحين عرض عليه الهضيبى التنازل عن المنصب إذا ما قبل قيادة الجماعة، واعتبر الشيخ القرضاوى وقتها أنه قد صار ملكا للأمة كلها بما يمنعه من أن يحصر نفسه فى جماعة أو تنظيم ولو كان بحجم وانتشار وتأثير الإخوان المسلمين.. ولم يكن الشيخ القرضاوى يقارب الأمر من منطق برجماتى بقدر ما كان يقدر بدقة موقعه المفترض من الجماعة ويستشعر التغيرات التى تطرأ عليه وتلزمه.

وقد استطاع الشيخ القرضاوى الانتقال فى علاقته بالتنظيم من موقع التبعية أو الانضباط التنظيمى إلى لعب دور الإلكترون الحر الذى ينتمى إلى الحركة ولكن دون أن يقع أسير منطقها التنظيمى، لذا فقد ظل الجميع

يعرفون الشيخ القرضاوى كواحد من جماعة الإخوان دون أن يسألوا عن موقعه التنظيمى أو وضعيته قبولا ورفضا من قيادة التنظيم.. ومع الزمن صار مثل هذا التساؤل يقابل بسخرية إما لأن الإجابة عنه تبدو بدهية أو لأنها صعبة.. لذلك تحول الشيخ القرضاوى إلى مرشد لأبناء الجماعة وجمهورها دون سؤال منهم عن موقعه التنظيمى داخلها.

كما امتلك الشيخ كذلك القدرة على تجاوز الإطار التنظيمى وعقباته ولكن دون الوقوع فى مأزق الاضطرار للخروج عليه ومن ثم الاصطدام به، فهو استطاع انجاز انتقال هادىء من المركز إلى التخوم ومن التخوم إلى خارج التنظيم بتدرج ودون صدام، لذلك لم يعرف عنه خروج تنظيمى رغم أنه حدث، ولم يتطرق جمهور الإخوان إلى السؤال عن علاقته بالتنظيم رغم أنه خارج التنظيم فعلا، بل وربما اكتشف الإخوان - فيما بعد - أنه من الأفضل عدم إثارة هذا السؤال الذى يسىء لمن يطرحه ولن يترتب عليه أى فعل أو موقف من الرجل إيجابا ولا سلبا.

لقد أدى امتلاك الشيخ القرضاوى لهذه القدرة فى صياغة علاقة خاصة مع التنظيم إلى تجاوزه الإطار الإخوانى تنظيما وحركة إلى مواقع أخرى لم تكن مفتوحة فيما قبل أمام المدرسة الإخوانية مثلما هو الحال مع تيار السلفية الإصلاحية، فصار الشيخ القرضاوى مقبولا بل وأحيانا مرجعا معتمدا لدى تيار السلفية الإصلاحية فى السعودية ودول الخليج، وصارت بينه وبين رموزها صلات قوية كما هو الحال مع الشيخ سلمان بن فهد العودة وسفر الحوالى وعائض القرنى.. ربما لم يحدث هذا مع شيخ «إخوانى» غير القرضاوى، وهو عكس ما جرى - مثلا - مع الشيخ محمد الغزالى رغم وحدة الفكر التى تجمعهما حتى التطابق. ولم يكن مرد الأمر إلى حدة الغزالى وقسوته فى نقد السلفية بما جر عليه خصومات وأشعل بينه وبينها المعارك، بل لقدرة خاصة لدى الشيخ القرضاوى فى إدارة العلاقة مع الفاعلين الإسلاميين بما يجعله قادرا ليس فقط على تجاوز الانتماء التنظيمى وما قد يترتب عليه من إشكالات بل وتجاوز الانتماء الفكرى والمذهبى بما يسمح له بتجاوز مظلته التنظيمية والحركية لمخاطبة آخرين من خارجها.

مع الإخوان:

إذا كانت علاقة الشيخ القرضاوى مع الاخوان الآن ملتبسة.. ولا يعرف الكثيرون من الأجيال الجديدة شيئا عن انتمائه إلى الجماعة.. إلا أن بداياته الأولى كانت واضحة تماما سواء بالانتساب أو بالعضوية العاملة والفاعلة معا.. وقد اعترف بذلك صراحة وسجله فى سيرة حياته الذاتية بوضوح.. واعتبر أن انضمامه للاخوان من بين الأحداث المهمة التى وقعت فى مقتبل حياته وهو بالسنة الرابعة الابتدائية يقول: «فقد دعانى بعض شباب الاخوان المسلمين إلى القاء قصيدة فى افتتاح الموسم الثقافى بدارهم قرب ميدان الساعة بعد أن ذاع صيتى بين طلاب المعهد بقول الشعر.. وفعلا أعددت قصيدة قافية القافية.. وألقيتها بالدار وكان لها وقع طيب فى نفوس الاخوان ولاسيما الشباب ومطلعها:

قلبى يحس برحمـــة تتدفق ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا
وكأن أحمد والصحابة أقبلوا فرحـــاً بنا قد باركوا وتحلقــوا

ولم يضيّع الإخوان الفرصة واغتنموها جيدا كعادتهم فى صيد كل ثمين والحفاظ عليه.. واحتضان النوابغ وأصحاب المواهب منذ بداياتهم إلى جانب العناصر الأخرى الكفيلة بتوفير الحماية وضمان استمرارية التأهيل والولاء والانخراط فى دم ولحم الجماعة.. وقد سأل أعضاء الاخوان فى طنطا فى تلك الليلة القرضاوى الطالب: لماذا لا تنضم إلى الاخوان؟ فأجابهم: وكيف ينضم المرء إلى الاخوان؟ فقالوا: تملأ استمارة انضمام إليهم فتصبح بذلك واحداً منهم فقلت لهم: هاتوا لى استمارة وأنا أملؤها فى الحال..

وعلى ما يبدو فإن الشيخ القرضاوى لم يكن محتاجا إلى مثل هذه الاستمارة ليصبح اخوانيا.. فقد انضم إليهم بقلبه ووجدانه قبل أن يعرضوا عليه الأمر رسميا ليدون فى السجلات الاخوانية.. «فالواقع إنى أعد نفسى واحدا من الاخوان وإن لم أكتب هذه الاستمارة.. منذ سمعت المرشد العام الاستاذ حسن البنا رحمه الله فى السنة الأولى».

وملأت الاستمارة وأصبحت من ذلك الوقت عضوا رسميا فى الاخوان وقالوا لى يمكن أن تمارس نشاطك فى قسم الطلاب بوصفك طالبا فى المعهد.. وكان

رئيس قسم الطلاب شابا ذكيا نشيطا اسمه ابراهيم مصطفى على وقد بدأت ألتقى به.. وأتلقى منه التعليمات» (ص١٧٨ ج١) «ابن القرية والكتاب»

وكان لدار الاخوان بطنطا تأثير كبير فى بداية حياة الشيخ فقد كانت نقطة ارتكاز للقاء والتعارف والتى اكتسب منها الأصدقاء ورفقاء الدرب.. وكانت تعرف أيضا بشعبة الاخوان.. وهى مقر اللقاء الفكرى فى المساء بعد انتهاء الدراسة فى المعهد صباحا..» وفى دار الاخوان التى تجمعنا فى المساء وخصوصاً يومى الخميس والجمعة.. تعرفنا - يقصد هو وصديقه محمد الدمرداش - على عدد من الطلاب منهم محمد الصنطاوى وسعد الدين العراقى وعبدالعزيز الزير وغيرهم..»

حسن البنا

تأثر الشيخ القرضاوى كثيرا بشخصية مؤسس جماعة الاخوان الشيخ الامام حسن البنا منذ بواكير حياته.. شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أبناء المجتمع المصرى وقد نجحت الكاريزما الخاصة للامام إلى جانب المنهج الخاص للجماعة فى تدعيم مركزها ونشر أفكارها ومبادئها وفى جذب المزيد والمزيد من الأتباع والمؤيدين وكان الاخوان يستمدون التأييد الشعبى ـ فى الفترة الأولى ـ من الطلبة والموظفين المدنيين والحرفيين وصغار التجار والفلاحين الذين هم من الطبقات المتوسطة والفقيرة (الاصولية الاسلامية فى العصر الحديث. دليب هيرو ص١٢٠)

وبالفعل أحدثت كلمات الشيخ البنا وصيحات شباب وفرق كشافة الإخوان زلزالا فى نفس القرضاوى الصغير ومنذ عامه الدراسى الأول فى المرحلة الابتدائية..

يروى أنه فى السنة الأولى الابتدائية وقعت له حادثتان مهمتان: الثانية هى وفاة أمه.. أما الأولى: فهى الاستماع إلى الشيخ حسن البنا.. وكان شديد الحرص على الاستماع إليه وحضور لقاءاته وهو فى هذه السن المبكرة.. وكان من المقرر أن تعقد جماعة الاخوان احتفالا دينيا كبيرا فى طنطا بمناسبة الاحتفال بالهجرة النبوية الشريفة فى أوائل المحرم.. ويحكى القرضاوى هذه الواقعة ليلة الاحتفال: وفى ليلة من الليالى قال لى ابن عمتى سنتركك تنام

ونذهب لسماع الشيخ حسن البنا فى احتفال الهجرة قلت لابن عمتى: ولماذا لا أذهب معكم؟

قال: أنت صغير ومثل هذه الاحتفالات تطول وتمتد..

قلت: ولكنى حريص على الاستماع إلى الشيخ البنا.. ولا أريد أن أحرم منه.

قال ابن عمتى لأصحابه من طلاب الثانوى الكبار من أبناء قريتنا.. الولد مُصرّ على المجىء لسماع الشيخ.. فقالوا له: دعه يحضر فلعله يسمع شيئا ينفعه فى المستقبل.

وذهبت معهم إلى شعبة الاخوان قرب «ميدان الساعة فى طنطا» وتكلم كثيرون قبل الشيخ البنا ومنهم شعراء وخطباء مؤثرون.. ثم كانت كلمة الختام للشيخ البنا الذى انتظره الناس بفارغ الصبر.. كما ينتظر الظمآن الماء والسقيم الشفاء..

وأعجب القرضاوى بحديث البنا أيما اعجاب وملك عليه عقله وفكره وقلبه.. وتأكد بالفعل فى تلك الليلة أنه يسمع إلى عالم مختلف.. عما اعتاده وسمعه من شيوخ وخطباء وأئمة ورؤى جديدة لأحداث التاريخ الاسلامى.. وقراءة للواقع المعاصر والخلل الذى أصاب الأمة.. ورجع من الاحتفال وهو أشد حرصا على الاستماع للبنا والانتظار لأى مناسبة يأتى فيها إلى طنطا.. وهى الحقيقة التى أكدها لابن عمته وزملائه بعد عودتهم من الاحتفال.. خاصة حين أرادوا اختباره ومعرفة مدى استيعابه لحديث الامام البنا وهو حديث السن فأبهرهم عندما أجاب عن سؤالهم: ماذا فهمت من الشيخ البنا؟

فقال لهم: «لقد قال الرجل كذا وكذا وكذا.. وسردت عليهم حديث الرجل مفصلا.. فعجبوا من ذلك.. وقالوا ما شاء الله: لقد حفظ الولد حديث الشيخ ووعاه كأنما يقرؤه من كتاب»..

وقبل انبهار القرضاوى بحديث البنا وخطبه.. كان مبهورا ومعجبا بجماعة كشافة الاخوان.. الذين يجوبون شوارع طنطا حاملين مصحفا كبيرا ورافعين أعلامهم التى تشمل على صورة مصحف يحوطه سيفان.. كما يحمل كلمة «وأعدوا» إشارة إلى قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وكانوا يهتفون بهتافات حارة ومؤثرة

تقول: الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا.. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. عليها نحيا.. وعليها نموت.. وفى سبيلها نجاهد حتى نلقى الله.. الله أكبر.. الله أكبر ولله الحمد».

«رأيت هؤلاء الشباب فى زيهم الكشفى وهنافهم الحماسى.. فتأثرت بهم وأعجبت بتوثبهم ووهج عيونهم.. واهتز قلبى بصيحاتهم المخلصة.. كما استمعت بعد ذلك إلى شيخهم ومرشدهم..»

ويعترف القرضاوى بأن «أعظم الشخصيات أثرا فى حياتى الفكرية والروحية هى شخصية الشهيد العظيم حسن البنا.. مؤسس كبرى الحركات الاسلامية الحديثة هذا مع أننى لم أعايشه كما عايشه غيرى.. فقد كان رضى الله عنه فى القاهرة وكنت فى طنطا طالبا.. ولكنى استمعت إليه فى طنطا عدة مرات ورحلت وراءه إلى بعض البلاد لأراه وأستمع إليه.. كما قرأت تقريبا كل ما كتبه من رسائل ومقالات»..

ويصف انطباعاته عن البنا بالقول: «كان رحمه الله فى حديثه إذا تحدث وفى كتاباته إذا كتب يمثل السهل الممتنع.. ويؤثر فى العقل والقلب معا فهو معلم وواعظ بالفطرة الموهوبة والدربة المكتسبة..

وصف الشيخ القرضاوى بداية علاقته بالامام حسن البنا بالعاشق المتيم وأنه وقع فى حبه من أول كلمة.. قال فى هذا الشأن: «وأعجبت بشخصية الرجل وملك حبه قلبى.. واذا كانوا فى عالم العشاق يتحدثون عن الحب من أول نظرة ففى عالم الدعوة يمكن أن نتحدث عن الحب من أول كلمة»..

لقد تعلق فؤادى بحسن البنا.. تعلق المريد بالشيخ والتلميذ بالاستاذ والجندى بالقائد.. وإن كنت لم أصبح جنديا فى جماعته إلا بعد ثلاث سنوات ولكننى كنت أترقب قدومه إلى طنطا لأسعى إلى الاستماع إلى حديثه المتفرد وقد جاء مرة إلى طنطا لاحياء ذكرى الاسراء والمعراج.. وسمعت منه ما لم أسمع من غيره فى هذه المناسبة.. وأهم مانبه عليه فيها: التذكير بقضية المسجد الأقصى منتهى رحلة الإسراء.. ومبتدأ رحلة المعراج وواجب الأمة المسلمة نحو مقاومة المشروع الصهيونى.. وقد كان الرجل من القلائل الذين أدركوا خطر الصهيونية.. وحذروا منه وأنذروا فى

وقت مبكر.. وكان يعيش فى قضية فلسطين أو قل تعيش فيه قضية فلسطين.

كان القرضاوى تواقا إلى لقاء الامام حسن البنا حيث كان الامام فى القاهرة وهو فى الغربية يقول القرضاوى: «وكم تمنيت أن أستمع إليه ـ ولو مرة واحدة ـ في حديث الثلاثاء، الذى يلقيه فى المركز العام للإخوان، فى معظم أيام السنة، ولكنى لم أظفر بذلك، ولا مرة واحدة. حتى المرات التى كنا نسافر فيها مجانا ـ نحن طلاب المعهد الدينى ـ لم نصادف فيها حديث ثلاثاء، إما لأن الدرس كان متوقفا فى تلك الفترة لأسباب ما، وإما لأن اليوم لم يكن يوم ثلاثاء، ولا يمكننا البقاء فى القاهرة إلى الثلاثاء المقبل، ونحن غرباء.

فلم يبق لى سبيل إلى لقاء الشيخ والاستمتاع بحديثه وتوجيهه وفكره إلا بحضوره هو إلى طنطا، أو بعض المدن الأخرى القريبة.

ومن المرات التى حضرها إلى طنطا، وألقى فيها أكثر من حديث، منها حديث مع المعلمين، وحديث مع الطلاب، وقد أوصانا فى هذا اللقاء بوصايا ثلاث: الاجتهاد فى العلم، والاستقامة فى الدين، والمحبة بيننا.

ومن المرات التى زار فيها طنطا، حين اشتعال قضية فلسطين، والتنادى بالجهاد، وتخاذل الحكومات العربية، وقال: ليتهم يمدون أهل فلسطين بالمال والسلاح والمتطوعين، ويكفون أيديهم عنهم.

وفى هذه الزيارة ألقيت قصيدة بين يديه فى مدحه، وما مدحت أحدا من الأحياء غيره، وقد وقعت منه موقع الرضا والاستحسان، وأحسبه قال: إنه لشاعر فحل، أو شاعر مطبوع، لا أذكر تماما، وقد أخذ القصيدة منى سكرتيره الأستاذ سعد الدين الوليلى، الذى كان يرافقه باستمرار غالبا، ولم تكن عندى منها نسخة أخرى، ولكنى كنت أحفظ أكثرها، وحين أراد الأخ الحبيب حسنى أدهم جرار: جمع ما تيسر من شعرى، أمليت ما أحفظه عليه منها، ونشرت بعنوان: «يا مرشدا قاد بالإسلام إخوانا» فى ديوانى «نفحات ولفحات».

وأذكر من تعليقاته على بعض الأبيات التى قلتها:

أردت تجديد صرح الدين إذ عبثت
به السنون، فهدت منه جــــدرانا
فمــا وهـت منه أحجــار ترممـه
ومـــــا هـــى أســـه تبنيــه بنيــانا
ترسى الأساس على التوحيد فى ثقة
وترفع الصـــــرح بالأخلاق مزدانا
حتى بلغت الأعالى مصلحا بطـــلا
تطل من فوقها كالبـــدر جـــذلانا
وثلة الهــدم فى الســفلى مواقعهم
صبوا عليـك الأذى بغيــا وعدوانا
ترميــك بالإفــك أقــلام وألســـنة
خانت أمانتهـــا يا بئس من خــانا
كذلك لابـد للبنـــاء مـــن حجــر
يصــيبه أو يصــيب الطـين أردانا
قال البنا معلقًا: يارب سلم
آذوك ظلما، فلم تجـز الأذى بأذى
لكن جعلت جزاء السوء إحســانا
فكنت كالنخل يرمى بالحجارة من
قوم، فيرميهمـــو بالتمــر ألــوانا
قد أوســـعوك أكـاذيب ملفقـــة
وأنت أوسعتهم صفحا وغفــرانا
ومن تكن برســـول الله أسـوته
كانت خــلائقه روحــا وريحــانا

وقد تابع القرضاوى البنا فى رحلاته فى عدة مدن بالمحافظات فى المنوفية والغربية وكفر الشيخ يقول: ومن البلاد التى ذهبنا إليها وراء حسن البنا: كفر

المصيلحة، بجوار مدينة شبين الكوم، ذهبت فى فرقة الجوالة، بلبس الجوالة، وتحدث الأستاذ فى ذلك الحفل الكبير ـ على عادته ـ حديثا جامعا استشهد فيه بالشعر كثيرا.

وبتنا هناك، وكانت الليلة جمعة، ففى اليوم التالى خطب الأستاذ خطبة الجمعة فى «المسجد العباسى» وتحدث فيها عن هدفين أساسيين يجب أن تنصب جهود العاملين عليهما، وهما: الفكرة الإسلامية، والأرض الإسلامية، ولابد أن يكون أكبر همنا: تحقيق الفكرة الاسلامية، وتحرير الأرض الأسلامية.

وعدنا بعدها إلى طنطا.

وفى إحدى المرات بعد زيارته إلى طنطا، كانت رحلته إلى مدينة «كفر الزيات» من مراكز الغربية، وقد خطب فيها الجمعة، وترك الحديث بعد الجمعة للشاب الداعية المتألق محمد فتحى عثمان، الذى كان يصحبه فى هذه الرحلة، والذى كانت كلمته موضع القبول والرضا من الحاضرين.

وكان الأستاذ البنا يصطحب بعض هؤلاء الشباب النابهين ليدربهم من ناحية، وليبرزهم للناس من ناحية أخرى. وكان فتحى عثمان صاحب لسان وقلم، فهو خطيب مفوه، وكاتب بارع. كما أنه مترجم من الطراز الأول، فقد بعثه الأستاذ المرشد العام يوما مع السيد «عليم الله الصديقى» وهو داعية باكستانى يتكلم بالإنجليزية ولا يحسن العربية، فكان الذى يترجم له فتحى عثمان الذى أسر الحضور بحسن ترجمته، وحلاوة بيانه، الذى يرتجله.

ومن المرات التى سافرنا فيها، لنحظى بالسماع للأستاذ البنا: سفرنا إلى مدينة «سوق» ونظرا لثقل تكاليف الرحلة علينا، فقد قررنا أن نسافر بقطار الدلتا لرخصه، وإن كان بطيئا، وركبنا الدلتا، أنا والعسال والدمرداش، ووصلنا إلى دسوق، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوى. وكان مع الأستاذ زوج ابنته الداعية المحبوب المعروف الأستاذ سعيد رمضان، وقد ألقى كلمة موفقة قبل كلمة الأستاذ، كما تكلم الدكتور القاضى رئيس الإخوان فى دسوق، ثم تكلم الأستاذ فأفاض وأبدع، كما هو المعتاد.

وبتنا فى دسوق ضيوفا على الإخوان، ثم عدنا فى اليوم التالى إلى طنطا.

ومن أهم المرات التى لقيت فيها الأستاذ المرشد حسن البنا: مرة زيارته للمحلة الكبرى، قادما من زفتى.

وقد أقيم له سرادق كبير، دعى إليه جمع غفير من المحلة ومما حولها من البلدان وقد تحدث بعض الإخوة، ثم كان حديث الأستاذ فى الختام.

وفى أثناء حديث الأستاذ حدث هرج ومرج، استطاع الأستاذ معه أن يسيطر على الموقف بسرعة، ويمتلك قلوب الحاضرين.

ذلك أن جماعة من الحزبيين بالمحلة أرادوا أن يفسدوا حفل الإخوان، بافتعال معركة مع الإخوان، وبمجرد حدوث ضجة سينفرط العقد، ويختل النظام، ويهيج الناس، فينفض الحفل لا محالة.

هكذا خطط المخططون، وكاد الكائدون، ولكن الله رد كيدهم فى نحورهم، فقد تجمعوا يحملون عصيهم وهراواتهم، واقتربوا من الحفل وهم يهتفون هتافات معادية، وكانت الخطة أن يصلوا إلى السرادق، وهم يرددون هتافاتهم متحدين للإخوان، فيرد عليهم الإخوان بهتافات ضد هتافاتهم ويصطدم الفريقان، وبمجرد أن يحدث الاحتكاك، سيحدث الاختلال.

وقد كادت الخطة تنجح لولا موقف الأستاذ البنا، الذى أحس بأن شيئا بالخارج يحدث، فقال للحاضرين: أيها الإخوة، الزموا أماكنكم، فوالله ما نريد بأحد سوءاً، ولكنا نريد لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها، وأن تتوحد من فرقتها، وأن تعتصم بحبل الله جميعا ولا تتفرق وارتفع صوت الأستاذ، وهو يقول بلهجة ثائرة لم أره ثار مثلها من قبل: إننا أقوياء بالله فلن نضعف أبدا، أعزاء بالله فلن نذل أبدا، أغنياء بالله فلن نفتقر أبدا، إننا نريد أن نؤدب الأمة بأدب جديد هو أدب الإسلام، وأن نربيها على خلق الإسلام، وأن نقودها بمنهج الإسلام، لتسير خلف أعظم قائد، وأشرف قائد، محمد عليه الصلاة والسلام.

هذه الكلمات الثائرة، التى انطلقت من فم حسن البنا كأنها القنابل فى دويها، كانت بردا وسلاما على سامعيها، شدتهم إلى الرجل شدا، وأسرتهم أسرا، وبقى كل واحد فى موضعه لم يتحرك يمنة ولا يسرة.

فى هذه الحالة، كان جوالة الإخوان قد أنهوا تلك الحركة المشاغبة، وفرقوا جمعهم، وأمسكوا ببعضهم، وولى الآخرون هاربين.

وهنا عاد الينا يقول: كنا نتحدث عن كذا وكذا، كأن شيئا لم يكن، وانتهى الحفل على خير حال.

وذهب الأستاذ بعد ذلك إلى دار الإخوان ليلتقى بنواب الشعب، ثم بالعمال، ثم بالطلاب، وظل فى اجتماعات إلى أن بقى على الفجر حوالى ساعة، فقال: أستأذنكم لأستريح هذه الساعة. ودخل حجرة ليستريح. وبعد ساعة، وجدناه خارجا، فلا أدرى هل نام هذه الساعة أو لم ينم؟ الذين عايشوه قالوا: إنه إذا أراد أن ينام نام، وكان يقول: إذا أحب الله عبدا سخر له النوم!

وجاء الفجر فصلى بنا، وقرأ سورة «ق» فى الركعتين.

وبعد ذلك أخلدنا نحن إلى النوم، ولا ندرى ماذا فعل الشيخ بعد ذلك.

وعندما استيقظنا فى الضحى، علمنا أن الشيخ مدعو إلى قرية «محلة أبو على» بجوار المحلة، لتناول الغداء فيها، ثم إلقاء محاضرة فى أحد مساجدها.

ومن هنا سافرت إلى مجلة أبو علي لألتقى بأصدقائى فيها، ولننتظر الشيخ هناك، وأتناول الغداء معهم فى بيت الأخ الصديق السيد الغضبان، الذى كثيرا ما كنت أبيت فى منزله إذا كنت فى محلة أبو على أو عند الشيخ مصباح عبده، وقد صلينا العصر فى المسجد العباسى مع الأستاذ المرشد، وألقى محاضرة بعد العصر، نوه فى مقدمتها بعلماء البلدة ودعاتها، مثل الشيخ أحمد القط.

وبعد انتهاء المحاضرة ودع الشيخ إخوانه ومضيفيه فى محلة أبو على، ليولى شطره نحو مدينة «بلقاس»، وهى آخر محطة فى هذه الرحلة الدعوية، ليعود من جديد إلى القاهرة، ليستعد لرحلة أخرى، فهكذا هو أبدا، حل وارتحال، وحركة وانتقال، وقد سمعته مرة يقول: نحن كالعرب أصحاب الخيام:

ذكاء الإخوان

والحقيقة أن جماعة الاخوان نجحت فى استغلال الأزمة التى يمر بها العالم الإسلامى.. وحالة الصراع الداخلى فى مصر.. والتوجهات العالمية ضد الدين فى تلك الفترة لتحقيق شعبية كبيرة.. واستقطاب جماهيرى أكبر.. خاصة عند العزف على أوتار القضايا الإسلامية الكبرى.. مثل ضياع القدس.. ومحاربة الدين بصفة عامة.. وكان الشيخ حسن البنا واعيا ومَدركا

لحقيقة ما يجرى على الساحة وأسباب حالات الجيشان والاضطراب الفكرى والعاطفى نحو الدين فى تلك الفترة.

فقد أرجع حسن البنا السبب فى ذلك الجيشان والاضطراب إلى التنافر والشقاق والنزاع بين حزبى الوفد والاحرار الدستوريين وإلى المناقشات السياسية الصاخبة التى تفجرت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ علاوة على الاتجاهات نحو الارتداد عن الدين التى كانت تجتاح العالم الإسلامى آنئذ بالاضافة إلى الهجوم على التقاليد والاتجاهات القويمة الراشدة من جانب ثورة كمال أتاتورك فى تركيا وأيضا تلك الاتجاهات غير الإسلامية والعلمانية والليبرالية التى سادت الدوائر الاكاديمية والثقافية فى مصر.

ونتيجة لهذه الفوضى العارمة أوضح حسن البنا أن الشباب المصرى يرث دينا فاسدا ويتشرب الشكوك والحيرة.. ولذلك بدأ يلقى المحاضرات ويفتح باب المناقشات فى الأماكن العامة ثم شرع فى إنشاء جماعة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٢٨ على هيئة نادى للشباب يركز أساسا على الاصلاح الاخلاقى والاجتماعى من خلال الاتصالات والإعلام والدعاية.

وقد استفادت الجماعة أيضا فى تعزيز مكانتها وشعبيتها من حالة الضعف التى اعترت المؤسسة الدينية الرسمية.. وتراجع دورها القيادى فى الأمة كأحد أبرز العناصر المحركة والموجهة للرأى العام خاصة فى القضايا القومية الكبرى.. فضلا على القضايا ذات الصبغة الدينية أساسا.

وكان حسن البنا يسير فى خط متوافق تماما مع الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا الذين كانوا يؤمنون بحركة الاصلاح.. وكان حسن البنا ضد تقليد العلماء الدينيين أو السير وفقا لأسلوبهم فى معالجة الأمور.. وكان يحب الإجراءات التى تضمن تحقيق أكبر قدر من الصالح العام.. وكان يحب الاجتهاد في الإسلام الذي يعتمد علي التفكير المنطقى السليم وكان يرى انه ينبغى تطبيق الاجتهاد حتى يمكن للاسلام مواجهة مشكلات العالم الحديث.. ولكنه كان يختلف مع زعماء الاصلاح السابقين عليه فيما يتعلق بالوسائل التى ينبغى استخدامها لتحقيق قيام الدولة الإسلامية..

فالأفغانى كان يقتصر على كتابة النشرات والكتيبات التى تناشد الحكام المسلمين والمثقفين المسلمين بالاتحاد ضد الكفار.

ومحمد عبده قد ركز على الاصلاح الدينى واصدار الفتاوى.

ومحمد رشيد رضا.. استخدم جريدة المنار من أجل تدعيم ونشر إيديولوجية السلف الصالح، بالإضافة إلى اللجوء إلى أعمال اجتماعية وسياسية لها طابع شعبى بهدف احياء الدولة الإسلامية.

أما حسن البنا فإنه هو الذى قام بإنشاء حزب جماهيرى سياسى وذهب فى تقديراته إلى أن الهدف الرامى إلى إعادة خلق الدولة الإسلامية يمكن أن يتحقق فى نطاق الاطار الدستورى الموجود بالفعل.. فالحكومة الحالية عليها فقط ان تعترف بالشريعة الإسلامية كمصدر أعلى للقانون ونبذ القوانين الأوروبية المستورة التى أدت إلى تقويض وهدم أسس النظام الإسلامى.

ولعل الاهتمام الكبير بالقضايا الكبرى والتأكيد على الإسلام الشامل والقائد والقومية هو الذى أغرى شيخنا القرضاوى بالاستسلام التام فى أحضان الاخوان طائعا مختارا.. محبا مخلصا صادقا.. وقد تجلى ذلك بوضوح فى حديث الشيخ القرضاوى عن لقاء البنا مع الجماهير ضمن سلسلة مؤتمرات الاخوان فى عواصم المديريات لشرح الاهداف الوطنية التى هبت الأمة- بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية- للمطالبة بها.

قال القرضاوى واصفا اللقاء: «على أن أعظم زيارة لمدينة طنطا.. تجلت فيها عبقرية حسن البنا وتحدث فيها فأبلغ وأبدع وأشبع.. كانت حين عقد المؤتمر العام للاخوان المسلمين لشرح المطالب القومية.

أقيم سرادق كبير فى ميدان البلدية بطنطا حضره جمع غفير من أبناء طنطا واخوان الغربية من مراكزهم المختلفة.. وتحدث فيه عدد كبير من خطباء الاخوان منهم الاستاذ أحمد السكرى وكيل الاخوان.. والاستاذ نصيف ميخائيل وهو باحث قبطى كان الاستاذ البنا يصطحبه فى مؤتمراته المختلفة ليتحدث عن قضية قناة السويس وحق مصر فيها وهو من المتخصصين فى هذا المجال الذى يهتم به البنا ويعرف قيمته.. وكان يهدف بهذا إلى تجميع عنصرى الأمة من المسلمين والاقباط لمواجهة الاستعمار البريطانى.. وقطع الطريق على الذين يصطادون فى الماء العكر.. ليفرقوا بين أبناء الشعب الواحد واشعال نار الفتنة الدينية (الطائفية) بينهما.. وكان الأستاذ البنا على وعى بألاعيب الاستعمار الذى جعل شعاره «فرق

تسد» فكان على صلة حسنة بزعماء الاقباط حتى أشرك بعضهم فى اللجنة السياسية للاخوان.

وبعد أن تحدث الخطباء والشعراء جاء دور الإمام البنا.. الذى انتظرت الجموع الحاشدة كلمته بفارغ الصبر وشديد الشوق.. وقام حسن البنا ليعلن أنه سيتحدث فى أمور ثلاثة.. قضيتنا.. وسيلتنا.. دعوتنا.

أما قضيتنا فأقصد بها الوطن الصغير والكبير والأكبر.

وبين ما يريد بالوطن الصغير.. وهو وادى النيل بشماله (مصر).. وجنوبه (السودان) وقال: إنه يعد مصر هو السودان الشمالى.. والسودان هو مصر الجنوبية.. وحدد الهدف القومى بالنسبة لهما فى أمرين: الجلاء التام (أى جلاء جيش الانجليز) عن وادى النيل كله براً وبحرا وجوا.. وتركه لأهله يحكمونه كما يشاءون.. ووحدة هذا الوادى تحت علم وملك واحد.. وحدة سياسية واقتصادية وثقافية وتعليمية..

أما الوطن الكبير فيشرحه البنا بأنه الوطن العربى من الخليج الفارسى إلى المحيط الاطلسى ولم يكن مصطلح الخليج العربى قد ظهر بعد.

وكان كلام البنا - يقول القرضاوى - أول كلام محدداً عرّف به حدود الوطن العربى.

وأما الوطن الأكبر فهو الوطن الإسلامى من المحيط إلى المحيط أى من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى أو من جاكرتا على المحيط الهادى إلى رباط الفتح على المحيط الاطلسى وكان هذا أول تحديد للوطن الإسلامى أسمعه.. ولهذا تحدث عن اندونيسيا وضرورة تحريرها من الاستعمار الهولندى.. وعن ضرورة تحرير تونس والجرائز ومراكش- بلاد المغرب العربى - وكان يعبر عن المغرب فى تلك الفترة بمراكش.

ورأى القرضاوى أن مؤتمرات الاخوان فى عواصم المديريات لشرح القضية الوطنية.. كانت اضاءات جديدة ومميزة فى طريق العمل الوطنى.. وكان هدفها توعية جماهير الشعب بقضيته وحشد قوى الامة جميعها للوقوف فى وجه الانجليز حتى يخرجوا من الوطن طوعا أو كرها.. وتتحرر إرادة شعب مصر من كل سلطان أوروبى.

وكان يرى أن الاخوان فى تلك الفترة ـ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية- هم القادة الحقيقيون فى مصر للعمل الوطنى ضد الاستعمار البريطانى وكانوا هم الذين يحركون الجامعات والمعاهد العليا والثانويات والشارع المصرى كله..

كما كانوا هم الذين يتحملون العبء الأول والأكبر فى محاربة المشروع الصهيونى الخطير الذى تسلل إلى المنطقة وأهلها نيام وطفق يفرض وجوده بالنار والدم والعنف والإرهاب عن طريق العصابات الصهيونية الإجرامية التى تستبيح كل محرم وتستهين بكل قيمة فى سبيل تحقيق أطماعها فى أرض ليست لها وفى بلد تريد أن تطرد أهله لتحل محلهم فى أسوأ صورة للاستعمار العنصرى الاستيطانى الإحلالى الغاشم.

القرضاوى يفند ادعاءات حزب التحرير الإسلامى ضد الإخوان

نجح فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى بحيلة ذكية فى الدخول إلى الأراضى الأردنية ليستكمل مشوار أول جولة كلفه بها المرشد العام للاخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى خارج مصر وشملت لبنان وسوريا.. يروى تفاصيل تحركاته فى الأردن وفلسطين بمدنهما المختلفة ولقاءاته فى المخيمات الفلسطينية وحواراته مع جماعة حزب التحرير الإسلامى.

يقول الشيخ القرضاوى:

بعد السماح لى بالدخول على نقطة الحدود السورية الأردنية زرت فى الحقيقة معظم المدن الأردنية، ومدن الضفة الغربية وعمان وأربد، والصلت، ونابلس، وجنين، والقدس طبعاً تعرفت على الكثير من العلماء، وألقيت الكثير من المحاضرات فى هذه البلاد، وتناقشت مناقشات حارة ومطولة مع جماعة حزب التحرير الإسلامى، وكان فى نشأته فى تلك الأيام ولايزال جديداً ومتحمساً، وكان الاخوان فى ذلك الوقت ضعافا «عظمهم طرى»، وهؤلاء مجادلون من الطراز الأول فكانوا يتعبون الاخوان بالمجادلات فدخلت فى هذه المجادلات وأفحمتهم، لأنهم كانوا يقولون للاخوان، لماذا تشتغلون بالأعمال

الخيرية؟ ما معنى فتح مستوصفات أو مستشفيات أو جمع الزكاة وغيرها وهذه كلها معوقات للدعوة، المفروض أنه من عمل الدولة الإسلامية، وليس من عمل الأفراد أو الجمعيات.

يجب أن تقوم الدولة أولاً بكل هذا، فأنا ناقشتهم فى هذه القضية مناقشة مفحمة، وقلت لهم أولاً: إن فعل الخير جزء من مهمة المسلم، وهو مأمور به مثلما هو مأمور بعبادة الله وبالجهاد.. والله تعالى يقول: (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده).

فمهمة المسلم هنا: شعبة منها تحدد علاقته بالله: «اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم».. وشعبة تحدد علاقته بالمجتمع «افعلوا الخير لعلكم تفلحون».

وشعبة تحدد علاقته بأعداء الله ورسوله والمؤمنين: «وجاهدوا فى الله حق جهاده».

فالمسلم مطالب بفعل الخير، هذا من ناحية، من ناحية أخرى كيف يسع المسلم إن كان يستطيع أن يطعم جائعاً أو يكسو عرياناً أو يداوى مريضاً، أو يكفل يتيماً أو يؤوى مشردا، أو يقدم خيراً للناس هو قادر عليه، وننتظر حتى تقوم الدولة الإسلامية.. هذا لا يجيزه الإسلام.

من ناحية أخرى: نحن نريد الدولة الإسلامية، ولكن هذا هدف بعيد، أننتظر ساكنين وصامتين إلى أن تقوم الدولة الإسلامية؟!.. هذا ليس معقولاً.

الدولة الإسلامية.. هذا أشبه بما لو زرع الإنسان حديقة بها نخيل وأشجار زيتون وغيرها، هذه الأشجار من شأنها أن تثمر بعد خمس سنوات أو عشر سنوات.. ولكن هذا لا يمنعنى أن أزرع جرجيراً، وطماطماً وفجلاً وخضراوات فى هذه الأرض أستفيد من وقتى ومن جهدى، وأستفيد من الأرض إلى أن تأتى الثمرة بعيدة المدى والمرجوة.

أضف إلى هذا: أنكم تقولون إن هذا معوق عن الدعوة فمن قال إن الدعوة هى فقط بالكلام أو باللسان؟! الدعوة أيضاً بالعمل انك تفعل الخير للناس، فتحبب إليهم الإسلام وأهله.. وهذا ما يفعله المبشرون، حيث يدعون الناس للمسيحية والنصرانية بواسطة هذه الأعمال باقامة المستوصفات والمستشفيات، ومدارس وأشياء اجتماعية للناس، وبعد ذلك يقولون إن المسيح

هو الذى أرسلنا أو أمرنا أو دعانا إلى هذا، فهذه وسيلة من وسائل الدعوة.

ثم إن أى جماعة من الناس عندها شخصيات.. ذو قدرات متعددة، هناك من له قدرات فكرية يستطيع أن يؤلف.. وواحد عنده قدرة بيانية يستطيع أن يخطب أو يدرس.. وآخر عنده قدرة تنفيذية يستطيع أن يعمل فى مجال الخير.

لماذا تعطل هذه الطاقات، فهؤلاء الناس يستطيعون أن يعملوا فى خدمة المجتمع، المهم أنهم لم يجدوا قولاً يقولونه..

عمر الدعوات الناجحة

يستطرد الشيخ القرضاوى فى بيان مواجهاته ومناقشاته مع أعضاء حزب التحرير الإسلامى بفلسطين:

أيضاً من الأشياء التى كانوا يقولونها ضد الاخوان: إن الدعوة التى لا تنجح ولا تحقق أهدافها، ولا تنتصر بعد ثلاث وعشرين سنة تكون دعوة فاشلة لأنها لم تحسن ترتيب أهدافها أو وسائلها أو مناهجها، فلابد أن تعيد النظر فى هذا كله!!

فقلت لهم من قال هذا؟! وان الفترة محددة بـ٢٣ سنة؟!

فقالوا: إن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل ٢٣ سنة يدعو..

ونجحت بعدها دعوته.

فقلت لهم: ليس هذا معناه أن كل دعوة لابد أن تنجح بعد ٢٣ سنة، فالرسول صلى الله عليه وسلم هاجر.. هل لابد أن يهاجر كل داعية؟!

أبدا ليس من الضرورى أن يهاجر.

وضربت لهم مثلاً: خذوا، دعوة سيدنا نوح عليه السلام، وما قولكم فيها؟ هل كانت على حق أم على باطل؟!!

قالوا: طبعاً على حق.

قلت: عظيم.. لقد ظل سيدنا نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، فماذا كانت النتيجة؟! «ما آمن معه إلا قليل» لقد قال هذا عن نفسه كما حكى القرآن الكريم: «قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً».

مهمة الداعية الحقيقية

الداعية عليه أن يبلغ وأن يحسن ويتفنن فى تبليغ الدعوة ولكن ليس عليه الهداية، «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء» «إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب».. وأنت تبذر الحب وترجو الثمار من الرب.. وأنت مطالب بالاخلاص والحرص وتحسين الوسائل ما استطعت، لكن النتائج، ليست إليك، إلى الله سبحانه وتعالى.

فالدعوات لا تسأل عن نتائج أعمالها.. والله سبحانه وتعالى يوم القيامة لا يسأل الناس لماذا لم تنجحوا؟ أو لماذا لم تنتصروا؟! ولكن سيقول لهم لماذا لم تعملوا؟ لماذا لم تحاولوا أو تجتهدوا أو تجاهدوا؟! فتقول: يا رب عملنا ولم نصل.. وقد قص علينا القرآن الكريم قصة فى سورة الأعراف، قصة هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى: (وإذ قالت طائفة منهم لم تعظون قوما، الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون).

فالمهم أننا نعذر إلى الله بأداء واجب الدعوة، ونفعل هذا رجاء فى الاصلاح، ما النتائج، فهى ليست لنا وانما إلى الله سبحانه وتعالى.

هجوم الملاريا

● ألم تتعرض لمخاطر أيضاً فى داخل الأراضى الأردنية أو الفلسطينية؟

يقول الشيخ القرضاوى:

●● رحلة الأردن هذه كانت جيدة وأفادتنى لأنها كانت أول مرة أخرج فيها من مصر، وعدت إلى عمان، ولكنى أصبت بحمى، فقد زرت المخيمات الفلسطينية.. مخيم «عقا الجبر» ومخيم «الكرامة»، وكانت هذه المخيمات فى حالة يرثى لها، ويبدو أنى أصبت فى مخيم الكرامة بالملاريا وأنا عندى حساسية للملاريا، حيث أصبت بها أكثر من مرة، ولما رجعت إلى عمان أصابتنى حمى الملاريا، وأدخلنى الإخوة هناك فى مستشفى فى عمان فى هضبة تسمى «مستشفى الدكتور ملحس»، ومما أذكره وأنا فى المستشفى أن جاءنى شيخ معمم، ويرتدى جبة وقفطانا، وله لحية كبيرة، وزارنى وجلس معى، وتحدث معى حديثاً طيباً، وهو قائم قال لى: الداعى «تقى الدين النبهانى» وهو مؤسس حزب التحرير الإسلامى، ما كنت أعرف شكله،

وشكرت له اهتمامه بزيارتى، وكنت طالبا حينئذ.. وأذكر أيضاً أنى التقيت بالشيخ عبدالعزيز الخياط، كان واحداً من حزب التحرير فى ذلك الوقت جلست معه وناقشته، وكان أيضاً من أعضاء الحزب الشيخ «أسعد بيوض التميمى»، ومن رجال الجهاد فى عصرنا، وكل هؤلاء تركوا الحزب.

بعد أن شفيت عدت إلى القاهرة عن طريق الطائرة، ولأول مرة أيضاً أركب الطائرة فى حياتى من عمان ـ للقاهرة، وقد كتبت تقريراً عن هذه الرحلة للأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين.

رحلة الصعيد

● هل كانت رحلة بلاد الشام هذه هى المهمة الوحيدة التى كلفكم بها فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين؟!

ـ يقول الشيخ القرضاوى: لا.. فى الحقيقة بعثنى أيضاً الأستاذ الهضيبى إلى صعيد مصر فى رحلة ابتداء من الفيوم وبنى سويف فالمنيا فأسيوط وسوهاج، فقنا فأسوان، وكنت أزور المراكز المختلفة فى هذه البلاد، وكان هذا فى الوقت الذى بدأ فيه الاخوان يختلفون مع الثورة بوضوح.

وبعد ظهور هيئة التحرير لأن الثورة أول ما أنشأوا جماعة سياسية لهم كانت «هيئة التحرير» وكنت مبعوثاً من المرشد العام لبيان وجهة نظر الإخوان من هذا الأمر لأنه لا ينبغى أن يصطدموا بهؤلاء الناس وأن يعملوا بدعوتهم بعيدا عن حساسية الصدام.

وكانت العلاقة بينى وبين قيادة الاخوان علاقة جيدة وكنت أعمل أيضاً فى الاخوان على عدة جبهات وعدة مستويات.

وأنا طالب كنت مسئولاً عن طلاب الأزهر فى كليات أصول الدين واللغة العربية والشريعة ومعهد القاهرة الدينى.. هذه مسئوليتى فى القاهرة من ناحية الطلاب، وأنا أعمل أيضاً فى قسم نشر الدعوة، حينما ذهبت إلى الصعيد كنت مندوباً من قسم نشر الدعوة، وأنا أعمل أيضاً متعاوناً مع قسم الأسر الذى يهتم بالتربية ومناهج التربية.

وفى الوقت نفسه كنت أعمل خطيباً ومدرساً فى أحد المساجد فى المحلة الكبرى، فى مسجد «آل طه» جماعة طه وهم من أعيان المحلة، وقد أنشأوا

هذا المسجد، وعينت فيه خطيباً ومدرساً، فكنت فى فترة الصيف أبقى فى المحلة باستمرار، وفى فترة الدراسة اذهب خميس وجمعة، وهناك اعمل فى شعبة الاخوان فى المحلة، وأحياناً أمر على طنطا، وأخطب الجمعة فى المسجد وهذا المسجد سماه الناس بمسجد الشيخ يوسف، حيث يتجمع الناس بصورة كبيرة من أوائل سنة ١٩٥١، وكان الناس يصلون فى الشارع حول المسجد.

فأنشأ الرجل ملحقاً للمسجد من عدة طوابق ليسع المصلين وبقيت أخطب فيه حتى عام ١٩٥٤، وعدت إليه أيضاً بعد أن خرجنا من المعتقل فى مارس ١٩٥٤.. إلى أن أخذت إليه بعد ذلك ثانية فى شهر أكتوبر ثم فصلت تقريباً من هذا المسجد.

كان لى نشاط فى المحلة وطنطا.

ونشاط آخر فى القاهرة.. وكان من حسن حظى حينما اعتقلت سنة ١٩٥٤ أن الذين كانوا يحققون معى هم مباحث المحلة وطنطا، فكانوا يحققون عن نشاطى فى المحلة والغربية ولا يعرفون شيئاً عن نشاطى فى القاهرة، فقلت الحمد لله.

لقد فصل الله هذا عن ذاك حتى أن بعض الإخوة التقى معى فى جزء من رحلة سوريا، ومنهم الأخ الأستاذ أحمد عادل كمال، فلقينى مرة فى الطابور فى السجن الحربى وظل يتدسس فى الطابور إلى أن وصل عندى، وسألنى:

هل سألوك عن رحلة سوريا؟ ولا سؤالا واحدا.

فمن فضل الله أنهم لم يكونوا قد اخترعوا الكمبيوتر الذى يجمع الأنشطة كلها مع بعضها البعض، فكانت كل الأسئلة مركزة حول الغربية وطنطا والمحلة ولم يسألونى عن أى نشاط فى قسم الطلاب.

أو قسم نشر الدعوة، أو قسم الأسر.

العودة والترشيح مرشداً للإخوان

■ **مع الانفـراجـة فى عـهـد السادات ودعـمـه للصـحـوة الإسـلاميـة والتـوجـه الجـديد الذى أصـبـح سـائدا فى ذلك الوقت سـألت د.القرضاوى ألم تفكر فى العودة إلى مصر..؟**

■أجاب والله أنا فكرت كثيرا فى العودة، والإخوان طرحوا علىّ العودة، وطرحوا ما هو أكثر من العودة وأقول لك بصراحة:

بعد وفاة الأستاذ الهضيبى اقترح عدد من الإخوان أن أرجع إلى مصر وأن أتحمل مسئولية الإخوان، وأذكر أننا كنا فى المؤتمر العالمى الأول للاقتصاد الإسلامى فى مكة المكرمة وحضر عدد من الإخوة ومنهم الأستاذ صالح أبورقيق والأستاذ هارون المجددى والأستاذ محمود أبوالسعود وعدد من الإخوة وقالوا إننا نريد أن تقنع فلانا - (الشيخ القرضاوى) - بالعودة إلى مصر وفعلا حدثونى فى هذا الأمر وطلبت منهم أن يمنحونى فرصة للتفكير، وأخذ الأستاذ محمود أبوالسعود رحمه الله على عاتقه أن يراسلنى فى هذا وكتب إلىّ من أمريكا حيث كان مقيما هناك ورددت عليه بخطاب أحتفظ منه بصورة عندى اعتذرت فيه عن عدم قبولى لهذا الأمر، وقلت له ان الله سبحانه وتعالى وزع الناس مواهب وقدرات شتى، واحد قدرته فى الإدارة وآخر قدرته فى العلم، أو فى السياسة وقد أتانى الله مواهبى فى الجانب

العلمى وجانب الدعوة، وأنا أرى أنه من الافضل لى فى هذه الفترة أن أعيش فى موقعى العلمى، وقد بدأ الناس يتعرفون علىّ فى بلاد كثيرة، ويطلبوننى وأرى نفسى أنى أصبحت أنتج فى المجال العلمى، فدعونى وشأنى فى هذه القضية، وأنا لا أرى نفسى أهلا لتولى قيادة هذه السفينة. ستقولون إن إخوانك أعرف بك منك ولكن كل إنسان أعرف بنفسه من غيره، وكما قال ابن عطاءالله: «الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تستيقنه منها، أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس» فأنا لا أترك يقين ما عندى لظن ما عند الناس.

وأرجو أن تعينونى على أن أقوم بدورى فى هذا الجانب، وبعثت بها إلى الأستاذ أبوالسعود و رد علىّ بخطاب قال فيه: أما وقد رضيت لنفسك هذا، فأنت وما أردت، ولا نستطيع أن نجبرك على أمر لا ترغب فيه، وهذا أمر أراده مجموعة من اخوانك وكانوا يرون فيك الخير، أما وقد أردت ذلك فالخير فيما يختاره الله.

بعد ذلك جاء هنا إلى قطر أحد الإخوة القياديين فى مكتب الارشاد العام للاخوان المسلمين وهو الاستاذ الحاج حسنى عبدالباقى، وطلب منى أن أفكر فى العودة، ولكن كانت الأمور بدأت هنا تتطور، إنشاء كلية التربية، والجامعة ومسئولياتى فيها، وبدأت آخذ دورا جديدا منطلقا من قطر إلى العالم كله.

فى الحقيقة وجودى فى قطر أتاح لى فرصة ربما لم تكن لتتاح لى لو كنت فى مصر.

فمصر فيها قيود على حركة الإنسان، هنا قطر لا تضع أى قيد، بل بالعكس فكثيرا ما أذهب إلى تلك البلاد ممثلا لدولة قطر أو لجامعة قطر، فكان بقائى فى قطر معينا لى على رسالتى التى أخذت شكلا عالميا.

لهذا لم أجدُ ظروفا تساعدنى على العودة إلى مصر، وكلما فكرت فى العودة مع أنى أذهب إلى مصر بين الحين والحين، ولكن أحيانا أجد الظروف غير مساعدة، منذ عدة سنوات كنت أذهب إلى الجامعات المصرية وأدعى من اتحادات الطلاب ومن نوادى هيئات التدريس، ومن الأساتذة، وأذهب أحاضر فى كل الجامعات: القاهرة، عين شمس، الأزهر، حلوان وأسيوط ولكن بعد ذلك بدأت الأمور تتغير، وتوضع قيود، وأذكر أنى دعيت منذ سنوات لالقاء

محاضرة فى جامعة القاهرة، ودعيت من نائب رئيس الجامعة، وكنت قادما من الجزائر، وذهبت إلى الجامعة، فقال لى رئيس حرس الجامعة وهو دكتور كما أبلغنى ـ قال أنا دكتور فى كلية دار العلوم ـ وقال للأسف أنت ممنوع من دخول الجامعة.

قلت له: ولكن أنا عندى دعوة رسمية من نائب رئيس الجامعة د.على السلمى!!

قال: ولكن هناك أمراً فوق هذا يمنع..

وبالفعل رجعت، وجاء لى خطاب رقيق من الأستاذ مأمون سلامة رئيس الجامعة يعتذر عما حدث، وانه لم يكن يعلم بما حدث وانه يرجو ألا يتكرر هذا، وأن هذه جامعتك وأنها مفتوحة لك فى كل وقت، ولكن القضية فى أيدى رجال الأمن كما تعلم.

هذا ما جعلنى أقول: هل مصر تهضمنى إذا استمررت فيها؟! إذا كنت أنا أذهب ضيفا فلا تسمح، فما بالك إذا بقيت وأقمت، وهذا ما جعلنى أؤثر الاستمرار فى قطر والحمد لله فإن قطر لم تضق بنا ذرعا، منذ زمن طويل.

وأذكر أنه فى عام ١٩٦٥ عندما قامت محنة الاخوان وطلبونى فى مصر، ولكن أمير قطر رفض هذا، وقال نحن مستعدون لاعطائه جوازا إن احتاج إلى جواز، وكان موقف قطر موقفا جيدا، ولهذا كان من البر بقطر أن نوفى لها كما وفت لنا والحمد لله على ما اختاره لنا.

●● بعد انتهاء سنوات الإعارة الأربعة إلى قطر.. طلبت السلطات المصرية من حكومة قطر عودتى إلى مصر لاسيما وأن سنوات الإعارة انتهت.. ومن حق الدولة المعيرة أن تسترد معارها.. ولكن قطر جزاها الله خيرا.. رفضت طلب السلطات المصرية وأخبرتهم أنها تعاقدت معى على العمل فى وزارة المعارف فى قطر بعقد خاص..

ولما قيل للشيخ قاسم بن حمد آل ثانى وزير المعارف رحمه الله: إنهم لن يجددوا جواز سفرى.. قال لمحدثه: سنعطيه جوازا قطريا.

وانتهت هذه المحاولات بالاخفاق نتيجة لموقف قطر الشجاع وتمسكها بى واستعدادها لان تمنحنى جوازا قطريا.. إذا فقدت الجواز المصرى.. وهذا ما حدث.

فقد كنت أسافر بوثيقة قطرية تجدد كل سنة.. ثم فى سنة ١٩٦٩ أعطيت جوازا قطريا كاملا.. فقد ذهبت فى ذلك الوقت إلى الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى.. نائب حاكم قطر وولى العهد لأطلب منه تجديد الوثيقة.. فسألنى.. أين تسافر هذا العام؟ فاخبرته بأنى مسافر إلى باكستان للحصول على الدكتوراه بعد ان اغلق أمامى باب الأزهر.. فقال لى: كنت قد وعدتك أن نرقى الوثيقة القطرية إلى شىء أفضل.. وهذا أوان ذلك.. سآمر باعطائك جواز سفر قطريا كاملا.. تأخذ به كل حقوق القطريين.. وبالفعل اصدر أوامره إلى السيد على بن أحمد الانصارى مدير إدارة الجوازات والجنسية بتنفيذ ذلك فورا.. وفعلا وفى الحال بدأ التنفيذ.. وطلب منى بعض الصور.. وصدر الجواز القطرى لى ولزوجتى ولبناتى الأربع وابنى محمد.. فلم يكن ابناى عبدالرحمن وأسامة ولدا بعد.. وهكذا عوضنى الله بجواز قطرى أجوب به الأرض.. بعد تعنت السلطات المصرية معى ورفضها تجديد جواز سفرى لترغمنى على العودة إلى مصر.. ولم يكن معقولا أن اذهب برجلى طوعا واختيارا من الدار للنار.

■ فى زيارة شهيرة لوزير الداخلية الأسبق اللواء زكى بدر لدولة قطر.. هل تحدثت معه بشأن العودة؟!.

■■ نعم زار قطر والتقيت به، وكان فى غاية التلطف معى، وحينما بدأ يتكلم ذكر بعض الآيات والأحاديث، وقال لى: ألا ترى أنى أستشهد بالقرآن والأحاديث، وأتى بزوجته لتسلم علىّ، وقال لى: زوجتى محجبة كما ترى، أنا لست ضد الدين وكذا.. فكان يتودد لى ووجدتها فرصة وقلت له: يا أخى حينما أذهب إلى بلاد العالم استقبل من كبار رجال الدولة ومن الوزراء، وقاعات الشرف تفتح لى إلا فى مصر، وطنى وبلدى الأول.. يعنى أوقف فيها!! ولم هذا؟ لقد سألت الضباط: لماذا توقفوننى؟ هل ستعيدوننى؟ ولن أدخل مصر؟ قالوا: هذا مستحيل!!

■ قلت ولماذا هذا؟

وقلت له رغم هذا فإنهم يعاملوننى بغاية الأدب واللطف فعلاً: ويقولون لى إنها فرصة لنسألك بعض الأسئلة الدينية، وننتفع بوجودك معنا حتى ينظروا فى جواز السفر.

فقال لى زكى بدر: هل يفعلون معك هذا ويعتذرون إليك؟

قلت: نعم

قال: أنا الذى أمرتهم بهذا وأن يعتذروا إليك.

وكان معه اللواء مصطفى عبدالقادر، وطلب منه أن ينظر فى طلبى، وقال لى: شرفنا وسننظر فى كل طلباتك.

وأنا طبعا: لم أحب أن أشرفهم.

وهذا الكلام الذى قاله لى: قال عكسه فى خطابه الشهير فى مدينة بنها قال: إن يوسف القرضاوى أبلغنى بأن الضباط حين أدخل مصر يوقفوننى ويتعاملون معى بأدب ويعتذرون إلىّ.

وقلت له: أما إيقافهم لك، فأنا الذى أمرتهم بذلك وأما اعتذارهم إليك فأنا سأحاسبهم عليه.

كذاب والله.. بالعكس فقد كان فى غاية التودد لى، وكان حريصا على أن يتصور معى، وحتى المصوّر أرسل لى مجموعة من هذه الصور..

المهم أنا فى ذلك الوقت حينما قال ما قاله: أرسلت رسالة مفتوحة إلى رئيس الجمهورية نشرتها صحيفة الشرق هنا وصحيفة الشعب المصرية.

■ هل تعتقد أن جماعة الإخوان المسلمين الآن قادرة (كان هذا عام ١٩٩٦) على أن تقف مرة أخرى؟

■■ والله جماعة الإخوان واقفة الآن بالفعل، وهذه هى مشكلتها فهى واقفة وحاضرة، وحيث أتيحت لها الحرية كسبت وجاء الناس يلتفون بها، كما نشهد ذلك فى النقابات المهنية فى نقابة الاطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وغيرها، وكما تشهد ذلك نوادى هيئات التدريس الجامعية، حيث يأخذ الإسلاميون الاغلبية، وكما تشهد اتحادات الطلاب رغم العزل المستمر للعناصر الإسلامية، ومع هذا تبرز عناصر لا يعرفونها ويفاجأون بأنهم إسلاميون.. فالجماعة موجودة لان الإسلام موجود، فالجماعة قوتها فى انها تعبر عن ضمير الأمة، الأمة فطرتها إسلامية والأمة مع الإسلام، لم تكفر الأمة بربها ولا بقرآنها ولا بمحمدها ومن أجل ذلك.. ميزة جماعة الاخوان أنها تعبر عن ضمير هذه الأمة فلذلك كان الناس واثقين بها، وأعطوها

أصواتهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وهذا يزعج السلطات للأسف أن هؤلاء الناس العزل ليس لهم سلطة ولا إمكانات ولا بيدهم إذاعة ولا تليفزيون ولا حتى صحيفة، وليس لهم وجود رسمى.. كيف يصلون إلى هذا الحد، فهذا هو الذى أقلق السلطة وجعلها تصطدم بها أخيرا اصطداما لا مبرر له.

فالجماعة يقينا لا علاقة لها بالعنف، فالجماعة أصبحت تؤمن أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة هى السبيل الوحيدة للنجاح وكسب الشعب، وما دام الشعب معك لماذا تلجأ إلى العنف؟ فالذى يلجأ للعنف من لا يجد الناس معه، إنما إذا كان الناس يلتفون حولك ويلتقون بك فى كل مكان، لماذا تستخدم العنف والقوة وهذا هو توجه الجماعة بيقين، ومع هذا - للأسف - يحاكمون محاكمة عسكرية، ورغم رفض الشعب كله لهذا الأمر وعدم وجود مبرر له إلا التحكم والتسلط حتى تستطيع أن تصدر أحكاما كما تشاء، فالأحكام العسكرية هذه تعنى أن ما تريده السلطة ينفذ.

مع رسائل البنا

دفع الحب الشديد للشيخ حسن البنا.. شيخنا القرضاوى إلى أن يعكف على رسائل البنا وكتبه مستخلصا منها العبر والدروس محاولا أن يقدم منها للناس خلاصة تضىء العقل بالمعرفة.. وتنير القلب بالإيمان.. وتوضح المفاهيم الملتبسة على الكثيرين.. وتدفع بالعزائم إلى مزيد من العمل الصالح والعطاء البناء لخير الفرد والجماعة والأمة..

وفى هذا الإطار كتب القرضاوى رسالة عن التربية الاسلامية عند مدرسة حسن البنا بمناسبة مرور ثلاثين عاما على استشهاده وخمسين عاما على تأسيس جماعة الإخوان..

وفى مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على مولد الامام حسن البنا استوفى واستقصى موضوع «التربية السياسية عند حسن البنا.

يقول القرضاوى:

كان حسن البنا - رحمه الله عليه - رجلا متعدد المواهب والقدرات، فهو عالم وداعية، ومصلح، ومجدد، وقائد وزعيم، وهو كذلك مربٍ من الطراز الأول.

كان مربيا بحكم الموهبة، وبحكم الدراسة، وبحكم الممارسة، وكانت لديه كل الأدوات التى يفتقر إليها المربى الناجح، من البصيرة النيِّرة، والقلب الكبير،

والعقل المنفتح، واللسان الفصيح، والوجه البشوش، والفراسة النادرة، إلى جوار العلم الواسع، والخبرة الفنية والاجتماعية.

فلا غرو أن نراه يؤثر بسرعة فى كل من صحبه وعايشه، بل فى كل من لقيه لقاء عابرا. فتراه يذكر له كلمة معبرة، أو موقفا مؤثرا، أو حكاية لها دلالة. أو نحو ذلك مما يعرفه الكثيرون عنه.

وقد صدق قول الشيخ رحمه الله: «علامة الرجل الصالح أن يترك فى كل مكان يحل فيه أثرا صالحا»، وهكذا كان.

وكانت التربية فى نظر الإمام البنا تتسم بخصيصتين أساسيتين:

أولاهما: التكامل

وثانيتهما: التوازن

ومعنى «التكامل»: أنها تربية شاملة لا تقتصر على جانب دون جانب، فهى تتناول الروح والجسم والعقل والعاطفة، والضمير والوجدان وتعمل على تكوين الشخصية المسلمة تكوينا متكاملا: روحيا بالعبادة، وبدنيا بالرياضة، وعقليا بالثقافة، وخلقيا بالفضيلة، واجتماعيا بالمشاركة فى خدمة المجتمع، وسياسيا بالتوعية بقضايا الوطن والأمة، وهكذا لا تقتصر التربية على جانب دون آخر.

ومعنى «التوازن»: أنها تعطى كل جانب من الجوانب حقه بلا طغيان ولا إخسار، بحيث لا يطغى على غيره من الجوانب، ولا يحرمه حقه لحساب غيره، بل يقول لكل من تجاوز حده: قف عند حدك، والزم صراطك المستقيم

ولا غرو أن كان من أهم أنواع التربية التى عنى بها الأستاذ البنا: التربية السياسية: التى كانت مغيبة عند كثير من المتدينين، والجمعيات الدينية العاملة فى مصر فى ذلك الوقت.

الجانب السياسى:

أجل كان من الجوانب المهمة التى عنى بها الإمام الشهيد حسن البنا: الجانب السياسى. ونعنى بهذا الجانب ما يتصل بشؤون الحكم، ونظام الدولة، والعلاقة بين الحكومة والشعب، والعلاقة بين الدولة وغيرها من الدول الإسلامية وغير الاسلامية، والعلاقة بالمستعمر الغاصب، والموقف من

الأحزاب والحزبية، ومن الدستور والقانون والشورى والديمقراطية، وغير ذلك من القضايا المتعددة المتنوعة.

وقد كان هذا الجانب قبل دعوة حسن البنا وقيام مدرسته بعيداً عن اهتمام الجماعات الإسلامية - وبتعبير أصح: الجماعات الدينية فى مصر - وخارج نطاق نشاطها وتفكيرها. فقد أصبح مفهوم السياسة مقابلا لمفهوم الدين، كما يقابل الأسود الأبيض، فلا يتصور اجتماعهما فى شخص أو فى جماعة، والناس رجلان: إما رجل دين، وإما رجل سياسة، والجماعات نوعان: إما جماعة دينية، وإما جماعة سياسية وحرام على رجل الدين أن يشتغل بالسياسة، كما يحرم على رجل السياسة أن يشتغل بالدين، ومثل ذلك تدخل الجماعة الدينية فى الشؤون السياسية، أو رجال السياسة فى شؤون الدين، وقد يتجاوز ويتسامح فى تدخل رجل السياسة أو الجماعة السياسية فى الدين، أما الذنب الذى لا يغتفر ولا يتسامح فيه عند الناس يومئذٍ، فهو أن يتدخل رجل الدين أو الجماعة الدينية فى القضايا السياسية.

وعلى هذا الأساس قامت فى مصر - كما فى غيرها - جماعات دينية الطابع، كالطرق الصوفية، والجمعيات الدينية المختلفة، التى تنص فى صلب لوائحها وأنظمتها الأساسية: أنها لا صلة لها بالسياسة.

وتقابلها تجمعات أخرى لا شأن لها بالدين، وهى التى أطلق عليها اسم «الأحزاب» مثل الحزب الوطنى، أو حزب الأمة، أو حزب الوفد، وما انشق عنه، وحزب الدستور وغيرها. فهذه الأحزاب تشترك كلها فى طابعها «المدنى» أو «العلمانى» ففكرها النظرى وسلوكها التطبيقى قائمان على أساس عزل الدين عن الدولة، وفصل الدولة عن الدين، وإن كان بعضها أقرب إلى الاعتدال من بعض، بحسب رؤى زعمائها، فالحزب الوطنى كانت له نزعة إسلامية تمثلت فى مؤسسه مصطفى كامل وخلفائه.

كما تؤمن هذه الأحزاب كلها بالوطنية الإقليمية الضيقة، التى رأينا كثيرا منها قامت تحيى نزعات جاهلية قديمة، كالفرعونية فى مصر، والفينيقية فى سوريا، والآشورية فى العراق.. ومن لم يؤمن منها بالنزعة الوطنية آمن بالنزعة القومية مثل: القومية الطورانية فى تركيا، والقومية العربية فى بلاد العرب، والقومية السورية فى سوريا الكبرى.

كان على «حسن البنا» أن يخوض معركة حامية الوطيس، لمطاردة المفاهيم الخاطئة عن العلاقة بين الدين والسياسة، تلك المفاهيم التى غرسها الجهل والهوى، وتعهدها الاستعمار الثقافى بالسقى والرعاية، حتى تغلغلت جذورها وامتدت فروعها.

وكان لابد من حرب الفكرة الخاطئة بالفكرة الصحيحة، وهى «شمول الإسلام» لكل جوانب الحياة.. ومنها السياسة، كما دل على ذلك القرآن والحديث، وهدى الرسول وسيرة الصحابة، وعمل الأمة كلها طوال ثلاثة عشر قرنا أو تزيد.. وحسبنا هنا أن القرآن يحذر من إهمال بعض ما أنزل الله تعالى فيقول: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ المائدة «٤٩» كما قرَّع القرآن بنى إسرائيل على تجزئتهم لكتابهم، وأخذ بعضه دون بعض، فقال سبحانه: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾. البقرة «٨٥».

وللإمام الشهيد فى ذلك كلمات تكاد تكون محفوظة لدى جمهور الإخوان، من ذلك قوله فى إحدى رسائله:

«إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: نحن ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام، نحن لا نعرف هذه الأقسام»

وقال رحمه الله يرد على من يقول: إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون، ودعوتهم دعوة سياسية:

يا قومنا: إننا نناديكم والقرآن فى يميننا، والسنة فى شمالنا، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادىء سياسيا، فنحن أعرق الناس - والحمد لله - فى

السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم، فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات.

دعائم التربية السياسية لدى حسن البنا:

وتقوم التربية السياسية لدى مدرسة «حسن البنا» على جملة دعائم أو معالم نذكر هنا أهمها:

١ـ الربط بين الإسلام والسياسة

٢ـ إيقاظ الوعى بوجوب تحرير الوطن الإسلامى

٣ـ ريقاظ الوعى بوجوب إقامة الحكم الإسلامى

٤ـ إقامة الأمة المسلمة

٥ـ إيقاظ الوعى بوجوب الوحدة الإسلامية

٦ـ الترحيب بالنظام الدستورى

٧ـ التنديد بالأحزاب والحزبية

٨ـ حماية الأقليات والأجانب.

شهادة أمريكية للبنا

يرى القرضاوى أن الكاتب الأمريكى روبير جاكسون هو أفضل من كتب عن الامام حسن البنا فى جملة من كتبوا عن الرجل سواء فى حياته أو مماته.. وجاكسون التقى الإمام حسن البنا.. ونشر مقاله فى صحيفة «نيويورك كرونيكل».. وأطلق على البنا وصف «الرجل القرآنى».. وهو الوصف الذى اعتبره القرضاوى الأكثر دلالة على شخصية البنا.. فهو رجل ـ على حد تعبيره ـ قرآنى المرجعية قرآنى الغاية.. قرآنى المنهج.. قرآنى الثقافة.. قرآنى الهوى فالقرآن لحمته وسداه ومبدؤه ومنتهاه.

هذا المقال العجيب ترجمه إلى العربية الكاتب الإسلامى المعروف الأستاذ أنور الجندى، رحمه الله.

والمقال طويل، وجدير بأن يقرأ، لما فيه من غوص فى أعماق شخصية المرشد العام، ووصف لجوانب هذه الشخصية الفذة، ولكننا نجتزىء منه هذه الفقرات:

«فى شباط سنة ١٩٤٦، كنت فى زيارة للقاهرة.. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذى يتبعه نصف مليون شخص، وكتبت فى النيويورك كرونيكل بالنص:

«زرت هذا الأسبوع رجلا قد يصبح من أبرز الرجال فى التاريخ المعاصر، وقد يختفى اسمه إذا كانت الحوادث أكبر منه، ذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الإخوان.

وقد صار الإخوان عاملا مهما فى السياسة المصرية، ويقال: إن جملة الإخوان ٨٠٪ من لجان العمال والطلبة الذين كانوا فى طليعة الحوادث الأخيرة فى مصر.

ويقول الأستاذ البنا: إن حركة الإخوان فوق الأحزاب، وسبيلها هوالعودة إلى القرآن، وغايتها جمع كلمة المسلمين فى كل أرجاء الأرض».

هذا ما كتبته منذ خمس سنوات، وقد صدقتنى الأحداث فيما ذهبت إليه، فقد ذهب الرجل مبكرا وكان أمل الشرق فى صراعه مع المستعمر. وأنا أفهم جيدا أن الشرق يطمح إلى مصلح يضم صفوفه، ويرد له كيانه، غير أنه فى اليوم الذى بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف، وبطريقة شاذة..

هكذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلا بالكنز الذى يقع فى يده.. لقد لفت هذا الرجل نظرى إليه بصورته الفذة، عندما كنت أزور القاهرة، بعد أن التقيت طائفة كبيرة من زعماء مصر ورؤساء الأحزاب فيها.

كان هذا الرجل خلاب المظهر، دقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية. لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بينى وبينه أن يصوروا لى أهداف هذه الدعوة، وأفاضوا فى الحديث على صورة لم تقنعنى.

وظل الرجل صامتا، حتى إذا بدت له الحيرة فى وجهى، قال لهم: قولوا له شيئا واحدا: هل قرأت عن محمد؟ قلت: نعم قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟

قلت: نعم قال: هذا هو مانريده.

وكان فى هذه الكلمات القليلة ما أغنانى عن الكثير مما حاول البعض من أنصار البنا أن يقولوه لى.

لفت نظرى إلى هذا الرجل سمته البسيط، ومظهره العادى، وثقته التى لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته.

كنت أتوقع أن يجىء اليوم الذى يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا فى مصر وحدها، بل فى الشرق كله.

ولاتدهشك خطابة حسن البنا بقدر ماتدهشك إجابته عن الأسئلة التى كان بعضها يتصل بشخصيته وحياته وأسرته.

وقد سئل مرة بعد أن ترك عمله فى الحكومة ورفض مرتب الجريدة الضخم الذي يبلغ مائة جنيه: مم تأكل؟ فقال فى بساطة: كان محمد صلى الله عليه وسلم يأكل من مال خديجة، وأنا آكل من مال «أخى خديجة» يقصد صهره.

وكان أعجب ما فى الرجل: صبره على الرحلات فى الصعيد.. هذه الرحلات التى لا تبدأ إلا فى فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلى فى حالة غليان وفى أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفى القوارب وعلى الأقدام.

وهناك تراه غاية فى القوة واعتدال المزاج.. لا الشمس اللافحة، ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه، ولا هو يضيق بها. تراه منطلقا كالسهم، منصوب القامة، يتحدث إلى من حوله ويستمع ويفصل فى الأمور

وقد أمدته هذه الرحلات فى خمسة عشر عاما، زار خلالها أكثر من أربعة آلاف قرية، وزار كل قرية بضع مرات، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض، وألوانها السياسية وأثرها فى قراها وبلادها ورضا الناس عنها أو بغضهم لها، وما بين البلاد أفرادا وأحزابا وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات.

وكنت إذا قلت له فلان.. الحسينى مثلا أو الحديدى أو الحمصانى قال لك: إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع.. إحداها فى القاهرة، والثانية فى دمنهور، والثالثة فى الزقازيق، والرابعة فى.. فأيها تقصد؟

ولا شك فى أن هذا الجهد الضخم قد أتاح له أن يلتقى بعشرات الآلاف من الناس خصوما وأنصارا، وشيوخا وشبابا، مثقفين وغير مثقفين، وأنه قد استمع إليهم وحدثهم، وأفاد منهم خبرة ضخمة واسعة أضافها إلى علمه وثقافته.

وإننى على ثقة بأن حسن البنا رجل لا ضريب له فى هذا العصر، وأنه قد مر فى تاريخ مصر مرور الطيف العابر الذى لا يتكرر.

لقد كان حسن البنا قديرا على فهم الأشخاص، لا يفاجئك بالرأى المعارض، ولا يصدمك بما يخالف مذهبك، وإنما يحتال عليك حتى يصل إلى قلبك ويتصل بك فيما يتفق معك عليه، ويعذرك فيما تختلفان فيه.

كما كان له من صفات الزعماء صوته الذى تتمثل فيه القوة والعاطفة، وبيانه الذى يصل إلى نفوس الجماهير ولا تنبو عنه أذواق المثقفين، وبتلك اللباقة والحنكة والمهارة فى إدارة الحديث والإقناع.

لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس.. عجب لها كل من رآها واتصل بها. كان فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قوتهم، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماستهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم.

وكان كل جانب من هذه الجوانب يبرز طابعا خاصا فى الوقت المناسب ولكل هذه الصفات التى تقرؤها فى كتب شمائل الصحابة والتابعين، لم يكن مقدرا لصاحبها أن يعيش طويلا فى الشرق.. وكان لابد أن يموت مبكرا، فقد كان غريبا عن طبيعة المجتمع، يبدو كأنه الكلمة التى سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد..

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف الأيدى أمام مثل هذا الرجل الذى أعلى كلمة الاسلام على نحو جديد، وكشف لرجل الشارع حقيقة وجوده ومصيره، وجمع الناس على كلمة الله، وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس ونزعات القومية الضيقة، واعتدلت لهجات الكتاب، وبدأ بعضهم يجرى فى ركب «الريح الإسلامية».

وجملة القول فى الرجل القرآنى: إنه يفهم الإسلام فهما واضحا سهلا يسيرا مما جاء فى حديثه معى، على الطريقة التى فهم بها محمد الإسلام، إنه قريب فى نظرى من أبى حنيفة الذى أصر على رفض القضاء، ومالك الذى أفتى فى البيعة، وابن حنبل الذى أريد على هوى فلم يرد.

وعندما قتل الامام حسن البنا رثاه الشيخ القرضاوى فى قصيدة شعرية قال فيها:

لك يا إمامى يا أعـــز معـــلم
يا حامل المصباح فى الزمن العَمِى
يا مرشـــد الدنيـــا لنهج محمد
يا نفحة من جيل دار الأرقـــم

أهديك نفسى فى قصـــائد صــغتها
تهدى وترجم فهى أخت الأنجــــــم
حســـــبوك مـــت وأنت حـــى خالد
ما مات غير المســــــتبد المجـــرم
حسبوك غبت وأنـــت فينا شـــاهد
نجـــلو بنهجـــك كل درب معتـــم
شيدت للإسلام صـــــرحا لـــم تكن
لبناته غير الشـــباب المســــــلم
وكتبت للدنيا وثيقـــــــة صـــحوة
وأبيـــــت إلا أن توقـــــع بالـــــدم
نم فى جوار زعيمـــك الهـــادى فما
شـــــيدت يا «بـــناء» لم يتهـــدم
سيظل حبك فى القلوب مســــطرا
وسناك فى الألباب واسمك فى الفم

ما لم يفعله الإخوان

سأل الشيخ القرضاوى نفسه هذا السؤال : هل كان انضمامى إلى دعوة الإخوان المسلمين خيراً لى فى دينى ودنياى وهل استفدت من هذه الدعوة؟ والسؤال كان فى مقتبل العمر بعد مضى خمس سنوات عليه فى الحركة.

أجاب قائلاً : أود أن أقول بكل صراحة وجلاء: إننى حققت مكاسب دينية ومعرفية كبيرة، واجتنيت فوائد جمة بانضمامى إلى دعوة الإخوان:

● إنها وسعت أفقى بفهم الإسلام فهماً شاملاً، كما شرعه الله تعالى، وكما أنزله فى كتابه، وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه أصحابه، فهو دين ودنيا، ودعوة ودولة، وعقيدة وشريعة، وعبادة وقيادة، ومصحف وسيف، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

وقد قرر جميع الفقهاء: أن الشريعة حاكمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخرج فعل منها عن حكم شرعى تقرره الشريعة.

فأصبحت أفهم الإسلام بهذا الشمول، ولم يعد مقصوراً على أداء الشعائر، كما كنت أتصور من قبل، وكما لا يزال الكثيرون يتصورون إلى اليوم.

● أسقطت عنى فريضة «العمل الجماعى لنصرة الإسلام» فمن المؤكد اليوم: أن نصرة الإسلام بالقول والعمل والدعوة والبذل، حتى يستعيد القيادة

التى عزل عنها، ويعود حكم شريعته ليشمل كل جوانب الحياة، والوقوف فى وجه التيارات المعادية للإسلام ودعوته وشريعته وحضارته وأمته: كل ذلك لا يمكن أن يتم بالجهود الفردية المبعثرة، بل لابد من عمل تقوم به جماعة، تجتمع على أهداف واضحة، ومفاهيم بينة، يجمعها الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والترابط الوثيق، لتحقيق الأهداف الكبرى للأمة الإسلامية، بعد أن هدمت الخلافة الإسلامية، ولم يعد للأمة خليفة ولا إمام، ولا رباط ولا نظام. ومن المعلوم أن يد الله مع الجماعة، وأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأن الذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة، وأن التعاون على البر والتقوى من فرائض الإسلام.

وإذا كان أعداء الإسلام يعملون مجتمعين مترابطين، فلا يجوز أن نقابلهم منفردين متناثرين، والله تعالى يقول:﴿ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣)، فأشار إلى أن النصر إنما يتحقق بالمؤمنين المترابطين المؤتلفين.

● انتقلت من مجرد «واعظ دينى» فى القرية أو القرى المجاورة إلى «داعية إسلامى». فلم يعد همى محصوراً فى الحفاظ على التدين الفردى فى نفس المسلم، وإن كان هذا ضرورياً ولابد منه، ولكن لابد من «يقظة إسلامية» عامة، تصحو بها العقول، وتحيا بها القلوب، وتنهض بها الشعوب.

الواعظ الدينى معنى بترقيق القلوب، وتذكير الناس بالموت، واستخدام الرقائق والحكايات وأحاديث الترغيب والترهيب، صحت أم لم تصح. والداعية الإسلامى مهمته أن يثقف الفكر، ويوقظ الشعور، ويشحذ العزائم، ويعلى الهمم، ويحشد الطاقات، ويجمع القوى، ويوثق الروابط، ويجمع الأمة ما استطاع فى ساحة الإسلام.

● وبانضمامى إلى دعوة الإخوان، انتقلت من الهموم الصغيرة إلى الهموم الكبيرة، ومن المطامح التى تتعلق بشخصى إلى الآمال المتعلقة بأمتى. لم يعد كل طموحى أن أتخرج، ثم أتوظف، ثم أتزوج، وأكون لنفسى مستقبلاً خاصاً، بل أصبح طموحى أعمق وأكبر من ذلك، وغدت آمالى أعرض وأوسع من مجرد المكاسب الشخصية، والمستقبل الفردى.

أصبحت أطمح إلى تحرير وادى النيل وديار العرب والإسلام من كل سلطان أجنبى.

وأطمح إلى طرد الأفكار والأنظمة والقوانين الوضعية المستوردة، وإحلال الأفكار والأنظمة والأحكام الإسلامية محلها.

وأطمح إلى أن تتقدم الأمة المسلمة، وتأخذ مكانها فى ركب العلم والتكنولوجيا، وتخرج من سجن التخلف الرهيب.

وأطمح إلى أن تتوحد الأمة بعد أن فرقتها العصبيات الجاهلية، والمذاهب المستوردة، والأنانيات الحاكمة، ناهيك بالفتن الاستعمارية التى كان شعارها: فرق تسد.

وأطمح إلى أن تعود الخلافة الإسلامية، لتقود الأمة تحت راية القرآن، وزعامة محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد استحالت همومى الصغيرة، إلى هموم كبيرة، هموم أمة كبرى من المحيط إلى المحيط.

● ومما استفدته من مدرسة الدعوة: الخروج من العزلة التى فرضت على أبناء الأزهر، نتيجة التعليم المزدوج، فكان أبناء مصر طائفتين: «دينية» لمن يتخرج فى الأزهر، و«مدنية» لمن يتخرج فى التعليم العام، وبين الفريقين حواجز ثقافية ونفسية تفصل بينهما، ولا يكاد أحدهما يلتقى الآخر. فكان من فضل دعوة الإخوان أن أزالت الحواجز، وأذابت الفوارق المتوارثة بين الفئتين، وكانت شعبة الإخوان هى «الخلاط» الذى يمزج الجميع، ويجمع بينهم فى رحاب الدعوة.

ولهذا عرفت كثيراً من شباب المدارس الثانوية، واستمعت إليهم، كما استمعوا إلى، واستفاد كل منا من صاحبه، ولم تعد أى عقدة بين أهل «العمائم» وأهل «الطرابيش» أو بين المشايخ والأفندية.

لقد تعرفت إلى كثير من هؤلاء «الأفندية» من رجال الدعوة، يصعب حصرهم، أذكر منهم الأستاذ حسنى الزمزمى، وكان رجلاً حقوقياً، مثقفاً داعية، عالماً بالعربية، قارئاً مجيداً للقرآن، له نظرات نقدية فيما يقرأ ويسمع، وكان له شيخ أخذ عنه، وكثيراً ما يقول: حدثنى شيخى الشيخ فهمى.

وكان من الشخصيات التى عرفتها فى الإخوان : الأستاذ على جعفر المدرس الأول للغة العربية فى المدرسة الثانوية، وكان رجلا متضلعا فى اللغة مع خفة الروح، فكان فى أحاديثه الدعوية يمزجها بفوائد لغوية، فى أثناء حديثه، فيقول : ولن نتزحزح عن موقفنا قيد شعرة، ولا يقال : قيد شعرة، ولو قطعونا : إرْبا إرْبا، ولا يقال : إرَبا إرَبا. وسنطلق «العنان» لشباب الأمة ليحملوا راية الجهاد، ولا يقال : (العنان) إنما يقال : بلغ عَنانَ السماء.

ويقول الأستاذ جعفر : اعذرونى، فأنا تغلبنى مهنة المدرس، على مهنة الداعية.

عتاب :

ومع ما اجتنيته من مدرسة الدعوة الإخوانية من ثمرات لا أجحدها-الكلام للشيخ القرضاوى- كما اجتناها أمثالى من الشباب الذين التحقوا بموكب هذه الدعوة، والتزموا بموقفها نحو إسلامهم ووطنهم وأمتهم، وتجنبوا ضياع «الشاة المنفردة» التى يلتهمها الذئب إذا بعدت عن القطيع، كما اجتنبوا متاهة الأحزاب التى أغرقت الشباب فى دوامة من الصراعات من أجل السلطة، ولم تتعهدهم بأى قدر من التربية والتوجيه الدينى والأخلاقى.

مع هذا أود أن أقف فى هذه المرحلة ـ المرحلة الثانوية بالنسبة لى ـ وقفة نقدية أعاتب فيها الإخوان، على نهج ما يسمونه فى عصرنا «النقد الذاتى» أو ما نسميه بلغتنا الإسلامية «محاسبة النفس».

لقد التقطنى الإخوان، فوجهونى فى نشر الدعوة هنا وهناك، واعتصرونى اعتصارا، دون أن يكون لهم أدنى اهتمام لتوجيه مثلى إلى ما يجب أن يقرأه وأن يعده للقاءاته ومحاضراته فى البلدان المختلفة. فكنت أنا الذى أختار الموضوع، وأحدد عناصره، وأملأ فراغه بما يتراءى له، وأقرأ له فى إطار ما لدى من كتب وهى محدودة جدا فى ذلك الوقت.

صحيح أنه كان عندى من الوسائل والإمكانات الشخصية ما يشد الناس إلى، ولكن كان يمكن أن يكون أدائى أفضل، وإنتاجى أغزر، وموضوعاتى أخصب، لو كان معها التوجيه والتنظيم والإعداد العلمى. ثم التقويم والمراجعة للدعاة وأدائهم وأثرهم فى كل مدة من الزمن، كل ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو سنة.

وربما رد بعض الناس ذلك إلى عيب فى الجماعة، هو : ضعف الاهتمام بالجانب الثقافى أو العلمى أو الفكرى فيها، حتى شيخنا البهى الخولى عندما وجهنا فى «كتيبة الذبيح» كان أكبر همه التوجيه الروحى والسلوكى، وهو مهم ولا شك، ولم يكن همه التكوين العلمى أو الثقافى، ولذا لم يوجهنا إلى أى كتاب نقرؤه، أو يكلفنا بأى شىء علمى نقوم به. كانت الفكرة المسيطرة : أن يدربنا على «السمع والطاعة»، فعلينا أن نقول لقادتنا ما قال إسماعيل لأبيه : ياأبت افعل ما تؤمر. فهو يريد جنودا مطيعين، أكثر مما يريد دعاة مثقفين.

وربما كان سببه اعتمادهم على مرشدهم ومؤسس حركتهم الأستاذ البنا، فرسائله ومقالاته مصدر تثقيفهم، ودروسه الأسبوعية كل ثلاثاء معين توجيههم، فإذا شغلت الأستاذ البنا الشواغل الكثيرة : الدعوية والوطنية والإسلامية، خوى وفاضهم، ونفدت بضاعتهم، وقل المعروض فى سوقهم.

وهو ما شعر به الأستاذ البنا، وجعله يفكر فى إصدار مجلة (الشهاب) لتكون مددا ثقافيا مركزا للإخوان، كما ذكرنا من قبل. ولكن المجلة وحدها لاتكفى، فلابد أن يتخلل ذلك كيان الجماعة، ويدخل مناهجها التثقيفية والتربوية، وأن يقدم العلم على العمل، كما هو منهج القرآن والسنة، فقد نزل قوله تعالى : «اقرأ باسم ربك» (العلق : ١) قبل قوله تعالى : «يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر» (المدثر : ١-٤).

ولكن الإخوان شاع لديهم إيثار الجانب العملى والجهادى على الجانب العلمى والفكرى، وهذا المناخ هو الذى ولد فيه الاتجاه الثقافى الذى سمى فيما بعد «لجنة الشباب المسلم» التى سعت إلى ترجمة رسائل الأستاذ أبى الأعلى المودودى، ومحاولة تلقيح فكر الإخوان بفكر «الجماعة الإسلامية» فى شبه القارة الهندية.

وكنت أتمنى من الإخوان أن يكون لديهم تفكير «استراتيجى» فيما يتصل بشبابهم، والانتفاع الأقصى بمواهبهم وقدراتهم الخاصة، ومساعدتهم فى التوجه إلى أفضل ما ينفعهم وينفع دعوتهم وأمتهم.

كان يمكنهم أن يوجهوا مثلى إلى تدريب قلمه على الكتابة، بدل أن تستنفد كل طاقته فى الخطاب الشفهى، ولم أكن أكتب إلا عناصر الموضوع الذى أتحدث فيه.

وكان يمكنهم أن يوجهونى إلى تعلم «اللغة الإنجليزية» وأن يساعدونى ماديا عليها، وقد كان لدى قدرة لغوية غير عادية، ولدى وقت فراغ، خصوصا فى عطلات الصيف، ولو تم هذا لكان فيه خير كثير، لى وللدعوة التى نذرت حياتى لخدمتها. ولكنهم لم يفعلوا، بل لم يخطر لهم ذلك ببال.

كان يمكنهم أن يرتبوا لقاءات منهجية لشباب الدعاة من الإخوان فى الأقاليم بالأستاذ البنا، ليتعلموا منه، ويستمعوا إليه، ويلقوه وجها لوجه، فى دروس معدة ومخططة، ولو فى أثناء العطل، فيقبسوا من علم الأستاذ وثقافته، وحسن تجربته، ويشربوا من روحه.

وكذلك من يرشحهم الأستاذ البنا من الدعاة والعلماء الذين يراهم أهلا لتوجيه الدعاة.

ولكنهم للأسف لم يفعلوا، بل لم يفكروا مجرد تفكير فى مثل ذلك، فقد كان الكثيرون تغيب عنهم النظرة الاستراتيجية أو الاستشرافية للمستقبل.

هذه ملاحظة ناقدة سريعة ولكنها لاتمس جوهر الدعوة وسمو أهدافها، وعظم مجهودها فى خدمة الدين والأمة بحال.

الفصل الثانى

أسرار العلاقة بالسلطة



العقيد الليبى
معمر القذافى
يرحب بحرارة
بالقرضاوى



الرئيس السورى بشار الأسد مستقبلا الشيخ

الشيخ القرضاوى يكشف أسرار علاقته بالسلطة

تطرح مسيرة حياة وكفاح شيخنا العلامة أ. د.يوسف القرضاوى الممتدة على مدار سبعين عاما حتى الآن إشكالية ليست غريبة أو عجيبة، رغم أن مظهرها لا يكاد يخلو من عجب واستغراب، وذلك لأن هذه الاشكالية قديمة جدا، ومتجددة فى كل الأزمنة والعصور.

الإشكالية المقصودة هنا هى علاقة علماء الدين برجال السلطان والحكم. وعلماء الدين على وجه التحديد الذين لا يخشون فى الله لومة لائم - سواء فيما يتصل بحقوق الله أو بحقوق العباد.

شيخنا الاستاذ الدكتور يوسف القرضاوى وخلال وجوده فى دولة قطر على مدى ست وثلاثين سنة استطاع أن يقدم نموذجا فريدا فى العلاقة مع السلطة وهو نموذج متميز ويصلح كمثال واجب الاقتداء مع أن تجربته مع السلطة فى مصر وحتى قبل الخمسينات بقليل أكثر من مريرة.

ترى كيف حدث هذا؟ ولماذا كانت هذه المفارقة؟ وهل هناك عوامل أدت إلى تحقيق هذا التوازن فى العلاقة مع السلطة لرجل مشكلته الأولى والاصلية ناتجة علاقة من نوع ما مع السلطة أيضا؟!

هذا ما سيكشف عنه شيخنا بكل صراحة ووضوح.

سألت د.القرضاوى مباشرة عن سر هذه العلاقة المتوازنة مع السلطة فى دولة قطر.. فى حين تبدو غير ذلك على الجانب المصرى!!

فأجاب فضيلته بلا تردد.. قائلا: الوضع فى قطر غير الوضع فى مصر للأسف.. فى مصر ضاقت بنا السلطة سواء فى عهد الملكية أو فى عهد الثورة.. فى الملكية أخذنا إلى المعتقل وكنا طلابا فى السنة الخامسة الثانوية بمعهد طنطا الدينى فى سنة ١٩٤٩ وحرمنا حتى من امتحانات الدور الأول فى المعتقل وشاء الله أن ندرك امتحانات الدور الثانى فى الشهادة الثانوية وهذا الذى حدث فى أيام الملكية حدث مثله وأشد منه قسوة فى عهد الثورة فاعتقلنا فى يناير ١٩٥٤ أقل من ثلاثة أشهر ثم اعتقلنا فى أكتوبر بعد ذلك فى نفس السنة وبقينا عشرين شهرا فى المعتقل وذلك لخلاف مع السلطة القائمة لأننا نحن فى بلادنا العربية والإسلامية عموما إلى الآن للأسف ليس عندنا صدر رحب يتسع للرأى الآخر والرأى المخالف وخصوصا فى العهود التى يسمونها العهود الشمولية التى تقوم على نظرية الحزب الواحد والزعيم الواحد وكل شىء واحد، مع أنه لا يوجد واحد إلا الله سبحانه وتعالى وكل شىء متعدد إنما هؤلاء قاموا على هذا الوضع فهم لا يرضون أية فكرة تخالف فكرْتهم ولا أى جماعة تعارض حزبهم ولا أى شخص يقول لزعيمهم لم؟ ناهيك أن يقول له لا!!

من أجل هذا حدث ما حدث فى البلاد الغربية حيث هناك الحرية يوجد الرأى ومعارضه.. والشخص ومقابله، والفكرة وضدها، هذه سنة الله فى الحياة، لذلك حدث هذا الصدام فى مصر، وقدر لى أن آتى إلى قطر فى عام ١٩٦١.. وفى الواقع اننى حينما جئت قطر كنت عازما فى نفسى أن أعيش بعيدا عن الناس، وهو ما كان مسيطرا على ذهنى أول الأمر.. فالمجتمع لا يعرفنى، وأتيت مديرا للمعهد الدينى فأنا أعمل فى عملى الرسمى ولا أدخل إلى أعماق المجتمع ولكن تبين أن هذا كان وهما وغير ممكن، إذ سرعان ما دخلت إلى المجتمع عن طريق الدروس والمحاضرات والخطب، والمناسبات المختلفة، فما عاد هناك مجال.

بداية علاقتى بالسلطة

ومن أول سنة جئت كان هناك عادة مشايخ الأزهر الذى يدرسون العلوم الشرعية فى قطر كانوا موزعين فى مساجد قطر فاختير لى أن أذهب إلى مسجد نائب الحاكم آنذاك، وكان هو صاحب السمو الشيخ خليفة الأمير السابق حفظه الله وعلى اساس أن أبقى نصف الشهر عنده، وأذهب إلى مكان آخر، ويأتى عالم غيرى فى النصف الثانى، وبالفعل بقيت أسبوعين فى المسجد ولما ذهب العالم الآخر إلى مسجد نائب الحاكم، فسأل الشيخ خليفة عبدالله بن تركى أين القرضاوى؟! فقال له: ذهب إلى مسجد آخر فقال الشيخ خليفة: أريد القرضاوى ولا أريد أن تغيره فبقيت أدرس فى هذا المسجد وكان درسا عاما وكان يحضره نائب الحاكم مع بقية الناس وبدأت الصلة هكذا طبيعية ولم يكن فى ذلك الوقت إذاعة ولا تلفاز ولا صحافة وكان المسجد هو الشىء الوحيد الذى نطل منه على الناس حتى أن مسجد الشيخ خليفة هذا بيت الشيخ بالداخل من الحريم وغيرهم.

- قالوا نريد أن نسمع الشيخ القرضاوى فصنعوا ما يشبه إذاعة داخلية، ثم كبرت هذه الاذاعة وأصبحت تذاع من المسجد الكبير مسجد الشيوخ على مستوى أهل الدوحة - إذاعة محلية ظلت عدة سنوات قبل أن تأتى الاذاعة الرسمية، فلما جاءت الإذاعة الرسمية كنا بدأنا الاذاعة فى أهل الدوحة.

بدأت العلاقة طبيعية جدا فى الحقيقة بينى وبين الحكام ما تعودت أن أنافق، أو أتملق ولا أن أمدح بالعكس أحيانا كنت أقول أحاديث ساخنة وكان الشيخ خليفة حفظه الله يقول: والله أنت سلختنا يا شيخ قرضاوى اليوم، فكان يتقبل هذا الكلام بصدر رحب وذلك من الجائز لأنى لست عدوا ولا أدبر انقلابا ولست أحمل شيئا إلا النصيحة والدين النصيحة لله وللرسول ولأئمة المسلمين وعامتهم وأقول هذا بحرارة وإخلاص بحيث يكون لها تأثيرها فهذه المودة التى نشأت طبيعية واستمرت بعد أن صارت لقطر إذاعة وتليفزيون وصحافة أسبوعية فيومية فبدأت أخاطب الناس من هذه المنابر كلها وأيضا أقول لك بصراحة لست متهورا، وأزن الأمور فقد صار لى منذ انشئت إذاعة قطر برنامج اسمه نور وهداية، وظل سنين طويلة مع برنامج أسبوعى اسمه هدى الإسلام وما لفت نظرى أحد قط بأننى قد تجاوزت أو

خرجت على الموضوع أو وضع لى أحد خطا أحمر أو أى شىء أبدا، لا من مسئول إذاعى ولا تليفزيونى ولا حاكم أو نائبه أو وزير وأشهد أن لى الحرية وأنا أزن الأمور، وأحيانا أتكلم بعض الكلام الساخن ففى خطبة الجمعة مثلا وهى خطبة تذاع على الهواء أنقد بعض أوضاع ونقدى ربما كان فيه بعض الحرارة ثم أسافر لمدة فالناس يقولون منعوا الشيخ القرضاوى، لم يعد يخطب. فأقول لهم هذا وهم فأنا لم أمنع، ولم يكلمنى أحد فيما قلت أو غيره وأعود وأخطب من جديد وأمارس حقى فى هذا فى حدود الحكمة المعقولة أيضا والتوازن المطلوب الذى يراعى فيه الإنسان الأوضاع والظروف ولا يكتم الحق أيضا وأحمد الله أنى لم أقل باطلا، ولم أحاول أن أرضى إنسانا وأسخط الله سبحانه وتعالى.

وهذا حقيقة مما يحمد لقطر أنها أتاحت لى هذه الفرصة ووسعتنى على ما قد يكون فيه من الحرارة فى بعض المواقف والقضايا التى أنفعل بها أو أتحمس لها ولكن القوم جميعا وعلى رأسهم أمير البلاد حفظه الله يقدرون هذا.. وأتذكر أنه عندما زارنا سمو الأمير الشيخ حمد بن خليفة حفظه الله فى جامعة قطر وقابلنا قال: الشيخ القرضاوى يحرجنا مع السفراء خاصة فى قضايا الإسلام والاشياء من هذا النوع فالرجل حفظه الله يقدر للرجال قدرهم ويعرف أن للعلماء آراءهم وينبغى ألا نحجر عليهم.

هذه النظرة القطرية العاقلة والمتوازنة والسمحة والتى تنظر إلى الأمور من أفق رحب لا من أفق ضيق وتوازن بين الاشياء بعضها من بعض.. وهذه حكمة نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمهم بها دائما.

علماء الدين.. والسلطة

قلت: الحساسية الموجودة بين علماء الدين والسلطة دائما فى كل العصور، ولا تكاد توجد قاعدة يمكن أن نضبطها فى هذه العلاقة.. كيف تنظرون لهذه المسألة؟!

– أجاب د.القرضاوى: السلطة إذا كانت راشدة فهى تستفيد من علماء الدين، وتعتبر أن هؤلاء العلماء يشدون أزرها وينيرون طريقها ويكونون عونا لها فى أداء مهمتها لأنه إذا عرفت السلطة مهمتها كما قال الله تعالى: «الذين

إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر».

وأن هؤلاء العلماء هم الذين يفتحون لها المغاليق ويضيئون لها الطريق فلا شك أنها ستستعين بهم وهذا ما كان يفعله الخلفاء الراشدون وعمر بن عبدالعزيز وحتى فى عصر بنى أمية وبنى العباس إلى حد معقول، صحيح أنهم كانوا يتخوفون من بعض العلماء الشجعان الأقوياء ولكن ما كانوا يستغنون عنهم كما قال بعض أمراء بنى أمية عندما سأل عن الحسن البصرى وعن قوته فى الدين وشجاعته فى ابداء الرأى ونقد الحكام والأمراء سأل هذا الأمير عن سر قوة هذا الرجل فقال له: احتاج الناس إلى دينه واستغنى عن دنياهم» فالله سبحانه وتعالى آتاه النعمة والمال ولا يمد يده إلى أحد ولا يحتاج إلى وظيفة الدولة ولا يحتاج أن يحتمى بأمير، واستغنى عن دنيا الناس واحتاج الناس إلى دينه وعلمه، كل الناس كانوا يحتاجون إلى دينه من أمير ومأمور وحاكم ومحكوم، كلهم كانوا يجلسون فى درسه ويتعلمون منه ويتفقهون على يديه.

المشكل فى عصرنا: عندما يحتاج العالم إلى دنيا الأمراء ويستغنى هؤلاء عن دينه هناك احتاجوا إلى دينه وهو استغنى عن دنياهم وعندما يكون العالم هو المحتاج إلى دنيا الحكام والحكام مستغنون عن دينه تقع الكارثة ومن هنا الخطر الذى حدث أن العلماء أصبحوا موظفين لدى الدولة قديما كان العلماء يأخذون حقوقهم وحظوظهم من الأوقاف كانت لهم أوقاف كبيرة تدر عليهم فما كانوا يحتاجون إلى الوظيفة لدى السلطة الآن تغير الوضع الدولة استولت على الأوقاف وأصبح العلماء فى كل البلاد مثلا فى مصر.. من شيخ الأزهر إلى من دونه كلهم موظفون عند السلطة، السلطة هى التى توليهم وتعزلهم، هى التى تملك أن تمنح وتمنع، وهذه هى نقطة الضعف.

عند إخواننا الشيعة الأمر بالعكس.. العالم ليس موظفا لدى الدولة، العالم يأخذ من الشعب ما يكفيه عن طريق ما يعرف عندهم «بالخمس»..خمس الدخل، يأخذون بظاهر قوله تعالى: «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه».. والغنم فى كل ما يستفاد وليس فى المسائل الحربية فقط كما يتبادر من اللفظ ولكن كل ما يغنم ويستفاد يؤخذ خمسه أى ٢٠٪ من صافى

الدخل يعطى للإمام ومادام الامام غائبا عندهم فالقائم مقام الإمام وهو العالم المجتهد هو الذى يعطى له الخمس فالشعب يتدين ويتعبد بإعطاء الخمس للمشايخ أو الملالى أو علماء الدين، وهذا مصدر قوة، مصدر مادى غير المصدر المعنوى أن كلمته مسموعة وأمره مطاع فهذا سر القوة ومن أسباب نجاح الثورة الإسلامية فى إيران أن العلماء مستقلون عن الدولة وليسوا موظفين عندها، ولامسخرين لها ويملكون من الاتصال بالشعب ما يمكنهم من أن يحركوا الجماهير ولا يخشون أن يعزلوا من أعمالهم أو تقطع أرزاقهم وأرزاق أولادهم.

لا لحرق البخور

قلت للشيخ القرضاوى:

إذا كان هذا أصبح أمرا واقعا واستولت الدولة على الأوقاف وأصبح الدعاة بحكم الواقع موظفين عند الدولة هذه الاشكالية.. كيف نخرج منها أو نطورها لنحقق أكبر افادة منها؟

فقال: ليس لها إلا أن نربى علماء أقوياء شجعانا لا يخافون فى الله لومة لائم، يقولون الحق ويتكلمون الصدق ولا يسيرون فى الركاب ولا يحرقون البخور بين أيدى الحكام، تربية هؤلاء العلماء الذين يجمعون بين العلم والإيمان والذين وصفهم الله ووصف أمثالهم فى قوله تعالى: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا» فلابد من أن نبذل جهودنا لتربية هذا النوع من العلماء مهما كانوا موظفين فأيضا حتى وإن كانوا موظفين فهم ليسوا عبيدا إلا لله سبحانه وتعالى، هذا هو الأمل ولابد من المواجهة والصبر والمثابرة والصمود فى المعركة إلى النهاية.

استدركت قائلا: هنا حرج وإشكالية وهو أن الدولة هى التى تربيهم أيضا سواء فى المدارس والمعاهد فهى المشرفة والمتحكمة فى وضع المناهج وصاحبة الحق فى المنع والمنح، وتقرير ما يمكن تدريسه والغاء ما تراه.

فقال الشيخ القرضاوى:

ومع هذا يظل هناك مجال للإصلاح والتغيير ومجال للتكوين، وإلا لتوقفت دعوات المصلحين وما استطاع أحد أن يقوم بأى تغيير فى مثل هذا المناخ

قامت دعوات المصلحين قام الشيخ جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، والشيخ حسن البنا والمودودى وفى مجتمعات راكدة وفيها مثل هذه السلبيات ومع هذا استطاعوا أن يفعلوا شيئا بل كان الاستعمار موجودا واستعمار متحكم له نفوذه وسيطرته على التعليم والثقافة ومع هذا استطاعوا أن ينفذوا بمعنى أن المصلح لا يقف فى سبيله شىء وإذا كان مصرا على مهمته ومؤمنا برسالته وأنه صاحب دعوة وحامل رسالة يريد ابلاغها وأداءها سيشق طريقة ويحفر فى الصخر بأظافره، ولن يقف عائق أمامه لأنه لا يعرف اليأس «فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا القوم الضالون فصاحب الدعوة وحامل الرسالة لا يتوقف لسبب ما.

صحيح أنه كلما وجد جو الحرية كان هذا أدعى إلى النجاح والانتعاش، وهذا ما عرفناه من خلال التاريخ القديم والحديث حيث توجد حرية الدعوة وحرية التعبير، وحرية اللقاء بالناس تنعش الدعوة الإسلامية، وحين يوجد الاستبداد والطغيان والتحكم فى الرقاب والتسلط على الناس تبدأ الدعوة فى الضمور والانكماش والطغاة والعلمانيون واللادينيون الذين فرضوا العلمانية واللادينية على المجتمع هؤلاء كيف فرضوها؟

فرضوها على أسنة الرماح تحت وطأة الاستبداد، وخنق الأنفاس وإسكات الألسنة وكسر الأقلام، ولكن حينما وجد متنفس للناس يتنفسون فيه الصعداء ويستطيعون أن يعبروا عن أنفسهم تجد الإسلام يبرز وينتعش ويستيقظ وينتفض العملاق ويخرج المارد من القمقم الذى طالما حبس فيه، فهذا نتيجة الحرية.. فجو الحرية هو الجو الذى ننادى به، أى أن تعطى لنا الحرية ويعطى لدعاة الإسلام الحرية كما يعطى غيرهم من الناس.

أيام السادات

ارتبطت عمليات التعذيب فى السجون للإخوان المسلمين بفترة حكم الزعيم الراحل جمال عبدالناصر ومن كثرة عمليات الربط والارتباط بين الطرفين لا يكاد يذكر الطرفان فى أى مناسبة ألا وتستدعى للذاكرة فورا عمليات التعذيب فى السجون.

وهى معادلة فى حاجة إلى تفسير وتعليل من خبراء وعلماء السياسة والاجتماع؛ إذ أن التفسير الطبيعى لحركة التاريخ يحتم ضرورة الالتحام والارتباط بين الجهات الثورية والجهات الدينية أو أن القوى الثورية دائما ما تلجأ إلى القوى الدينية - إن صح التعبير - وتجعلها الساعد والعضد لها فى مهمتها.. إلا أن الحال تغير تماما مع الثورة المصرية وإن كانت البداية طبيعية - ثم سرعان ما تطورت الاحداث إلى العكس تماما.

على أية حال هى قضية مهمة.. وننطلق منها فى حوارنا الممتد مع العالم والداعية الكبير الشيخ يوسف القرضاوى لنسأله عن جوانب من المعاناة التى لاقاها الاخوان المسلمون فى السجون وكان هو شخصيا فى طليعتهم.

● قلت لشيخنا: ألف الاستاذ أنيس منصور كتابا سمَّاه: «عبدالناصر المفترى عليه أم المفترى علينا» فكيف ترى فضيلتكم القضية؟ وهل هو مفترى عليه أم مفترى عليكم؟

● الشيخ القرضاوى:

نحن لا نريد أن ننكأ الجراح، أنا أقول عن نفسى نحن ظلمنا ظلما بينا على يد عبدالناصر، وقتل منا من قتل تحت السياط وعذب منا من عذب وشرد من شرد وجوع من جوع وقتل بضعة وعشرون أخا فى سجن طره وكل هذا فى عهد عبدالناصر وكان زبانية عبدالناصر ومنهم حمزة البسيونى قائد السجن الحربى كان رجلا بذىء اللسان وجريئا على الله والدين حتى إنه كان يقول «هاتوا ربكم وأنا أحطه فى زنزانة»!! وقد سجلت هذا فى بعض أشعارى فى القصيدة النونية الشهيرة عن معتقل السجن الحربى.

هل كان عبدالناصر يدرى بذلك أم لا..

والله أقول فى هذه الحالة:

إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة

وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

لابد أن هؤلاء يعملون ما يرضى عنه عبدالناصر، فليس معقولا أن يحدث كل هذا وهو فى غفلة عنه كيف هذا؟

فالرجل نكله إلى الله سبحانه وتعالى وقد أفضى إلى ما قدم، ولكن الأمر أحيانا كما يقول الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما

صرت فى غيره بكيت عليه!!

فقد اعتقلت سنة ١٩٤٩ وكنا نعتبر أن الاعتقال سنة ١٩٤٩ شيئا فظيعا، وكان الإخوان حينما يتحدثون عن المحنة وما أصابهم على يد إبراهيم عبدالهادى وفى السجون والعسكرى الأسود، كان الأستاذ حسن الهضيبى يقول لهم: دعوا هذه الأقوال وأنتم لا تدرون ما هو مخبأ لكم من المحن، وكأن الرجل كان بشفافيته وبصيرته ينظر بنور الله ويستشف المستقبل، وما هو مخبوء فى صدره.

ولما جاءت محنة ١٩٥٤ وما حدث فيها فاعتبرنا أن معتقل ١٩٤٩ كان نزهة فعلا وبالمقارنة يعتبر نزهة فعلا.

وفى معتقل ١٩٥٤ لاقينا ما لاقينا، فجاء الإخوة الذين ذهبوا إلى معتقل

سنة ١٩٦٥ وقد عافانى الله منه، فقد كنت هنا فى قطر ونجانى الله بكلمة حق قلتها هاجمت فيها الاشتراكية فأحدثت ضجيجا فى مصر، وكلما جاء أحد من قطر سألوه عن حديث يوسف القرضاوى الذى هاجم فيه الاشتراكية، مما جعلنى أتوجس خيفة من النزول إلى مصر فنجانى الله من هذا المعتقل.

الإخوة الذين حضروا هذا المعتقل قالوا إن معتقل ١٩٥٤ كان يعتبر نزهة بالنسبة لمعتقل ١٩٦٥ لأنه فى هذا المعتقل تطورت الأمور، وتطورت وسائل التعذيب حتى النساء عذبن، ولو قرأت ما كتبته أختنا الحاجة زينب الغزالى «أيام فى حياتى» وما حدث لها شىء لا يتصور حتى الأخلاقيات محيت فعلا وسحقت.

على كل حال نسأل الله أن يجزيه بما يستحق ومن الممكن كما قلت: إن أيام عبدالناصر فى بعض الأحيان يترحم عليها الناس بالنسبة لأيام أخرى.

عصر السادات

● وأيام الرئيس أنور السادات هل ترحمنا عليها أم ماذا كانت؟

●● الشيخ القرضاوى:

أيام السادات فى الحقيقة وخاصة أيامه الأولى كانت جيدة الرجل جاء بتوجه جيد وأراد أن يغلق المعتقلات والسجون السياسية وأن يفرج عن المعتقلين وأن يرفع شعار سيادة القانون وأن يسمح للإسلاميين بالتحرك، فكان هذا من غير شك سببا من أسباب الصحوة الإسلامية، ونموها لأن مشكلتنا الأساسية فى الحقيقة هى مشكلة الحرية، مشكلة الدعوة والصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية مشكلتها الأولى.. الحرية.. إذا وجدت الحرية انتعشت الدعوة ونمت الصحوة، وقويت الحركة ونهضت الأمة لأن الناس يستطيعون أن يعبروا عن ذواتهم وأن يلتقى بعضهم البعض، أن يكتشفوا هويتهم وذواتهم وهذا ما أتاحته سنوات السادات الأولى وكانت هى منطلقا لبروز الصحوة وانطلقت الصحوة فى مصر إلى البلاد الأخرى فمصر رائدة فى الحقيقة، وكما قلت للإخوة فى الجزائر، ان مصر رائدة فى تعلم العدل، وتعلم الظلم، مصر هى الأم وهى الأولى.

أحسن عالم يظهر فى مصر، وأحسن قارىء للقرآن يظهر فى مصر وأفضل أديب يظهر فى مصر، وكذلك أحسن راقصة تظهر فى مصر، وأبرز ممثلة تظهر فى مصر، وأكبر فرعون يظهر فى مصر فمصر تصدر الخير، وتصدر الشر.

وأنا أقول هذا فعلا بحق.

فانطلقت الصحوة فى عهد السادات من مصر إلى سائر البلاد الإسلامية ثم للأسف فى المدة الأخيرة تغير حاله مع الإسلاميين خاصة، ومع الناس عامة، فحدث ما حدث «وختمها»!

الإخوان خارج مصر

● عفوا فضيلة الشيخ: إذا قلنا إن السلطة فى مصر تحاملت على الإخوان.. فما هو التفسير لذات المواقف بالنسبة للإخوان أيضا فى الأردن، وفى الجزائر والمغرب والامتداد الطبيعى لوجود الإخوان فهل هناك تحامل أيضا أم أن هناك قوى تدفع بالإخوان إلى هذا الطريق أو أريد للإخوان أن يكونوا كذلك.

●● الشيخ القرضاوى:

هذا كلام صحيح.. والأمر ليس داخليا فقط.. هو داخلى وخارجى.. أنا صحيح لست من أنصار التفسير التآمرى للتاريخ ولا للأحداث ولكن لا أستطيع أن أعمى عن الواقع والواقع يفرض نفسه، ونحن نرى الأشياء أمامنا واضحة للعيان، هناك تخوفات فى الغرب من الإسلام، هناك أحقاد موروثة من أيام الحروب الصليبية ومازالت رواسبها فى النفوس، ولعل هذا ما كان يحكم قضية مثل قضية البوسنة والهرسك فالذى جرى من تقتيل واغتصاب ومن تدمير وتحريق ومن هتك للأعراض ومن تقطيع للأوصال للرجال وللنساء هذه أمور ليست عادية.. هذه أحقاد.. أحقاد صليبية فالأحقاد القديمة والمخاوف الحديثة هذه من الإسلام، وان الإسلام يخشى منه أن يعود من جديد خصوصا بعد الصحوة الإسلامية المعاصرة التى ردت الشباب إلى الاسلام هذه الملايين التى عادت إلى الإسلام تؤمن به وتلتزم به فكرا واعتقادا وسلوكا هذا شىء ليس بالهين، صحوة إسلامية فى كل مكان صحوة

عقول وأفكار، تقرأ الكتاب الإسلامى فى كل البلاد العربية والإسلامية فهذه صحوة عقول وأفكار، والمكتبة الإسلامية أصبحت غنية فى كل النواحى مئات الرسائل الآن فى الاقتصاد الإسلامى، رسائل الماجستير والدكتوراه لو بحثت عن الرسائل العلمية والأكاديمية تجدها بالمئات، وهذه صحوة عقلية، وصحوة عاطفية.. الحماس الدافق هذا للقضايا الإسلامية، الناس تتحرك من أجل الإسلام، الالتزام السلوكى، المساجد التى كانت فى الزمن الماضى لم يكن يرتادها إلا الشيوخ وكبار السن والمحالون للتقاعد والذين أصبحوا على حافة القبر، الآن تمتلىء بالشباب، مواسم الحج والعمرة، كلها من الشباب والشابات المسلمات.

فى عصر من العصور كنت تسير فى عواصم البلاد العربية لا تكاد تجد امرأة محجبة، تجدها عجوزا، أكل الدهر عليها وشرب وترتدى ما يسمى الجابوبيز أو المينى جيب أو الميكروجيب أو الزفت جيب وغيره.

الآن أدخل فى الجامعات وأذهب للمعاهد والمدارس تجد الآلاف المؤلفة هذه كلها والمجاهدون باسم الإسلام ينتصرون على القوة الثانية فى العالم.. ينتصرون على الاتحاد السوفيتى.. وأن كانوا الآن خذلونا بمواقفهم إنما الجهاد كان فى أوله شيئا رائعا.

الانتفاضة فى فلسطين انتفاضة إسلامية.. كانت تسمى بثورة المساجد فى أول الأمر لأن منطلقاتها كانت من الجوامع بغزة وغيرها وكانت ميكروفونات المساجد هى التى تنادى «حى على الجهاد» وكانت شعاراتها لا إله إلا الله والله أكبر وكان نشيد الأطفال «خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود» وكانت المصاحف هى الرايات المرفوعة، على المستوى الجهادى ظهر الإسلام.

على المستوى الاقتصادى ظهرت البنوك الإسلامية والمؤسسات الإسلامية وهى منتشرة فى العالم كله.. فهذه صحوة وصحوة قوية وكانت فى الشرق والغرب وبلاد العجم وفى العالم الإسلامى وخارجه، حتى فى بلاد الأقليات الإسلامية والجاليات الإسلامية فى الغرب فى أمريكا واستراليا ولذلك على قدر قوة هذه الصحوة جاءت قوة الضربة الموجهة اليها.. ضربة عنيفة وحشية.

الغرب قال: إن الإسلام هو الخطر القادم.. سقط الاتحاد السوفيتى

وأرادوا أن يتخذوا عدوا جديدا يشحذون به العزائم ويحركون به الهمم ويثيرون به الشعوب، فقالوا إن العدو المرشح هو الإسلام وسموه الخطر الأخضر، وكتب المنصفون منهم فى هذا مثل البوفيسور «فوزيتو» وهو استاذ معروف بجامعة جورج تاون كتب كتابه: «الخطر الإسلامى بين الحقيقة والوهم» وذكر أن الخطر الإسلامى هذا أسطورة وليس هناك خطر إسلامى ومع ذلك هم يجسمون هذا الخطر ويحاولون أن يخوفوا منه شعوبهم ويخوفوا منه حكام المسلمين.

المشكلة فى هذه الحقيقة: انهم أقنعوا حكام المسلمين أن الإسلام خطر عليهم، وأن الصحوة الإسلامية ستكون عدوا لهم، ولذلك حدث ما حدث فى كثير من البلاد الإسلامية من الصدام الدموى وما كنا نحب أن يسفك دم إنسان واحد فى أى بلد، لأن حرمة الدماء فى الإسلام معروفة والقرآن الكريم يقرر أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا والحديث الشريف يقول: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل إمرىء مؤمن بغير حق.. فنحن نرفض إسالة الدماء بالجملة ونريد أن يحتكم الناس إلى الشرعية وإلى القانون ويحاكم الناس حكما قضائيا حتى يصل الجميع إلى بر السلامة.

القرضاوى.. وعبد الناصر!!

قليل جدا من العلماء والعظماء من خطوا بأنفسهم مسيرة حياتهم وسجلوها فى كتاب وهم ينعمون بالحياة.. كتبوا بشجاعة وجرأة وأمانة أيضا.. وهذا هو الأهم.. أحد هؤلاء القلائل العلامة الدكتور يوسف القرضاوى.. وقد خط بيمينه كتابا اختار له عنوانا جميلا وهو ملىء بالرسائل المباشرة وغير المباشر مشحون حبا وانتماء وأصالة ووفاء وعرفانا بالفضل.. آثر الشيخ أن يكون العنوان «ابن القرية والكتاب».. والكتاب بمثابة سفر النشأة والتكوين صدر منه ثلاثة أجزاء من الحجم الكبير (قرابة الخمسمائة صفحة لكل جزء) عن دار الشروق بالقاهرة.. وقد أخبرنى فضيلة الشيخ خلال لقائه بالدوحة مطلع الربيع الماضى.. أنه أوشك على الانتهاء من الجزءين الرابع والخامس.. وسيدفع بهما إلى المطبعة فورا.

وأهمية الكتاب ليست فى أنه يقدم للأجيال فى مختلف الأعمار مسيرة حياة عالم فاضل وجليل ورحلة جهاد وكفاح علمى من الطراز الرفيع.. بل هو بمثابة لوحة فنية غاية فى الابداع عن واقع الحياة فى المجتمع المصرى واستطاع الشيخ أن يقدم تشريحا مقطعيا.. لقطاعات عريضة من الشعب فى كل مكان.. فى القرية والريف عموما.. فى المدينة.. فى النظام الاجتماعى والعلاقات السائدة بين الأغنياء والفقراء.. والأغنياء والأغنياء.. صراعات أصحاب النفوذ سلطان العلم والثروة.. تفاعلات الحياة السياسية

والاقتصادية.. حالة الغليان والانتفاضة ضد قوى الاستعمار الأجنبى.. ثم بدايات ثورة يوليو وما تبعها مع التركيز بالطبع على ما حدث بين الثورة والإخوان وسجالات المواجهة والمطاردة وحالة شبه الحرب بين الطرفين ـ وإن كانت الحرب من طرف واحد على حد تعبير الشيخ القرضاوى.

فقد حدث أن سأل أحد ضباط مباحث أمن الدولة الشيخ القرضاوى عن قصيدته النونية الشهيرة.. وهل هو كاتبها أثناء السجن أو لا.. ووجه الضابط اتهاما للشيخ والقصيدة باعتبارها إحدى المنشورات المضادة للثورة والتحريض عليها فأجاب الشيخ الضابط بإجابات ملتبسة فيها تعريض.. ولم يجب بنعم صريحة أو لا قاطعة.. وفى نهاية الاستجواب قال له الضابط.. يعنى أقدر أعفيك من المسئولية قال له الشيخ: تقدر يعنى.. وسرعان ما أفرج عنه.

إلا أن الشيخ القرضاوى أخذ يحدث نفسه: لماذا لم يجب صراحة على الضابط ولماذا لجأ إلى التعريض ولم يعترف صراحة بأنه صاحب القصيدة.. واعتبر أن الكذب هنا مباح قياسا على السماح للجند بالكذب فى حالة الحرب مع العدو.. وقال القرضاوى نحن الآن أشبه بحالة الحرب ولكن من طرف واحد!!

أسلوب السرد فى الكتاب ممتع وأخاذ.. مع أن الشيخ ليس من كتاب القصة والرواية ـ وإن كان قد برع فى الشعر وفنونه ـ ويستوقفك لفترات راحة ممتعة أيضا بتقديم تحليل ورؤية خاصة وتفسير لما يحدث.. وفى أغلب الأحيان يقدم شهادته على العصر.. أو تلك الحقبة التى سار بنا خلالها بين عتبات التاريخ والأحداث.

فعل الشيخ القرضاوى هذا فى محطتين مهمتين.

ـ وقفة تأملية مع الإخوان. (الإخوان المسلمين طبعا).

ـ ووفاة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.

وأحسب أن الشيخ فى وقفته مع عبدالناصر كان يقاوم حالة حادة من الصراع النفسى والأدبى والعلمى والدينى أيضا.. والرجل معذور لهول ما لاقاه من ظلم وتعذيب هو والإخوان فى عهد عبدالناصر وإن لم يكن بيد عبدالناصر.

إلا أن الشيخ انتصر فى النهاية للقاعدة القرآنية العظيمة «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا.. اعدلوا هو أقرب للتقوى».

يسجل بأمانة حالة الحزن التى هزت مصر لوفاة عبدالناصر.. والحزن

الذى خيم على دول الخليج عامة لرحيله.. فقد كانوا بصفة عامة الخليجيون معجبين به محبين له فهو الزعيم الذى أشعرهم بوجودهم أمام الاستعمار المتغطرس.. وقد كانوا منسيين لا يحس بهم أحد.. كما وقف عبدالناصر فى وجه الغرب حين خرج من أسر احتكار السلاح.. ثم تحدى أمريكا فى بناء السد العالى.. وكل هذا حبب عبدالناصر إلى أهل الخليج وخصوصا بعد تبنيه لدعوة القومية العربية التى صادفت هوى فى قلوب كثير من العرب.

أكد أن الناس فى رجل كعبد الناصر جد مختلفين.. فله أنصار يرتفعون به إلى أعلى عليين.. وله خصوم يهبطون به إلى أسفل سافلين.. وبين مدح المغالين فى المدح.. وقدح المغالين فى القدح تضيع الحقيقة.

وينفى الرجل أن تكون للسهام التى لاقاها وآثار الجراح والمظالم التى لاتزال فى نفسه والمضايقات وغير ذلك.. تأثير فى حكمه وفى أن يكون منصفا فى تقويم عبدالناصر واعترف بأنه سيسلك «المنهج الوسط» الذى اختاره منهاجا له فى حياته.

وعدد الشيخ الأخطاء الاستراتيجية الكبرى التى وقع فيها عبدالناصر ونظامه ومسئوليته عن كثير من المآسى التى أصابت الإنسان المصرى والعربى أيضا خاصة ما حدث فى السجون وإلغاء الحياة الديمقراطية.

ورفض أى اتهامات لعبدالناصر بالعمالة لأى قوة أجنبية.. ولم يقر صراحة بأنه كان ماركسيا وإن ظهرت تأثيرات الماركسية فى مواضع شتى.. وفى جانب تدين عبدالناصر يقول: إنه لم يعرف عنه أنه يشرب الخمر ولم تعرف عنه علاقات نسائية محرمة.. ولكنه لم يشتهر عنه إقامة الصلوات. مثلما كان معروفا عن الملك فاروق من قبله والرئيس السادات من بعده وحضورهم صلوات الجمعة والمناسبات الدينية وغيرها.

على أية حال قدم الشيخ القرضاوى شهادته على عبدالناصر وعصره.. إلا أنه لم يقدم لنا الرئيس السادات.. وعهد الرئيس حسنى مبارك فهل سنجد الشهادة فى الأجزاء القادمة.. أم أن الشيخ سيستجيب لضغوط بعض الأصدقاء والمحبين له بتأجيل شهادته على العصر.. وأن يقتصر أمر الكتاب على الجانب الشخصى والحياتى فقط؟!

عبد الناصر وعهده

رحل الزعيم جمال عبد الناصر إلى جوار ربه والشيخ القرضاوى فى قطر.. وقد كان للخبر وقعه على الجميع منذ بدأت الإذاعة المصرية تقدم لخبر الرحيل المفاجئ وموت الزعيم..

ومن الطبيعى أن يكون رد فعل جماعة الإخوان مغايرا على وفاة عبد الناصر كنتاج طبيعى لما لاقاه الأعضاء فى عهده من ويلات داخل السجون وخارجها.. البعض عبر عن فرحه برحيل طاغية مستبد.. والبعض حزن لخسارة زعيم وقائد يتمتع بكاريزما خاصة وحب لا يمكن انكاره على ساحة الوطن العربى كله..

واختلف إخوان قطر حتى فى واجب التعزية فمنهم من رفض تماما ومنهم من قدم العزاء على استحياء.. ومنهم من قدمه من باب سد الذرائع ودرء المفاسد.. وأحسب أن الشيخ القرضاوى كان من النوع الأخير..

وقد واجه القرضاوى حملة شعواء عليه من الإخوان بدعوى أنه قدم العزاء فى الطاغية الذى عذبهم وعطل دعوتهم وعوق مسيرتهم وفعل بهم الأفاعيل..

ورغم هذا وقف الشيخ وقفة متأنية نافذة فاحصة فى تقييمه وشهادته على عهد عبد الناصر.. وحاول قدر الامكان أن يقف موقف العدل والصدق من موقع عالم الدين وأخلاق المسلم الصادق

يقول القرضاوى فى كتابه «ابن القرية والكتاب»:

لقد غيب الموت عبد الناصر، وطويت صفحته من دنيانا، ولقى ربه بما له وما عليه، وسيجزيه ربه بما يستحقه، يوم تبلى السرائر، إذا بعثر ما فى القبور، وحُصل ما فى الصدور، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ولا يضيع عنده مثقال ذرة، ولا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما. ومعنى الظلم: أن يحمل وزر غيره، ومعنى الهضم: أن يضيع أجر عمله.

ومن الناس من إذا مات ماتت خطاياه معه، فطوبى له. ومنهم من يموت ولا تموت ذنوبه، بل تبقى من بعده آثار ظلمه وعدوانه، وهو الذى قال الله تعالى فى أمثاله: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس:١٢).

هل من حقنا أن نقف وقفة متأنية لتقويم عبد الناصر وعهده، وما فيه من حسنات وسيئات، وإنجازات وإخفاقات؟ هل كانت ثورة ٢٣ يوليو خيرا أم شرا على المصريين والعرب؟

ربما توقف بعض أهل الدين من الناحية الشرعية، وقالوا: نحن أمرنا أن نذكر محاسن موتانا، وجاء فى الحديث: « لا تذكروا هلكاكم إلا بخير» كما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن سب الأموات، لسببين: الأول: أنهم أفضوا إلى ما قدموا، وأمسوا عند رب عادل يحاسبهم.

والثانى: أن سب الأموات يؤذى الأحياء، ممن يهمه أمر الميت من أبناء وأقارب وأصحاب.

لهذا يتورع بعض المتدينين عن الكلام عمن مات، وإن أصابه من ظلمه مما أصاب، ووكل أمره وجزاءه إلى من لا يخفى عليه خافية، ولا تضيع عنده مظلمة مظلوم، ولا حق مهضوم.

ولكن إذا كان السب ممنوعا، فإن النقد الحق مشروع، لاسيما من كان يتحمل مسؤولية عامة، فإن من حق الناس أن ينقدوا اعماله، ويثنوا على ما كان فيها من حق وخير، وينكروا ما كان فيها من باطل وشر. وهذا ما فعله المؤرخون المسلمون الأثبات فى تقويم الخلفاء والأمراء، من بنى أمية، وبنى العباسى وغيرهم. وقالوا: كان فلان عادلا، وكان علان ظالما، وأوسعوا الحجاج بن يوسف ذما وتجريحا.

فالتعديل والتجريح من أجل مصلحة الدين، ومصلحة الأمة: أمر مشروع.

وعلى هذا مضت سنة أئمة الحديث فى خير القرون ومن بعدهم: يقولون عن الموتى فى كتبهم: هذا مغفل، وهذا كثير الغلط، وهذا مدلس، وهذا كذاب، وهذا أكذب الناس، ليحذروا الأمة أن تثق بهؤلاء، أو تأخذ عنهم الدين.

وسيظل من حق المظلوم: أن يصرخ شاكيا من ظالمه، حيا كان أو ميتا، ما دامت مظلمته قائمة، كما قال تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ «النساء:١٤٨»

ومن هنا لا تعجبوا إذا دعوت إلى نسيان المظالم والمآسى الماضية، وحثثت على رص الصفوف، وتجميع القوى كلها، لمواجهة الخطر المحدق، ومقاومة العدو الشرس، قائلين: عفا الله عما سلف. ولهذا رحبت باجتماع القوميين والإسلاميين من العرب فى صورة المؤتمر القومى الإسلامى، وكنت أحد الذين اشتركوا فى إعداد الورقة التى تمثل الجانب الاسلامى، وحضرت أكثر من مرة دورات هذا المؤتمر فى بيروت. ولا شك فى أن «الناصريين» فى مصر وفى غيرها من العالم العربى: جزء أساسى من هذا المؤتمر.

ولا ريب فى أن الناس فى رجل كعبد الناصر جد مختلفين، فله أنصار يرتفعون به إلى أعلى عليين، وله خصوم يهبطون به إلى أسفل سافلين. وبين مدح المغالين فى المدح، وقدح المبالغين فى القدح: تضيع الحقيقة.

ومما لا يخفى على ذى لب: أن عين المحب لا ترى عيبا فيمن تحب، ولا ترى غير المحاسن والمزايا، كما ورد: « حبك الشئ يعمى ويصم!» وعين الكاره والساخط لا ترى غير العيوب والسقطات. وهذا ما عبر عنه الإمام الشافعى من قديم بشعره الذى يحفظه الخاص والعام:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدى المساويا

وهل يستطيع إنسان أن يتجرد من عواطف الحب والكره، أو الرضا والسخط، وينظر إلى من يقومه نظرة «موضوعية» خالصة بعيدة عن «الذاتية» تماما؟

لا يجرؤ بشر أن يدعى ذلك، وإن بلغ فى تزكية النفس ما بلغ، فلابد أن

تغلبه بشريته، فيحاول- واعيا أم غير واع- أن يضخم بعض الهنات الصغيرة، أو يصغر بعض الحسنات الكبيرة، أو نحو ذلك.

ولقد توقفت فترة من الزمن فى تقويم عبد الناصر، بوصفى ممن جرحتهم سهامه، وأصابهم ظلمه، ولا تزال آثار جراحه فى جسده، وآثار مظالمه فى نفسه، تأتيه فى صورة كوابيس بالليل، وذكريات أليمة فى النهار، ومضايقات فى أشكال شتى، منها ما يعرفه الناس، ومنها مالا يعرفونه. ومن كان فى مثل حالى ربما لا يتوقع منه أن يكون منصفا فى تقويم الرجل.

ويهمنى أن يعلم قارئى أنى لا أدعى العصمة لنفسى، ولا أزعم أنى فوق البشر الذين يتأثرون بمشاعر الحب والبغض، ولكنى أرجو أن أسلك «النهج الوسط» الذى اخترته منهاجا لى فى حياتى كلها، ورضيت به، وأحب أن ألقى الله عليه.

لقد رأيت من الناس من يجعل من عبد الناصر: ملاكا رحيما، وبطلا أسطوريا، وقائدا لا يشق له غبار، وسياسيا فاق السياسيين، ومصلحا بز المصلحين!

هو عندهم منقذ وطنى، ومحرر سياسى، وزعيم عربى، ورائد افريقى، وربما أضافوا إليه: وقائد إسلامى! فهو الذى دبر الثورة، وطرد الملك، وحرر مصر من الاقطاع، وحررها من الانجليز، وهو داعية القومية العربية، والتحرر الافريقى، وأحد ابطال كتلة عدم الانحياز، ومنشئ المؤتمر الاسلامى فى مصر.

وزعم بعض المداحين: أنه سمع خطباء مصر الثلاثة «مصطفى كامل ،وسعد زغلول، وجمال عبد الناصر»» فوجده أبرز الثلاثة و أقدرهم على التأثير فى الجماهير بلغته الشعبية السهلة! «أى بلغته العامية المبتذلة فاق الخطباء الذين تدرس خطبهم فى كتب الأدب»!! إلى أخر ما يروج من سلع المديح والإطراء والمبالغات فى سوق النفاق، حتى سمى بعض الكتاب مصر فى ذلك العهد «نفاقستان»!

وما تضخه أجهزة الاعلام بمختلف ادواتها والوانها من مواد مقروءة أو مذاعة أو متلفزة، كلها مسخرة لتمجيد الزعيم، واقوال الزعيم، واعمال الزعيم، وأفكار الزعيم ، وبطولات الزعيم: لا تتوقف، ولا تتوانى، يوماً ولا

بعض يوم حتى مات! بل بعد أن مات إلى يوم ١٥ مايو ١٩٧١م يوم ضرب السادات «مراكز القوى» الناصرية- التى ظلت تحكم باسمه من بعده- ضربة قاضية، لم تقم لها بعدها قائمة.

هنا بدأ المخبوء ينكشف، والمستور يظهر للعيان، والذى اخرسه الخوف يتكلم، والمخدوع بالدعاية والشعارات ينزع الغشاوة عن عينه ليرى، وبدأت الصحف «القومية المؤممة» تفيض بالمقالات والتحقيقات والتعليقات، واصحاب الاعمدة اليومية يفضون بما كتموه فى صدورهم.

وظهرت كتب كثيرة تتحدث عن مظالم تلك الفترة، وعن مآسى تلك السنين، وعن الأموال التى هلكت، وعن الفرص التى ضاعت، وعن القباب الضخمة التى شيدت وليس تحتها شيخ، وعند الدعايات الهائلة التى ظللت الشعب، حتى جرى وراء السراب يظنه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا!!

ظهر كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعى» يبين فيه أنه عاش غائب الوعى طوال تلك السنين، مخدوعا بالدعاية المضللة، حتى انكشف القناع، وعاد إليه الوعى! وظهر كتاب جلال الحمامصى «حوار وراء الأسوار» وكتاب المستشار محمد عبد السلام «سنوات عصيبة» وكتاب سامى جوهر «الصامتون يتكلمون» وكتاب محمد عبد الرحيم عنبر «محاكمات جمال عبد الناصر» وكتابه «ويل لهؤلاء من محكمة التاريخ» وكتاب محمد شوكت التونى «قضية التعذيب الكبرى» و«محاكمات الدجوى» وكتاب« فى معتقل أبى زعبل» لالهام سيف النصر، وكتاب د. ابراهيم عبده «رسائل من نفاقستان» و«مذكرات عبد اللطيف البغدادى» وكتاب «كلمتى للتاريخ.. كنت رئيسا لمصر»» للرئيس محمد نجيب، وكتاب صلاح الشاهد «ذكرياتى بين عهدين» وكتاب محمد أنور رياض «القابضون على الجمر» وكتاب عادل سليمان وعصام سليمان «شهداء وقتلة فى عهد الطغيان» ومصطفى أمين فى كتبه: من «سنة أولى سجن» إلى «سنة تسعة سجن» وكتاب «عبد الناصر» لأحمد أبو الفتوح، وكتاب أنيس منصور « عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا»» وما كتبه أحمد رائف «البوابة السوداء» و«سراديب الشيطان» وما كتبه الدكتور أحمد شلبى فى الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الاسلامى عن حوليات عصر جمال عبد الناصر، الذى سماه: عصر المظالم والهزائم. وكتب لا أذكر أسماء مؤلفيها، مثل: «أموال مصر وكيف ضاعت؟» وكتاب «الموتى يتكلمون»

وهذا غير ما كتبه الإخوان مثل زينب الغزالى « أيام من حياتى» ومثل جابر رزق «مذابح الإخوان فى سجون ناصر» ود. على جريشة فى عدد من كتبه «فى الزنزانة» و«دعاة لا بغاة» و«عندما يحكم الطغاة» وحسن عشماوى «الإخوان والثورة» واللواء عبد المنعم عبد الرءوف فى كتابه: «أجبرت فاروق على التنازل عن العرش» وعباس السيسى فى كتابه « فى قافلة الإخوان المسلمين» ومحمود عبد الحليم فى كتاب الإخوان المسلمون: احداث صنعت التاريخ» وعمر التلمسانى «قال الناس ولم أقل فى حكم عبد الناصر» ومحمد حامد أبو النصر «سر الخلاف بين عبد الناصر والإخوان» وصلاح شادى «صفحات من التاريخ» وجابر الحاج «زلزال التآمر الناصرى»» وكتاب «٢٥ عاما فى جماعة مرورا بالغابة» لحسن دوح، وكتاب «عندما غابت الشمس» لعبد الحليم خفاجى وغيرها.

وهناك «أفلام» عبرت عن هذا الحقبة المظلمة الظالمة، وان لم تذكر الاسماء صراحة، مثل فيلم «البرئ» وفيلم «الكرنك» و«ليل وقضبان» و«شئ من الخوف» وغيرها.

وإذا كنا رأينا من جعل من عبد الناصر «ملاكا رحيما» واضفى عليه من الفضائل ما أضفى، وجعل تاريخه ابيض من الثلج، ولم يحاسبه على خطيئة ولا خطأ واحد، لانه لم يصدر منه شئ من ذلك، فهناك فريق اخر، على النقيض من هؤلاء، جعل عبد الناصر: «شيطانا رجيما»: يجرده من كل فضيلة، وينسب اليه كل رذيلة، ولا يضيف الى رصيده حسنة واحدة، فثورته كانت وبالا على مصر والعرب، وعهده كان شرا وبلاء على المصريين والعرب والمسلمين. ويتمنى هؤلاء العودة إلى عهد الملكية البائدة، قائلين: ان عهد الملك فاروق- على ما كان به من فساد وانحراف- لم ترتكب فيه من المظالم والشرور ما ارتكب فى عهد عبد الناصر.

حتى الحسنات الظاهرة فى عهد عبد الناصر، مثل: «تأميم قناة السويس» التى صفقت لها مصر، وصفق لها العرب جميعا: ضنوا أن يحسبوها فى ميزانه، وقالوا: إنه استعجل فى أمر كان سيتم طبيعيا بعد ثلاثة عشر عاماً، بدون أن يجازف بالدخول فى حرب مع دول كبرى كبريطانيا وفرنسا، وأن يتيح فرصة لإسرائيل لتدخل معهم فى حرب ضد مصر.

ونسى هؤلاء أن الشركة الاستعمارية العتيدة، كانت تخطط لاستمرار السيطرة على القناة، وربما لو تركهم حتى تنتهى المدة، ولم يفاجئهم بقرار التأميم، لكانوا أعدوا العدة لافشال أى محاولة للاستيلاء على القناة.

وحتى بناء «السد العالى» ذكروا من آثاره السلبية ما ذكروا، وأنه «هدف عسكرى» سهل لإسرائيل، يمكن أن تلجأ لضربه فى ساعة اليأس، عندما تحيط بها المخاطر فى وقت ما، وفى هذا غرق مصر وهلاك الحرث والنسل.

ويأخذون عليه: أنه ضيع جهودا وأموالا فى مغامرات فاشلة، فى الكونغو، وفى اليمن، وفى غيرهما. وأنه لم يدخل حربا إلا خسرها، كما فى سنة ١٩٥٦م، وسنة ١٩٦٧م. وقد استطاع اعلامه الذى برع فى الكذب وقلب الحقائق: أن يجعل هزيمة سنة ١٩٥٦ نصراً يحتفل به كل عام. مع أن البغدادى يقول فى مذكراته: إنه قال له: نحن ضيعنا البلد. وإنه ليس أمام مجلس الثورة واعضائه إلا أن ينتحروا جميعا. وطلب من زكريا محيى الدين، احضار زجاجة من السم «سيانور البوتاسيوم» تكفى لعدد الاعضاء، وأكد كلامه بقوله: إنى جاد فيما أقول!

وينقمون عليه: أنه قهر الشعب المصرى، وأهان كرامته، وأذل كبرياءه، وحطم نفسيته، وقيد حريته، وكبله بالأغلال التى جعلته غير قادر على الحركة يمنة أو يسرة.

ويضيفون إلى مآثمه: أنه الغى الحياة الديمقراطية من مصر، وهى من أوائل الديمقراطيات فى الشرق، وفرض على الناس دكتاتورية الحزب الواحد، الذى اختلفت تسميته من «هيئة التحرير» إلى «الاتحاد القومى» إلى «الاتحاد الاشتراكى» ولم يسمح لمعارض أن يكونه له صوت يسمع، وإن كان من رفقائه فى الثورة، ابتداء من رشاد مهنا، إلى محمد نجيب، إلى خالد محيى الدين، إلى عبد المنعم عبد الرؤوف، وإلى آخرين. حتى خطيب ثورته والمتحدث الدينى باسمه، لم يسلم من أذاه وبطشه، وهو الشيخ أحمد حسن الباقورى، فقد طوح به، وطرده من منصبه شر طردة، لا لشئ إلا لأن رجلا ذم عبد الناصر، وهو الأديب المحقق المعروف محمود محمد شاكر، وكان الباقورى يزوره فى ذلك الوقت، ولم يدافع عنه. وقد قيل: إن الباقورى لم يكن حاضرا وقت الكلام عن عبد الناصر! على أن الذين يعرفون

الأستاذ شاكرا وطبيعته الحاده، لا ينتظرون من الباقورى ولا من غيره أن يرد عليه!

وقد ابتلى مصر بفكرة: أن يكون للعمال والفلاحين نصف مقاعد مجلس النواب، وهى بدعة لم تتخلص مصر منها إلى اليوم، ولم تعرف فى بلد غير مصر! ويزيدون على ذلك: أنه أضر بالاقتصاد المصرى، نتيجة سيطرة القطاع العام، الذى أخفق فى إدارة مؤسساته، حتى أصبحت تخسر خسارات فادحة، بعد أن كانت تكسب مكاسب هائلة، يوم كانت ملك القطاع الخاص.

ولا ينسى هؤلاء أن يضعوا فى ميزان سيئاته: الإساءة إلى الدين والشريعة، حين ألغى المحاكم الشرعية، وأساء إلى قضاتها بتلفيق تهم لهم لم يثبتها قضاء عادل، وأصدر قانون تطوير الأزهر: الذى يتاح فيه للكليات المدنية فى جامعة الأزهر: أن تأخذ خيرة طلابه، وأن لا يبقى للكليات الأصلية الدينية «أصول الدين والشريعة واللغة العربية» غير المتردية والنطيحة وما يعاف السبع أن يأكله! هذا مع أنى رفضت هذا التفسير، ودافعت عن التطوير فى الجزء الثانى من هذه المذكرات.

كما سَخِر عبد الناصر من علماء الدين فى خطبه، واتهمهم بأن أحدهم من أجل وليمة عند إقطاعى، يقدم فيها خروف أو ديك رومى يبيع دينه، ويصدر فتواه فى إقرار المظالم الواقعة على الفلاحين، وهضم حقوقهم، وأكل عرقهم.

كما أتاح للصحف الحكومية أن تسخر بالدين وعلمائه، كما فعل الرسام الشهير صلاح جاهين فى صحيفة «الأهرام» الذى سخر قلمه للسخرية بالداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى وعمامته فى «١٨» رسما كاريكاتيريا.

هذا ما ذكره خصوم عبد الناصر عن شخصه، وعن عهده. وليس كل ما قالوه حقا، كما أنه ليس كله باطلا.

ثم إنى أفرق تفريقا واضحا بين أمرين: أولهما: ما كان من «اجتهادات» قد تصيب، وقد تخطئ، وهو مأجور على صوابه، ومعذور فى خطئه، بل ربما كان مأجورا أجرا واحدا، إذا صحت نيته، وتحرى فى اجتهاده، واستشار أهل الذكر والخبرة، واستفرغ وسعه فى الوصول إلى الحقيقة والرأى الأرشد.وذلك مثل سياسته فى إفريقيا وفى اليمن وفى غيرهما، فأقصى ما يقال فيها: إنه سياسى فاشل. وفرق بين الفاشل والظالم! ولكن الفشل إذا

تكرر واستمر يصبح كارثة على الوطن، وعلى الأمة. ففشل الفرد العادى وإخفاقه على نفسه، أما فشل الزعيم المستمر، ففيه خسارة الأمة وتأخرها، وضياع فرصها فى النهوض والتقدم.

وثانيهما: ما كان من مظالم ومآثم متعمدة، كما حدث لمعارضى عبد الناصر عامة، وللإخوان المسلمين خاصة، فلا يستطيع مدافع أن يدافع عن عبد الناصر، فى إيقاع هذا الكم الهائل من المظالم والمآثم: من شنق وتقتيل، وتشريد وتنكيل، وإيذاء وتعذيب، ومصادرة وتضييق، لجماعة كانت هى أول من ساند ثورة عبد الناصر، بل كانت هى أول من أوحى إليه بضرورة العمل الوطنى داخل الجيش، كما اعترف عبد الناصر نفسه فى المذكرات التى كتبها الأستاذ حلمى سلام رئيس تحرير المصور بعنوان: «الثورة من المهد إلى المجد» وذلك أوائل ما قامت الثورة، وقال فيها: إن أول من لفت نظره إلى هذا العمل: هو الصاغ ذو الوجه الأحمر م. ل، يقصد: محمود لبيب أحد العسكريين الأحرار الذين عملوا مع عزيز باشا المصرى، وكان وكيلا للإخوان فى عهد المرشد الأول حسن البنا.

بعض الناس يهونون من الأهوال التى عاناها الإخوان، ولو ذاقوا معشارما ذاقوا، لكان لهم رأى آخر، وقول آخر. وقد قيل: النار لا تحرق غير القابض عليها. وقال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيهــــا!

والقرآن يقرر مع كتب السماء: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٣٢)

ويقول رسول الإسلام: «لزوال الدينا أهون على الله من قتل مسلم».

ومن العجب أن يتحدث هؤلاء عن أهمية حقوق الإنسان، وحقوق الأفراد، وحق الحرية المقدس، وحق الفرد فى أن يأمن على نفسه وأهله وماله وخصوصياته.. فإذا وصل الإخوان استثناهم من هذا كله، كأنما ليست لهم

حقوق، وإذا وصل إلى عبد الناصر: استثناه من هذا كله، كأنما ليس عليه واجباب وكأن من حقه أن يصادر ويعذب ويظلم ويبغى فى الأرض بغير الحق: بلا حسيب ولا رقيب.

لقد بينت مسئولية عبد الناصر عن الجرائم الوحشية والاعتداءات الهمجية، التى وقعت فى السجن الحربى، وأنه شهد بنفسه بعض وقائع التعذيب، وأنه لا يعقل أن يتم هذا الذى تناقله الناس فى الآفاق دون علمه، وقد ذكرنا أن هيكل مؤرخ عبد الناصر اعترف بأنه كان يعلم، وعرضت عليه وقائع، فلا معنى لتبرئته بدعوى أنه يجهل ما يجرى!

وحتى لو لم يعلم، فهو المسؤول الأول عن هذه الوحوش الآدمية، التى عينها فى مناصبها لتنهش لحوم الناس، وتفترسهم وهم مطمئنون إلى أنهم محميون، وأن ظهورهم مسنودة إلى جدار السلطان.

إن رسولنا الذى لا ينطق عن الهوى: أخبرنا أن امرأة أدخلها الله النار، من أجل هرة حبستها، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض.

هذا فى حبس هرة، فكيف بمن حبس الألوف من الناس، وسقاهم كؤوس العذاب، وجرب فيهم ما استورده من أدوات التعذيب من عند الشيوعيين غيرهم، وسلط عليهم كلاب البشر، وكلاب الكلاب، وقد كانت الكلاب الحقيقية أرحم من الكلاب البشرية فى كثير من الأحيان.

إن شر ما فعله عبد الناصر فى مصر: أنه أذل الإنسان المصرى وقهره، وأحياه فى خوف دائم: أن يدهمه زوار منتصف الليل، أو زوار الفجر، من كلاب الصيد، فتختطفه، وتذهب به إلى مكان سحيق وراء الشمس ، لا يستطيع أحد الوصول إليه، وقد أصبح المصريون يتجسس بعضهم على بعض، ويشك بعضهم فى بعض، حتى أصبح الأخ يتجسس على أخيه، بل الابن على أبيه، وفقدت الأسرة الثقة بعضهم ببعض.

وقد اعترف الرئيس أنور السادات فى كتابه « البحث عن الذات» بما زرعته الثورة من خوف ملأ صدور الناس، وشل إرادتهم، حين قال: انتهى مجلس الثورة فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٥٦م، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالاستفتاء. ولكن قبل أن ينتهى المجلس كان الشعور بالخوف قد

عم البلاد.. هذا فى رأيى أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان! فالخوف يقتل الشخصية، ويشل الإرادة، ويمسخ تصرفات البشر!

وقال فى حديث له فى «الأهرام»: لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الإنسان المصرى: كان هو زرع الخوف. فبدلا من أن نبنى الإنسان، أصبح همنا أن نخيفه، والخوف أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب فقد كانت أرزاق الناس كلها ملكا للحاكم: إن شاء منح، وإن شاء منع. وكان المنع مصحوبا فى أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله، ثم فصل جميع أهله من وظائفهم، مع اتخاذ إجراءات ضدهم!

واحسب أن السادات شاهد من أهلها، فهو من صناع ثورة يوليو، ونائب عبد الناصر، وعضو اليمين فى «محكمة الشعب» محكمة جمال سالم، التى حاكمت الإخوان.

إن خسارة الإنسان المصرى هى الخسارة الكبرى، وليس الإنسان المصرى هو هؤلاء الذين يتجمعون فى السرادقات فى الاحتفالات المعدة، ويلقنون هتافات يرددونها كالببغاوات: ناصر ناصر.

وأذكر أن عبد الناصر ذهب إلى إحدى المدن فى أول الثورة، فهتف الناس باسم نجيب، فثار عليهم، وقال فى حرقة وبحرارة: إنما قمنا لنحرر الناس من عبادة الزعماء، والهتاف للأشخاص، لكى يكون الهتاف للوطن. فلما أصبح بعد ذلك الهتاف باسمه أصبح مشروعا ومحمودا.

لقد أذل عبد الناصر الشعب المصرى، كما أذل الحجاج بن يوسف: الشعب العراقى من قبل. وكان فى ذلك خسارة معنوية لا تقدر بثمن، ولا تقاس بالمادة.

لقد أراد عبد الناصر: أن يدير مصر، كما يدير صاحب الدكان دكانه، أو صاحب المزرعة مزرعته. وقد قال مرة: أريد أن أضغط على زر فتتحرك مصر كلها من أسوان إلي الإسكندرية وأضغط علي آخر فتسكن مصر كلها.

ولقد قال لى مرة أحد شيوخنا الفضلاء «الدكتور محمد يوسف موسى»: إن هذا البلد سجن كبير، له باب واحد، وقفل واحد، ومفتاح واحد، فى يد سجان واحد، هو عبد الناصر!

وإن كان هذا «السجان» قد غدا فى فترة من الفترات «سجينا» لدى بعض مرؤوسيه، كما هو معروف فى سيرة عبد الناصر: أن عبد الحكيم عامر صديقه الأول قد أصبح هو الذى يحكم مصر حقيقة، سواء ما يتعلق بالجيش أم ما يتعلق بالشعب، وصار عبد الناصر «ديكورا»، صار كما قيل: يملك ولا يحكم!

وفى قضية «الوحدة العربية» جاءت الوحدة الاندماجية مع سوريا إلى عبد الناصر على طبق من ذهب، ورضى الشعب السورى أن يصهر مع الشعب المصرى فى بوتقة واحدة، وتنازل الرئيس السورى «شكرى القوتلى» عن كرسى رئاسته، واكتفى بأن يكون «المواطن العربى الأول» ولكن عبد الناصر، بسوء تصرفه، وغلبة الاستبداد عليه، وتركه الأمور فى الإقليم الشمالى لـ «عامر» يتصرف فيها كيف يشاء، بدل أن يعين نائبا حقيقيا له من زعماء سورية أنفسهم.

لقد سلط عامر أجهزة المخابرات- أو المكتب الثانى كما يسميها السوريون- على الشعب السورى، وعبث عبد المجيد السراج وبطانته بحريات الشعب وحرماته ومقدراته، فلم يكن من الشعب السورى الذى قدم الوحدة ورضيها إلا أن يرفضها ويتخلص منها، فاختار نار الانفصال مع الحرية، ولا جنة الوحدة مع الاستبداد. وكان الضابط عبد الكريم النحلاوى مدير مكتب عامر فى سورية: أحد الذين قادوا حركة الانفصال!

هذا فى قضية الوحدة العربية، فماذا فعل عبد الناصر فى قضية فلسطين؟

لقد انتهى مصير القضية إلى نكبة حزيران أو يونيو ١٩٦٧م، واحتلت إسرائيل ما بين القنطرة فى مصر والقنيطرة فى سوريا، أى احتلت سيناء والجولان مع الضفة الغربية وغزة، بل اعترف عبد الناصر بلسانه فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٦٧م: أن الطريق كان مفتوحا أما إسرائيل إلى القاهرة ودمشق.

لقد ظهر أن هناك أخطاء فادحة ارتكبت قبل هذه الحرب، وفى أثناء هذه الحرب، كتب عنها الكاتبون والمحللون السياسيون، والخبراء الاستراتيجيون. وقد سميت «حرب الأيام الستة» والواقع أن النتيجة حسمت بعد الساعات الست الأولى، بعد القضاء على طيران مصر، ومطارات مصر بضربة قاضية وسريعة، أبقت القوات البرية المصرية فى سيناء مكشوفة بلا غطاء.

وكانت الروح المعنوية فى غاية الوهن إلى حد الانهيار. إذ لم يسلح الجندى المصرى بسلاح الإيمان الذى به يتخطى العقبات، ويصنع البطولات، ويقدم الغالى من التضحيات. كانوا يوزعون على الجنود صور المطربات والممثلات، بدل أن يوزعوا عليهم المصاحف للمسلمين، والأناجيل للمسيحيين! لم يسلح المقاتل المصرى بعقيدة تشد أزره، بأنه يقف فى وجه عدو دنس المقدسات، واغتصب أرض النبوات، أرض الإسراء والمعراج، وأن هذا العدو خطر على ديننا ودنيانا وأوطاننا ومقدساتنا، وأن وقوفنا فى وجهه جهاد فى سبيل الله، وأن من قتل منا فهو شهيد حى يرزق عند الله.

لم يقل له مثل هذا الكلام، لأن هذا كلام الرجعيين، الذين يوظفون الدين فى مثل هذه المعارك، والمطلوب منا: أن نوظف الدبابة والطائرة والبارجة، وندع الدين للعجائز وخطباء المساجد، أو رهبان الكنائس.

على حين كان العدو يسلح جنوده بعقيدة إيمانية، ورؤية توراتية، وأحلام تلمودية. ولهذا قلت: إنهم انتصروا علينا، لأنهم دخلوا المعركة ومعهم التوراة، ودخلناها وليس معنا القرآن، دخلوها يهودا يعتزون باليهودية، ولم ندخلها نحن مسلمين نعتز بالإسلام. دخلوا يهتفون باسم موسى، ولم نهتف باسم محمد. قالوا: الهيكل، ولم نقل: الأقصى. عظموا السبت، ولم نعظم الجمعة. كان الدين عندهم شرفا يباهون به، وكان الدين عندنا تهمة نبرأ منها!

لقد جردوا القضية من كل معنى دينى لها، فى حين قال موسى ديان وزير الدفاع: إن جيش إسرائيل مهمته حماية المقدسات لا مجرد حماية المؤسسات.

حتى العلمانيون من الإسرائيليين أمثال بن جوريون، وظفوا الدين لخدمة قضيتهم.

ولهذا كان جنودنا فارغين من كل معنى روحى يدعوهم إلى الثبات والتضحية، فلما وقعت الواقعة، كان كل واحد منهم يقول: النجاة، النجاة. تركوا أسلحتهم ودباباتهم ومجنزراتهم دون أن يكلف أحدهم نفسه أن يشعل فيها عود ثقاب، حتى لا يستفيد منها عدوه، ويأخذها غنيمة باردة، سالمة من كل سوء.

إن من المعروف أن الأسلحة لا تقاتل وحدها، ولكن تقاتل بأيدى رجالها

الأبطال، واليد التى تستعمل السلاح إنما يحركها هدف سام، مرتبط برسالة عليا، يؤمن بها الجندى، ويضحى بالنفس والنفيس فى سبيلها.

وقد انتهت المعركة بما سموه «النكسة» ولكن أخطر من النكسة، هو تغيير السياسة العربية رأسا على عقب، واتخاذ فلسفة جديدة مناقضة للفلسفة القديمة تماما. فقد كانت فلسفة الأمة قائمة على أن إسرائيل اغتصبت أرض العرب بالعنف والإرهاب والدم والحديد والنار، وشردت أهلها- بعد أن أخرجتهم منها من الشمال والجنوب والشرق والغرب، وأن وجود إسرائيل فى أرض فلسطين، وأرض العرب المغتصبة: وجود باطل، وأن إزالة هذا الاغتصاب الظالم فريضة على الأمة، طال الزمن أم قصر، فإن مضى الزمن لا يجعل الباطل حقا، ولا يقلب الحرام حلالا.

وهذا ما كان عليه العرب قبل هذه النكبة أو النكسة، ولكن عبد الناصر تبنى فلسفة جديدة، تقوم على إزالة آثار العدوان! أى عدوان ١٩٦٧م وكأن هذا العدوان الجديد أعطى الشرعية للعدوان القديم: عدوان ١٩٤٨م. عبد الناصر هو المسؤول الأول عن تغيير السياسة العربية كلها فى هذا المجال. فلم يكن أحد غيره يقدر على تغيير هدف الأمة التى أسلمت إليه القياد، ومنحته الثقة.

وهذا التنازل الكبير، بل الخطير، هو: أساس كل ما عانته الأمة بعد ذلك من تنازلات جر بعضها إلى بعض، من كامب ديفيد، فمدريد، فأوسلو، حتى حالة الاستسلام والتخاذل التى نشدها اليوم. فهو الذى غير الاستراتيجية الأصلية-استراتيجية الجهاد والكفاح - إلى استراتيجية التنازل والاستسلام. والأمة إذا بدأت طريق الانحدار، فلن يقفها حاجز ولا شئ، حتى يسعفها القدر بمن يردها إلى أصلها، ويشعل ما انطفأ من جذوتها.

هل كان عبد الناصر عميلا؟

وما يسأل عنه هنا: هل كان عبد الناصر عميلا؟

ولقد اتهم بعض خصوم عبد الناصر بأنه كان عميلا لأمريكا، وكتب الصحفى المعروف محمد جلال كشك كتابا سماه «ثورة ٢٣ يوليو الأمريكية»! قال فيه كلاما كثيرا، وذكر فيه وقائع شتى.

وآخرون قالوا: إنه انتهى عميلا لروسيا، وللاتحاد السوفيتى، وكتب بعضهم كتابا قال فيه: الروس قادمون!

بل سمعت من قال: إنه عميل لإسرائيل، وإنه التقى بعض اليهود عندما كان محاصرا فى الفالوجا فى حرب فلسطين، واتفق معهم اتفاقيات سرية، إذا وصل إلى الحكم!!

وأنا بصفتى عالما مسلما يحتكم إلى الشرع الذى يرى أن الأصل فى الناس البراءة، وأن الإنسان لا يدان إلا ببينة، وأن الشك يفسر لصالح المتهم: أرفض هذه الاتهامات التى لا دليل عليها، وهذه الدعاوى العريضة التى تنقصها البينات، وقد جاء فى الحديث: «لو أخذ الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، ولكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر» وقال الشاعر:

والدعاوى- مالم يقيموا عليها
بينات أبناؤها أدعياء!

والاتصال بالأمريكان قبل الثورة أو بعدها: لا يثبت العمالة لهم.

فالعميل: من لا هدف له ولا رسالة يعمل من أجلها. ولكن هدفه ورسالته تتلخص فى خدمة من يعمل لحسابه، وتحقيق أهدافه.

ولقد أيد الإخوان عبد الناصر عند قيامه بالثورة، وبعد قيامه بالثورة، وكانوا أول أعوانه، بل كانوا سنده الشعبى البارز، حتى دب الخلاف بين الطرفين، فلماذا لم يتهم فى ذلك الوقت بأنه عميل أمريكى؟

هل كان عبد الناصر ماركسيا؟

ومما يسأل عنه هنا: هل كان عبد الناصر ماركسيا؟

إن من المعروف أن عبد الناصر فى فترة من تاريخه اصطدم بالماركسيين- الشيوعيين- وأدخلهم السجون، وإن لم يصبهم من التعذيب والتنكيل ما أصاب الإخوان.

ولكنه بعد ذلك، اصطلح مع الشيوعيين، وأطلق سراحهم، ولم يكتف بالإفراج عنهم، بل مكن لهم فى أجهزة الإعلام والثقافة، فأصبحوا فى وقت من الأوقات هم الذين يوجهون الفكر والثقافة فى مصر.

فهل كان هذا لتغير فى سياسة عبد الناصر أو لتغير فى فكره؟

المفهوم: أن هذا كان نتيجة لتغير فى سياسة عبد الناصر، نظرا لارتباطه بالمعسكر الشرقى، وتحالفه مع الاتحاد السوفيتى فى أكثر من مجال: فى مجال التسليح، وفى بناء السد العالى، وفى مجال الخبراء العسكريين والفنيين ، وغير ذلك، وقد ظل الروس يعملون في مصر، ويؤثرون في سياستها حتي جاء السادات، وقرر قراره الحاسم بإخراجهم منها!!

وقد لام خروشوف عند افتتاحه مبنى السد العالى: عبد الناصر، أنه يدعو إلى الاشتراكية، ولكنه لا يمكن الاشتراكيين من إقامتها، ولا اشتراكية من غير اشتراكيين.

وكان لهذه الإشارة مغزاها وأثرها، فسرعان ما تغير الموقف من الاشتراكيين، وفسح المجال لهم، ليثبوا على مراكز الدولة، ولاسيما بعد ما تولى على صبرى رئاسة الوزارة، وأعلنوا التمهيد لمرحلة «التحول العظيم» يعنون: التحول إلى «الاشتراكية العلمية».

ومن قرأ «الميثاق» الذى يمثل فكر عبد الناصر: وجد فيه رشحات من الفكر الماركسى فى مواضع شتى، ولكن لا نستطيع أن نصف الميثاق بأنه ماركسى تماما.

نجد أثر الماركسية فى تقليص الجانب الإيمانى والفكرة الغيبية والقيم الروحية، فلا تكاد تحسها وتشعرها بها.

كما لا نجد أثرا لشريعة الإسلام الذى يدين به عبد الناصر، ويدين به شعب مصر. بل قال وهو يتحدث عن الأسرة: لابد أن نسقط بقايا الأغلال التى تكبل الأسرة. والسياق يبين أنه يشير إلى التشريعات الإسلامية فى الزواج والطلاق وغيرهما.

هل كان عبد الناصر متدينا؟

ونسأل، ويسأل معنا كثيرون: هل كان عبد الناصر متدينا؟

سأل الأديب يوسف القعيد: الأستاذ محمد حسنين هيكل: هل كان عبد الناصر متدينا؟ فأجاب هيكل: كان عبد الناصر متدينا.

ولكنه لم يدلل على تدينه بشئ، واكتفى بتقرير هذا الأمر، وكفى.

ولعله يقصد: أنه لم يكن ملحدا جاحدا للغيبيات من الألوهية والوحى

والإيمان بالآخرة، ولا يقصد أنه كان متمسكا بشعائر الدين وفرائضه الحتمية، وأنه يخشى الله فى أموره، ويضع الآخرة نصب عينيه، ويزن كل شئ بميزان الحلال والحرام عند الله، كما هو شأن المتدينين.

والحق: أن عبد الناصر لم يعرف بشرب الخمر، كما لم تعرف عنه علاقات نسائية محرمة، ولكنه لم يشتهر عنه إقامة الصلوات، التى فرضها الله على المسلمين خمس مرات فى اليوم والليلة. لم يقل أحد ممن كتبوا عنه إنه دخل عليه فوجده يقيم الصلاة، أو إنه دعا زواره يوما ليقيم معهم الصلاة، أو إنه فى مجلس من المجالس التى كان يعقدها توقف مرة ليصلى وحده، أو مع زملائه.

ولم يحك مؤرخ عبد الناصر الملازم له- أعنى الأستاذ هيكل شيئا من ذلك، على كثرة ما حكى من تفصيلات حياته، فى الحضر والسفر، والخلوة والجلوة.

حتى صلاة الجمعة لم يعرف أين كان يصليها عبد الناصر؟ ولقد حكم عبد الناصر ثمانية عشر عاما، كل سنة فيها ٥٢ جمعة، فأين كان يصلى هذه الجمع؟

لقد كان للملك فاروق- ولأبيه الملك فؤاد قبله- إمام خاص، تعينه وزارة الأوقاف، أو ترشحه ليعينه الديوان الملكى، ليصلى به فى مسجده فى قصره، فى الجمع خاصة، وفى الصلوات الأخرى فى بعض الأوقات. فمن إمام عبد الناصر؟ وهل له مسجد فى منزله فى منشية البكرى؟ أو بجوار منزله؟!!

هناك جمع معروفة ومعلنة فى مناسبات معينة، أو لزيارة بعض الضيوف، رآه الناس فيها مصليا للجمعة، ولكن ما عدا ذلك لم يعرف أين صلى عبد الناصر نحو ٩٠٠ جمعة أمر الله الناس إذا سمعوا النداء: أن يستجيبوا لداعى الله، ويسعوا إلى ذكر الله ويذروا البيع.

كان الرئيس أنور السادات حريصا على أداء الشعائر، فلهذا قالوا عنه: الرئيس المؤمن.

وظهر هذا فى سياسة كل منهما، فالسادات حين خاض معركة العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ ـ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م ، وتجلى فيها أثر التدين فى الضباط

والجنود، وفى الشعارات، فقد كان شعار المعركة: «الله أكبر»، فى حين كانت كلمة السر فى حرب يونيو ١٩٦٧ «بر بحر جو» وللأسف لم ينتصروا فى بر ولا بحر ولا جو».

وعلى أى حال، لقد لقى عبد الناصر ربه، وافضى إلى ما قدم، وسيجزيه الله بما يستحق، وهو الحكم العدل، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ولا يضيع عنده حق مظلوم، ولا يروج عنده تلبيس ظالم. ولولا أمانة الكلمة، وما اخذه الله من ميثاق على العلماء: أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه، لوسعنى السكوت، ولم أتكلم بكلمة واحدة.

وقد ذكرت: أنه فى السنوات الأخيرة، دفعت الظروف التى تعيشها أمتنا وأوطاننا المعتدلين من الإسلاميين، والمعتدلين من القوميين، ومنهم الناصريون إلى أن يلتقوا ويتفاهموا معا، وينسوا جراحات الماضى، وما تحمله من مرارة وقسوة، ليجتمعوا على الأمر المشترك، وهو: الوقوف فى وجه الغزوة الصهيونية والأمريكية، ومقاومة التطبيع، وتأييد الانتفاضة والمقاومة الفلسطينية الباسلة والحفاظ على هوية الأمة وذاتيتها وتميزها فى أهدافها ورسالتها، وتجميع كل قوى الأمة فى مواجهة هذا الطاغوت الجديد، فانعقد المؤتمر القومى الإسلامى فى بيروت من الفريقين. وكنت ممن شارك فى لقاءاته، وفى اللجنة التحضيرية التى أعدت الورقة الإسلامية للمؤتمر الأول. وبهذا ينتصر الرشد على الانفعال، وكلمة الأمة العليا على الجماعات والأحزاب، فالأمة هى الأصل، وكل ما عداها فرع، وعفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه. ورحم الله الأموات، ووفق الله الأحياء.

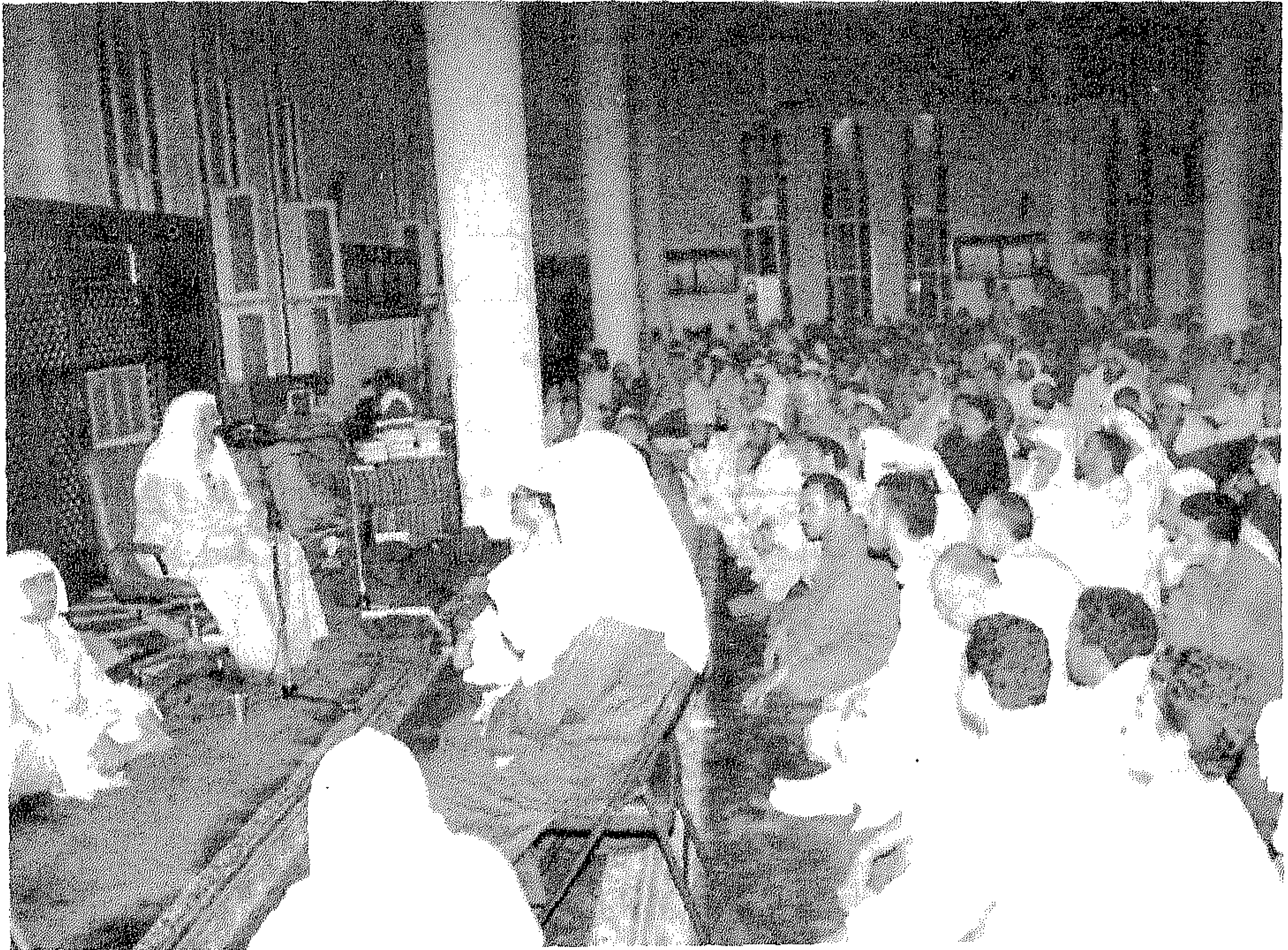
مع الرئيس مبارك

رغم العلاقات القوية الوطيدة بين الشيخ القرضاوى وعدد من الرؤساء والملوك والأمراء العرب واستقبالهم فى أكثر من مناسبة أو مؤتمر إسلامى أو حفل تكريم خاص به.. إلا أن علاقته مع الرئيس مبارك محدودة جداً.. ولم يقابله إلا مرة واحدة وفى مناسبة عامة، وذلك وفق ما صرح به لصحيفة المصرى اليوم.. وقال: أما الأمير القطرى فأقابله كثيراً وأنصحه وأقترَح عليه بعض الأمور.

وكذلك نصحت الرئيس الليبى العقيد معمر القذافى فى إحدى المرات بأن يوقف حكماً على بعض الإسلاميين بالإعدام.. لأن الإعدام لا مرد له ولو خسرنا الإنسان لن نستعيده مرة أخرى.. ولكن ربما الحكم عليه بالمؤبد يرد سلوكه.. أو نكتشف بعد ذلك براءته.. فهو أمر مردود.. وقد استجاب القذافى وتصالح مع الإسلاميين بناء على نصيحتى، وهكذا الرئيس الأسد.. وأحياناً أنصح الرؤساء ورجال الأعمال والحكومات من على المنبر.



اللقاء مع شباب الصحوة مستمر دائمًا للتوجيه والرد على الاسئلة



♦ الفصل الثالث

التعذيب .. والعنف والتطرف

التعذيب الوحشى بالسجون وأسباب العنف والتطرف

حفلت الفترة التى عمل فيها شيخنا العلامة د.يوسف القرضاوى مع جماعة الإخوان المسلمين بالأحداث العاصفة والمواجهات مع السلطة فى مصر وأدى ذلك إلى اعتقاله عدة مرات.. كانت أولاها عام ١٩٤٩ وهو طالب فى السنة الخامسة بالمرحلة الثانوية، وظل فيها بالمعتقل نحو عشرة أشهر فى عهد الملك فاروق، وأفرج عنه عقب سقوط وزارة إبراهيم عبدالهادى.

واعتقل للمرة الثانية فى الثانى من يناير ١٩٥٤ ولمدة شهرين ونصف الشهر فى عهد الثورة.

واعتقل للمرة الثالثة فى نوفمبر ١٩٥٤ ولمدة عشرين شهراً تقريبا.

واعتقل للمرة الرابعة فى يونيو ١٩٦٢ نحو خمسين يوماً قضاها فى سجن انفرادى فى مبنى مخابرات الثورة، وكان بجواره فى الاعتقال صديق عمره ورفيقه فى الدعوة الدكتور أحمد العسال.

● قلت للشيخ القرضاوى هل تذكر ما هى القضية الرئيسية التى أثرتها وكانت سبباً فى دخولك المعتقل؟

ـ فقال الشيخ القرضاوى ضاحكا: المعتقل لم أدخله من أجل موضوع، ولكن

لأننى كنت طالباً فى جماعة الإخوان المسلمين، والجماعة حلت فى ذلك الوقت، والمعروف أنها حلت بعد أن اجتمع سفراء انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة فايد العسكرية على مقربة من السويس، وطلبوا من النقراشى باشا فى ذلك الوقت حل هذه الجماعة وكان ذلك جزءاً من صفقة كبيرة تتعلق بقيام إسرائيل فى ذلك الوقت وإتاحة الفرصة لإسرائيل لتنمو وأخذ المتطوعون المصريون من الميدان إلى المعتقل فأخذت من بين من أخذوا على أساس اننى كنت طالباً بارزاً فى صفوف الطلاب فى المعاهد الكبرى فى الجمهورية ويمكن أن يسبب هؤلاء تشويشا على الحكومة، وخشية من هذا أخذت مع ثلاثة او اربعة من طنطا ووضعنا فى سجن القسم ثم رحلنا إلى «الهايكستيب» ومنها إلى سجن الطور إلى أن أفرج عنا.

وقد كنا نسمى المعتقل هذا خاصة فى معتقل الطور «المخيم الدائم» للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩، المصاريف والنفقات والتكاليف على حساب الحكومة المصرية، وقد ذكرت فى إحدى قصائدى المشهورة ذلك:

قالوا إلى السجن قلنا شعبة
فتحت يجمعون بها فى الله إخوانا
قالوا: إلى الطور: قلنا الطور
مؤتمر فبه نقرر ما يخشاه أعدانا
فهو المصلى نربى فيه أنفسنا
وهو المصيف نقوى فيه أبدانا
معسكر صاغنا جنداً لمعركة
ومعهد زادنا بالحق عرفانا
من حرموا الجمع منا فوق أربعة
ضموا الألوف بغاب الطور أسدانا
راموه منفى وتضييقا فكان لنا
بنعمة الحب والإيمان بستانا
هذا هو الطور شاءوا أن
نذوب به وشاء ربك أن نزداد إيمانا

● قلت: ولكنك يا فضيلة الشيخ لم تذكر السجن الحربى بمثل هذه الروح التى تتحدث بها عن سجن الطور؟!.

●● قال الشيخ القرضاوى وصوته ترتفع حدة نبراته:

السجن الحربى كان من بين السجون كلها علما على التعذيب الوحشى حتى أصبح مجرد ذكر اسمه يثير الرعب، خاصة أن عشرات المعذبين قتلوا على أرضه. وكما هو معلوم فإن السجن الحربى اصلا سجن عسكرى بناه الانجليز فى عهد الاحتلال ليودع فيه الجنود الذين يخالفون القوانين العسكرية وهذا السجن هو فى الواقع مجموعة سجون أو أقسام فى كل قسم عدد من الزنازين بعضها يبلغ المئات، والزنزانة غرفة ضيقة محكمة ليس بها إلا نافذة صغيرة عالية قرب السقف، وهى مطلية بطلاء قاتم وقد أعدت لتكون سجناً انفراديا، ولكن كثرة المعتقلين الهائلة جعلت جنود الطغيان يودعون فى الزنزانة الواحدة سبعة أو ثمانية بل عشرة فى بعض الاحيان. وقد صورت هذا السجن فى قصيدتى النونية الشهيرة، وهى قصيدة أنشأتها داخل السجن الحربى، وكنا داخل هذا السجن لانجد قلما نكتب به، لأنهم فى أول الامر تركوا لنا الكتب، واخذت معى بعض الكتب مثل: الموافقات وبعض الكتب المهمة لنقرأها فوجدوا ان الكتب تسلينا، فاخذوا منا الكتب وأبقوا معنا المصاحف، ووجدوا اننا نتسلى بقراءة القرآن وهذه سلوى عظيمة ان يجد الانسان أنساً فى كتاب الله، فاخذوا منا المصاحف ولم يبقوا معنا أى شىء.. وأخذ الشيخ القرضاوى يلقى القصيدة «النونية» الشهيرة بصوته الجهورى المميز، يلقيها وكأنه ينشئها الآن إنشاء يمتلكه حماس الشباب، ووجع المظلوم وحرقة المكلوم، وأخذت الأبيات تتدفق على لسانه ومن ذاكرته وكأنه يقرؤها من الديوان أمامه، وأمام حشد من المعتقلين وجلست أنصت والخوف يتملكنى من براعة التصوير، المادى والمعنوى والجو الحقيقى الذى نقلنى إليه شيخنا، حيث جعلنى وكأننى أرقب حقيقة ساعة إلقاء القبض والإيداع فى السجن، وماتلى ذلك، ولندع الشيخ يصور ذلك يقول:

يا سـائلى عن قصـتى اسمع
إنها قصص من الأهوال ذات شجون

أمســـك بقلبـــك أن يطير مفـزعا
وتول عـــن دنيـــاك حـــتى حيـــن
فالهول عات والحقـــائق مــــــرة
تعـــــلو عـلى التصوير والتبييـــن
والخطب ليس بخطب مصر وحدها
بل خطـــب هذا المشـــرق المســـكين
فى ليـــلة ليـــلاء مـــن نوفمبـــــر
فزعت من نومـــى بصـــوت رنين
فإذا كلاب الصـــيد تهجـــم بغتة
وتحوطنى عـــــن يســـرة ويمين
فتخطّفونى من ذوى وأقبـــــلوا
فرحا بصيد للعذاب ســـــــمين
وعزلت عن سمع الحياة وعينهـــا
وقذفت فى قفص العذاب الهـــون
فى ساحة الحربى حسبك باسمه
من باعث للرعب قد طـــرحونى
فيـــــه زبانية أعـــدوا للأذى
وتخصصـــــوا فى فنـــه الملعون
متبلدون عقولهـــــم بأكفهـــم
وأكفهـــــم للشـــر ذات حنيـــن
لافرق بينهم وبين ســـــياطهم
كل أداة فى يـــد مأفــــــــون

وتدفقت القصيدة حتى آخرها.. حتى قلت فيها:

قل للذى جعل الكنانة كلها ســجناً
وبات الشعب شـــــــر ســـجين
يا ذئب غدر نصبوه راعيا والذئب
لـــــم يـك ســـاعة بأميـــن

يامن زرعـــــــت الشـــر لن تجنى

سوى شر وحقد فى الصـــــدور دفين

ســــــــيزول ملكـــك يا ظـــلوم

كما انقضت: دول أولاة عساكر وحصون

ســتهب عاصــــفة تدك بنـــاءه دكـا

وركـــــــن الظلـــم غير ركيـــن

ماذا أفدت وقد بذلت من القـــــوى

والمـــــــــال للآلاف والمليـــون

أرهقت أعصاب البــــلاد ومـــــالها

ورجالها فى الهدم لا التكـــــــوين

وأدرت معركة تأجج نـــــــــارها

مع غير سكون ولا صـــــــــهيون

بليت سياطك والعزائم لم تـــــزل

منا كحد الصارم المســــــــنون

ياليت سياطك: وهى الكرابيج، كان الكرياج طوله متران، وبعد مدة من كثرة الضرب يصبح طوله نصف متر.

أظننـــــت دعـــوتنا تموت بضـــــــرية

خـــــابت ظنـــونك فهى شـــر ظنون

إن لعمـــــــرى إن صـــــمتنا برهـــة

فالنــــار فى البـــركان ذات كمـــون

تا الله ما لدعـــــوات تهـــــزم بالأذى

يومــــــا فى التــــــاريخ بريميـــن

ضع فى يدى القيد.. ألهب أضلعى بالسوط..

ضـــــع عنقـــــى على الســـكين

لن تستطيع حصـــار فكـــرى ســـاعة

أو نـــزع إيمـــــانى ونـــور يقينـــى

فالنور فى قلبى وقلبى فى يدى ربى
وربـــــى ناصـــــــرى ومعينـــــى
سأعيش معتصما بحبل عقيـــدتى
وأموت مبتســـــما ليحيـــا دينى

ليلة فى السجن

وقد صور شيخنا بصدق فى ملحمته النونية هذه التى زادت على الثلاثمائة بيت بضعة عشر بيتا مأساة ما يلقاه المعتقلون من أعضاء جماعة الاخوان المسلمين خاصة، وقدم من خلالها سجلا حيا على الأعمال الوحشية التى برع فيها القائمون على أمر السجون، وكتبها فضيلته بحرارة لاتزال تلسع وتقرع الجميع، فقد جعل كل شىء ماثلا أمام الجميع، نقله من عالم السجن والسجان إلى من يحاول او يدعى النسيان تعتبر بلاغا صادقا عن وقائع التعذيب الوحشى فى السجن الحربى مقدما إلى كل من يهمه الأمر.. يقول الشيخ القرضاوى:

أنا إن نسيت فلســـت أنسى ليـلة
فى ساحة الحربى ذات شـــجون
عدنا المساء من المحاكـــمة التى
كانت فصـول فكاهــة ومجـــون
ماكاد يعـــرونا الكرى حتى دعــا
داعى الردى.. وكفاك صوت أمين
فتجمع «الإخوان» ممن حوكمـــوا
ذا اليوم من طنطا إلى بســـيون
أما الألى سيحاكمون فأحضـروا
ليروا يقينـــا ليس بالمظنـــون
وإذا بقائدنا المظفـــر حمـــزة!
فى عسكر شاكى السلاح حسين
حشـــد الجنـود وصفها بمهارة
وكـــأنه عمـــرو بأجنـــادين!!

وأحاطنا ببنـــــادق ومـــــــــدافع
فغـــــرت لنا فاهــا كفــى التنين!!
طابور «تكدير» ثقيـــــل مـــرهق
فى وقت أحـــــلام وآن ســكون
نعدو كما تعدوا الظباء يســـــوقنا
لهب السياط شكت من التســخين
ومضت علينا ســــاعتان وكلنـــا
عرق تصـــبب مثـــل فيض عيــون
من خر إغمـــاء يفق عجـــلا على
ضربات صـــــوت للعـــذاب مهين
ومن ارتمى فى الأرض من شيخوخة
أو علة.. داســـوه دوس الطيـــــن
لم يكـــف حمـــزة كل ما نؤنا به
من فرط إعيـــــاء ومن توهيـــن
فأتى يوزع بالمفــــرق دفعـــــة
بالسوط من عشرين للخمســــين
كل ينـــال نصـــيبه بنزاهـــة
فى العد والإتقان والتحســـــين!!
وإذا نسيت فلست أنسى خطبــة
مازال صوت خطيبها يشـــجينى
إذا قال حمزة -وهو منتفخ- فلـم
يتـــرك لفرعــــون ولاقــارون!
أين الألى اصطنعوا البطولة وادعوا
إنى أعـــذبهم هنـــا بسجونى!
أظننتمـو هذا يخفـف عنكمـــو؟
كلا فأمـــركم انتهى، وســـلونى؟!

أم تحســــبون كلام ألفٍ منكـــــم
عنكم عن تعـــذيبكم يثنينـــــــى
إنى هنا القانون أعــــــلى ســـلطة
من ذا يحاســـب سلطة القـــانون؟!!
متفرد فى الحكـــم دون معقـــــب
من ذا يخالفنى ومن يعصـــــينى؟!
فإذا أردت وهبتكـــم حــــــرية
أو شئت ذقتـــم من عذابى الهـــون
من منكمو ســـــامحته فبرحمتـــى
وإذا أبيت فـــذاك طـــــوع يمينى
ومن ابتغـــــى موتا فها عنـــدى له
مـــــوت بلا غســــل ولاتكفين!!
يا فـــــارس الوادى وقائد سـجنه
أبنو الكنانة أم بنو صـــــــهيون؟!
هلا ذهبت إلى الحدود وحميتهـــــا
وأريتـــنا أفكـــار نابليــــون؟!
اذهب لغـــزة ياهمــــــام وأنسنا
بجهادك الدامى صــــلاح الدين!!
أفعندنا كبش النطـــاح.. ونعجـــة
فى الحــرب جمـــاء بغير قرون؟!



أعرفت ما قاســــيت فى زنزانة
كانت هى القبر الذى يؤوينــــى؟!
لا بل ظلمت القبر، فهو لذى التقى
روض وتلك جحيم أهـــل الدين!

هى فى الشـــتاء وبردة «ثلاجـة»
هى فى هجيـر الصيف مثل أتون
نلقى ثمانية بهـــا أو ســـبعة
متـــداخلين كعلبة «الســـردين»
هى منتدانا وهـــى غـرفة نومنا
وهى «البوفيه» وحجرة «الصـالون»
هى مسجد لصـــلاتنا ودعـائنا
وهى ســـاحة للعب والتمـــرين
وهى «الكنيف» وللضرورة حكمهـا
ما الذنب إلا ذنـب من سـجنونى
هى كل مالى فى الحياة فلـم يعد
فى الكون ما أرجوه أو يرجـــونى
الأرض كل الأرض عند أرضـــها
أما السماء فســـقفها يعلـونى
فيها انقطعت عن الوجود فلم أعـد
أعنيـــه فى شـىء ولايعنينـى..

شهادة السجون

ومن وحى السجن أيضا وصنوف العذابات والابتلاءات فيه كتب الشيخ القرضاوى فى عام ١٩٤٩ نشيداً أسماه «يا سجون اشهدى» وتشهد على ما يلقاه الشباب من ويلات داخلها وكيف صبروا وصمدوا دفاعاً عن عقيدتهم.

يقول فى هذا النشيد:

مرحبـــا بالحـــراب
مرحبـــا بالســـجون
فى سبـــيل الكتـــاب
كل شـــىء يهـــون

إننـــــا لانهـــــــاب
كـــل مـــــا يوعـــــدون
كيف نخشـــى العـــــذاب
ومنـــــــانا المنــــون
حســــــبنا ياشـــــباب
أننـــــــا مؤمنــــــون



نحـــــن جنـــــد الإله
وله مســــــــــلمون
همنـــــا فى رضـــــاه
لأننـــــــا لانخـــــون
لانبـــــــالى ســــــواه
كائنـــــا من يكــــون
فاقبســـوا من هــــداه
أيها الحـــــــــــائرون
وانهضــــــوا للحيـــــاة
أيهـــــا النائمــــــون



يا ســــجون اشـــــهدى
قســـــوة الظــــــالمين
واذكـــــــــرى للغـــــد
صــــــبر أهـــل اليقين
فتيـــــة المســــــجد
وحمـــــــاة العـــرين
كلهـــــم مقتــــــــد
بالرســـــول الأمـــين
صــــــامد مهتــــــد
لا، ولـــــن يســــتكين.

♦ الفصل الرابع

الشيخ السياسي





لقاءات مع الحاخامات اليهود أثناء زيارتهم للدوحة فى مؤتمر حوار الأديان

إذا أردت نموذجاً حقيقياً وترجمة صادقة على ارتباط الدين بالسياسة فلن تجد أفضل من النموذج القرضاوى سواء من ناحية الفكر النظرى أو من ناحية التطبيق العملى على أرض الواقع.. لقد نجح الشيخ فى ترسيخ قاعدة شمولية النظرة الإسلامية للحياة.. فى الدنيا أولا ومن بعدها الآخرة.. واتبع منهجا واضحا وصريحا لا يفرق أو يعزل فيه الدين عن الدنيا.. بل جعل الدين هو المحور والمحرك وقاعدة الاسترشاد.. والمقياس الدقيق لضبط الأمور.. والمرجع الأساسى الذى يحتكم إليه الجميع الساسة والرعية على السواء.

آمن القرضاوى بشمولية الإسلام.. وبشمولية السياسة أيضا.. وأنها لا تقف عند حدود المعارضة فقط.. أو ذلك الجانب المناوئ للحكام والنيل منهم.. أو أنها «البعبع» أو الفزاعة التى يرهبون بها البعض للابتعاد عن الحديث فى أمور معينة..

ولذلك آثر فى نظرته ومفهومه للسياسة أن يتعامل معها أولا بمنطق علماء الأصول.. ويقوم بعملية تحرير للمصطلح.. ليقف على حدوده ويعرف ماهيته.. وهو ما جعله يعيب على الكثيرين وينتقد نظرتهم للسياسة، إذ يذكرونها وكأنها رذيلة أو جريمة.. مع أن السياسة - كما يقول القرضاوى - من حيث هى علم تعد من أشرف العلوم.. ومن حيث هى عمل وممارسة تعد من أشرف المهن والحرف..

فالسياسة ليست منكرا ولا شرا فى ذاتها.. إذا كانت وفق أصول الإسلام وفى إطار أحكامه وقيمه..

والسياسة المرفوضة هى السياسة الميكافيلية التى ترى أن الغاية تبرر الوسيلة.. ولا تلتزم بالأخلاق.. ولا تتقيد بقيم ولا تبالى بحلال أو حرام..

أما السياسة التى يراد بها تدبير أمر الناس العام بما يحقق المصلحة لهم.. ويدرأ المفسدة عنهم.. ويقيم الموازين القسط بينهم.. فهى مع الدين فى خط واحد.. بل هى جزء من ديننا نحن المسلمين.. فهو عقيدة وعبادة وخلق ونظام شامل للحياة كلها..

والحقيقة أن العالم الثبت الثقة يرفض أن يقع فى شرك فصل الدين عن السياسة.. أو ما اصطلح على معرفته.. لا دين فى السياسة ولاسياسة فى الدين.. وهى مقولة رددها البعض لأغراض فى نفس يعقوب فى وقت ما واستعملها البعض أداة فى حرب التيارات الفكرية والثقافية.. ولاكها البعض على سبيل الفكاهة والتندر أحيانا أخرى!!

وقد أثبتت الحوادث خاصة فى السنوات الأخيرة أن كثيرا من الحكام استقطبوا علماء الدين بل والمؤسسات الدينية الكبرى لمساندة سياستهم وإصدار فتاوى شرعية تؤيد وتبارك مساعيهم وتوجهاتهم السياسية التى لا تحظى بقبول شعبى عام أو تجد معارضة شديدة.. فى هذه الحالة لا يتذكر هؤلاء المقولة التى يتمسكون بها أحيانا أو السيف الذى يسلطونه على رقاب كثير من العلماء «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» وإنما يسعون إلى العلماء سعيا ويطلقون لهم العنان.. وتصدر التعليمات إلى وسائل الإعلام بإفساح المجال لفتاوى معينة فى أوقات محددة.

إذا كانت الرغبة فى إبعاد الدين عن حياة المسلمين خاصة كانت وراء تلك الدعوى الخبيثة «فصل الدين عن الدولة» أو عن السياسة.. فإن عودة الوعى.. وتنامى تيارات الصحوة الإسلامية فى كل مكان يساعد فى «وأد» مثل هذه الدعوات ويجعل الدين يتغلغل فى كل مناحى الحياة.. وبالتالى بدأ الناس البحث عن مرجعية الحلال والحرام.. يجوز أو لا يجوز.. تحوطا لدينه وضمانا لسلامة حياته وهناءة مأكله ومشربه وأنه لا تشوبه شائبة.

ولذلك فوجئت التيارات العلمانية والليبرالية والماركسية بالموجة الكاسحة فى العودة إلى الدين والاسترشاد به هاديا وموجها وقائدا.. ولم يكن أمامها من خيار إلا التعامل مع الواقع الجديد بعد أن فقدت تلك التيارات أهم

عناصر الدعم لها فى مواجهة الإسلاميين: فقد خفت القبضة الحديدية شيئا ما على التيارات الاسلامية ثم كان هناك توجه لضرب قوى أخرى باستخدام الجماعات الاسلامية.. وأيضا غياب الدعم الرسمى والمساندة الصريحة للاتجاهات التى تتخذ موقفا من الدين.. بعد الانتقادات الحادة فى هذا الصدد من الداخل والخارج أيضا..

سهل من مهمة التقدم والاختراق بروز قيادات فكرية وعلماء لهم دورهم الدينى فى الداخل والخارج.. وأحدثوا بفكرهم هزات على الساحة الثقافية ليس فقط الاسلامية بل والعالمية أيضا..

وطرحت بوضوح الفكرة الاسلامية فى مقابل الليبرالية والديمقراطية وغيرهما.. وتم تأصيل وجهة النظر الشرعية فى كثير من مستجدات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.. وأصبح صوت علماء الدين قويا مزلزلا ومعتبرا على كل الأصعدة..

وبالتالى لم يكن غريبا أن تطارد الأسئلة السياسية وغيرها علماء الدين ويكون هناك إلحاح شديد من الشرق والغرب فى الاجابة عنها ووجد العلماء أنفسهم فى قلب المعركة.. ولا يمكن لأحدهم بحال من الأحوال أن يقول هذا دين وهذه سياسة..

ولم يكن غريبا أن يتصدر د. القرضاوى الساحة التى ملأها علما وفقها وسياسة.. وأن تحدث فتاواه السياسية دويا داخل أوساط المسلمين والقوى الدولية المهيمنة على العالم.. ولا أبالغ إذا قلت إنها كانت تترقب فتاواه فى قضايا بعينها.. بل كانت تخشى آراءه وما تثيره من ردود أفعال.. وليس أدل على ذلك من فتاوى الجهاد لقوات الاحتلال فى فلسطين والعراق وأفغانستان.. وفى القواعد الأجنبية داخل ديار المسلمين وحرمتها.. والفتاوى الخاصة بالأقليات المسلمة فى بلاد الغرب.. وكلها دين وفقه وسياسة..

يؤمن د. القرضاوى بأن الإسلام الحق كما شرعه الله تعالى - لا يمكن إلا أن يكون سياسيا.. وإذا جردت الاسلام من السياسة فقد جعلته دينا آخر يمكن أن يكون بوذية أو نصرانية أو غير ذلك.. أما أن يكون هو الاسلام فلا.

ويرجع الشيخ القرضاوى ذلك إلى سببين رئيسيين:

الأول: الإسلام يوجه الحياة كلها:

ان للإسلام موقفاً واضحاً، وحكماً صريحاً فى كثير من الأمور التى تعتبر من صلب السياسة.

فالإسلام ليس عقيدة لاهوتية، أو شعائر تعبدية فحسب، أعنى أنه ليس مجرد علاقة بين الإنسان وربه، ولا صلة له بتنظيم الحياة، وتوجيه المجتمع والدولة.

كلا... إنه عقيدة، وعبادة، وخلق، وشريعة متكاملة، وبعبارة أخرى: هو منهاج كامل للحياة؛ بما وضع من مبادئ، وما أصل من قواعد، وما سن من تشريعات، وما بين من توجيهات، تتصل بحياة الفرد، وشؤون الأسرة، وأوضاع المجتمع، وأسس الدولة، وعلاقات العالم.

ومن قرأ القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكتب الفقه الإسلامى بمختلف مذاهبه، وجد هذا واضحا كل الوضوح.

حتى إن قسم العبادات من الفقه ليس بعيداً عن السياسة، فالمسلمون مجمعون على أن ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والمجاهرة بالفطر فى رمضان، وإهمال فريضة الحج مما يوجب العقوبة، والتعزير، وقد يقتضى القتال إذا تظاهرت عليه فئة ذات شوكة، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه مع مانعى الزكاة.

إن فكرة التوحيد فى الإسلام تقوم على أن المسلم لا يبغى غير الله رباً، ولا يتخذ غير الله ولياً، ولا يبتغى غير الله حكماً، كما بينت ذلك سورة التوحيد الكبرى المعروفة باسم (سورة الأنعام).

وعقيدة التوحيد فى حقيقتها ما هى إلا ثورة لتحقيق الحرية والمساواة والأخوة للبشر، حتى لا يتخذ بعض الناس بعضا أرباباً من دون الله، وتبطل عبودية الإنسان، ولذا كان الرسول الكريم صلوات الله عليه يختم رسائله إلى ملوك أهل الكتاب بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهذا سر وقوف المشركين وكبراء مكة فى وجه الدعوة الإسلامية، من أول يوم، بمجرد رفع راية (لا إله إلا الله) فقد كانوا يدركون ماذا وراءها، وماذا تحمل من معانى التغيير للحياة الاجتماعية والسياسية، بجانب التغيير الدينى المعلوم بلا ريب.

الثانى: شخصية المسلم شخصية سياسية:

إن شخصية المسلم - كما كونها الإسلام وصنعتها عقيدته وشريعته وعبادته وتربيته - لا يمكن إلا أن تكون سياسية، إلا إذا ساء فهمها للإسلام، أو ساء تطبيقها له.

فالإسلام يضع فى عنق كل مسلم فريضة اسمها: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر وقد يعبر عنها بعنوان: النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، وهى التى صح فى الحديث اعتبارها الدين كله، وقد يعبر عنها بالتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، وهما من الشروط الأساسية للنجاة من خُسر الدنيا والآخرة، كما وضحت ذلك (سورة العصر).

ويحرض الرسول صلى الله عليه وسلم المسلم على مقاومة الفساد فى الداخل، ويعتبره أفضل من مقاومة الغزو من الخارج، فيقول حين سئل عن أفضل الجهاد: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، وذلك لأن فساد الداخل هو الذى يمهد السبيل لعدوان الخارج.

ويعتبر الشهادة هنا من أعلى أنواع الشهادة فى سبيل الله: «سيد الشهداء حمزة، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله».

ويغرس فى نفس المسلم رفض الظلم، والتمرد على الظالمين حتى إنه ليقول فى دعاء القنوت المروى عن ابن مسعود، وهو المعمول به فى المذهب الحنفى وغيره: «نشكرك اللهم ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك».

ويرغب فى القتال لإنقاذ المضطهدين، والمستضعفين فى الأرض، بأبلغ عبارات الحث والتحريض، فيقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

ويصب جام غضبه، وشديد إنكاره على الذين يقبلون الضيم، ويرضون بالاقامة فى أرض يهانون فيها ويظلمون، ولديهم القدرة على الهجرة منها والفرار إلى أرض يجدون فيها حريتهم، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾(النساء: ٩٧-٩٩)

حتى هؤلاء العجزة والضعفاء قال القرآن فى شأنهم: (عسى الله أن يعفو عنهم)، فجعل ذلك فى مظنة الرجاء من الله تعالى، زجراً عن الرضا بالذل والظلم ما وجد المسلم إلى رفضه سبيلا.

وحديث القرآن المتكرر عن المتجبرين فى الأرض ومن أمثال فرعون، وهامان، وقارون وأعوانهم وجنودهم، حديث يملأ قلب المسلم بالنقمة عليهم والإنكار لسيرتهم والبغض لطغيانهم والانتصار - فكريا وشعوريا - لضحاياهم من المظلومين والمستضعفين.

وحديث القرآن والسنة عن السكوت على المنكر والوقوف موقف الحياد أو السلب من مقترفيه - حكاما أو محكومين - حديث يزلزل كل من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.

يقول القرآن: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» ومن الخطأ الظن بأن المنكر ينحصر فى الزنى وشرب الخمر وما فى معناهما.

إن الاستهانة بكرامة الشعب: منكر أى منكر والتضييق على الحريات العامة: منكر أى منكر وتزوير الانتخابات: منكر أى منكر، والقعود عن الادلاء

بالشهادة فى الانتخابات: منكر أى منكر، وتقديم المحاسيب والذيول والمهازيل على الأقـوياء الأمناء: منكر أى منكر وسـرقـة المال العـام: منكر أى منكر واحتكار السلع التى يحتاج إليها الناس لصالح فرد أو فئة: منكر أى منكر واعتقال الناس بغير جريمة حكم بها القضاء العادل: منكر أى منكر وتعذيب الناس داخل السجون والمعتقلات: منكر أى منكر ودفع الرشوة وقبولها والتوسط فيها: منكر أى منكر وتملق الحكام بالباطل وإحراق البخور بين أيديهم: منكر أى منكر وموالاة أعداء الله وأعداء الأمة من دون المؤمنين: منكر أى منكر.

وهكذا نجد دائرة المنكرات تتسع وتتسع لتشمل كثيرا مما يعده الناس فى صلب السياسة.

فهل يسع المسلم الشحيح بدينه، الحريص على مرضاة ربه أن يقف صامتا؟ أو ينسحب من الميدان هاربا أمام هذه المنكرات وغيرها.. خوفا أو طمعا أو إيثارا للسلامة؟

إن مثل هذه الروح إن شاعت فى الأمة فقد انتهت رسالتها وحكم عليها بالفناء لأنها غدت أمة أخرى غير الأمة التى وصفها الله بقوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (آل عمران: ١١٠).

ولا عجب أن نسمع هذا النذير النبوى للأمة فى هذا الموقف إذ يقول: «إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم فقد تُودِّع منهم» أى فقدوا أهلية الحياة.

إن المسلم مطالب - بمقتضى إيمانه - ألا يقف موقف المتفرج من المنكر أيا كان نوعه: سياسيا كان أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا بل عليه أن يقاومه ويعمل على تغييره باليد إن استطاع وإلا فباللسان والبيان فإن عجز عن التغيير باللسان انتقل إلى آخر المراحل وأدناها وهى التغيير بالقلب وهى التى جعلها الحديث: «أضعف الإيمان».

يضيف د. القرضاوى: ومما يجعل المسلم سياسيا دائما: أنه مطالب بمقتضى إيمانه ألا يعيش لنفسه وحدها دون اهتمام بمشكلات الآخرين

وهمومهم وخصوصا المؤمنين منهم بحكم أخوة الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

وفى الحديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ناصحا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فليس منهم» و«أيما أهل عَرْصَه بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله» .

والقرآن كما يفرض على المسلم أن يطعم المسكين يفرض عليه أن يحض الآخرين على إطعامه.. ولا يكون كأهل الجاهلية الذين ذمهم القرآن بقوله: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الفجر: ١٧، ١٨) ويجعل القرآن التفريط فى هذا الأمر من دلائل التكذيب بالدين: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون: ١-٣).

وهذا فى المجتمعات الرأسمالية والاقطاعية المضيعة لحقوق المساكين والضعفاء تحريض على الثورة وحضٌّ على الوقوف مع الفقراء فى مواجهة الأغنياء.

وكما أن المسلم مطالب بمقاومة الظلم الاجتماعى فهو مطالب أيضاً بمحاربة الظلم السياسى وكل ظلم أيا كان اسمه ونوعه.. والسكوت عن الظلم والتهاون فيه يوجب العذاب على الأمة كلها: الظالم والساكت عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥).

وقد ذم القرآن الأقوام الذين أطاعوا الجبابرة الطغاة وساروا فى ركابهم كقوله عن قوم نوح: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (نوح: ٢١).

بل جعل القرآن مجرد الركون والميل النفسى إلى الظالمين موجباً لعذاب الله: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣).

ويحمل الإسلام كل مسلم مسئولية سياسية: أن يعيش دولة يقودها إمام

مسلم يحكم بكتاب الله ويبايعه الناس على ذلك وإلا التحق بأهل الجاهلية ففى الحديث الصحيح: «من مات وليس فى عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية».

الصلاة والسياسة

إن المسلم قد يكون فى قلب الصلاة ومع هذا يخوض فى بحر السياسة حين يتلو من كتاب الله الكريم آيات تتعلق بأمور تدخل فى صلب ما يسميه الناس «سياسة».

فمن يقرأ فى سورة المائدة الآيات التى تأمر بالحكم بما أنزل الله وتدمغ من لم يحكم بما أنزل الله سبحانه بالكفر والظلم والفسوق: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧) يكون قد دخل فى السياسة وربما اعتبر من المعارضة المتطرفة لأنه بتلاوة هذه الآيات يوجه الاتهام إلى النظام الحاكم ويحرض عليه لأنه موصوف بالكفر أو الظلم أو الفسق أو بها كلها.

ومثل ذلك من يقرأ الآيات التى تحذر من موالاة غير المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٤٤).

ومن قنوت «قنوت النوازل» المقرر فى الفقه وهو الدعاء الذى يدعى به فى الصلوات بعد الرفع من الركعة الأخيرة وخصوصا فى الصلاة الجهرية وهو مشروع عندما تنزل بالمسلمين نازلة كغزو عدو أو وقوع زلزال أو فيضان أو مجاعة عامة أو نحو ذلك.. كما نفعل كثيرا عندما يقع عدوان صهيونى كبير على فلسطين أو على لبنان وكما حدث كثيرا فى حرب السوفيت لأفغانستان وحرب الصرب للبوسنة والهرسك وغيرها.

وهكذا كنا ندخل فى معترك السياسة ونخوض غماره ونحن فى محراب الصلاة متبتلون خاشعون.. فهذه هى طبيعة الإسلام لا ينعزل فيه دين عن

دنيا ولا تنفصل فيه دنيا عن دين ولا يعرف قرآنه ولا سنته ولا تاريخه دينا بلا دولة ولا دولة بلا دين.

يرى د. القرضاوى ان الساسة يدخلون الدين فى السياسة متى أرادوا يقول: الذين زعموا ان الدين لا علاقة له بالسياسة من قبل والذين اخترعوا أكذوبة «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» من بعد أول من كذبوها بأقوالهم وأفعالهم.

فطالما لجأ هؤلاء إلى الدين ليتخذوا منه أداة فى خدمة سياستهم والتنكيل بخصومهم وطالما استخدموا بعض الضعفاء والمهازيل من المنسوبين إلى علم الدين ليستصدروا منهم فتاوى ضد من يعارض سياستهم الباطلة دينا والعاطلة دنيا.

مازلت أذكر كيف صدرت الفتاوى ونحن فى معتقل الطور سنة ١٩٤٨م و١٩٤٩م بأننا - نحن الدعاة إلى تحكيم القرآن وتطبيق الاسلام - نحارب الله ورسوله ونسعى فى الأرض فسادا فحقنا أن نقتل أو نصلب أو تقطع أيدينا وأرجلنا من خلاف أو ننفى من الأرض! وتكرر هذا فى أكثر من عهدا تتكرر المسرحية وإن تغيرت الوجوه!

ومازلت أذكر - ويذكر الناس - كيف طلب من أهل الفتوى أن يصدروا فتواهم بمشروعية الصلح مع اسرائيل تأييدا لسياستهم الانهزامية بعد أن أصدرت الفتوى من قبل بتحريم الصلح معها واعتبار ذلك خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين!

مازال الحكام يلجأون إلى علماء الدين يطلبون منهم - تصريحا أو تلويحا - فتاوى تخدم أغراضهم السياسية وربما كان منها محاولات تحليل فوائد البنوك وشهادات الاستثمار وغيرها فيستجيب لهم كل رخو العود - ممن قل فقههم أو قل دينهم - ويأبى عليهم العلماء الراسخون: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

وقد فند الشيخ القرضاوى دعاوى ومزاعم العلمانيين فى مقولة لا سياسة فى الدين مناقشة علمية رصينة بالأدلة العقلية قبل النقلية وأيد فيها ما ذهب إليه العلامة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر ووصفه مقولة فصل

الدين عن السياسة بأنها «ضلالة» وهو تعبير شرعى صحيح لأنه أمر محدث ومبتدع فى الأمة وكل بدعة ضلالة.. كما جاء فى الحديث الصحيح.

يقول د. القرضاوى بوضوح: انه لا انفصال للسياسة عن الدين ولا للدين عن السياسة وان من الخير أن يدخل الدين فى السياسة فيوجهها إلى الحق ويرشدها إلى الخير ويهديها سواء السبيل ويعصمها من الغرور بالقوة والانحراف إلى الشهوات ويمد أصحابها بالخشية من الله ولا سيما ان السلطة تغرى بالفساد والقوة تغرى بالفجور والطغيان ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أن رآه استغنى» (العلق: ٦، ٧).

ومن الخير كذلك: أن تدخل السياسة فى الدين لا لتتخذه مطية تركبها أو أداة تستغلها ولكن لتجعله قوة هادية تضىء لها طريق العدل والشورى والتكافل وقوة حافزة: تبعثها لنصرة الحق وفعل الخير والدعوة إليه وقوة ضابطة: تمنعها من اقتراف الشرور والإعانة على الفجور.

وإذا كان هذا يقال فى الأديان بصفة عامة فإن الإسلام - بصفة خاصة - لا يقبل هذا الفصام بين الدين والسياسة أو بين العقيدة والشريعة أو بين العبادات والمعاملات أو بين المسجد والسوق أو بين الإيمان والحياة.

وهذا ما مضى عليه تاريخنا ثلاثة عشر قرنا أو تزيد حتى دخل الاستعمار الغربى بلاد المسلمين وتحكم فى مصايرها وملك أزمَّة التشريع والتثقيف والتعليم والإعلام التى توجه حياتها وتلونها كما تشاء.

ولكن الصحوة الإسلامية المعاصرة قذفت بحقها على باطل الاستعمار فدمغته فإذا هو زاهق وأبرزت قوة الإسلام الذاتية فى أمته من جديد وتقررت سنة الله فى ان العاقبة للحق والبقاء للأزكى والأصلح ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

ولا عجب أن رأينا من المفكرين المدنيين - من غير المشايخ وعلماء الدين - من ينادى جهرا بإسقاط شعار العلمانية المستوردة التى تقوم دعوتها فى الأساس على فصل الدين عن السياسة أو الدين عن الدولة فلم يعد بعد لدعوة العلمانية من مكان ولا حاجة فى ديارنا وقد كانت الحاجة إليها فى الغرب لأسباب تاريخية معروفة وليس لهذه الأسباب وجود عندنا.

الإسلام والديمقراطية

أحدثت الفتاوى السياسية للشيخ القرضاوى ردود فعل واسعة فى الأوساط المختلفة.. وخاصة لدى العلمانيين والمناوئين لكل ما هو إسلامى.. وأستطيع أن أجزم أن بعض هذه الفتاوى خاصة ما يتعلق بقيام حزب إسلامى.. أو بالديمقراطية.. وتوافق الدولة الإسلامية مع جوهر الديمقراطية قد وضعت الكثيرين فى حرج بالغ.. بل أسكتت بعض الألسنة.. والبعض رفضها وادعى أنها تتناقض وصلب الفكرة الإسلامية.. وأن الشيخ وصل إلى نتائجه قسرا وليّاً لعنق الحقائق لاثبات أن الإسلام يتماشى مع الحاضر والنظم الحديثة فى الغرب!!

ونتوقف أمام بعض ما طرحه فى هذا الصدد عن الديمقراطية وصلتها بالإسلام يقول القرضاوى:

١- الرافضون للديمقراطية باسم الإسلام:

صنف يرى أن الإسلام والديمقراطية ضدان لا يلتقيان، لعدة أسباب:

❖ إن الإسلام من الله والديمقراطية من البشر.

❖ إن الديمقراطية تعنى حكم الشعب للشعب، والإسلام يعنى حكم الله.

❖ إن الديمقراطية تقوم على تحكيم الأكثرية فى العدد، وليست الأكثرية دائما على صواب.

❖ إن الديمقراطية أمر محدث وابتداع فى الدين، ليس له سلف من الأمة، وفى الحديث: من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ومن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد

وأن الديمقراطية مبدأ مستورد من الغرب النصرانى أو العلمانى الذى لا يؤمن بسلطان الدين على الحياة، أو الملحد الذى لا يؤمن بنبوة ولا ألوهية ولا جزاء، فكيف نتخذه لنا إماما؟

بناء على هذا يرفض هؤلاء الديمقراطية رفضا باتا، وينكرون على من ينادى بها أو يدعو إليها فى ديارنا، بل قد يتهمونه بالكفر والمروق من الإسلام. فقد صرح بعضهم بأن الديمقراطية كفرا.

٢- القائلون بالديمقراطية بلا قيود

على عكس هؤلاء: آخرون يرون أن الديمقراطية الغربية هى العلاج الشافى لأوطاننا ودولنا وشعوبنا، بكل ما تحمله من معانى الليبرالية الاجتماعية، والرأسمالية الاقتصادية، والحرية السياسية.

ولا يقيد هؤلاء هذه الديمقراطية بشىء وهم يريدونها فى بلدنا، كما هى فى بلاد الغربيين، لا تستند إلى عقيدة، ولا تحث على عبادة، ولا تستمد من شريعة، ولا تؤمن بقيم ثابتة، بل هى تفصل بين العلم والأخلاق، وبين الاقتصاد والأخلاق، وبين السياسة والأخلاق، وبين الحرب والأخلاق.

وهذا هو منطق «التغريبيين» الذين نادوا من قديم، بأن نسير مسيرة الغربيين، ونأخذ حضارتهم بخيرها وشرها، وحلوها ومرها.

الوسطيون المتوازنون:

وبين هؤلاء أولئك: تقف فئة الوسط التى ترى أن خير ما فى الديمقراطية - أو قل: جوهر الديمقراطية - متفق مع جوهر تعاليم الإسلام.

جوهر الديمقراطية: أن يختار الناس من يحكمهم، ولا يفرض عليهم حاكم يكرهونه ويرفضونه يقودهم بعصاه أو سيفه وأن يكون لديهم من الوسائل: ما يقومون به عوجه، ويردونه إلى الصواب إذا أخطأ الطريق، وأن تكون لديهم القدرة على إنذاره إذا لم يرتدع، ثم عزله بعد ذلك سلميا.

وإذا اختلف معه أهل الحل والعقد ـ أو مجلس الأمة أو الشعب أو مجلس النواب، سمه ما شئت ـ فإن كان فى أمر شرعى: رد التنازع إلى الله ورسوله كما أمر القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء : ٥٩)، وقد أجمع العلماء على أن المراد بالرد إلى الله: الرد إلى كتابه وبالرد إلى رسول الله: الرد إلى سنته.

والذين يرجع إليهم فى هذا هم الراسخون فى العلم، الخبراء وأهل الذكر فى العلم الشرعى: علم الكتاب والسنة والفقه وأصوله، الذين يجمعون بين فقه النصوص الجزئية وفقه المقاصد الكلية، والذين يجمعون بين فقه الشرع وفقه الواقع، أعنى فقه العصر الذى يعيشون فيه وما فيه من تيارات ومشكلات وعلاقات، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ (النساء : ٨٣).

وأما فى أمور الحياة المختلفة: التى تدخل فى دائرة المباحثات، فعند الاختلاف فى شأنها ـ كما هو شأن البشر فى الأمور الاجتهادية ـ لابد من مرجح بعد شرحها من أهل الاختصاص، والمرجح هو الأغلبية، فإن رأى الاثنين أقرب إلى الصواب من رأى الفرد وهناك أدلة شرعية على ذلك لا يتسع المقام لسردها فلتراجع فى كتابنا «من فقه الدولة فى الإسلام».

ولا يعيب الديمقراطية أنها من اجتهادات البشر، فليس كل ما جاء عن البشر مذموما، كيف وقد أمرنا الله أن نعمل عقولنا، فنفكر وننظر، ونتدبر ونعتبر، ونجتهد ونستنبط؟ ولكن ينظر فى هذا الاجتهاد: أهو مناقض لما جاء من عند الله أم لا يتعارض معه، بل يمشى فى ضوئه؟ وقد رأينا الديمقراطية تجسد مبادئ الشورى، والنصيحة فى الدين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتواصى بالحق والصبر، وإقامة العدل، ورفع الظلم، وتحقيق المصالح ودفع المفاسد.. وغيرها.

وما قيل من أن الديمقراطية تعنى حكم الشعب فليس يعنى: أنه فى مقابلة حكم الله، بل حكم الشعب فى مقابلة حكم الفرد المطلق.

وما قيل: إنه مبدأ مستورد. فالاستيراد فى ذاته ليس محظورا. إنما المحظور أن تستورد ما يضرك ولا ينفعك. وأن تستورد بضاعة عندك مثلها أو خير منها. ونحن نستورد من الديمقراطية: آلياتها وضماناتها. ولا نأخذ كل فلسفتها التى تغلو فى تضخيم الفرد على حساب الجماعة. وتبالغ فى تقرير الحرية ولو على حساب القيم والأخلاق. وتعطى الأكثرية الحق فى تغيير كل شىء حق الديمقراطية ذاتها!!

نحن نريد ديمقراطية المجتمع المسلم. والأمة المسلمة. بحيث تراعى هذه الديمقراطية عقائد هذا المجتمع وقيمه وأسسه الدينية والثقافية والأخلاقية. فهى من الثوابت التى لا تقبل التطور ولا التغيير بالتصويت عليها.

الشورى والديمقراطية

وكثير من الذين يتحدثون عن الديمقراطية. وأن لها فى أحكام الإسلام أصولا وجذورا: يركزون على قاعدة «الشورى» فى الإسلام. ويعتبرون الشورى هى البديل الإسلامى للديمقراطية. وهى أيضا الدليل الشرعى للديمقراطية.

وفى رأيى أننا نستطيع أن ندعم القضية بأكثر من ذلك. وأن الشورى وحدها قد لا تكفى هنا لسببين:

أولهما: أن هناك من الفقهاء من زعم أن الشورى ليست واجبة. وإنما هى من قبيل المندوبات والمستحبات. فهى من المكملات وليست من المؤسسات خلافا لما قاله المحققون من أمثال العلامة ابن عطية. وأقره الإمام القرطبى فى تفسيره: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشر أهل العلم والدين. فعزله واجب. وهذا ما لا خلاف فيه».

وثانيهما: أن هناك من الفقهاء أيضا من قالوا: إن الشورى معلمة وليست ملزمة. وحتى من سلم أن الشورى واجبة وفريضة دينية. يقول: إن الواجب على الحاكم أو الإمام أن يستشير أهل الرأى والبصيرة والخبرة حتى إذا استنار له الطريق. مضى فى سبيله بما يراه وتحمل المسئولية وحده. وليس من الضرورى أن ننزل على رأيهم. مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ «آل عمران: ١٥٩».

ونحن لا نقر هذين الأمرين، ولنا رد على كل منهما مذكور فى مواضعه من كتبنا ولكن مجرد اثارتهما قد يضعف لدى بعض الناس من الاعتماد على الشورى وحدها.

ورأيى أن الواجب علينا هنا: أن نضيف مبادئ أو مؤيدات أخرى تؤكد شرعية الديمقراطية الحقيقية وقربها من جوهر الإسلام.

من هذه المؤيدات:

١ - رفض سلطان الجبابرة والفراعنة

أول هذه المبادئ المؤيدة لشرعية الديمقراطية، وحكم الشعوب لنفسها، واختيارها من يحكمها ويقودها: أن القرآن الكريم ينكر أبلغ الإنكار، بل يذم أبلغ الذم: الجبابرة الذين يتسلطون على الشعوب، ويحكمونها رغم أنوفها، ويقودونها طوعا أو كرها ـ بل غالبا ما يقودونها كرها ـ إلى ما يريدون.

وفى هذا ذم القرآن مُلك صاحب إبراهيم ـ الذى يسمونه «نمروذ»: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ...**﴾ «البقرة: ٢٥٨».

وقد ذكر المفسرون: أنه جاء برجلين من عرض الطريق، فحكم عليهما بالإعدام، ثم نفذ الحكم فى أحدهما وضربه بالسيف، وقال: ها أنا قد أمته! وعفا عن الآخر، وقال: ها أنا ذا قد أحييته!.

ومثل ذلك حكم فرعون الذى قال القرآن فى شأنه: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾(القصص: ٤).

كما ذم القرآن تسلط الجبابرة فى الأرض بصفة عامة، فقال: ﴿ **واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ (إبراهيم: ١٥)، وقال: ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ (غافر: ٣٥).

وذم كذلك الشعوب التى تسير فى ركاب الجبابرة المستكبرين فى الأرض

وتنقاد لهم طائعة، كما قال عن فرعون ﴿فاسْتخفّ قوْمهُ فأطاعُوهُ إنّهُمْ كانُوا قوْما فاسقين﴾ «الزخرف: ٥٤» وقال عن ملأ فرعون أيضا: ﴿ فاتّبعُوا أمْر فرْعوْن وما أمْرُ فرْعوْن برشيدٍ (٩٧) يقْدُمُ قوْمهُ يوْم الْقيامة فأوْردهُمُ النّار وبئْس الْوِرْدُ الْمورُودُ ﴾ (هود : ٩٧ ، ٩٨).

وذم القرآن عادا قوم هود لتفريطهم فى حريتهم وكرامتهم واتباعهم الجبابرة المتسلطين، فقال: ﴿وتلْك عادٌ جحدُوا بآيات ربّهمْ وعصوْا رُسُلهُ واتّبعُوا أمْر كُلّ جبّارٍ عنيدٍ﴾ (هود: ٥٩).

وحكى القرآن نصيحة نبى الله صالح لقومه ثمود إذ قال لهم: ﴿ فاتّقُوا اللّه وأطيعُون (١٥٠) ولا تُطيعُوا أمْر الْمُسْرفين (١٥١) الّذين يُفْسدُون في الأرْض ولا يُصْلحُون ﴾ (الشعراء: ١٥٠، ١٥١، ١٥٢).

وبهذا نرى أن من مبادئ القرآن وأهدافه: أن يحرر الأقوام والشعوب من تسلط الفراعنة والجبابرة المتألهين فى الأرض وأن يرفع جباههم فلا تسجد إلا لله الذى خلقهم، ويعلى رءوسهم فلا تنحنى إلا له سبحانه فلا يحكم الناس ولا يقودهم نمروذ، ولا فرعون، وإنما يقودهم رجل منهم هم الذين يختارونه، وهم الذين يراقبونه ويحاسبونه، وهم الذين يعزلونه ـ عند انحرافه ـ ويسقطونه كما قال أبو بكر الخليفة الأول فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة: إن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم.

٢- اتباع الجماعة والسواد الأعظم:

وهناك نصوص شرعية، وأحاديث نبوية، تأمر المسلمين أن يكونوا مع الجماعة، فيد الله مع الجماعة، وأن يتبعوا السواد الأعظم، أى جمهور الناس، وأن يهتموا برؤية المؤمنين للأشياء والوقائع والاشخاص، فإن رؤيتهم معتبرة عند الله وعند الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وقُل اعْملُوا فسيرى اللّهُ عملكُمْ ورسُولُهُ والْمؤْمنُون﴾ (التوبة: ١٠٥) فجعل رؤيتهم للعمل مقارنة لرؤية الله ورسوله.

وقال فى آية أخرى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾» (غافر: ٣٥) فجعل مقت الذين آمنوا وسخطهم بجوار مقت الله تعالى ولذا قال ابن مسعود رضى الله عنه: ما رآه المسلمون حسنا. فهو عند الله حسن. وما رآه المسلمون قبيحا. فهو عند الله قبيح.

٣- عدم قبول صلاة الإمام الذى يكرهه المأمومون:

ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرا (وهكذا كناية عن عدم قبولها عند الله): رجل أم قوماً وهم له كارهون: وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط. وأخوان متصارمان».

ومعنى هذا: أن الإمام فى الصلاة يجب أن يكون ممن يحبهم المأمومون. وإذا أحس بغير ذلك: يجب أن يتخلى عن هذه الإمامة. وإلا ارتدت صلاته عليه. أو بقيت معلقة لا تقبل عند الله.

فإذا كان هذا فى الإمامة الصغرى. فكيف بالإمامة الكبرى! إمامة الأمة فى شئونها كلها. التى تشمل دينها ودنياها؟

وفى الحديث الصحيح: «خيار أئمتكم: الذين تحبونهم ويحبونكم. ويصلون عليكم وتصلون عليهم «أى يدعون لكم وتدعون لهم». وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم. وتلعنونهم ويلعنونكم». فأساس الصلة بين الحاكم والمحكومين: هو الثقة والمحبة المتبادلة بينهم لا التباغض ولا التلاعن. الملازم للحكم المستبد الذى يقوم على القهر والجبروت.

تكوين الأحزاب

فى قضية تكوين الأحزاب يعلن د.القرضاوى بوضوح وقوة أيضا أن من حق الإسلاميين أن يكون لهم حزب سياسى مثل أى جماعة سياسية أخرى.. ويرى أن حرمان الإسلاميين من هذا الحق مخالفة صريحة لقواعد الديمقراطية والدستور والمواثيق الدولية.. ولا يمانع القرضاوى فى أن ينضم إلى الحزب الإسلامى أشخاص غير مسلمين.

ما انتهجته بعض الأنظمة الحاكمة وحرّض عليه العلمانيون. أو رحبوا به. من حرمان الاتجاهات الإسلامية من تأسيس حزب سياسى. وتحريم ذلك عليهم تحريما مطلقا. متذرعين بحجج ليست فى الواقع إلا شبهات واهية أوهن من بيت العنكبوت:

● قالوا - أولا - إن الدين أطهر وأنقى وأعلى من أن يتدنس بالسياسة، لهذا لا يجوز إنشاء حزب سياسى على أساس الدين.

● وقالوا - ثانيا - إن هذا الحزب لو سمح له أن ينشأ، سيزعم أنه يحكم بالحق الإلهى، وباسم السماء، فلا يجوز لأحد أن ينقده أو يعارضه، وإلا كان كافراً أو فاسقا.

● وقالوا - ثالثا - إننا لو سمحنا للإسلاميين بتكوين حزب إسلامى، لابد فى بلد كمصر: أن تسمح للأقباط بتكوين حزب مسيحى، وهذا سيكون مدعاة لإثارة الفتن الطائفية، التى لا تؤمن عواقبها.

● وقالوا - رابعا - إن الحزب الإسلامى سيستخدم المساجد للدعاية السياسية، فى حين لا يستخدمها غيره.

وهذه كلها مردود عليها، ولا تثبت على محكّ النقد:

١- فاعتقاد أن السياسة دنس ورجس من عمل الشيطان: اعتقاد لا أساس له من الدين ولا من العلم.

وإذا كانت السياسة عمل العقل فى تدبير شئون الخلق بما يصلحهم ويرقى بهم فى ضوء الشريعة، أو كما عرفها بعضهم: كل عمل يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، فليست فى ذاتها دنسا ولا رذيلة ولا حراما ولا رجسا، إنما الدنس فى نفوس الذين يستغلون السياسية للإثراء الحرام، والإفساد فى الأرض والطغيان على عبد الله.

وكم رأينا من الساسة والقادة من أقام العدل، وأيد الحق، ودعا إلى الخير، وأحيا الله به البلاد، وأصلح به العباد.

٢- ودعوى أن الحزب الإسلامى سيزعم أنه يحكم بالحق الإلهى، ويتكلم باسم السماء: دعوى غير صحيحة ولا صادقة. والحزب الإسلامى لا يرخص له بتكوين حزبه إلا بعد أن يقدم برنامجه، ويحدد فيه رؤيته ورسالته، ويبين أهدافه ووسائله، ومناهجه فى إصلاح المجتمع من نواحيه المختلفة «اقتصادية واجتماعية وثقافية وتربوية وسياسية وأخلاقية... إلخ» فإذا كان فى هذا البرنامج دعوى الحكم بالحق الإلهى: رفض طلبه، وإن كان شأنه شأن غيره من الأحزاب يعمل فى ظل الدستور، ويستمد مرجعيته من الشريعة الإسلامية السمحة، مقرونة بالاجتهاد والتجديد،

المرتبط بفقه المقاصد والموازنات والأولويات فليس من حقنا أن نقوِّله ما لم يقل، ونرميه بتهمة ليس عليها دليل ولا برهان.

إن على بن أبى طالب سمح لجماعة الخوارج المعارضين لحكمه: أن يكون لهم وجودهم الحزبى والسياسى، مع أفكارهم المعارضة، بشرط ألا يبدأوا المسلمين بقتال.

٣- ودعوى أن إعطاء الإسلاميين حق تكوين حزب: يفتح الباب لمطالبة الاقباط بحزب لهم: دعوى مرفوضة أيضا، فما المانع أن يكون للاقباط حزب سياسى يعمل فى وضح النهار، بدل أن يتهمهم من يتهمهم بأنهم يعملون بالسياسة من خلال الكنيسة، بدون حزب مرخص.

إن اعطاء الاقباط وأمثالهم حق تكوين حزب سياسى علنى يقوم على مبادىء وأسس إنسانية عامة، لا حرج فيه، ولا مانع منه، ما دام يقوم على رعاية المصالح الوطنية المشتركة، ولايفتأت على حق الأكثرية فى أن يحكموا بشريعتهم إذا ارتضوها، ولا يستعين بأى قوة أجنبية على إخوانه ومواطنيه.

٤- وادعاء أن الحزب الإسلامى سيستخدم المساجد للدعاية السياسية: ليس مسلما، فالمسجد ليس للإسلاميين وحدهم، انما هو مسجد المسلمين جميعا، ويجب أن يتجنب المسجد الدعاية للأشخاص، والمهاترات الحزبية والشخصية لكن لا نستطيع أن نمنع المساجد وخطباءها أن يؤيدوا من يتبنى الشريعة الإسلامية، وان يرفضوا من رفضها، دون تحديد ولا تعيين، فهذا من باب النصيحة فى الدين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الذى تميزت به هذه الأمة، وقد سئلت منذ سنوات عن استخدام المسجد فى السياسة، وكان مما أجبته:

ورأيى أن هذا لا يمنع على إطلاقه، ولا يجوز على إطلاقه.

إنما الذى يمنع منه ما كان على وجه تذكر فيه أسماء محددة وتفاصيل جزئية، على وجه الطعن والتجريح والتشهير فهذا لا ينبغى أن يعرض المنبر لمثله، ولا يجوز أن يسلك سبيل المهاترة والتعصب الحزبى.

انما يتعرض لكل من يخالف الشريعة، وان كان هو سياسة الحكومة، فالمسجد قد أقيم لتأكيد شرع الله، لا لتأييد سياسة حكومة معينة.

فإذا خالفت الحكومة شرع الله، كان المسجد فى صف الشرع، لا فى صف الحكومة.

ولا يجوز بحال من الأحوال حرمان المسجد من هذا الحق الطبيعى والمنطقى والتاريخى: توعية الأمة وتحذيرها من الطواغيت الذين يعطلون شريعتها ويحكمونها تبعاً لأهوائهم أو أهواء سادتهم، الذين لن يغنوا عنهم من الله شيئا.

فى بعض البلاد الإسلامية أصدرت الحكومة قانونا للأسرة مخالفا لشريعة الاسلام، فقاومه العلماء، ونددوا به فى المساجد، إذ لا يملكون غيرها فكل وسائل الإعلام الأخرى ملك الحكومة.

فما كان من السلطة الطاغية إلا أن حكمت على هؤلاء العلماء الشجعان بالإعدام والإحراق!

هذا ما حدث فى الصومال على وجه التحديد.

إن السلطات الحاكمة تريد استخدام المسجد بوقا لسياستها، فإذا اصطلحت مع اسرائيل فالصلح خير ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ «الأنفال ٦١».

وإن ساءت علاقتها معها فاليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا، والصلح مع العدو الغاصب حرام وخيانة!

وهكذا لا يصبح المنبر لسان صدق لرسالة الإسلام، بل جهاز دعاية لسياسة الحكام، وهذا ما يفقد المسجد مصداقيته، ويلغى تأثيره فى الأمة ويحط من كرامة العلماء والدعاة إلى الله، ونسأل الله العافية فى ديننا ودنيانا».

وأخشى أن يزيد العلمانيون فى دعاواهم لحرمان الإسلاميين من حزب سياسى: أنهم يستدلون بآيات القرآن وأحاديث الرسول، التى تؤثر فى جماهير الشعب، على حين لا يستطيع خصومهم أن يفعلوا ذلك.

هذا مع أن القرآن قرآن الجميع، والرسول رسول الجميع، ولا يقدر أحد أن يمنع أى مسلم من استعمال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى تأييد وجهته، ما دام بعضها فى موضعها الصحيح.

على أن هذه الدعاوى قد سقطت من الناحية العملية. فهناك عدد من البلاد فيها أحزاب اسلامية: فى الأردن. والمغرب. وفى اليمن. وفى فلسطين. وفى تركيا. وفى ماليزيا. وفى اندونيسيا. وفى غيرها. وقد خاضت معارك الانتخابات. وحصلت على نسبة كبيرة من المقاعد. ولم يشتك الشاكون من وقوع هذه الاتهامات التى ألصقوها جزافا بالحزب السياسى الإسلامى.

وأود أن اذكر بعض الاضاءات فى هذه القضية يقول د.القرضاوى:

الأولى: إنه لا يجوز أن يحرم بعض المواطنين من حقهم فى المشاركة السياسية فى بناء وطنهم واصلاحه وتطويره لمجرد انهم متدينون. أو لأن لهم رؤية فى الإصلاح والتغيير منبثقة عن دينهم وتراثهم. فالتدين الصحيح والاستقامة على أمر الله: لا يجوز ان يكون سببا فى حرمان الانسان من حقه المشروع فى المشاركة فى سياسة بلده وكذلك الرؤية للاصلاح. المنبثقة عن الدين.

وقد أعطى الحق للتيارات المختلفة لانشاء احزاب سياسية: العلمانيين والليبراليين والقوميين والشيوعيين وغيرهم. فلماذا يحرم الاسلاميون من هذا الحق دون غيرهم؟

ان هذا يخالف الدستور الذى قرر المساواة بين جميع المواطنين، وهذه تفرقة لا مبرر لها.

وهو أيضا مخالف للمواثيق الدولية وميثاق حقوق الانسان وغيرها.

الثانية: إنهم يقولون: لا يجوز تكوين أحزاب دينية. والاسلاميون لا يريدون انشاء حزبى دينى، بل حزب إسلامى، وفرق بين الدينى والإسلامى. فالدين فى عرف الناس يعنى الجانب العقدى والتعبدى والروحى، أما الإسلامى فهو أشمل وأجمع، وهو يضم الاقتصاد والسياسة والثقافة والتربية والادارة.. الخ.

ولا مانع لدى الإسلاميين أن يدخل فى هذا الحزب اشخاص من غير المسلمين لأن برنامجهم للجميع لا للمسلمين وحدهم.

الثالثة: ان الاحزاب السياسية تمثل قوى شعبية سياسية موجودة على أرض الواقع، من حقها ان يكون لها رأى فى سياسة بلدها والاسلاميون قوة سياسية موجودة وبارزة وظاهرة التأثير ومسموعة الكلمة.

وقد اثبتت الانتخابات فى اكثر من بلد: انها القوة الاولى المؤيدة من جماهير الشعوب فى منطقتنا فكيف يمكن تجاهلها وإهالة التراب عليها حية.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: ٨ و٩) فى حين يعطى حق الشرعية لاحزاب لا يكاد يسمع لها صوت أو يحس لها بأثر؟!

التسهيلات للقوات الأمريكية.. حرام

أكد د.يوسف القرضاوى أن تقديم تسهيلات أو مساعدات من أى نوع للقوات الأمريكية فى عدوانها المحتمل على العراق حرام لمخالفته الصريحة لاحكام للشريعة الاسلامية واعتبره مشاركة فعلية فى الحرب على بلد مسلم. وطالب قادة الدول الاسلامية والعربية باتخاذ موقف جاد وحاسم لمنع الحرب وغزو العراق مشددا على ان مقاومة الغزاة فرض على كل مسلم فى بلاد الاسلام.

وحث الشيخ القرضاوى الولايات المتحدة الامريكية على اعادة النظر فى سياستها وتوجهاتها ازاء المنطقة للحفاظ على صداقة وحب مليار وثلث المليار مسلم بدلا من حصاد الكراهية.

قال القرضاوى فى خطبة للجمعة بمسجد عمر عبد الخطاب بالدوحة شهدتها بنفسى وبثتها محطات الاذاعة والتليفزيون فى قطر على الهواء مباشرة إن الحرب العدوانية مرفوضة رفضا مطلقا. وان القتال لم يشرع الا للضرورة لرد العدوان على الدين والعرض والمال والوطن.. فما بالك اذا كانت الحرب صليبية إجرامية تشن على اخوة لنا لم يرتكبوا اثما ولا عدوانا.

أضاف إن الدول الاسلامية وقفت ضد العراق فى عدوانه على الكويت عام ١٩٩٠ واليوم يتعرض العراق للعدوان.. فلابد أن تقف معه كل قوة.. وتقول للمعتدين لا لن تقبلكم شعوبنا وستبصق فى وجوهكم. وستلعنكم الأرض التى تمشون عليها.

دعا القرضاوى كل جيران العراق خاصة والدول الاسلامية عامة لمساندة العراق فى رد العدوان بكل الوسائل انطلاقا من الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله ..»

وعرض فضيلته للأسباب الحقيقية التى من أجلها تشن أمريكا حربها على

العراق تحت مزاعم محاربة الارهاب وهى اللافتة التى تستخدمها الادارة الامريكية الآن لضرب كل الجماعات الجهادية الاسلامية وفصائل المقاومة للاحتلال الصهيونى وكذلك العمل الخيرى الإسلامى الذى كان الرباط القوى بين أبناء الأمة فى مشارق الارض ومغاربها بعيداً عن الخلافات السياسية.

توقف امام عمليات تدمير اسلحة العراق خاصة صواريخ «الصمود ٢» فى الوقت الذى تلتزم أمريكا الصمت تجاه ترسانات إسرائيل النووية وغيرها.. وقال: فهل هذا الامر حلال على أمريكا وإسرائيل حرام على العرب والمسلمين؟!

ووصف هذه العملية بأنها جزء من مخطط تحقيق أحلام الصهيونية العالمية فى المنطقة.

وحول موقف الدول العربية والاسلامية وقرارات الامتناع عن المساعدات فى العدوان على العراق قال القرضاوى: كان من الواجب على كل الدول ان تعلن صراحة وبوضوح للادارة الامريكية.. لا للحرب.. ولن نستطيع تقديم أى تسهيلات لأن ديننا الحنيف يحرم علينا الاعانة فى قتال إخواننا.

وحيا موقف البرلمان التركى الرافض لان تكون أرض تركيا منطلقا لقوات العدوان الامريكية.

وفى مقارنة مع الموقف العربى غير الواضح تماما.. قال بوضوح: أليس من قبيل المشاركة أن تمهد الطريق للامريكان، ونفتح المطارات والموانىء والقواعد الحربية لتنطلق منها المقاتلات الحربية؟! وعبر عن مخاوفه أن يكون العرب قد قدموا هذه الخدمات مجانا ان لم يساهموا فى دفع فاتورة الحساب؟!

فند الشيخ القرضاوى الحجج التى تتعلل بها بعض الدول الخليجية بأنها ملتزمة بمعاهدات ومواثيق دفاعية وأنه لا يمكن مخالفتها قائلاً: هذه الاتفاقيات أقيمت على أساس الدفاع عن الأمن ومنع الاعتداء، وليس فيها أى بنود تنص على مساعدة أمريكا فى العدوان على بلد شقيق.

أضاف: حتى ولو كان فى المعاهدات بنود تشير إلى هذا المعنى فإنها تعتبر باطلة شرعاً.

قال: إنه لا مانع أن تذهب قوات درع الجزيرة إلى الكويت للدفاع عن أمنها فقط، وليس للمشاركة فى العدوان.

حذر د. القرضاوى فى ختام خطبته الولايات المتحدة من غرور القوة وطالبها بإعادة النظر فى سياساتها تجاه المنطقة وكسب صداقات المسلمين.. شدد على أن الشعوب المسلمة ليست ضد الشعب الأمريكى الذى وصفه بأنه طيب فى مجمله.. وإنما نحن ضد الإدارة الحالية المتجبرة.

قال الشيخ يوسف القرضاوى: إن قتال قوات الاحتلال فى العراق واجب دينى، ووصف الهجوم الذى تقوده الولايات المتحدة على المدن التى يسيطر عليها المقاومون بأنه هجوم غير أخلاقى.

قال الشيخ القرضاوى إن جميع المذاهب الإسلامية تتفق على أن المقاومة واجب، خاصة إذا كان المعتدى المحتل لا يعير انتباها للقوانين أو الأخلاق أو الاتفاقيات الدولية.

كما أدان قتل أحد أفراد مشاة البحرية الأمريكية لجريح بالرصاص فى مسجد ببلدة الفلوجة بغرب العراق التى كانت مسرحاً لقتال ضار خلال الأسبوع المنصرم، وتابع القرضاوى قائلاً: إن المعتدى لا يراعى الحرمات الدينية ويهاجم المساجد ويقتل جنوده الجرحى الذين يلجأون إليها.

فى مواجهة اشتراكية ناصر

فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر ارتفعت حمى «الاشتراكية» بدرجة كبيرة وخطيرة وركب الجميع موجة الاشتراكية.. ومنهم علماء ودعاة وشعراء كبار.. زينوا للاشتراكية وامتدحوها.. وأعطوا لها صفة الإسلامية.. حتى وصل الأمر إلى أن جعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إماماً لها.. «الاشتراكيون أنت إمامهم»!!

وقد مثلت هذه الحملة المستمرة.. والتنادى بحتمية الحل الاشتراكى استفزازا قويا للشيخ القرضاوى خاصة وأن الاحوال تتدهور والامور تسير من سيىء إلى أسوأ.

فقد تبنى عبدالناصر فى «الميثاق الوطنى» الشهير.. والذى سماه البعض بقرآن الثورة.. حتمية الحل الاشتراكى.. وتحدثت الألسنة وكتبت الأقلام فى تمجيده وأنه الحل السحرى الذى يملك عصا موسى وخاتم سليمان.. فيحل كل عقدة.. ويسد كل ثغرة ويطعم كل جائع ويشغل كل عاطل ويؤوى كل فرد

ويكفل كل محتاج.. وعندما جربه الناس لم يجدوا شيئاً من ذلك.. لم يطعموا به من جوع.. ولم يأمنوا به من خوف.. ولم يغتنوا به من فقر ولم يشفوا به من مرض.

لهذا قام الشيخ القرضاوى بالرد على فكرة حتمية الحل الاشتراكى بسلسلة من الكتب سماها: حتمية الحل الإسلامى ظهرت فى أربعة أجزاء الأول جاء عنوانه:

- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا
- والثانى: الحل الإسلامى فريضة وضرورة
- والثالث: بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين.
- الرابع: أعداء الحل الإسلامى والذين يقفون فى طريقه ويعوقون سبيله

ينفى القرضاوى بشدة أن يكون مفهومه للحتمية بذات المعانى والمضامين التى يعتقدها الماركسيون وغيرهم.. ويقول إنه اضطر إلى استخدامها فى المواجهة من باب «المشاكلة» كما يقول علماء البديع فى البلاغة العربية.. على نحو ما جاء فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: «ويمكرون ويمكر الله».. «إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم».. «قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون و«الله يستهزئ بهم» فوصف الله سبحانه وتعالى بالمكر والخداع والاستهزاء لم يكن إلا مشاكلة ومقابلة لوصف المنافقين بهذه الأوصاف.

فى تقديمه للجزء الأول أكد القرضاوى أن كل الظروف والملابسات والوقائع فى بلادنا العربية خاصة وفى العالم الإسلامى عامة.. تحتم السير إلى الحل الإسلامى.. بعد أن فشلت كل الحلول المستوردة.. وتخبطت كل الأنظمة المصطنعة وباءت بالعجز والخيبة كل المذاهب والاتجاهات ليبرالية واشتراكية وأصبح تغييرها أمرا لا مفر منه.

ورغم أن القرضاوى كتب هذا الكلام فى مطلع السبعينيات فإن الأمر لم يختلف حتى الآن بل ازدادت الصورة قتامة وتضاعفت المآسى ولايزال التراجع مستمرا إلى ما قبل الذيل.

قال القرضاوى: إن أهدافنا السياسية الكبرى لم تتحقق ولم نقترب منها بل زدنا عنها بعدا.

ـ فالأمل فى الوحدة العربية قد ضعف.. وقضية فلسطين لم تحل ولم تقترب من الحل بل زادت تعقيدا.. وقضية الحرية السياسية فى العالم العربى فى أزمة آخذة بالخناق.

ـ قضية الرخاء والازدهار الاقتصادى لم تتم على النحو الذى كان مرجوا فلاتزال الطبقات الفقيرة فى مجتمعنا تشكو العوز والفاقة وضيق العيش وغلاء الأسعار وعدم تكافؤ الفرص.. وكل الذى حدث فى بعض البلاد أن زالت طبقة مترفة قديمة وورثتها طبقة جديدة مثلها أو أسوأ منها.

ـ أما أمراضنا الأخرى من بلبلة الفكر وسوء الأخلاق وفساد الذمم وضعف الوازع واضطراب الأسرة وتفكك المجتمع وما شابه ذلك فحدث عنه ولا حرج.

فى الجزء الثانى من السلسلة تحدث القرضاوى عن ضرورة التغيير بعد أن تحقق فشل الحلين الليبرالى والاشتراكى وثبت أن البديل الفذ هو الحل الإسلامى.. وعرض لمعالم الحل الإسلامى المنشود وخطوطه العريضة فى مجالات الحياة المختلفة والشروط التى يجب توافرها ليكون حلا إسلاميا صحيحا.. والمكاسب من وراء الحل الإسلامى ثم كيف الطريق إلى هذا الحل؟!

بالطبع لم تكن طروحات القرضاوى لتنال ثقة أو رضا الجماعات الأخرى التى يزعجها دائماً ذكر الإسلام أو صفة الإسلامية على شىء.. ولذلك جعلوا همهم الأكبر محاربة تلك الأفكار وإثارة الشبهات حولها بكل ما أوتوا من طرق ووسائل ودعم داخلى وخارجى.. ولعل هذا هو ما دعا الشيخ القرضاوى إلى أن يخصص الجزء الثالث فى سلسلة حتمية الحل الإسلامى للرد على شبهات العلمانيين والمتغربين. وقد أشار إلى ذلك فى المقدمة بقوله: «ولكن جماعة العلمانيين من دعاة اليسار وأتباع اليمين يوجهون اتهامات أو قل يثيرون شبهات حول الحل الإسلامى.. وهى فى حقيقة الأمر شبهات لا وزن لها ولا تقوم على ساقين ولكنهم من طول ما رددوها ـ أو رددها عليهم أساتذتهم وموجهوهم ـ صدقوها أو أوهموا الناس أنهم مصدقون لها وإن كانوا فى قرارة أنفسهم مؤمنين بتهافتها وهزالها.

وقد أجمل القرضاوى شبهاتهم الأساسية الكبرى فى سبع شبهات: كما صوروها:

● كيف تدعوننا إلى حل يعتمد على الدين فى عصر العلم والتكنولوجيا وقد انتهى عصر الدين وتقوضت خيامه ولم يتقدم الغرب إلا بعد أن طلق الدين وتحرر من ربقة رجاله واتجه إلى العلم والعقل.

● كيف نقبل حلا طابعه الجمود والوقوف فى وجه التطور فى عالم تغير فيه كل شىء وفى عصر التحول السريع؟ وكيف نجمد والدنيا تتحرك.. وكيف نقف مكاننا والعالم يسير والفلك يدور وكيف نرضى بحل رجعى يشدنا إلى الوراء ويعارض التقدم ويتنافى مع المعاصرة والتحديث؟!

● كيف تدعونا إلى حل غايته أن يقيم دولة دينية ثيوقراطية تتحكم فى رقاب الناس وضمائرهم عن طريق الكهنة ورجال الدين الذين يفرضون إرادتهم على الخلق باسم الخالق وفى الأرض باسم السماء؟

● كيف تسيغ معدة هذا العصر فى أواخر القرن العشرين حلا كل همه أن يقطع الايدى ويجلد الظهور ويقتل الجناة أو يصلبهم أو يرجمهم وهو ما يلح عليه دعاة تطبيق الشريعة وخصوصا فى مجال الحدود والعقوبات؟

● كيف تستجيب إلى حل غامض لم توضح معالمه ولم تبين حدوده.. ولم تفصل برامجه.. ولم يقدم لنا العلاج التفصيلى لمشكلاتنا اليومية.

● كيف تنسون أيها المسلمون أنكم لستم وحدكم فى هذه الأوطان العربية والإسلامية.. فمعكم أقليات لا تدين بدينكم ولا تؤمن بشريعتكم.. فكيف تفرضون عليها حلا يكرهها على غير ما تعتقد مع أنه «لا إكراه فى الدين».. وأهم هذه الأقليات.. النصرانية من أرثوذكس وكاثوليك وغيرهما.

وقبل أن يرد القرضاوى على هذه الاتهامات بالتفصيل والبينات الواضحات يبدى ملحوظة مهمة وجديرة بالاعتبار.. وأظنها حقيقة بالفعل وهى: أن العلمانيين يحاولون أن يغالبوا الإسلاميين بالتهويل والتضليل والإرهاب الفكرى والنفسى.. إنهم يلقون حبالهم وعصيهم معتمدين على الغرب وقوته ومساندته لهم قائلين: «بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون».. يريدون أن يسحروا أعين الناس ويسترهبوهم.. وربما أوجس بعض الإسلاميين خيفة من كثرة حبالهم وعصيهم.. وربما خيل إليهم من سحرهم أنها تسعى.. حتى إذا ما حللوا هذه الشبهات فى ضوء العلم والبرهان علموا أنها كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى.

♦ الفصل الخامس

أسرار خاصة جداً



الشيخ القرضاوى مع ابنه الشاعر عبدالرحمن



القرضاوى وحرمه يستمعون إلى الفنانة الفلسطينية ميس شلش وهى تلقى أناشيدها بحضور والدها ووالدتها

لهذه الأسباب كان الحوار [1]

قبل أن نبدأ فى الحوار مع شيخنا وعالمنا الفاضل الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى لابد من الإشارة أولا إلى عدة نقاط مهمة، والإجابة على أسئلة قد تدور فى أذهان البعض، وتساؤلات تطرحها مجريات الأمور على ساحتنا الثقافية على امتداد عالمنا الاسلامى.

أولا: لماذا فضيلة الشيخ القرضاوى على وجه التحديد؟ ولماذا التركيز على سيرته الذاتية وتفاصيل حياته الشخصية؟

الإجابة ليست بحاجة إلى مزيد من العناء فالاستاذ الدكتور القرضاوى شخصية علمية فريدة فى موضوعها. وأحد العلماء العاملين فى مجال الدعوة والفكر الاسلامى القلائل فى هذا العصر. وأحد الذين يشار إليهم بالبنان عند أى اشارة إلى الحركة الاسلامية المعاصرة أو ما اصطلح عليه بحق «الصحوة الاسلامية» واستطاع بعلمه واجتهاده أن يكسب ثقة الجميع سواء فى الداخل أو الخارج. ولم يتجاسر ١٤٦أعداء الرفض وقادة المواجهة للمد الاسلامى على أن تمتد حملاتهم المغرضة إليه. وإن حاولوا. سرعان ما يرتدون على أدبارهم خاسرين.

كما أن شيخنا استطاع أن يرسى دعائم مدرسة متميزة فى الدعوة والتعامل مع الفقه الاسلامى اسماها هو بنفسه مدرسة «المقاصد الشرعية» حيث تعامل مع الشريعة بروحها ومبادئها السامية. مرتكزا على قواعد المرونة فى الفقه الاسلامى مع إعمال للعقل والبصر والبصيرة لقضايا الدين والدنيا.

---

(١) مقدمة الحوار والحلقة الأولى كما نشرت فى جريدة «الشوق الأوسط».

دون إفراط أو تفريط، متوخيا الدقة فيما يجب فيه التشدد، ومتى يكون التسامح والتساهل دون مساس بالقواعد والأصول.

وذلك فى الوقت الذى اشتدت فيه حملات التشويه ليس فقط للحركة الاسلامية. وانما امتدت إلى الفكر الاسلامى نفسه صراحة بلا خجل أو مواربة أو حياء، وشرعت اسلحة التطرف والتشدد وغيرها مما تكشفت حقائقه مؤخرا.

ثانيا: اننا نعيش فى زمن عزت فيه القدوة وندرت بل أن نماذجها التى يجب أن تحتذى بها قد غابت، أو قل إن شئت، قد غيبت عن الساحة ، فى الوقت الذى أفسحت فيه الساحة وفتحت كل الابواب المغلقة أمام نماذج معينة ومعروفة لتكون هى المثل والقدوة وأصبحت هى النموذج الوحيد الذى يراد لنا أن نتمثله ونهضمه ونسير على هديه ومنواله، وللجق والحقيقة فهى نماذج تعبر بصورة دقيقة عن عصرها وما وصل إليه حال القيم والأخلاق من انحطاط وتدهور تجاوز الحضيض بمراحل وعصور قياسا بقدر السرعة التى يعيشها العصر.

ثالثا: عندما أبلغنى الاستاذ ناصر محمد العثمان مشرف عام التحرير (بجريدة الشروق القطرية) بالفكرة وترحيب فضيلة الشيخ القرضاوى بأن يخص «الشرق» بهذا الموضوع والذى يرويه بنفسه لاول مرة للصحافة العربية كانت سعادتى كبيرة أن أقوم بهذا العمل رغم علمى وادراكى بصعوبة ومشقة الحوار مع العالم الجليل الاستاذ الدكتور الشيخ القرضاوى، خاصة وأن الوقت كان ضيقا جدا، وبرنامج شيخنا حافل جدا ما بين مهامه العلمية داخل البلاد والسفر إلى خارج البلاد تلبية لرغبات الجاليات الاسلامية فقد كان فضيلته على أهبة الاستعداد للسفر إلى الولايات المتحدة الامريكية لفترة تستغرق أسبوعين. ثم لقاءات أخرى فى «الشارقة» وغيرها، إلى جانب هذا التسجيلات الاذاعية والتليفزيونية استعداداً لشهر رمضان، وكلها يراها شيخنا التزامات لا يستطيع منها فكاكا، فهو لايرد طالبا للقاء، خاصة اذا كان الهدف والغاية نشر الدعوة الصحيحة، والفكر الاسلامى المستنير.. ورغم هذا وكله فتح شيخنا قلبه وصدره ليستقبلنا بكل حفاوة وترحاب فى بيته.

وزاد من حماسى للقضية أنه كانت تراود مخيلتى دائما مقولة شهيرة

للداعية الاسلامى الكبير محمد الغزالى - حفظه الله - وهى: «ان علماء الدين واللغة فى هذا العصر فى انقراض دون عوض ظاهر».. وهى مقولة ليست بحاجة إلى أدلة، اذ ان الواقع يصدقها ويؤكدها.. مما يشكل خطورة وخطرا أكبر على مستقبلنا إذا لم نسرع الخطى ونعد العدة اللازمة على جميع المستويات لتدراك الامر..

رابعا: حاولنا قدر الامكان فى حوارنا الممتد مع فضيلة شيخنا ان نطل اطلالة ولو سريعة على واقعنا المعاصر اثناء سرد فضيلته لوقائع واحداث الزمن الماضى وخاصة فى العلاقات الاجتماعية وتفاعلاتها لتظهر لنا بوضوح مواطن الخلل فنستفيد منها ونقيم ما اعوج منها، وندفع الطيب والصالح منها للامام.

● بادرت شيخنا فى بداية الحوار بالسؤال عن النشأة والبدايات الأولى كمدخل طبيعى وتقليدى.. فجاءت إجاباته متدفقة وأخذ يسرد ذكرياته وكأنه لايزال يعيش فيها أو يقرؤها من شريط حى لايزال يمر أمامه.. قال:

●● كلما تذكرت طفولتى وما منَّ الله على به، فهذا ليس لأحد به دخل وإنما تصنعه أقدار الله تعالى.. أذكر أنى قد فقدت أبى فى طفولتى وأنا فى الثانية من عمرى، ولكن الله سبحانه وتعالى عوضنى بهذا اليتم المبكر حب عمى وخالى وأقاربى، من أجل هذا رأيت أن الله تعالى إذا حرم الانسان من نعمة أو من شىء عوضه شيئا آخر ربما لايدرى به، فحرمنى الاب وعوضنى الاقارب الذين كانوا يحبوننى حبا جما، حرمنى المال فلم تكن أسرتى من الاسر الغنية أو الواجدة فقد كانت أسرة مستورة رقيقة الحال، ولكن الله عوضنى العقل والذكاء ومع هذا الهمة والطموح والارادة، فليس الذكاء وحده كافيا فى أن يجعل من الانسان شيئا، كان هذا عطاء الله تعالى لى وأنا أحمده سبحانه واشكره على ما مَنَّ وما أعطى.

● كُتَّاب القرية كان له دور بارز فى المجتمع المصرى فى تلك الفترة ولا يكاد احد يولد إلا ويلتحق بالكتاب ويشرف بالجلوس أمام سيدنا... فماذا عن ذكرياتك وكتاب القرية؟!

●● فى طفولتى ذهبت إلى الكُتَّاب فى سن مبكرة وكان هذا من حرص والدتى رحمها الله ذهبت إلى كتاب الشيخ يمانى ولكنه استقبلنى بالضرب ولا

ادرى لماذا ضربنى؟ ولم يكن شىء أستحق عليه الضرب فكرهت هذا الكتاب ثم ذهبت إلى كتاب الشيخ حامد ابى زويد وهو الذى استمررت فيه وحفظت على يديه القرآن الكريم.

كنت أول تلميذ يذهب للكتاب. وكان عبارة عن حجرة ولما اتسع اخذ حجرة أخرى وكانت أرضه ترابية ولم يكن هناك البلاط أوالخشب أو غيره ولذلك كانت تحوى البراغيث وإذا اشتدت على كنت أجلس على الدكة الخشبية هربا منها. وكنت أحفظ واتعلم القراءة والكتابة وحتى وصلت إلى سورة الجن بدءا من جزء عم وهنا دخلت المدرسة الالزامية بالبلدة فكنت أذهب للمدرسة فى المساء والكتاب فى الصباح.

وقد كانت المدرسة فى الصباح للبنات والمساء للبنين وهكذا إلى أن مَنَّ الله على بحفظ القرآن. حفظته بعد التاسعة بأشهر واحتفلنا بهذا - حفل ختام القرآن عندما كتبت فى اللوح الأخير - لوح خشب ويكتب عليه بالحبر والقلم البوص - وكنت أكتبه وأسمِّعه للعريف حتى لا يغلط لأن القرآن بالتلقى وهو ما أشار إليه اسلافنا بقوله: لا تأخذ القرآن من مصحفى ولا العلم من صحفى والمصحفى هو الذى عرف القرآن من المصحف ولم يتلقه من قارئ مجيد يسدده إذا اخطأ فكانت هذه هى الطريقة للحفظ. وحتى نصف القرآن الاول.

ومازالت أذكر أنه عند نصف القرآن الثانى فى قوله تعالى: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر» فى سورة الكهف كنت احفظ كل يوم نصف ربع من القرآن واسمعه مبكرا. فقال لى الشيخ حامد: ما رأيك أن تحفظ النصف الثانى من الربع؟ فحفظته بعد ساعة تقريبا. فقرر على حفظ ربع كل يوم. وأحيانا كنت اسمع الربع ويبقى وقت فيطلب منى حفظ نصف ربع آخر ولذلك فإن حفظ النصف الثانى من القرآن لم يأخذ منى إلا وقتا قليلا جدا. أشهر قليلة وانتهيت من حفظ القرآن.

فى اللوح الاخير رجعت للكتابة.. فكتبت من سورة الضحى إلى آخر القرآن وجرت العادة أن التلميذ يقرأ ويردد وراءه التلاميذ التكبير على سبيل المثال: عندما يصل القارئ إلى قوله: «وأما بنعمة ربك فحدث» يقول التلاميذ: «لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد..» «فإذا فرغت فانصب ■ وإلى ربك

فارغب» فيقولون: لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد..

فكان حفل ختام القرآن حفلا بهيجا. بعد ذلك وزعت الحلوى والشربات والزغاريد لأن الولد حفظ القرآن الكريم.

فى هذا الوقت كنت فى السنة الثالثة من المدرسة الالزامية وانتهيت من المدرسة وعمرى ١٢ سنة.

● وكيف التحقت بالأزهر الشريف اذن فى ذلك الوقت؟

●● كنت فى رغبة شديدة أن التحق بالازهر الشريف. ولكن عمى رحمه الله كان يقول لى يا بنى خريجو الازهر تراهم جالسين على المصاطب فى القرية لا يجيدون عملا كانت هناك بطالة فى ذلك الوقت. ولا يجد خريجو الازهر شيئا يتكسبون منه. فكان هناك عدد من خريجى كليات الشريعة وأصول الدين فى بلدنا عاطلين ولذلك كان يقول لى:

أليس الأولى أن نبحث لك عن مهنة تتعلم الخياطة أو تعمل كاتبا فى دائرة حولنا. نفتح لك «المندرة» «حجرة كبيرة بالمنزل» - ونضع فيها بعض البضائع لبيعها وتتعلم التجارة. أما الازهر فطريقه طويل!!

ولكن لم أكن مستريحا لشىء من هذا ولم أرحب به. وظل عمى مترددا إلى ان جاء شيخ من بلدة مجاورة لنا اسمها «الهياتم» فى زيارة لمسجد وقبر سيدى «عبدالله بن الحارث الزبيرى» - فقريتنا تمتاز بأنها قرية عريقة. وبها قبر هذا الصحابى الجليل وهو من الصحابة المجاهدين الذين جاءوا مصر مع عمرو بن العاص واختار هذه البلدة وتزوج فيها وأقام ودفن فيها. وهذا ما نص عليه الحافظ بن حجر وغيره بانه آخر من مات من الصحابة فى مصر. وهو مدفون فى صفط أبى تراب وهذا هو اسم بلدنا. ولا أدرى من هو أبو تراب.

المهم أن الشيخ جاء ليزور قبر عبدالله بن الحارث ومر بنا ونحن فى الحقل مع عمى وابن عمى وطلب ماء فشرب وجلس. فقال له يا شيخ: امتحن الشيخ بتاعنا هذا فقال لى: أتحفظ القرآن؟!

قلت: نعم وأجوده

فامتحننى ووجدنى أحفظ القرآن وأرتله جيدا وحسنا. فقال لعمى: لماذا لا تبعث بالولد إلى الأزهر؟

فقال له: إنه يريد هذا ولكنى أنا الذى أقول له أن الازهر ليس له مستقبل!

فقال يا شيخ: وهل هناك أحد يضمن المستقبل؟

فقال: هذا سيجلس فى الازهر خمسة عشر عاما، أتدرى ماذا يحدث بعدها؟!

وهذه الكلمة فتحت قلب عمى وبدأنا فى الاجراءات فى تلك السنة للدخول فى الأزهر ولكن لم أدركها هذه السنة وكان عمرى ثلاثة عشر عاما فتأخرت سنة أخرى كنت فيها على أحر من الجمر أنتظر حتى تمر السنة وألتحق بمعهد طنطا الازهرى وفعلا حدث هذا بعد أن أكملت الأربعة عشر عاما..

فى الطريق إلى المعهد الأحمدى

ويتوقف شيخنا لبرهة ويجول بنظره مبتسما وكأنه يتذكر صورته فى ذلك الوقت والوضع الذى كان عليه ويستحضر أمامه تداعيات تلك الصورة.. ويستطرد قائلا:

حفظى للقرآن الكريم وأنا صغير شيخنى وأنا صبى فالناس كانوا يقولون الشيخ يوسف الشيخ يوسف ويقدمونني للامامة فى الصلاة فى مسجد «المتولى» وخصوصا فى صلاة الفجر فى رمضان، فى يوم الجمعة بالذات لأقرأ سورة السجدة وسورة الانسان بصوتى وكان صوتى مؤثرا وتلاوتى حسنة وكان الناس يبكون فى ذلك الوقت فشيخت صغيرا مما جعلنى أتوقر، ولا ألعب كما يلعب الصبيان أمثالى ومن فى سنى، لكنى لم أحرم الكثير من حياة الطفولة فبعد سن الرابعة عشرة التحقت بمعهد طنطا ومازلت أذكر هناك امتحان القبول فى الحساب والاملاء والخط وامتحانا شفويا فى القرآن ونجحت فى كل هذا وجاءتنى رسالة: السيد ولى أمر الطالب فلان الفلانى المذكور قد نجح فى امتحان القبول وعليه الحضور فى موعد كذا من شهر سبتمبر مرتديا الزى الازهرى المعتاد والعمامة والجبة ذات الطوق «أى الكاكولا».

وفعلا ذهبت فى الموعد المذكور إلى مدينة طنطا التى فيها المعهد الدينى «الابتدائى والثانوى»

وسكنت مع ابن عمتى وكان فى السنة الرابعة الثانوية بالمعهد وكانت الحياة رخيصة فى ذلك الوقت لكن النقود كانت شحيحة..

وأذكر أنه فى قريتنا لم يكن يجد الناس هذه النقود، وكانوا يشترون الأشياء بالبيض أو بالذرة أو بالقمح، لندرة النقود مع رخص الاشياء، ولذلك سكنا فى حجرة أنا وابن عمتى وطالب ثالث إيجارها ١٨ قرشا كل واحد يدفع ستة قروش وبعدها أخذنا حجرتين بـ ٢١ قرشا، أى كل واحد سبعة قروش، وهى كانت ثروة وشيئا فى ذلك الوقت.

وبعد فترة جاء مولد السيد البدوى وأعطونا أجازة لمدة أسبوع وقال لى ابن عمتى عليك أن تحفظ «المتون»: متن الأجرومية وما استطعت من الألفية ومتن «نور الإيضاح» فى الفقه الحنفى والسيرة النبوية، فظللت هذا الاسبوع عاكفا على تلك الكتب فحفظتها.. مع انه ظن أنى سأحفظ سطورا منها أو كذا.

وبعد مرور الأسبوع سألنى عما حفظت فقلت: حفظت متن نور الإيضاح والاجرومية.

فاستغرب: وقال كلها؟!

قلت: نعم..

وأخذ يمتحننى.. فاستغرب أكثر وقال لزملائه: تصوروا.. الواد حفظ الكتب فى أسبوع!!

ولذلك ظللت مستريحا طوال العام وأقرأ فى الكتب الخارجية وكتب الأدب، وما كنت أستطيع شراء هذه الكتب فكنت أذهب إلى دار الكتب بمدينة طنطا فى عصر كل يوم تقريبا ما عدا يوم الثلاثاء من كل أسبوع لقراءة كتب المنفلوطى وهى الكتب التى كان يقبل عليها الشباب فى ذلك الوقت النظرات والعبرات، والفضيلة والشاعر، وفى سبيل التاج، وغيرها، وأحيانا كتب الرافعى وحى القلم، وأوراق الورد والمساكين، وأحيانا نقرأ للعقاد وطه حسين قليلا وشوقى وحافظ فى الشعر، وكانت هوايتى فى المدة الأولى القراءات الأدبية ولعل هذا هو الذى فجر فىّ ينبوع الشعر فمن السنة الثانية الابتدائية بدأت أقول الشعر، ومازلت أذكر فى ذلك الوقت -فى الحرب العالمية الثانية وكانت صفارات الانذار بين الحين والحين تزعجنا بصوتها، فيدعوننا للذهاب للخنادق.

وأذكر أن أول بيت كتبته كان عن صفارة الإنذار هذه:

بســـماعنا لصـــفارة الإنذار

نبقى جميعا فى دجى الأخبار

وبدأت أقول الشعر فى ذلك الوقت ثم أتقنته.. لأنى فى أول الامر قلت شيئا عاديا اشبه بالنظم ولكنى لم أقل بيتا مكسورا قط منذ بدأت الشعر لأن اذنى حساسة جدا لوزن الشعر بالفطرة. قبل أن نتعلم علم العروض الذى لم نتعلمه إلا فى السنة الاولى الثانوية ولكنى تعلمته بالفطرة بالاذن التى تسمى الأذن الموسيقية فهذا شىء فطرى.

عن الحب.. والزواج

كان طبيعياً بعد أن عثر الشاب الشيخ يوسف القرضاوى على وظيفة مناسبة. وشعر بالاستقرار الوظيفي. وأنه بدأ يتقاضى راتباً شهرياً ثابتاً يصل إلى تسعة عشر جنيهاً كاملة عداً ونقداً إلى جانب بعض الفكة من القروش والملاليم، كان طبيعياً مثلما يفعل كل شاب مقبل على الحياة أن يفكر فى الزواج. ويبدأ مشوار البحث عن بنت الحلال كما يقول المصريون.

وأعترف هنا اننى انتهزت فرصة سعة صدر شيخنا. وسماحته وسألته على استحياء. قبل الولوج إلى موضوع زواجه وكيف كان.. عن حمى استشرت فى عصرنا الحاضر بين الشباب والشابات على السواء. وأصبحت تشغل بال فئة ليست قليلة من هذا القطاع المهم فى المجتمع، وتحاول بعض القوى أن تجعلها قضية أصيلة بالحق وبالباطل مع أنه فى الحقيقة لا اعتراض على جوهرها والأهداف الحقيقية النبيلة والسامية، وليس تلك الأهداف التى يقصد إليها الخبثاء والمتربصون.. إنها قضية الحب والزواج.. وهل الحب بالأمر اللازم قبل الزواج؟ وكيف ينظر شيخنا العلامة د. يوسف القرضاوى إليها وبالتالى هل وقع فى شباك الحب ـ عفواً فى التعبير ـ قبل الزواج؟! أو ماذا حدث؟!..

●● وأجاب شيخنا بكل صراحة قائلاً:

لقد عبرت عن هذه القضية فى مواقف كثيرة، بل إنى تعرضت لها فى كثير من الفتاوى، ولمستها فى إحدى قصائدى عن السعادة. وهى قصيدة طويلة

وبها جزء أتحدث فيه عن الغرام وأذكر أنى قلت فيه:

قـــالوا السعـــادة فى الغرام
الحلو فى خصر وجيـــــــد
فى نرجس العين الضـــحوك
وفى الـــورود على الخـــدود
فـــى ليلـة قمـــراء ليس بها
ســـوى الشـــهب الشـــهود
فيهـــا التنـــاجى يســـتطاب
كـــأنه وتـــر وعـــــود
قلت: الغـــرام خـــرافة
كبرـــى وأحــــلام شـــرود
هـــو فكـــرة بلهـــاء أو
نزغات شـــيطان مـــريد
هـــو شـــغل قلب فـــارغ
فقـــد التطـــلع للصـــعود
وهو الضـنى وهو الدمـــوع
وشـــقوة القـــلب العميـــد
ما أضيع الأعمار تقضى فى
الهيـــام وفـــى السهود
فـى حب غانيـــة لعـــوب
فـــى أمـــانى فـــى وعـــود
الحــــب حـــب الأم
والأب والحليلـــة والوليـــد
حب المعانى والحقــــائق
لا القـــدود ولا النهـــود

حـــب يدوم مـع الزمـــان

فـــلا خـــداع ولا كنـــود

فدع التى تهـــواك حيـــث

تـــراك كالزهـــر النضـــيد

فإذا تغيـر دهـــرك الدوار

غيـــــــــرها الصـــــدود

وإذا رأت مع غيرك الدنيا

مشت تحت البنـــــــــود

أفبعد ذاك تظن عبـــــد

الغانيات هو الســـعيد؟!!

والحقيقة فإن مسألة الحب والعواطف يبدو انها كثرت فى هذه الأيام نتيجة للتمثيليات والروايات والقصص والأفلام وغيرها فأصبحت البنات متعلقات بمثل هذه الأمور، وأنا أخشى ان كثيراً منهن يخدعن بهذه العواطف، ويضحك عليهن، وخاصة إذا كانت فى سن المراهقة والبلوغ والقلب خال، والكلام المعسول إذا صادف قلباً خالياً تمكن فيه.

وأنا لا أحبذ ما يقوله بعض الناس فى عصرنا من ضرورة الحب قبل الزواج لأن هذا الطريق محفوف بالخطر محاط بالشبهات. فكثيراً ما يبدأ بداية غير سليمة ولا مستقيمة، كالحب الذى يأتى عن طريق المحادثات التليفونية العشوائية التى يتسلى بها بعض الشباب فى فترات فراغهم أو مللهم أو عبثهم، فتستجيب لهم بعض الفتيات، وهذا يحدث عادة من وراء الأهل وبدون اختيار ولا تفكير لا من الفتى ولا من الفتاة، فهو يبدأ ـ كما قالوا فى التدخين ـ «دلعاً» وينتهى ولعاً» يبدأ هزلاً وينتهى جداً.

وكثيراً ما يؤدى إلى عواقب غير محمودة لأنه يتم بعيداً عن دائرة الضوء مع طيش الشباب، وتحكم العواطف، وغلبة الهوى وسيطرة الغرائز ووسوسة الشياطين من الإنس والجن، وفى مثل هذا المناخ لا يبعد من الفتى والفتاة أن يقعا فى الخطأ وهما ليسا من الملائكة المطهرين ولا الأنبياء المعصومين.

وفضلاً على هذا وذاك قد يكون الحب بين طرفين غير متكافئين اجتماعياً أو ثقافياً. فتحول دونهما الحوائل. وتقف العقبات والعوائق دون ارتباطهما بالزواج. وفى هذا ما فيه من حرج الصدر وشتات الأمر.

وأرى ان أفضل الطرق للزواج هو ما تعارفت عليه مجتمعاتنا العربية والإسلامية قبل الغزوة الاستعمارية الثقافية لأمتنا. وهو الاختيار الهادئ العاقل من كلا الطرفين لشريكة الحياة. أو شريكها بعد الدراسة المتزنة لشخصية كل من الشاب والشابة. وملاءمة كل منهما للآخر. وامكانات النجاح لهذا الزواج من النواحى المزاجية والنفسية والعقلية والاقتصادية والاجتماعية وعدم وجود موانع وعقبات فى طريق الزواج من جهة أحد الطرفين أو أسرته أو اعراف المجتمع أو قوانينه المرعية.

هنا يأتى الخاطب البيت من بابه ويتقدم إلى أهل الفتاة ويتاح له رؤيتها كما تتاح لها رؤيته. وحبذا ان يتم ذلك من غير أن تعلم الفتاة بذلك رعاية لمشاعرها إذا رآها الخاطب فلم تعجبه ولم تدخل قلبه.

ومع هذا كله أرى انه إذا «دخلت الفأس فى الرأس» كما يقال أى وقع الحب بالفعل. وتعلق كل من الشاب والشابة أحدهما بالآخر وكان من نوع الحب الطاهر الشريف. واستمر مدة طويلة دلت على أنه لم يكن «نزوة طارئة» أو «لعب عيال» هنا ينبغى للأهل أن ينظروا فى الأمر بعين البصيرة والحكمة، ولا يستبدوا بالرأى ويرفضوا الخاطب بأدنى سبب أو بلا سبب.

وينبغى الإصغاء جيداً لما أرشد إليه الحديث النبوى الشريف الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لم ير للمتحابين مثل النكاح».

يعنى أن النكاح ـ أى الزواج ـ هو أنجح الوسائل لعلاج هذا التعلق العاطفى الذى يصل إلى درجة الحب أو العشق بين قلبى رجل وامرأة خلافاً لما كانت تفعله بعض قبائل العرب فى البادية من ضرورة حرمان المحب ممن يحبها خصوصاً إذا عرف ذلك، أو قال فيها شعراً ولو كان حبه من الحب العذرى الطاهر العفيف.

والإسلام بهذا شريعة واقعية، ولهذا رأى ضرورة تتويج الارتباط العاطفى بارتباط شرعى قانونى، تتكون على أساسه أسرة مسلمة يغذيها الحب كما يغذيها الدين.

وينبغى أن نعلم أن استبداد الأهل بالرأى والصمم عن الاستماع لنبضات قلب الفتى والفتاة وتغليب اعتبارات الرياء الاجتماعى والمفاخرات الجاهلية بالأنساب والأحساب ليس وراءه فى النهاية إلا تعاسة الأبناء والبنات أو دفعهم ودفعهن إلى التمرد على التقاليد التى تجاوز أكثرها الزمن. وغدت من مخلفات عصور الانحطاط وأصبح نسب عصرنا هو العلم والعمل والنجاح.

والذي يحرص عليه الإسلام بالنسبة للزوج هو الدين والخلق وهما أهم مقومات الشخصية المسلمة وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض».

ولابد أن تكون الفتاة راضية عن الشاب الخاطب لها ولا يقتضى هذا ضرورة العلاقة العاطفية بين الشاب والفتاة قبل الزواج. إنما على الأقل تكون مستريحة إليه راضية به.

فترة الخطوبة

● قلت: هل يأذن لنا فضيلة الشيخ أن نعرف كيف اختار بنت الحلال؟

●● قال الشيخ القرضاوى ضاحكاً:

طبعاً عرض على بعض الناس عدداً من الفتيات. واحدة زرتها فى بيت أبيها ولم تعجبنى. وواحدة أخرى قالوا لى سنتيح لك فرصة تراها فى بيت أحد الأصدقاء وليس من الضرورى فى بيتها. وأيضاً لم تعجبنى. المهم ان هذه الفتاة أشاعت بعد ذلك ان فلاناً خطبنى. وأصبحت أنا فى حرج، بعد ذلك قلت للأصدقاء. أنا لن أرى واحدة بعد ذلك رؤية رسمية أبداً.

أنا أفعل ما كان يصنع سيدنا جابر بن عبدالله حيث أراد أن يخطب امرأة قال: فتخبأت لها وراء شجرة، حتى رأيت منها ما دعانى إلى زواجها فلابد أن أراها دون أن تشعر. فإذا أعجبتنى أتقدم الخطوة التالية. وفعلاً هذا ما فعلته حينما أراد الله أن أختار زوجتى وهى من سمنود وكان شقيقها معى فى معتقل السجن الحربى، فبعض الاخوة الذين أعرفهم من سمنود رشحوها لى، وقالوا لى انها أخت فلان ومعها الشهادة الثانوية، ولم تنتسب للجامعة لأن أهلها لم يريدوها أن تغترب، ومستواها في الجمال جيد وأهلها من خيرة

الناس منبتاً، وأصلاً، والدين والخلق الحمد لله، المهم ان كل شروطى التى وضعتها وجدتها حاصلة فيها، فقد كان لى شروط معينة منها: ألا تقل عن الشهادة الثانوية ولا مانع من أن تكون جامعية، ولو كانت جامعية تكون قابلة ألا تعمل، وان تكون من أسرة طيبة، وأن يكون لها إخوة، وهذا كان شرطاً مهماً عندى وذلك لأنى لم يكن لى إخوة، فأنا أقول إذا لم يكن لأولادى أعمام فليكن لهم أخوال، إنما أختار واحدة ليس لها اخوة، فهذا مرفوض بالنسبة لى.

ولذلك عرض على أحياناً بعض الفتيات ممن يتمتعن بقدر من المال والجمال والنسب، ولكن هى وحيدة أبويها! أقول لهن لا.. أنا أريد فتاة لها اخوة، حتى يكون لأولادى أخوال، يكفى ألا يكون لهم أعمام!!!

وأن تكون على قدر من الجمال يقنعنى بحيث أراها فأكون مقتنعاً بها وان يكون تدينها مقبولاً ومعقولاً، فهذه الشروط وجدتها متوافرة فى زوجتى الحالية.

فرتبوا لى لقاء - وتولى هذه العملية أخونا من سمنود - محمد بدر عبدالباسط ابن الشيخ بدر عبدالباسط وكان صديقاً لى، وقال لى ان شقيقتى صديقة لهذه الفتاة، وبينهما صلة قوية، وبواسطتها نستطيع أن نرتب لك رؤية دون أن تشعر هى. فقلت لهم على بركة الله فاتفقنا على يوم معين وذهبت إلى سمنود، وهم قد اتفقوا معها على زيارة المكان الفلانى من الطريق الفلانى، وهذا الطريق أنا أقف فى مكان فيه، ووصفوها لى وانها ستكون مرتدية كذا وكذا، المهم استطعت أن أراها رؤية واضحة وجيدة واقتنعت بها وقلت على بركة الله نبدأ الخطوات، وفعلاً: وكانت الخطوة الأولى ان أكتب إلى أخيها - وهو شقيقها الذى كان معى فى السجن الحربى، وهو قد تخرج بعد ذلك فى كلية الحقوق، وهو فى الخدمة العسكرية، فى القاهرة، ويذهب إلى خالته التى تسكن فى حلوان، فأعطونى عنوان خالته، وكتبت إليه وقلت له سألقاك فى بيت خالتك فى البيت الفلانى، وفعلاً ذهبت حتى وصلت إلى البيت، وكان الأخ سامى - صهرى - موجوداً التقينا وتحدثنا وتعانقنا، وطبعاً قالت له خالته: أريد ان أخطبه لابنة أختى، هى لم تره فأنا أراه لها، وفعلاً خرجت فى الشارع وكان مظلماً وألقت النظرة المهمة، ورحبت - رحمها الله بالخطبة - وأبلغت ابنة أختها بذلك وقال لها أخوها ذلك أيضاً.

وكتب الأخ سامى إلى والده بالأمر، ولكن والده كان متوقفاً عند نقطة معينة، حيث قال لابنه: «بس مشكلته انه من الإخوان، فلو حصل حاجة لا قدر الله، أنت تروح وزوج أختك يروح».. فقال لأبيه: هذه أمور فى علم الغيَب.

وسألوا عنى، فكان ابن عمة زوجتى خريج الأزهر أيضاً، فقال لهم انه شخصية معروفة، وأعرفه منذ كنا فى معهد طنطا وكل الناس تعرفه وعلمه وخلقه وكذا وكذا.

وبمجرد ما جاء القبول بدأنا فى الإجراءات وحددنا موعداً لعقد العقد فى ٣١ يوليو ١٩٥٨. وفى ١٤ ديسمبر من العام نفسه بنيت بزوجتى ودخلت بها والحمد لله فى شقتى فى حدائق شبرا فى شارع الشيخ عبدالرحمن قراعة نمرة ١١٥

والحمد لله اعتبرت نفسى وفقنى الله فى زواجى خاصة فى اختيار الزوجة وكان هذا بفضل الله تعالى.

الذرية الصالحة

● وماذا عن الأولاد؟!

●● قال الشيخ القرضاوى: الحمد لله أنجبت البنات والبنين. رزقت البنات أولاً قبل مضى سنة كان عندى البنت الأولى.. دخلت فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٨، فى ١٩٥٩/٩/١٩ جاءت ابنتى الأولى الدكتورة «إلهام» المدرسة فى قسم الفيزياء بجامعة قطر، وفى ٦٠/٩/٥ جاءت ابنتى الثانية.. أقل من سنة أيضاً جاءت الدكتورة سهام وهى مدرسة فى قسم الكيمياء بكلية العلوم بجامعة قطر.

وفى ١٥ ديسمبر ١٩٦١ جاءت ابنتى الثالثة وهى: «علا» وقد حصلت على الماجستير من جامعة تكساس فى مدينة أوستن بأمريكا، ثم اكتفت بهذا لأنها عاشت مع زوجها، لأنها كانت هنا موظفة فى مركز البحوث العلمية التطبيقية فى جامعة قطر، ثم استقالت للتفرغ لزوجها وأولادها.

ثم رزقت بعد سنتين بابنتى الرابعة وهى تدرس الآن للدكتوراه فى جامعة نوتنجهام فى لندن فى النبات. كل بناتى الأربع كن متفوقات والحمد لله. وكلهن فى كلية العلوم.

وكنت قلت لبعضهن ألا تذهب واحدة منكن إلى القسم الأدبى وهن فى

الثانوى. فقلن: يا بابا القسم الأدبى لا يذهب إليه إلا الكسالى من الطالبات. فقلت: أنتن حرائر.

وأنا طريقتى ألا أجبر أحداً من الأولاد على اتجاه معين. وربيتهم على الاستقلال. وعلى أن يكون القرار لهن أو لهم فى أمور حياتهم. أوجه فقط وأرشد وأشير. ولكن هم الذين يتخذون القرار. فما أجبرت أحداً. حتى «عبدالرحمن» ابنى هو الوحيد الذى اتجه إلى الناحية الشرعية والدينية باختياره. ذهب إلى المعهد الدينى فى قطر. ثم إلى كلية الشريعة. وهو يدرس الآن الماجستير فى كلية دار العلوم. هذا ما أجبرته ولا شددت عليه ولكنه توجه إلى هذا الطريق من تلقاء نفسه.

أولادى الآخرون «محمد» الأكبر.. دخل القسم العلمى ثم كلية الهندسة قسم الميكانيكا بجامعة قطر. وأرسل إلى أمريكا. وحصل على الماجستير ويدرس الآن للدكتوراة.

ابنى الأخير - آخر العنقود - كما يقولون - أسامة - أيضاً نفس الشىء دخل كلية الهندسة قسم الكهرباء. وتخرج أيضاً بتقدير يقارب من الامتياز - جيد جداً مرتفع - وعين الآن فى وزارة الكهرباء.

والحمد لله تخرج أولادى جميعاً. وبناتى كلهن تزوجن. ثلاث منهن أنجبن وعندى تسعة أحفاد. ونسأل الله أن يرزق الرابعة. وأن يوفق الأولاد إلى الزواج الصالح ان شاء الله وأن يرزقهم الذرية الطيبة. وان تكون لهم قرة أعين كما قال الله تعالى فى وصف عباد الرحمن: «الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً».

داخل البيت

● نتوقف أمام الحياة الخاصة داخل المنزل والعلاقة مع الأسرة.. ونحن نرى الآن إلى ما وصلت إليه حال كثير من الأسر.. وما وصلت إليه من تفكك وعلاقة تنافر فى كثير من الأحيان.

قال د. القرضاوى على الفور: أحمد الله ان هذه المشكلة لم تنشأ عندى فأسرتى والحمد لله أسرة مترابطة ومتوافقة ومتماسكة وهذا من توفيق الله لى انى ما اختلفت مع زوجتى خلافا حادا أو حقيقيا، طبعا قد يحدث خلاف سريع انما لا يسمى خلافا فلم نتنازع، ولم يحدث خصام بيننا أو جفوة طوال حياتنا الزوجية منذ عام ١٩٥٨، فما حدثت أية جفوة أو خصومة أو مشكلة مع زوجتى وهذا من فضل الله وهذا كان له تأثيره على أولادى الذين نشأوا فى جو صحى وفى مناخ ايجابى من شأنه أن ينشىء الود ولذلك الأولاد والحمد لله يحب بعضهم بعضا ويؤثر بعضهم بعضا وبينهم مودة، البنون والبنات بينهم وبين أزواج اخواتهم وأولاد اخواتهم وأشعر بالسعادة حينما يجتمع شمل الأشرة حينما يأتى بناتهم وأزواجهم وأحفادى إلى، الذين أحبهم أكثر من حبى لأولادى ولا أتصور مقابلة الأحفاد حينما أدخل وينادون جدو.. جدو.. فالحمد لله الاسرة ليس فيها مشكلة من هذا النوع أو غيره.

إنما بعض الناس تحدث عندهم المشكلات من أسباب شتى إما من سوء

الاختيار من أول الأمر أن الزوج لم يحسن اختيار الزوجة فجاء بخميرة عكننة أو ان الزوجة لم توفق إلى الزوج الصالح لأنه أحيانا لا تكون الزوجة هى السبب بل الزوج هو السبب فيكون بينهما جو غير صحى أو غير ودى ونزاع وخصام مستمر ويسمع الأولاد الألفاظ البذيئة من الرجل لامرأته وقد يكون العكس فمثل هذا الجو لابد أن ينشىء أثارة فى نفوس الأولاد ولذلك تحدث مشكلات وقد تغفل الأسرة عن أولادها فتصادفهم الصداقات المسيئة والصحبة غير البريئة ونحن نعرف الحديث.. «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير وأثر الأصدقاء على أصدقائهم فمن الممكن أن يغفل الآباء والأمهات عن أبنائهم فيتصل بهم رفقاء السوء ويفسدونهم وهم لا يشعرون.

وهناك بالطبع مؤثرات شتى خصوصا فى مجتمعاتنا لم تعد الأسرة وحدها هى المؤثر الوحيد فى حياة الصبى أو الصبية هناك المؤثرات الاجتماعية هناك المؤثرات الاعلامية، المدرسة تؤثر من جهة والأصدقاء يؤثرون من جهة، والتلفاز يؤثر من جهة والمجلات وغيرها.

فما لم تكن الأسرة يقظة وواعية لأبنائها وحريصة على حسن ترشيدهم وتوجيههم إلى حسن خطواتهم فمن الممكن أن يفلت الأولاد ويذهبوا.

وأحيانا ينسى بعض الآباء أنه من جيل وأن أولاده من جيل آخر فهو يريد أن يفرض نفسه على أولاده بكل أفكاره وأعرافه وعاداته مع ان سيدنا علي يقول: «لا تكرهوا أولادكم على عاداتكم فإنهم خلقوا لزمن غير زمنكم».

فينبغى أن يدرك الانسان أن هناك أشياء ينبغى أن يتشدد فيها وتتعلق بالقيم والأمور الشرعية الأساسية ولا يتهاون فيها مثل الصلاة، الصيام، القيم الأخلاقية والبر بالوالدين والأقربين وغيرها.. وكذلك عليه ألا يتهاون فى الموبقات الأخرى مثل المسكرات والمخدرات فالأسرة لا تتهاون فيها وإذا لاحظت أى خلل فى سلوك أبنائها يجب أن تأخذ الأمر بمأخذ الحسم ولكن الأشياء التى تختلف فيها الأجيال بعضها عن بعض لا ينبغى أن يتشبث جيل بأعرافه الخاصة ويريد أن يفرضها على الجيل الآخر، فلابد من التسامح والمرونة فى هذه النواحى.

وراثة الشعر:

● لاحظنا أن أحدا من الأبناء لم يتجه إلى مجال الدعوة والفقه ولكن نجد من ورث - إذا صح التعبير - عنك الشعر فأحد الأبناء - عبدالرحمن - شاعر.

يجيب الشيخ القرضاوى:

الشعر لا يورث ولكن الذى يورث الاتجاه النفسى، الإتجاه المزاجى، فالمزاج الفنى يورث بمعنى أن الأب الفنان يورث أولاده الفن وقد يختلف هذا الفن قد يظهر عند بعض الناس فى الشعر أو يظهر عند البعض فى الخط أو الرسم إنما المزاج الفنى بصفة عامة يورث.

بالنسبة لى الطبيعة الفنية عندى، وكما يقولون عقل العالم وقلب الفنان فقد آتانى الله سبحانه وتعالى عقلية العالم الناقد الفاحص الذى لا يقبل أى شىء جزافا ولا يقبل دعوة بلا برهان، ولا يقبل قضية بلا مناقشة ولا يأخذ الأمور مسلمات، ولكن يستعمل عقله وهذه موهبة من الله تعالى لست مقلدا أو متعصبا.

من ناحية أخرى أتانى الله الحساسية الفنية الزائدة التي ظهرت عندى فى الشعر وهذه الأشياء فى تلاوة القرآن الكريم.

وورث عبدالرحمن هذا المزاج الفنى وكان عنده قابلية الناحية الفنية هذه ويمكن تكون بصورة أكثر منى فأحيانا ظهرت طبيعته الفنية فى حسن الخط في فترة من فترات حياته اشتغل بالخط وجعل من نفسه خطاطا وكان يريد أن يعمل لوحات وفعلا جاء ببعض الأخشاب وكتب لوحات وتأتيه فترة من الفترات يغلب عليه فيها التلحين فهو يريد أن يلحن وينشد وحينما كان فى المعهد الفنى كان رئيسا لفرقة الأناشيد انشد مجموعة من أبرز الأناشيد الدينية وحينما صدرت المجلة الاسلامية هنا فى قطر واستمرت عدة سنوات كان هو أيضا من المؤسسين لها وعمل بعض الأشرطة من تلحينه وغنائه ومنها شريط مشهور اسمه «يا أمتى» لحن فيه وأنشد فيه قصيدتى يا أمتى وجب الكفاح فلم التشدق والصياح.

فهو يقول الشعر ويلحنه ويغنيه وينشده.

طبعا البيئة لها أثرها.. فهو عنده الموهبة وقد نمى هذه الموهبة البيئة التي

شجعته على هذا وجدنى شاعرا وأقول الشعر، والموهبة وحدها لا تصلح ما لم تتم لابد من الملكة الموهوبة والدرية المكسوبة لابد أن تدرب ملكاتك وتنميها فهو نمى هذه الموهبة بالقراءة والدراسة قرأ الأشعار خصوصا أشعار المحدثين والمعاصرين نزار قبانى وصلاح عبدالصبور وغيرهما.

● هل اعترضت على قراءته لبعض أشعار من ذكرتهم؟ أم قرأت معه؟

●● لا.. لم أعترض أبدا على اختياراته.. ولم أقرأ معه ولكن شغلت عن هذا وهو فى فترة من الفترات كان يقرأ للمعاصرين أكثر مما يقرأ للقدماء قرأ نجيب محفوظ يكاد يكون عنده روايات نجيب محفوظ كلها قرأ احسان عبدالقدوس ويوسف السباعى ونجيب الكيلانى، وكل ما وجهت إليه هو أن يحاول المزاوجة بين القديم والحديث أن يقرأ للمحدثين وكذلك للأقدمين مثل المتنبى وابن الرومى وابن القارض والبحترى والعمالقة القدامى هؤلاء وعندى هذه الأشياء فى مكتبتى مما ساعده على ذلك واستفاد من هذا كله فى صقل الموهبة وبرز ديوانه الأول «نزف الحروف».. وطبعا فيه شعر الشباب والعواطف والغزليات وهذه الأشياء وأنا لم أمنعه من هذا لأنه لم يوجد شاعر لم يتغزل وكثيرا ما يكون الغزل وهميا خيالا فى خيال حبا فى الخيال وغراما فى الخيال.

إلى جانب وراثته الشعر فقد ورث العلم أيضا فعقليته العلمية جيدة ولذلك كان والحمد لله يحصل على امتياز فى الكلية وقبل ذلك فى المعهد الدينى وهو صاحب قلم ولسان وقد كان يكتب فى الصحف وهو فى المرحلة الثانوية وكانت كتابته جيدة وكان بعض الناس يقولون لى: هل هذه كتابة ابنك؟!

أقول لهم: والله ما كتبت له شيئا ولا أعرف عنها شيئا ولكنى أفاجأ بها منشورة فهذا قلمه.

وكان يخطب أيضا: وأبلغت أحد المفتشين بأنه ذهب إلى المعهد الدينى فوجدت صوتا وكأنه يوسف القرضاوى وكان يتحدث عن سيرةٍ بطل فسألت عمن يتحدث؟ فقالوا: انه عبدالرحمن القرضاوى فقلت فعلاً: «ذرية بعضها من بعض» فقد كان فى المعهد يقدم كل اسبوع سيرة بطل من ابطال الاسلام يلقيها بصوته فيجذب الأنظار والقلوب إليه واستعداده فى هذه الناحية جيد فى الحقيقة واسأل الله أن يسدد خطاه وينير له الطريق.

منهج التربية

● الأسرة عليها دور فى التربية.. تربية الكائن الانسانى.. كيف ترى ذلك الدور؟!

●● أجاب القرضاوى:

هي أن تعمل على أن يصل الكائن الحى إلى مرتبة كماله المقدر لموعد وهناك تربية النبات وتربية الحيوان.

والتربية تختلف باختلاف الأهداف.. هناك من يربى عجلا أو بقرة فإذا كان يربيها للبن غير ما يربيها للحم أو العمل كذلك: لابد أن أسأل: لماذا أربى الإنسان؟!

لابد أن يكون الهدف واضحا أمامى.. نحن نربى الإنسان المؤمن الصالح فى نفسه.. المصلح لغيره.. الإنسان الناجى.

● من خسر الدنيا والآخرة الذى ذكرته سورة العصر: «والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» هذا هو الانسان المراد، انسان متكامل الشخصية، الاسلام يريد انسانا متكاملا لايريد انسانا فقط عابدا لله ولكنه غير عامل فى الدنيا لا.. يريده قوى الروح ضعيف الجسم، لا يريده ضعيف العقل والتفكير.

تريد إنسانا نكونه روحيا بالعبادة عقليا بالثقافة جسميا بالرياضة عسكريا بالخشونة اجتماعيا بالخدمة والمشاركة فى المجتمع، سياسيا بالوعى، نكونه من جميع نواحيه، هذا هو الانسان الذى يريده الاسلام ليس بمجرد الكلام فقط، بالكلام وبالقدوة، بالترغيب وبالترهيب فعندما سمع النبى إحدى النساء تقول لولدها تعالى اعطيك كذا.. فقال لها: أردت أن تعطيه؟ قالت أردت أن أعطيه تمرة.. قال: لو لم تفعلى ذلك لكتبت عليك كذبة.

إن الكذبة تكتب كذبة وان الكذيبة تكتب كذيبة.

● ماذا عن علاقتك بالأسرة والأولاد.. والمكتبة؟!

د. القرضاوى: أنا رجل أسرى، نشأت ريفيا والأسرة فى الريف لها مكانتها وعمقها وهى أساس الحياة الاجتماعية ولاشك ان الاسرة هى الخلية الأولى فى المجتمع الطبيعى والله سبحانه وتعالى خلق الكون كله أزواجا ومن كل

شيء خلقنا زوجين لذلك فالزوجية فطرة فى هذا الكون والانسان بعد أن يتزوج تبدأ الأسرة الصغيرة التى تتكون من الزوج والزوجة.

لكننا نحن المسلمين عندنا الأسرة الممتدة الموسعة تشمل الزوجين والأبناء والبنات والآباء والأمهات والإخوة والاخوات بل تشمل الارحام من الأعمام والعمات والأخوال والخالات وأبناء الأعمام والعمات وأبناء الأخوال والخالات مما يسمى فى الاسلام بالأرحام والصلة بهم تسمى صلة الأرحام وأولى القربى «وايتاء ذى القربى» و«الأقربون أولى بالمعروف» وهذا الارتباط له أثر فى حياتى من حيث النشأة وعمق هذا الأثر التعليم الدينى والتفقه فى الدين والذى زاده قوة وعمقا ووضوحا فأنا وثيق الصلة بالأسرة وأسعد أوقاتى حينما أكون مع زوجتى وأولادى أنا طواف وكثير الترحال ولكنى أسعد ما أكون حينما أستقر فى بيتى وبين أسرتى وأنا رغم انشغالى فى البيت فأنا رجل قارئ كاتب أعيش مع مكتبتى معظم الوقت حوالى خمس عشرة ساعة مع الكتب يوميا ولكنى أسرق نفسى من الكتب والمكتبة لأجلس مع أولادى اضاحكهم وأنكت معهم أحيانا يدخلون هم إلى مكتبتى وهذه هى حياتى الأسرية.

● أى أولادك أقرب إلى نفسك؟

أجاب القرضاوى: هذا سؤال لا أستطيع الجواب عليه فكلهم قطعة منى والحقيقة انى أحب أولادى جميعا لا أفضل واحدا على الآخر ولا ذكرا على أنثى ولا أنثى على ذكر ولا صغيرا على كبير كلهم عندى سواء وكل واحد له منزلة خاصة فى نفسى جميعا من أولهم إلى آخرهم.

وقد رزقت البنات أولا ثم رزقنى الله الذكور بطبيعة الحال كانت فرحتى بالابن الأول فرحة كبيرة فالإنسان أبوالبنات دائما يشتاق إلى الذكر كطبيعة البشر حتى الأنبياء طلبوا هذا «رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين» «رب هب لى من الصالحين».. والإنسان يحب ذريته وأنا أحب ذريتى جميعا ولا أجبرهم على شيء.

وأى طريقة اتبعت معهم فى التربية؟

● الشيخ القرضاوى: طريقتى فى التربية لا أجبرهم على شيء أو على رغبتى أنا فأنا أربيهم على الاستقلال، التربية المستقلة الحرة التى تجعل كلا

منهم يختار لنفسه ما يميل إليه طبعه وما يرى انه متفوق فيه ما جبرت أنثى منهم ولا ذكرا على اتجاه أريده فقد كنت أريد من بعض بناتى أن يتخصصن فى بعض العلوم الشرعية أو نحو ذلك وأشرت على بعضهن قلت لهن: تدخلن القسم الأدبى فيكون فرصة للتخصص ناحية الشريعة فقلن لى: يا أبت ان الأدبى لا يدخلنه إلا الكسلانات من البنات، ولذلك كل أولادى دخلوا علمى بنين وبنات إلا عبدالرحمن فقط هو الذى اتجه إلى المعهد الدينى برغبته هو وأنا ما أجبرته ثم اتجه بعد ذلك إلى كلية الشريعة.

أنا سلس جدا وهين لين مع أولادى إلا فى أشياء معينة إذا كان هناك شىء فيه تجاوز للحدود فأنا أغضب جدا وأنا غضوب حقيقة إذا غضبت لا يقف لغضبى شىء والناس ترانى هادئا ولكن فىَّ غضب كامن ولو غضبت لا يحتمل أحد غضبى ولذلك أحذر من أن أصل إلي حد الغضب والكل يعرف هذا ويلزم حدوده ولكننى إذا غضبت سرعان ما أعود فطبيعتى مع ان غضبى شديد لكنى أفىء بسرعة منه.

وحمدت الله أن وفق الله بناتى جميعا للزواج من أزواج صالحين من أسرة صالحة نعرف آباءهم وأمهاتهم ولذلك أنا مطمئن على بناتى جميعا ان الله وفقنى فى اختيار الأزواج الصالحين لهن وأتمنى أن يوفقنى الله لاختيار الزوجات الصالحات لأبنائهم.

قصة الزواج الثانى

روى د. القرضاوى باستفاضة قصة زواجه الثانى من فتاة جزائرية من فتيات الصحوة الاسلامية تنتمى إلى إحدى العائلات الكبيرة بالجزائر ومن أسرة علمية متميزة.

قبل عرض التفاصيل لهذا الزواج المفاجأة.. لابد من الإشارة إلى أن السيدة أسماء بن قادة كان يزعجها ويؤلمها جدا ذلك التجاهل لها عند استعراض السيرة الذاتية للشيخ القرضاوى وأنه متزوج من السيدة (.........) المصرية وله منها أبناء كذا وكذا... وكانت تصرخ بينها وبين نفسها : ياناس أنا الزوجة الثانية.. أين أنا..

عندما طلبت منها أن تعرض لتفاصيل القصة قالت وعلامات الارتياح تملأ نبرات صوتها لقد سجل الشيخ التفاصيل كاملة.. وكتبها بطريقة جيدة.. أرضتنى بالفعل.. وحكاها بأسلوب جميل.. وسينشرها فى كتاب قريبا إن شاء الله.

قلت ولكننا نريد أن نعرف الحكاية من وجهة نظرك أولا.. فأجابت ضاحكة : سيأتى يوم لأحكى فيه.. لكنه ليس الآن.

بدايات اللقاء والتعرف بين الشيخ وزوجته الثانية جاءت فى سياق مناقشات علمية محترمة ومشتعلة حول الحجاب فى الملتقى الفكرى بالجزائر وكان مخصصاً لمناقشة قضايا الصحوة الإسلامية وما يثار حولها وبشأنها وطرحت

إحدى المشاركات فى مداخلتها اعتراضاً على الحجاب واستنكرت التركيز على الحجاب قائلة، هل الصحوة الإسلامية صحوة لباب أو صحوة حجاب؟

وقالت كلمة ترد فيها على الذين يعظمون أمر الحجاب، قائلة: إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، واسترسلت فى حديثها مندددة بالداعين إلى الحجاب، والداعيات إليه.

وهنا انبرت للرد على هذا التيار فتاة جزائرية لم تزل طالبة فى الجامعة، طلبت من رئاسة الجلسة: أن تعتلى المنصة لتقول كلمتها، فأذنت لها، ففاجأت الجميع بمنطق رصين، ولسان مبين، وحجة دامغة، وأفكار عميقة، ورؤية بصيرة، فبهرت الأبصار، وشدت الأسماع والأنظار، وأقنعت العقول والأفكار.. وكان مما قالته: إن الفتاة المحجبة أثبتت وجودها فى كل مكان: طالبة وموظفة وباحثة.. وقد رأينا الطالبة الأولى فى البكالوريا، وهى ـ بفضل الله تعالى ـ محجبة، وقد تسلمت جائزتها من يد رئيس الجمهورية!

قالت الفتاة: ماذا يضيركم أن تجمع المحجبة بين دينها ودنياها؟ أن ترضى ربها، وتعمل لرقى نفسها وقومها؟

كانت كلمات الطالبة مندفعة كالسيل، واضحة كالشمس، فقابل المشاركون كلماتها بالهتاف والتكبير.. لقد أعجب المستمعون بفصاحة لسانها، ونصاعة بيانها، ورباطة جأشها، وثقتها بنفسها، وشجاعتها فى ابداء رأيها، وقدرتها على التعبير عن نفسها.. وما كادت تنزل من فوق المنصة حتى هرول إليها الصحفيون والإعلاميون من داخل الجزائر ومن خارجها، يلتقطون لها صورا، ويجرون معها أحاديث، وكان من أسبقهم إلى ذلك مدير تحرير مجلة «الأمة» القطرية التى اشتهرت فى ذلك الحين، الأستاذ: عمر عبيد حسنة، وقد أجرى معها حواراً، نشره فى العدد اللاحق للأمة، ومعه صورة لها.

كانت هذه الفتاة هى أسماء بن قادة!

وقد بادرت إليها لأحييّها وأشجعها، وأعبر لها عن إعجابى بكلمتها، ولكن وجدت الكثيرين قد التفّوا حولها، فأجّلت ذلك إلى حين.

وكان من المواقف المهمة فى ذلك الملتقى: لقائى مع الطالبات فى المسكن الجامعى المعروف فى منطقة «بو زريعة».

وكان مع كل ملتقى نشاط مصاحب، يشتمل على محاضرات ودروس، ودرس

جمعة، ولقاءات بالطلاب والطالبات، وزيارة لبعض القرى والبلدان القريبة من مدينة الملتقى، ونحو ذلك.. وكنت حريصاً كل الحرص على القيام بهذا النشاط، فقد كنت أعتبره جزءاً من الواجب علىّ لأهل الجزائر فى هذه المرحلة. ولهذا كنت أكلف فى كل ملتقى بلقاء الطلاب والطالبات، فى المدارس أو الجامعات التى يقيمون فيها، أو يقمن فيها، وغالباً ما يكون هذا اللقاء فى الليل بعد انتهاء العمل اليومى للمؤتمر.

من ذلك: اللقاء المشهود فى مسكن بوزريعة، فى إحدى ليالى الملتقى، وكانت عادتى أن ألقى محاضرتى، ثم أفتح الباب لتلقى الأسئلة مكتوبة فى العادة، ولا مانع أن تكون مشافهة، وإن كانت أغلبية الفتيات يفضلن المكاتبة على المشافهة، لما فطرهن الله عليه من الحياء الذى هو زينة المرأة المسلمة وحليتها.

ومما أذكره من الأسئلة التى وجهت إلىّ فى تلك الليلة: سؤال غير عادى، ولا يتعلق بمشكلة علمية، ولا بمشكلة فردية أو أسرية، ولكنه سؤال له معنى خاص، ومغزى خاص، ولهذا مازال حيا شاخصاً فى ذاكرتى.

قالت لى الطالبات، أو قالت إحداهن متحدثة عنهن: نريد أن نسألك يا أستاذ سؤالاً خاصاً وصريحاً، ونريد أن تجيبنا عنه أيضاً جواباً حراً صريحاً، وهو: هل يمكن أن تحب المرأة الرجل فى الله عزوجل؟ وتثاب على ذلك ثواب المتحابين فى الله تعالى؟

كان السؤال مفاجئاً لى؛ ولكنى لم أهرب من الإجابة عنه، وقلت: نعم يمكن أن تحب المرأة الرجل فى الله، كما يمكن أن يحب الرجل المرأة فى الله.

المهم أن يتحقق معنى الحب فى الله، وهو أن يتأكد المرء أن حبه لله حقاً، أى لا لدنيا ولا لشهوة خفية، ولا لغرض مادى، وإنما يحب من يحبه، لدينه وإخلاصه لله وبذله لدينه ونصره له.

يكون هذا من المرأة للرجل، ومن الرجل للمرأة.. أنا مثلاً أستطيع أن أقول: إنى أحب الأخت المؤمنة الحاجة زينب الغزالى فى الله؛ لما قدمته لدينها ودعوتها من جهد وتضحية وصبر على البلاء والأذى فى سبيل الله.

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا**

الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧)، ومن هؤلاء المتقين رجال ونساء متحابون فى الله، ومتحابات فى الله.. وكذلك الأحاديث الكثيرة التى جاءت تحث على الحب فى الله، وأن المتحابين فى الله يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأنهم على منابر من نور يوم القيامة.. وهذه النصوص العامة تشمل الرجال والنساء جميعاً إذا أحب بعضهم بعضاً فى ذات الله تعالى.. وهنا قال عدد من الطالبات المشاركات فى نفس واحد: نشهد يا أستاذ أننا نحبك فى الله!! وهنا لم أملك عينى من الدموع.. وأنا رجل قريب الدمعة، إذا تأثرت بموقف إيمانى أو إنسانى، سرعان ما تغرورق عيناى! وأثر ذلك فى الطالبات، فبكى الكثير منهن.

وهنا قلت للطالبات: أما وقد قلتم ما قلتن، فلا بد لى أن أخبركم بالسنة الإسلامية المطلوبة فى هذا الموقف: وهما سنتان:

الأولى: إذا أحب الإنسان إنساناً فى الله، فليبادر بإخباره، كما فى الحديث: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره» وذلك لما فى الإخبار من سروره وتبشيره بالخير، وتوثيق الرابطة بينهما.. الثانية: أن يدعو المحبوب لمن يخبره بأنه يحبه فى الله قائلاً: أحبك الذى أحببتنى من أجله، أى أحبك الله.

وكانت ليلة حافلة جياشة بالعواطف والمواقف. وقد ودعتنى الطالبات بمثل ما استقبلننى به من المودة والابتهاج، وكان فى وداعى عدد منهن صحبننى إلى الباب، وقد استرعى انتباهى إحداهن، وزميلاتها ينادينها باسمها: أسماء.. فقلت لها: هل أنت أسماء صاحبة الكلمة على المنصة؟ قالت نعم: أنا هى.. فلما نظرت إليها عن قرب: قلت: سبحان الله! لقد جمع الله لك يا أسماء بين الجمال الحسى، والجمال الأدبى، أعطاك الله الذكاء والبيان، وحضور الشخصية، والجمال والقوام.. بارك الله لك يا ابنتى فيما منحك من مواهب، وبارك لك فى فصاحتك، وبارك لك فى شجاعتك، وبارك لك فى ثقافتك.. لقد أثلجت صدورنا بردك القوى البليغ.

فقالت: لعل كلمتى حازت رضاك يا أستاذ!

قلت: أكثر من الرضا، ولست وحدى، ولكن كل المدعوين من العلماء والدعاة عبروا عن رضاهم وإعجابهم.. زادك الله توفيقاً.

قالت: ما أنا إلا تلميذة من تلميذاتك وتلامذتك الكثيرين هنا، لقد تتلمذنا على كتبك من بعيد، ونتتلمذ عليك اليوم مباشرة من قريب.. وقد رأيت وسمعت كيف يحبك الجميع.

قلت: إذا كان تلاميذى على هذه الدرجة من نضج التفكير، وبلاغة التعبير، فقد يغرنى هذا كأستاذ!

قالت: كتبك العلمية والفكرية ساعدتنا على أن نستكمل ثقافتنا الإسلامية، وأسلوبك الأدبى والشعرى ساعدنا على أن نقوم تعبيرنا العربى، وقد كنا نتدارس كتبك فى حلقاتنا التربوية.

قلت: وهل عرفتم شيئاً عن شعرى؟

قالت: نحفظ نشيد «مسلمون» وكنا نتغنى به فى لقاءاتنا الإسلامية، وننشده بصورة جماعية، فيثير فينا الحماس والاعتزاز.

كما نحفظ بعض الأبيات من قصيدتك «النونية».

قلت: فى أى الكليات تدرسين؟ وفى أى التخصصات؟

قالت: فى كلية العلوم والتكنولوجيا، وفى قسم الرياضيات.

قلت: يا سبحان الله! كنت أحسب أنك فى كلية شرعية أو أدبية.. أنت مثل بناتى الأربع، كلهن فى تخصصات علمية..

وعلى فكرة، ابنتى الصغرى اسمها أيضاً أسماء، وأظنها فى مثل سنك.

قالت: أرجو أن تبلغها تحياتى.

كان الحديث العفوى الذى دار بين تلميذة وأستاذها، أو بين مريدة وشيخها، أى بينى وبين الطالبة النابهة اللامعة أسماء بن قادة بداية تعارفنا.

ولم أكن أدرى أن القدر الأعلى الذى يخط مصائر البشر، قد خبأ لى شيئاً لا أعلمه، فقد حجبه عنى ضمير الغيب، وأن هذا الحديث التلقائى بينى وبين أسماء ـ الذى لم يتم بعده لقاء بيننا إلا بعد سنتين كاملتين ـ كان بداية لعاطفة قوية، أدت لعلاقة وثيقة، انتقلت من عالم العقول إلى عالم القلوب، والقلوب لها قوانينها وسننها التى يستعصى فهمها على كثير من البشر، وكثيراً ما يسأل الإنسان: ما الذى يحول الخلى إلى شجى؟ وما الذى يربط رجلاً من قارة بامرأة من قارة أخرى؟ أو ما الذى يحرك القلوب الساكنة، فتستحيل إلى جمرة ملتهبة؟

حتى ترى النسمة تتطور إلى إعصار، والشرارة تتحول إلى نار!

ولا يجد المرء جواباً لهذا إلا أنه من أسرار عالم القلوب.. ولا غرو أن كان من تسبيح المؤمنين: سبحان مقلب القلوب! وقد قال الشاعر:

وما سـمّيَ الإنسـان إلا لنسـيه

ومـا القـلب إلا أنـه يتقلـب!

وفى الحديث «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ويسوى بينهن فى الأمور الظاهرة، ثم يقول «اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك» يعنى: أمر القلب!

فقد شاء الله أن يتطور الإعجاب إلى عاطفة دافقة،و وحب عميق.. لا يدور حول الجسد والحس كما هو عند كثير من الناس، بل يدور حول معان مركبة، امتزج فيها العقل بالحس، والروح بالجسم، والمعنى بالمبنى، والقلب بالقالب، وهذا أمر لا يعرفه إلا من عاشه وعاناه.

كما قال الحكيم: من ذاق عرف!

وكما قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها!

وقد يعذل العاذلون، ويلوم اللائمون، ويعنّف المعنفون، ويقول القائلون: لم؟ وكيف؟ كيف يحب الأستاذ تلميذته؟! أم كيف يحب الشيخ الكبير فتاة فى عمر بناته؟! وهل يجوز أن يكون لعالم الدين قلب يتحرك ويتحرق مثل قلوب البشر؟

ولا جواب عن ذلك إلا ما قاله شوقى فى نهج البردة:

يا لائمـى فى هواه والهـوى قدر

لو سفك الوجد لم تعذل ولم تلم

على أن أساس هذا العذل واللوم هو أن كثيراً من الناس يهبطون بهذه العاطفة النبيلة (عاطفة الحب) إلى أنها تعلق جسد بجسد، وهو تصور غير صحيح، وتصوير غير صادق، وإن صدق فى بعض الناس، فليس يصدق فى

الجميع.. وقد وصفت هذا الحب، فقلت:

حـــب أرواح تســامت
عن سـعار واشــتهاء
فليقــل مــن شــاء: هــذا
الحــب وهــم وغبــاء
ليس فى عالمنا حب سوى حب البقــاء
ليس فى الدنيا سوى حب سباع لظبــاء
نحن فى عصر الحواسيب وغزوات الفضاء
فذرونا من جوى قيس وليــلى والبكــاء
فليكن عصــركم ما شــئتمو يا أذكيــاء
إن دنيــاكم بغيــر
الحــب قشــر وغثــاء
إنهــا مبنــى بلا معنــى
ورســم فــى الهــواء
إنهــا تمثــال إنســا
ن مــن الــروح خــواء
إن ســر الكــون فى حــرفين:
فـى حــاء وبــاء!

ويواصل الشيخ القرضاوى قائلاً:

لقد كانت أسماء من بنات الصحوة الإسلامية، فى الجزائر، ومن زهرات ملتقيات الفكر الإسلامى، وكانت بعد كلمتها فى ملتقى الصحوة بالعاصمة: معروفة لدى رموز الملتقى وشيوخه الكبار، قريبة منهم، كالشيخ الغزالى، والدكتور البوطى والفقير إليه تعالى.. وكنت أقربهم إليها، وكانت تدهش الجميع بأسئلتها الواعية، ومقترحاتها المفيدة.. ولم تكن فتاة معقدة ولا مرتبكة.. بل بدا لكل من اقترب منها: أنها فتاة مثقفة ثقافة متوازنة

ومتكاملة، علمية وأدبية، دينية ودنيوية، شرعية وعصرية، وأنها مع اتقانها للغة الفرنسية - التى يتقنها النخب من الجزائريين - تتقن العربية بصورة تلفت الأنظار.

وأنها قارئة جيدة لتراث مالك بن نبى، كما قرأت لعدد من العلماء والمفكرين الإسلاميين فى المشرق العربى، وعلى رأسهم الشيخ الغزالى، والعبد الفقير، وكل كبار الكتاب الإسلاميين على اختلاف مدارسهم وعروقهم وبلدانهم.. بل قرأت لغير الإسلاميين أيضاً، ولكنها تقرأ قراءة من يفحص وينقد وينتقى.

وكان لها نشاطها الدعوى والثقافى فى المساجد والأندية، وفى المعاهد والجامعات، وفى الإذاعة والتليفزيون الجزائرى، بل كانت هى أول فتاة جزائرية محجبة تظهر على الشاشة الصغيرة، وتجتذب المشاهدين والمشاهدات.

ومع هذا لم تقبل أن تنتسب إلى أى من الجماعات أو المدارس الفكرية أو الدعوية على الساحة الجزائرية.. حاول من يسمونهم: دعاة «الجزأرة» أن يضموها إليهم فاستعصت عليهم، وحاول دعاة الإخوان أن يجروها إلى جماعتهم، فأبت عليهم أيضاً.. بل دعتها الأخوات «القبيسيات» المعروفات بالعمل الدعوى والتربوى فى سوريا إلى زيارتهن هناك، ونزلت ضيفة عليهن مدة من الزمن، وكن يطمحن إلى أن يكسبنها جماعتهن، فلم يمكنهن ذلك.

وكانت لأسماء صديقة تعد من داعيات جماعة الإخوان «جماعة الشيخ محفوظ نحناح»، هى الأخت دليلة «أو هالة» تصحبها دائماً إذا أرادت زيارتى.. وقد أرادت أختنا الفاضلة - حين لاحظت اهتمامى بأسماء - أن تنبهنى إلى أنها ليست عضواً فى الجماعة! فقلت لها: أعرف ذلك، وقد أفضل أن تكون كذلك.. فمن الناس من الخير له أن لا يرتبط بعضوية جماعة من الجماعات، لا لآفة فيه، ولكن لأن طبيعته ترفض القيود والالتزام برأى غير رأيه.. وهذا لا يصلح للجماعات ولا تصلح له الجماعات.

من أسرة الأمير عبد القادر

قلت لأسماء مرة: لماذا سموك «أسماء بن قادة» ولم يقولوا: «بنت قادة»؟!

قالت: «بن قادة» هو لقب العائلة المتوارث والمعروف.. ثم قالت: هل تعرف الأمير عبدالقادر؟

قلت: حق المعرفة.. إنه أمير على ثلاثة مستويات: أمير فى الجهاد، وأمير فى العلم، وأمير فى السلوك والتصرف.

قالت: إن عائلتنا هى جزء من عائلة الأمير رحمه الله.

قلت: أنعم وأكرم.. وأنا أعرف أن الأمير ينتمى إلى سيدنا الحسن بن على رضى الله عنهما، فعائلته هاشمية حسنية.

قالت: هى كذلك.. ولكن والدى يحذرنا أن نعتمد على النسب الحسنى، ونفخر بذلك، وندع العمل والجد.

قلت: نعم هذا التوجيه من أبيك.. وهو موافق لما جاء به نبينا العظيم فى قوله «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وقد دعانى بعد ذلك والدها الأستاذ محمد بن قادة على العشاء فى منزلهم بحى الرستمية بمنطقة الأبيار، وهى من أرقى المناطق فى العاصمة، فلم يسعنى إلا أن ألبى دعوته، وتعرفت على الوالد والوالدة، وعلى اخوتها، وهم ثلاثة، وعلى أخواتها، وهن ست، ثلاث منهن يحملن الدكتوراة فى الفلسفة وفى الاجتماع وفى الجراحة.

ووالدها رجل معروف فى المحيط الأكاديمى والتربوى: إنه «أبو الرياضيات» فى الجزائر.. والجميع يعرف دوره المرموق والرئيسى فى تعليم الرياضيات، وفى تعريب الرياضيات بعد الاستقلال، وكان يصدر مجلة تحمل اسم «الخوارزمى».

وقد مضت سنوات، انتهت أسماء فيها من دراسة الرياضيات، وحصلت على شهادة البكالوريوس بامتياز.. ثم انتقلت إلى تخصص آخر، فى مجال آخر مغاير تماماً، هو العلوم السياسية.

وفى هذه السنوات كنت أوارى حبى، وأكتم عاطفتى فى نفسى لاعتبارات شتى.. ولكل إنسان منا طاقة، فى الكتمان والصبر، ثم تنفد طاقته بحكم الضعف البشرى.. ولابد أن يأتى يوم يبوح فيه الإنسان بما فى أعماقه.. وجاء هذا اليوم لأبث أسماء ما بين جوانحى من مشاعر وأشواق، فى رسالة كتبتها

إليها سنة ١٩٨٩م، وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى.. فلم يكن بالأمر العادى ولا السهل أو الهين على أن أصارحها بحبى وبينى وبينها عقود من السنين تفصل بيننا.. وكانت مفاجأة لها، فكرت فيها مليا، وترددت كثيراً قبل أن تأخذ قرارها الذى لم تقدم عليه إلا بعد استخارة واستشارة، فلا خاب من استخار، ولا ندم من استشار.. وقد كان ردها برداً وسلاماً على قلبى، ولكم كانت فرحتى عندما وجدتها تجاويت معى، وأحسست بسعادة غامرة أشبه بالسعادة التى تحدث عنها الصوفية حين قالوا: نحن نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!

فقد تلاقت روحانا، بعد أن تعارفنا فى عالم ما قبل المادة.. وفى الحديث الصحيح «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

من عالم القلوب إلى عالم الزواج

لا أكتم أنى كنت خائفاً من مفاجآت المستقبل، ولاسيما مع الفارق الكبير فى السن، وتخوفى من وقع الحدث على من حولى، ولكم مرت على لحظات ترددت فيها بين الخوف والحب، ولكن سرعان ما انقشع سحاب التردد، حين أشرقت شمس الحب، وكان حبى أقوى من خوفى، فكان لابد أن ينتهى هذا الحب الطاهر إلى ما شرعه الله ورسوله للمتحابين، وهو الزواج.

وهو أمر لم أفكر فيه قط، ولا ظننت أنى سأتزوج باثنتين يوماً، ولكن الله إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب، وذلل له الصعاب، حتى يقع كما أرادات الأقدار فى الوقت المحدد له «وكل شىء عنده بمقدار» (الرعد: ٨)، كما لم تكن تفكر أسماء أن تتزوج من رجل متزوج له أبناء وبنات.

ومن المعروف أن الزواج بيننا لم يتم إلا بعد مضى عدة سنوات، كانت هذه المدة كافية لأن نتأكد فيها من حقيقة عواطفنا، وأنها لم تكن نزوة عابرة، ولا شهوة عارضة، بل كان حباً حقيقياً نبت فى أرض الصحوة، وأجواء الإسلام، وغذت عروقه معانى الإسلام، وقيم الإسلام.. ولذا صمد وثبت على مر الأيام، وعلى بعد ما بيننا من مسافة، فأنا فى قارة، وهى فى قارة.. ولم يحدث تلاق خلال فترة طويلة.. ولكن ما فى القلوب إذا كان عميقاً وصادقاً،، ولم يؤثر فيهً بعد المكان، ولا مرور الزمان.. كما قال الشاعر:

خيالك فى عينى، وذكرك فى فمى

وحبك فى قلبى، فكيف تغيـــــب؟

ولقد تقدم لأسماء خطاب كثيرون من أعلى المستويات، من داخل الجزائر وخارجها.. ولم تقبل واحداً منهم.. وإن كان زواجى منها لم يتم بسهولة، لاعتبارات كثيرة، فقد كان والدها ـ برغم ما بيننا من ود واحترام متبادل ـ معارضا لزواجها منى، فهو يراها جامعة لكل المزايا التى ترغب الرجل فى المرأة، من النسب والجمال والدين، فضلاً عن الثقافة والتفوق فى مجالات شتى.. فلماذا يقبل لابنته أن تكون زوجة ثانية؟! ولم يكن من السهل عليه أن يقبل زواجاً يخشى أن يكون من ورائه أى شائبة تعكر عليها، ولم تلن قناته إلا بعد فترة طويلة.. على أن المجتمع الجزائرى لا يعرف التعدد، إلا نادراً.. فكيف يتعدد مع غربة؟ ومن شيخ ذى أسرة كبيرة؟

ولكن القدر الأعلى ساعدنا على أن يتم زواجنا، برغم فارق السن الكبير الذى بيننا، والذى كنت أراه أمام حاجزاً كبيراً، والذى أبت أسماء أن تنظر إليه أو تعترف به على الإطلاق، بل حتمت على لزوما: ألا أذكر هذا الأمر قط، لا بالعبارة ولا بالإشارة، وقالت: إن هذا الشىء لا أراه ولا أحس به بوجه من الوجوه، وقد اخترتك بعقلى وقلبى معاً، ورأيتك بعين بصيرتى وبصرى جميعاً، وأنا سعيدة باختيارى ورؤيتى، ولو أنى خيرت بينك وبين شباب الأرض، ما اخترت غيرك! وهكذا الحب جنون، والجنون فنون، والحياة شجون، ولله فى خلقه شئون، وهو إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

وقد مرت السنوات، وحصلت على الماجستير، وتوشك أن تناقش الدكتوراة، فى العلوم السياسية، وعملت بمركز الدراسات الاستراتيجية بأبوظبى، وبقناة الجزيرة فى قطر منتجة للبرامج.. وهى على موقفها لم تغير ولم تبدل.. وقد قالت لبعض الزملاء والزميلات مرة: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وخيرت من جديد، ما حدت عن اختيارى القديم، ولزدت استمساكاً به.

وقد زاد هذا الزواج من ارتباطى بالجزائر، وحبى لها ولشعبها الذى أسرتنى بطولته وجهاده، فزادتنى هذه المصاهرة تعلقاً به.

ومما أذكره: أنى كنت أحسبها مثل كثير من خريجات الجامعات العصريات، ومن الناشطات اللائى يحسن الاجتهاد فى التحصيل الدراسى، ولا يعرفن

كثيراً فى تدبير المنزل، ففوجئت بأنها ربة بيت ممتازة، وأنها طاهية من الطراز الأول، ولا سيما فى الأكلات الجزائرية والمغاربية، مثل الكسكسى والثريدة.. وهى أيضاً متفننة فى صنع الحلويات التى يسيل لها لعاب الكثيرين، وإن كنت لست منهم، فقد قاطعت الحلوى منذ زمن بعيد من أجل الوزن، حتى قبل أن ابتلى بالسكر.

كما أنها بثقافتها المتنوعة، وقدرتها على البحث فى الإنترنت، أضحت تعيننى فى استحضار المعلومات التى أريدها، والمناقشة فى كثير من الأمور، وخصوصاً فى العلوم السياسية والاجتماعية والإنسانية، كما تشاركنى فى هموم الأمة المسلمة، وقضاياها المتعددة، والعمل الدؤوب على توحيدها وإصلاحها من داخلها، وتجديد دينها الذى هو عصمة أمرها، ومصدر عزها وفخرها.

وعن موقف الناس من هذا الزواج قال د. القرضاوى:

استقبل الناس هذا الزواج بطرائق شتى، فمنهم من رحب به وباركه، لأنه زواج على ما شرع الله ورسوله.

ومنهم من اعتبر ذلك من الأمور الشخصية، التى للإنسان فيها حرية الاختيار، وهو مسئول عن اختياره، ولاسيما إذا كان من أهل العلم والرأى.

ومنهم من أنكره ورفضه، بغير مبرر شرعى، إلا لهوى فى النفس، مثل الكثيرين من المتغربين الذين يرفضون تعدد الزوجات بإطلاق، وكذلك بعض النساء اللاتى يرفضن مبدأ التعدد، وخصوصاً إذا كان من رجل يقتدى به.

ومنهم من يرى مجرد التعدد عدواناً على الزوجة الأولى، واخلالاً بحقوقها، لأن العدل غير ممكن، وهذا اتهام لشرع الله تعالى، أنه يبيح الظلم.

ومنهم من نظر إلى نظرة الحاسد المبغض، الذى استكثر على أن أتزوج شابة جميلة، ومثقفة، ومتحدثة وكاتبة.. وقد سمى الرسول الحسد والبغضاء «داء الأمم»!

ومنهم من اتخذه ذريعة للهجوم على شخصى، ونسجوا حوله أقاويل وحكايات ما أنزل الله بها من سلطان، فقالوا: إنى تزوجت طفلة عمرها تسعة عشر عاماً! أو ستة عشر عاماً!! ومنهم.. ومنهم... حتى إن بعضهم من قريب

اعتذر عما قاله وأذاعه على الناس، وخطأ نفسه علنا، وأن معلوماته لم تكن صحيحة!

لقد تزوجتها وهى ناضجة راشدة، فى أواخر التسعينيات من القرن الماضى، أى بعد حوالى عقد من الزمان منذ مصارحتها.. وهى تحمل بكالوريوسين بامتياز، أولهما فى الرياضيات، والآخر فى العلوم السياسية، وكانت تدرس الماجستير فى العلوم السياسية.

ولست أول من عدد، ولا آخر من يعدد، فقد عدد سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وعدد الرسل والأنبياء من قبله، وعدد أصحابه فى حياته ومن بعد وفاته، وعدد الأئمة والصالحون.. فلم اقترف ذنباً بالزواج الثانى، ولكنى استخدمت رخصة شرعها الله لعباده حتى لا يرتكسوا فى الحرام.

صحيح أن بيننا فارقاً كبيراً فى العمر، ولكن أسماء وحدها هى صاحبة الحق فى قبول هذا الفارق أو رفضه، وقد قبلته راضية مختارة بكل حريتها، دون أن يؤثر عليها أحد رغباً أو رهباً.. وهنا يقول المثل: أنا راضية وهو راضى، وأنت مالك يا قاضى!!

وأود أن أقول هنا بصراحة: إنى لست من دعاة التعدد لكل من هب ودب، من يحتاج إليه ومن لا يحتاج، ومن يقدر عليه ومن لا يقدر، ومن يعدل ومن لا يعدل، ولكنى أجيز التعدد بشروطه وقيوده عند الحاجة إليه، وإن كان الأسلم لدين المرء الورع أن يبتعد عما فيه مظنة الجور إذا كان لا يأمن على نفسه، كما قال تعالى «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» (النساء: ٣)، فجعل مجرد الخوف مانعاً من التعدد.

لا أستطيع إذن أن أحرم ما أحل الله، ولا أن أنكر ما شرع الله، ولا أسد باباً فتحه الله لعباده، حتى أرضى بعض الناس، فإن رضا الناس غاية لا تدرك.

لقد أثر الغزو الفكرى القادم من الغرب: تأثيراً بالغاً فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فغير مفاهيمها، وقلب موازينها، حتى غدا المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

ومن أبرز المواضع التى ركز عليها الغزو: ما يتعلق بالأسرة المسلمة، وبخاصة ما يتميز به الإسلام عن النصرانية، مثل تعدد الزوجات والطلاق.. فلا غرو

أن يؤثر الغرب بأدواته الثقافية والتعليمية والإعلامية الجبارة فى أبناء أمتنا، وأن تصبح مسلمات بالأمس مرفوضات اليوم.

لقد كان سلف الأمة ينكحون ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، كما شرع الله لهم، إذا اقتضت ذلك حاجتهم وظروفهم، ولا يجدون فى ذلك حرجاً، ولا يلومهم أحد على ما فعلوا إلا إذا جاروا ومالوا كل الميل.

ولكن الغرب الذى أباح الزنى بكل صنوفه وألوانه، وأباح الشذوذ وقننه، فتح النار على الإسلام وأهله، بشأن تعدد الزوجات، وهو فى الواقع يبيح تعدد الخليلات، ويجرم تعدد الحليلات.

قال أحد الخواجات الأوروبيين لأحد المسلمين فى بلاد الخليج: كم زوجة لك؟ قال: اثنتان.. قال: وتكتفى بامرأتين؟ قال: الحمد لله.. غيرى عنده امرأة واحدة.. قال له: أنا فى الخمسين من عمرى، وقد عاشرت أكثر من ثلاثين امرأة!

فهذه هى حياتهم، وهذه سيرتهم، التى تأثر بها من تأثر من بنى جلدتنا.

لقد وجدت الناس فى صباى فى قريتنا يعددون، دون أن تثار ضجة، حتى إن حارتنا الصغيرة، وفيها نحو ست عشرة داراً، خمسة منهم كل له زوجتان، أى نحو ثلث الحارة معددون!

وكان جارنا الملاصق له زوجتان، كأنهما أختان، تراضيتا فلم يعد بينهما أى نوع من الصراع والخصام.

وكان لى قريب - هو ابن عمة أمى - تزوج وبقى خمساً وعشرين سنة لم ينجب من زوجته التى يحبها، وهى تحثه على الزواج من أجل الإنجاب، وهو يرفض، حتى صممت أن تخطب له هى بنفسها، وبالفعل مازالت تحرضه، حتى تزوج امرأة قدر الله أن تنجب له البنين والبنات.

هكذا كان حال مجتمعنا قبل أن تغير مفاهيمه وقيمه الحملات المتتابعة المنظمة من الغرب، ثم من فروخه وتلاميذه، الذين صوبوا نبالهم إلى عقول أبناء الأمة وبناته، بالأفلام والمسلسلات والتمثيليات والمسرحيات، والقصص والروايات، وغيرها من ألوان الدمار والمؤثرات، حتى غدا من تزوج بأخرى، كأنما يرتكب كبيرة أو فضيحة، وحتى إن بعض النساء تؤثر أن يرتكب زوجها الحرام، ولا يتزوج بأخرى فى الحلال.

وفى بعض الأحيان أختلس من وقتى دقائق لأتابع بعض التمثيليات أو المسلسلات العربية، وكثيراً ما أجد سياق القصة يوجب حلاً واحداً على الرجل، «بطل القصة» وهو أن يتزوج بامرأة أخرى، فتنتهى كل مشكلاته، ولكن المؤلف أو المخرج لا يقدم هذا الحل أبداً، لأن التعدد مرفوض من ناحية المبدأ والأساس، ولا يمكن تقديمه باعتباره حلاً، بل هو أبدا مشكلة.

مرة واحدة قدم التليفزيون المصرى مسلسلاً كان غريباً على الساحة الفنية والإعلامية، هو المسلسل المعروف الذى شد انتباه الجماهير فى أنحاء الوطن العربى، وتابعه الناس بلهفة، وهو مسلسل «الحاج متولى» الذى يقوم ببطولته الممثل الشهير نور الشريف، والذى كتبه الأستاذ مصطفى محرم، وهو ما جعلنى أنوه به فى برنامج «الشريعة والحياة» بوصفه عملاً أدبياً وفنياً أصيلاً وشجاعاً، ومتمرداً على الخط التغريبى.

إن الغربيين يهاجمون تعدد الزوجات باعتباره ضرراً بالمرأة، وجوراً على حقوقها، وهم يعنون بذلك: المرأة الأولى المتزوج عليها، وأغفلوا شأن المرأة الثانية المتزوج بها.. فلابد أن هذا الزواج قضى لها وطراً، وحقق لها أملاً، وإلا ما رضيت به، وهى تعلم أن لها شريكة أخرى.. كل ما هو مطلوب أن يعدل الرجل بين الزوجتين، وهو ما يوجبه الإسلام على الرجل، ويحرص عليه أبلغ الحرص.

وقد قالت أسماء هنا: إن للمرأة فى هذا المجال ميزة على الرجل، وهى أن الرجل إذا أحب امرأة متزوجة، لم يستطع أن يتزوجها، لأنها محرمة عليه بالزواج.. أما المرأة إذا أحبت رجلاً متزوجاً، فيمكنها أن تتزوجه، بما أحل الله له من تعدد الزوجات.

التعليم في بلادنا الإسلامية معيب وفيه نواقص كثيرة!!

بعد أن أنهى شيخنا د.يوسف القرضاوى مهمته العلمية فى جامعة الإمام عبد القادر الإسلامية بالجزائر والتى استغرقت سنة كاملة، كان ولابد أن نتوقف قليلا أمام التعليم الجامعى فى بلادنا الاسلامية وإلى أين يسير ومد ملاءمته وقدرته على المواجهة الحالية الفكرية والثقافية التى تتعرض لها الأمة.

وهذه الوقفة أو الاطلالة على تعليمنا الجامعى مع فضيلة الدكتور القرضاوى لها أهميتها فضلا عن الرؤية الفاحصة المميزة لعالم جليل فى قدر القرضاوى فإنه قد عايش عن قرب ثلاث تجارب مهمة فى هذا الصدد.. فقد تخرج فى جامعة الازهر وحصل منها على درجة الدكتوراة، ثم انه قد قام بوضع المناهج الشرعية فى جامعة قطر، وشارك فى التدريس والاشراف على التربية العملية لطلاب وطالبات كلية التربية إلى جانب عمادته لكلية الشريعة.

ثم رئاسته للمجلس العلمى للجامعة الاسلامية بالجزائر.. كل هذا وغيره دفعنى لأسأل فضيلته: من واقع هذه التجربة الثرية والمتعددة فى مواقع مختلفة فى التعليم الجامعى فى بلادنا الاسلامية كيف تنظر إلى هذا النوع من التعليم فى ديارنا؟

فأجاب د.القرضاوى قائلا: قضية التعليم هذه من القضايا الخطيرة والأمم التى تنظر إلى المستقبل تهتم بقضية التعليم اهتماما بالغا، وأظنه لا يخفى ما صنعته أمريكا فى قضية التعليم وقد صدر عنها ذلك الكتاب: «أمة على حافة الخطر» وقالت إن التعليم الآن لا يخرج أناسا مثقفين ولا أناسا مستنيرين، وجاءت بفريق من اليابانيين محاولا أن ينقذ التعليم ويضع الخطط للعلاج، فاذا كان هؤلاء الناس الذين وصلوا إلى ما وصلوا من العلم ينقدون أنفسهم هذا النقد الذاتى، نحن أولى بهذا النقد.

وأنا أرى أن التعليم فى بلادنا الإسلامية بصفة عامة فيه نواقص كثيرة، ومعيب من جهات شتى وخصوصا أن كثيرا من هذا التعليم بدأ على يد الأجانب، اذا نظرنا إلى التعليم فى مصر، نجد أن أول مؤتمر للتعليم كان على يد القسيس «دانلوب» المعروف واضع فلسفة التعليم فى مصر، فمازالت هناك آثار من هذه البدايات الاجنبية.

نحن ينبغى أن ننظر نظرة جديدة للتعليم، لا نريد تعليما يخرج موظفين، وإنما نريد مستبصرين مستنيرين يعرفون دينهم ودنياهم.

وهنا أرى أيضا أنه مما لا ينبغى أن يكون هناك تعليمان، تعليم دينى، وتعليم دنيوى أو مدنى كما يقال، بلادنا بلاد اسلامية.. ينبغى أن يكون التعليم تعليما واحدا ليس عندنا دينى ومدنى وهو تعليم يقوم على الإيمان بالله، وكما قيل التكامل بين العلم والايمان نحن ليس عندنا صراع بين الدين والعلم كما حدث فى أوروبا مثلاً فالدين عندنا علم والعلم عندنا دين، الدين يقوم على احترام العقل: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» وعندنا علماؤنا يقولون: «العقل أساس النقل» و«إيمان المقلد غير مقبول».

والعلم عندنا دين: فطلب العلم فريضة على كل مسلم، العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ونجد فى تاريخنا هؤلاء العلماء الموسوعيين الذين جمعوا بين علوم الدين والدنيا.

يعنى تجد فى ثقافة ابن سينا وابن رشد، والرازى وغيرهم.. ابن رشد مثلا: فيلسوف أعظم شارح لأرسطو انتقل شرحه لفلسفة ارسطو إلى أوروبا، فقد عرفت ارسطو عن طريق شروح ابن رشد صاحب كتاب «فصل المقال فيما

بين الشريعة والحكمة من الاتصال» ومناهج الأدلة وتهافت التهافت وغير ذلك وهو طبيب من أعظم الأطباء، صاحب كتاب الكليات فى الطب الذى ترجم إلى اللاتينية وعرفته أوروبا ورجعت اليه فى عدة قرون، وهو فى الوقت نفسه فقيه مالكى اسمه القاضى ابن رشد، وله كتاب من أعظم الكتب فى الفقه المقارن اسمه: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» والفخر الرازى صاحب التفسير الكبير، وصاحب المحصول فى علم الاصول ومحصل افكار المتقدمين والمتأخرين والمؤلف فى التفسير والأصول والكلام وغير ذلك كان طبيبا وشهيرا، وقال المؤرخون: ان شهرته فى الطب لم تكن تقل عن شهرته فى علوم الدين، وهكذا ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية كان فقيها من فقهاء الشافعية ترجم له التاج السبكى فى كتابه طبقات الشافعية.

فنحن ليس عندنا نزاع بين العلم والدين.. فوجود نوعية من التعليم دينى ومدنى، يخرج نوعين من الناس، كل واحد يعتبر نفسه غير الآخر، هذا لا ينبغى فى أمة، ينبغى أن يكون تعليمنا كله قائما على الأساس الدينى، وهناك التخصصات، هذا هو الذى ينبغى.

التعليم والإيمان

ويستطرد د.القرضاوى: ولابد أن نلتفت إلى نقطة مهمة وهى أنه ينبغى أن يغرس التعليم الايمان لا يغرس الالحاد أو الشك او الاباحية وهذا أمر مطلوب للمسلم وللمسيحى ولكل انسان، وهذا ليس بحصة الدين وحدها، حصة الدين مطلوبة انا أريد أن يكون مدرس العلوم، ان يدرس القوانين على انها سنن الله فى الكائنات، والكون فبدلا من أن اقول: إن الطبيعة زودت السمكة بزعانف او غيرها للدفاع عن نفسها، وزودت الطائر بمنقار وكذا فنقول إن الله خلق الكائن وهيأ له الأدوات التى يدافع بها عن نفسه وهذا مطلوب.

نحن فى حاجة إلى إعادة النظر فى التعليم العام والتعليم الجامعى بصفة خاصة، وخصوصا التعليم الذى ينتسب إلى الاسلام.

لى كتاب اسمه رسالة الازهر بين الأمس واليوم والغد نقدت فيه الأوضاع فى الازهر وما ينبغى أن يقوم عليه الازهر لأننا نشتغل فى أشياء نبذل فيها جهودا كبيرة وكتب تتعب الاذهان وتذهل العقول ولكننا لا نعرف الإسلام الحقيقى من خلال هذه الكتب، لا نعرف العصر الذى نعيشه ايضا، فنحن فى

حاجة إلى كتب تعرض الاسلام من المنابع الصافية، وتعيشنا فى عصرنا أيضا مثلا: هناك فى علم التوحيد نحن ندرسه فى كتب قديمة فى كلية أصول الدين كنا ندرسه فى كتاب «عقائد النسفية» وهو مشروح من عهد التفتازانى، وعلى هذا الشرح أكثر من حاشية، حاشية الخيالى، وحاشية الاسفراييني، وعلى حاشية الخيالى حاشية عبد الحكيم السيلكوتى حواش كثيرة، وندرس قضايا ليست هى المثارة حتى ولو كانت مثارة، لا تثار الآن لا بهذا الاسلوب ولا بهذه الصورة، فنحن فى حاجة إلى دراسة العقائد مستقاة من كتاب الله، مؤيدة بعلوم العصر، هناك علوم تخدم هذه القضايا مثل كتاب العلم يدعو إلى الايمان، وكتاب الله يتجلى فى عصر العلم ومثل ما كتبه د.أحمد زكى: مع الله فى السماء أو عبد الرازق نوفل، والمشير أحمد عزت وهؤلاء وغيرهم.

نحن فى حاجة إلى ان نطور علم الكلام إلى علم جديد يتكلم بلغة العصر، ونطور علم الفقه إلى علم جديد وان ننظر فى اصول الفقه نظرة جديدة، وقد قدمت فى ندوة كلية الشريعة مؤخرا ورقة صغيرة ولكنها مهمة وهى حاجتنا إلى فقه ميسر معاصر، فلابد من هذه الأمور.

تطوير المناهج

اضافة الى هذا نحن فى حاجة الى نظرة جديدة فى المناهج والى كتب جديدة تخدم هذه المناهج وإلى معلم وإلى أستاذ يتمثل هذه المناهج، يتمثل بها وينقلها إلى عقول طلابه ونفوسهم، فالمعلم ايضا مهم جدا، لا يكفى ان تغير المناهج والكتب والمعلم يبقى كما هو، فالمعلم الميت يميت المادة الحية، والمعلم الحى يحيى المادة الميتة، كما قيل ان العدل ليس فى نص القانون ولكن فى ضمير القاضى، لان القاضى العدل يحاول ان يخلق من النص الاعوج ما يقيم العدل على خلاف المنحرف، كذلك المعلم فهو يربى بروحه وأخلاقه، وحرارته وسلوكه، والقدوة الحسنة، وهذا ايضا امر مهم.

الرؤية المستنيرة

قلت: ماذا يمنع من تطبيق هذه الرؤية المستنيرة، خاصة وأن هناك إدراكا لهذه المشكلة، وأصواتا بُحت فى المطالبة بها ومنع الازدواجية؟!

أجاب د.القرضاوى على الفور: يمنع هذا اعتبارات عدة منها بعض العقائد

الجامدة التى لا تتسع لفهم معانى الاصلاح والتجديد.. هذا يحتاج إلى عقول مجددة وعزائم قوية والى إرادة سياسية تقرر هذا.

انما اذا خشيت من هذا أو من بعض الناس.. اخواننا فى الازهر عندما جاءت قوانين التطوير خشوا منها.

وظنوا أن القصد منها هو القضاء على الأزهر القديم وهناك أيضا اعتبارات موجودة.. إذ لا توجد ثقة هل هؤلاء الناس الذين وضعوا هذه القوانين، هل هم مخلصون للإسلام والأزهر أم ليسوا مخلصين، فبدأ الناس خوفا على قديمهم بدأوا يحافظون عليه ويتشبثون به فكانت النتيجة ان جاء الجديد بجدته، وبقى القديم على قدمه ولم نصلح الاوضاع القديمة بما يتلاءم بحيث نصنع شيئا جديدا.

انما ما حدث: بقى الازهر القديم والازهر الجديد أزهر الدراسة وأزهر مدينة نصر.. المشايخ والأفندية ازهران فى أزهر، فهذه هى المشكلة نحن فى حاجة إلى امتزاج القديم بالجديد بحيث لا يبقى قديمه وحده ولا جديده وحده، نرحب بكل جديد صالح، ونتنفع ونستفيد من كل قديم نافع، فنحن لسنا ضد القديم بإطلاقه ولا ضد الجديد بإطلاقه، وانما نمزج بينهما المزج الذى يصلح النظام التعليمى، وتصلح به الأمة وتقوم على أساسه النهضة.

قدر الإمكان

قلت: هل حاولت تطبيق هذه المبادىء فى جامعة قطر؟

قال القرضاوى: فى جامعة قطر حاولت هذا من خلال مسئولياتى عندما كنت رئيسا لقسم الدراسات الاسلامية بكلية التربية لان الجامعة اول ما بدأت قامت على أساس كليتين للتربية، واحدة للبنين واخرى للبنات، وهذه الكلية بها عدة اقسام علمية وأدبية وكلفت بتأسيس ورئاسة قسم الدراسات الاسلامية، فحاولت أن أضع اللبنات الأولى لقيام قسم متوازن متكامل يمتزج فيه القديم بالجديد، والعقل بالنقل وحاولت ان استعين بالاخوة الذين يساعدون فى هذا ولما أنشئت كلية الشريعة عندما تحولت كلية التربية إلى جامعة، بدأت ايضا أحاول فى هذا الخط مع اخوانى الذين عاونونى فى هذا واعتقد أننا سرنا فى الطريق إلى حد ما.

ولكن ينبغى أن نعلم أننا لسنا وحدنا ولا تستطيع بلد مثل قطر أن تنشىء

نظاما تعليميا مستقلا مع ذلك فى الحقيقة فعلت قطر شيئا كثيرا فى هذا ابتداء من التعليم العام، غيرت كثيرا من المناهج والفت كثيرا من الكتب، وراعت كثيرا من الاعتبارات، وحققت كثيرا من الاهداف وشاركت فى هذا عندما كنت مديرا للمعهد الدينى، وشاركت فى تأليف عدد من الكتب وأصلحت كثيرا من النظرات الموروثة على الرغم من ان قطر دولة صغيرة الا انها ساهمت مساهمة طيبة فى هذه الناحية.

والامر انه لا يستطيع بلد صغير مثل قطر ان يؤثر فى ذلك لاننا فى حاجة حقيقية الى توجه عربى كامل وإلى توجه اسلامى من بلاد إسلامية.

وأضرب لك مثالا: هنا فى قطر عقد اجتماع لاتحاد الجامعات العربية منذ بضعة عشر عاما، وكان من التوصيات التى اخذت فى هذا الاجتماع تقرير مادة الثقافة الاسلامية باعتبارها مادة اساسية فى كل الجامعات وكل الكليات النظرية والعلمية وان هذا لازم للطلاب جميعا مسلمين وغير مسلمين، المسلم يتثقف فى دينه، وغير المسلم يجب أن يعرف من الثقافة الاسلامية على اساس ان الثقافة قدر مشترك للجميع وهذا ما قلته حينما زارنا د.لويس عوض منذ عدة سنوات محاضراً فى نادى الجسرة الثقافى وقلت له: المفروض انك يا دكتور لويس اذا لم تكن مسلما بالعقيدة والديانة فأنت مسلم بالحضارة والثقافة لانك تعيش فى قلب الحضارة الاسلامية والثقافة الاسلامية، وقد عبر عن هذا الزعيم مكرم عبيد فقال: انا نصرانى دينا مسلم وطنا، أى انه يعيش فى الوطن الاسلامى أو بالتعبير الفقهى فى دار الإسلام أى فى جو الثقافة الاسلامية.

وهذا القرار الذى اتخذه اتحاد الجامعات انشأ له لجنة وكنت ضمن اعضائها، وكان الامين العام لاتحادالجامعات الإسلامية د.محمد مرسى أحمد الذى كان وزيرا للتعليم العالى فى مصر، واجتمعنا فى مدينة الرياض.

وقررنا قرارات جيدة وتوصيات مهمة ووضعنا الخطوط العريضة لهذه الثقافة الاسلامية وكيف ينبغى ان تكون.. ولكن هذه الاشياء بقيت فى الادراج»!!

فالمهم هو تحويل الافكار إلى واقع وهذا لا يأتى إلا بارادة سياسية، فلو اتجه القادة والمسئولون إلى هذا الأمر واقتنعوا به لحولوه إلى واقع، وهذا ما نفتقده.

العلماء.. وأهل الفن

● كيف تنظر إلى العلماء فى المجتمع الآن وهل أنت راض عن الطريقة التى يعاملون بها فى مقابل فئات أخرى من أهل الفن أو الكرة مثلاً؟!

●● أجاب د. القرضاوى:

هذا بالطبع من اختلال المقاييس فى المجتمع عندما تكون المعايير فى المجتمع معايير منضبطة ومستقيمة يوضع كل إنسان فى موضعه ويذكره الناس وقت ما ينبغى أن يذكر ويفتقدونه حينما ينبغى أن يفتقد.

ولكن عندما تضطرب المقاييس ويقدم من حقه التأخير ويؤخر من حقه التقديم وتضطرب فى عقول الناس الأولويات بحيث يصبح نجوم المجتمع هم المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات وهؤلاء يعتبرونهم الكواكب اللامعة فى سماء المجتمع لأن حديث الناس عنهم وحديث أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون يجعلهم حاضرين دائما، وهذا لا ينطبق على العلماء ولا على الأدباء ولا على المفكرين، ولا على أساتذة العلوم الكونية والطبيعية والرياضية أنفسهم، أيضا هناك خلل عام فى هذه القضايا، فلا عجب أنه قد يعيش بين الناس العالم والأديب والمفكر والداعية والبحاثة ولكن الناس لا يشعرون به أو لا يعطونه قدره الذى يجب أن يعطى، وإنما يحسون به بعد موته، عادة فى بلادنا يذكر كثير من الناس بعد موتهم، وأقول لك حتى بعد

موتهم أحيانا لا يذكرون كما ينبغى أن يذكر، لكن عندما يموت الفنان أو المطرب أو الممثل أو المطربة أو الممثلة تهتز الدنيا وتتزلزل أركان المجتمع، ويموت العالم الكبير فلا يكاد يحس به احد، انظر مثلا وفاة رجل مثل الشيخ محمد أبوزهرة، والشيخ على الخفيف والشيخ فرج السنهورى والعلماء الكبار هؤلاء ماتوا ولم يحس بهم الناس فهذا مرجعه إلى هذا الخلل الذى ذكرت.

● هل عملية التغييب هذه مقصودة؟ أى أريد لهم أن يغيبوا عن المجتمع؟ أم أن العلماء آثروا الانزواء فى فترة ما؟

●● د. القرضاوى: هناك فى الحقيقة رغبة من السلطات المتنفذة والمتمكنة فى كثير من البلاد.. لا أعمم لأن التعميم غالباً يكون خطأ، لكن يمكن أن نقول نجد فى الأكثر أن السلطة تريد أن تغيب العلماء الوعاة القادرين على إيقاظ الناس وحسن تفقيههم وتبصيرهم بما يجب عليهم فى دينهم ودنياهم لأن هذه اليقظة وهذا الوعى يعتبره هؤلاء خطرا عليهم، ولذلك نجد أنهم يقربون بعض الضعفاء ممن ينتسبون إلى العلم وإلى الدين، ويفتحون لهم الأبواب ويسهلون لهم البروز والظهور ولا يفعلون ذلك مع العلماء الأقوياء وكانت النتيجة أن يخسر الناس بغيبة هؤلاء عن الساحة خصوصا إذا لم يتح لهم فإذا لم يتح للعالم منبرا مثلا يتكلم من خلاله فى مسجد ولا حديث يلقى من إذاعة أو يذاع من تلفاز ولا مقالة تنشر فى صحيفة سيارة فكيف يحضر هذا العالم، أو كيف يتمثل حضوره فى المجتمع، ليس هناك وسيلة لحضوره لأن الوسائل هذه تملكها السلطة والسلطة لا تمكن هذا النوع من الناس أن يظهر على المسرح كما يقولون.

● ولهذا تخلفنا وانطلق غيرنا؟!

●● قال القرضاوى: هذا هو الوضع الذى نعيش فيه اليوم وضع التخلف والتأخر بالنسبة لما يعيش فيه غيرنا.. نحن نستهلك ولا نكاد ننتج، ونستورد ولا نكاد ننشىء حتى الزراعة معظم بلاد العرب والمسلمين بلاد زراعية، ومع هذا نعتمد فى أقواتنا اليومية والاساسية على غيرنا.. نستورد أكثر من ٥٠٪ من أقواتنا سواء كانت أرزا أو قمحا أو غيرهما.. بلاد زراعية ولا تنتج ما يكفى لرغيفها وخبزها وقوتها اليومى.

نحن فى الميدان الصناعى متخلفون نستورد كما يقول القائلون من الإبرة

إلى الصاروخ أى فى الميدان المدنى والعسكرى نستورد ولا نكاد نصنع إلا أشياء قليلة صناعات يسيرة أو صناعات تجميعية أما الصناعات الثقيلة والأساسية لا نحسن فيها شيئا، وكما أقول دائماً أمة سورة الحديد لم نتعلم صناعة الحديد.. أنزل الله فى كتابه سورة سماها سورة الحديد وفيها الآية الكريمة التى تقول: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس».. هذه الآية الكريمة آن الأوان أن يكون لها أهميتها وقيمتها فقد ربطت بين الكتاب «النص الإلهى» والميزان «العدل» والحديد «القوة» التى تحفظ الحق وتحفظ الكتاب، فلابد للناس من كتاب هاد وحديد ناصر كما يقول شيخ الإسلام بن تيمية، وكفى بربك هاديا ونصيرا.

فى قوله تعالى: «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» إشارة لنا إلى ما ينشأ عن الحديد من صناعات حربية عسكرية وقوله «منافع للناس» إشارة إلى ما ينشأ عن الحديد من صناعات مدنية تسير بها الحياة ويمضى بها دولاب الحياة للأسف لم نتقن الصناعات المدنية ولا العسكرية سلاحنا الأساسى الذى ندافع به عن أنفسنا ونذود به عن حمانا نستورده من الخارج لو أراد الذين يصنعون السلاح أن يعطونا أعطونا، وإذا أرادوا أن يكفوا أيدينا عنه فعلوا ولا يعطونا من السلاح إلا ما أرادوا وبالقدر الذى يريدونه من أجل هذا نقول إننا فى دائرة التأخر.. وهذه حقيقة ينبغى أن نعترف بها.. عندنا ومضات ولمحات ومحاولات ولكنها للأسف لم تؤت أكلها.. لم تحقق أهدافها منذ بداية النهضة.. بدأت النهضة فى تركيا فى عهد الإصلاحات والتجديدات ولكن لم تؤد النتيجة المطلوبة.. ثم بدأت فى مصر فى عهد محمد على مع اليابان أو قبيل اليابان بقليل، وانظروا أين اليابان الآن وأين مصر، وأين العالم العربى والإسلامى كله؟!

● هل حالة التأخر هذه لشىء ذاتى فنياً؟

●● أجاب القرضاوى: ليس هذا صحيحا، ليس لشىء ذاتى فينا.

هل نحن أغبياء؟ هل هذه الأمة لا تلد العباقرة والنوابغ؟! هل عقمت أرحام الأمهات فلم تعد تنتج هذه العقول المبتكرة؟

لا.. هذه الأمة ولود وقادرة على الإنجاب والإنتاج بدليل هذه العقول

المهاجرة التى نراها تحتل أماكنها فى بلاد الغرب فى أوروبا وأمريكا واستراليا وغيرها.. هناك عقول كبيرة أخذت مكانها فى تلك البلاد كنت فى أمريكا وفى مدينة شيكاغو ووجدت أعلى عمارة فى المدينة وكانت أعلى عمارة فى العالم فى ذلك اليوم وقالوا لى إن الذى صمم هذه العمارة مهندس باكستانى ونعرف الدكتور فاروق الباز وجهوده فى عملية الأقمار الصناعية وغير ذلك وعشرات الآلاف من العقول موجودة فى العالم الغربى.

● نحن إذن ننعم بالعباقرة والنوابغ والمبتكرين.. هل السبب هو الدين الإسلامى؟!

●● ربما خيل لبعض الناس حين وجدوا التقدم كله غربيا أو أوروبيا أو مسيحيا أو يهوديا أو بوذيا والتخلف إسلاميا وكاد التخلف يلصق بالمسلمين فتوهم بعض الناس أن الإسلام هو السبب فى ذلك.

فى الواقع أن الإسلام مفترى عليه.. بالعكس.. الإسلام.. هو الدين الذى حرر العقل، وصنع العقلية العلمية.. من قرأ القرآن وتدبره وجده منشىء العقلية العلمية.

هناك عقلية نسميها العقلية العامية.. العقلية الخرافية.. العقلية التى تصدق كل شىء وتقبل أى أمر يعرض عليها.

أما العقلية العلمية التى ترفض الظن فى موضع اليقين «إن يتبعون إلا الظن، إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً» «وما يتبع أكثرهم إلا ظنا.. إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً» ترفض الأهواء والعواطف أى عقلية حيادية موضوعية، ولذلك ذم القرآن قوما فى قوله تعالى: «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس» «ومن أضل ممن يتبع هواه بغير هدى من الله» «ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله».

أبعد العواطف والأهواء جانبا، كن رجلا موضوعيا، من أصحاب العقلية التى ترفض الجمود والتقليد، احذروا التقليد من الآباء للأجداد «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون» أو تقليد الشعوب للسادة والكبراء.. «إنا وجدنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل» أو التقليد للجمهور أنا مع الناس إن احسنوا أحسنت وإن أساءوا أساءت كما سماهم الحديث الشريف «الإمعة».

الإسـلام يرفض هـذا.. يرفض التقليد والجـمود.. «وإذا قيل لهم اتبـعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون».

الإسـلام يدعو للعقلية التى تتعبد لله بالتفكر والنظر فى الآفاق وفى الأنفس».. «وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون» «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» «أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء» هذه العقلية التى تتعبد لله بالتفكير.. وكما قال الأستاذ العقاد فى كتاب سماه «التفكير فريضة إسلامية» وهذا كلام صحيح.. لأن الله تعالى كما أمر بالعبادة، أمر بالتفكير.

الشيخ القرضاوى
زعيما للطلبة فى الأزهر

نستكمل الحوار حول المشوار التعليمى للشيخ يوسف القرضاوى لنتعرف على مرحلة حياته فى الجامعة طالبا، ولماذا اختار كلية أصول الدين بجامعة الأزهر على وجه التحديد دون غيرها من كليات الازهر وكيف كانت علاقته بأساتذته فى تلك الفترة.

يقول الشيخ القرضاوى:

كنت أحب كلية اصول الدين جدا منذ صغرى وأذكر وانا طالب فى المرحلة الابتدائية كتبت على كتاب «القدورى» فى الفقه الحنفى، الطالب: يوسف عبدالله القرضاوى بالسنة النهائية بكلية اصول الدين تفاؤلا وكنت راغبا فيها بالفعل، ودخلتها وتخرجت فيها والحمد لله وكان ترتيبى الأول.. وكانت هناك قصة فى امتحان الشهادة العالية فنحن نمتحن ثلاثة امتحانات «تحريرى وشفهى وامتحان تعيين».

الشفهى كان فى اللغة الانجليزية وبعض العلوم الشرعية والقرآن الكريم.

وامتحان التعيين فى التفسير والعقيدة - ومعنى التعيين انه يعين لك موضوعا معينا تقرؤه فيما شئت من الكتب وتسأل من شئت من العلماء وبعد

ذلك تستعد لما شاءوا من الاسئلة نحوية وصرفية وبلاغية ومنطقية وعقلية واسئلة فى الموضوع وخارج الموضوع.

حدث أن كان هناك عشر لجان فى امتحان الشفهوى وكانت فيها لجنة واحدة كنت أخافها وكان رئيسها متهم لدى الطلاب بأنه متحيز لطالب معين يريد أن يجعله هو الأول وأنا حريص على أن أكون الأول. ولكنى قلت ليس من المعقول ان يوجد تسع لجان اخرى غير لجنته ويأتى نصيبى فيها ولكن فى الواقع جاء نصيبى على اللجنة التى أخافها وظللت محتارا وسألت بعض المشايخ الذين أحبهم ويحبوننى منهم الشيخ أحمد صقر وهو قريب لنا ومن بلدنا، فقلت له اننى فى اللجنة الفلانية وأنا متخوف منها.

قال لى: اختر لجنة اخرى مثلما فعل الشيخ الحسينى هاشم زميلك عندما دخل اللجنة ورأى الشيخ احمد على مكشر الوجه فقال له: لماذا تكشر فى وجهى؟.. والله ما أنا بممتحن عليكم! وقام من اللجنة ولم يحدث له شىء.

وسألت أيضا بعض المشايخ فقالوا: من حقك أن ترفض اللجنة التى تتخوف منها وفعلا ذهبت لعميد الكلية وطلبت لجنة اخرى.

فقال لى فى أول الأمر لا .. لسنا على حسب أهواء الطلبة!!

فقلت له: أنا لا أطلب لجنة بعينها.

ولكنى أقول: لا أريد اللجنة الفلانية، وانقلنى إلى أى من اللجان التسع الأخرى، أو اختر لجنة وأنت رئيسها وامتحنونى!!

ووافق العميد فعلا وذهبت الى اللجنة وكنت موفقا والحمد لله غاية التوفيق وكان ترتيبى الأول فى شهادة العالية فى كلية أصول الدين.. كما كان ترتيبى الاول ايضا فى شهادة إجازة التدريس.

ويوضح الشيخ القرضاوى أن الازهر كان له إجازات ثلاث: إجازة القضاء الشرعى لطلبة كلية الشريعة وإجازة الدعوة والارشاد لطلبة اصول الدين وإجازة التدريس للكليات الثلاث من شاء أن يتخصص فى التربية والتدريس يدرس فيها علوم النفس والتربية وفعلا دخلت تخصص التدريس هذا وكان ترتيبى الاول وانتهت مرحلة الطلب الأولى للعلم.

فى الدراسات العليا

وبدأنا مرحلة جديدة من طلب العلم وهى مرحلة الدراسات العليا يسمونها فى الازهر تخصص المادة وهذا التخصص عبارة عن ثلاث سنوات دراسة منهجية وبعد ذلك تكون هناك رسالة يسمونها رسالة الاستاذية والحمد لله دخلت شعبة علوم القرآن والسنة وكنت مترددا بين شعبتين فى ذلك الوقت من شعب كلية اصول الدين للدراسات العليا شعبة العقيدة والفلسفة وشعبة القرآن والسنة ولم يحسم لدى الأمر الا استشارة شيخنا الدكتور محمد يوسف موسى وكان من علماء الازهر الكبار، وكان استاذاً للفلسفة وعلم الاخلاق ثم استاذا للشريعة فى جامعة عين شمس وغيرها، فذهبت اليه واستشرته وقلت إنى فى حيرة وأستطيع أن أدخل شعبة العقيدة والفلسفة ومجموعى فيها عالٍ جدا، واستطيع أن أدخل شعبة علوم القرآن والسنة فماذا تشير علىّ؟!!

قال لى: لقد درست من الفلسفة ومن علم الكلام والمنطق والاخلاق ما يكفيك ومايفتح الطريق لك لتستزيد بنفسك ولكن الغاية هى علوم القرآن والسنة وقال لى: تعرف أنى كنت استاذا للفلسفة وعشت معظم حياتى لهذا الأمر ثم انتهيت الآن إلى القرآن والسنة إلى الشريعة إلى الفقه فهذه هى الغاية واليها المنتهى، نحن فى حاجة إلى علماء واكفاء فى هذه الناحية وأنت مؤهل لهذا فتوكل على الله. وفعلا أراح نفسى، وشفى صدرى، ودخلت مطمئنا إلى شعبة علوم القرآن والسنة وانتهيت منها عام ١٩٦٠.

فى مظاهرات الطلبة

●قلت: كان لفضيلتكم أثناء فترة الدراسة بالجامعة نشاط طلابى واضح ومشاركة فى المظاهرات وأحيانا الدعوة للإضراب.

●● فقال الشيخ القرضاوى وابتسامة عريضة تكسو وجهه: حقيقة كنت أحضر وأنا طالب فى القسم الابتدائى مع طلاب القسم الثانوى ممثلا لزملائى فى المؤتمرات واللقاءات التى كانت تعقد للمناداة بمطالب الأزهريين ومساواتهم بغيرهم من خريجى الجامعات المصرية حينئذٍ.

وفى المرحلة الثانوية شاركت فى عدة مؤتمرات عقدناها فى طنطا وفى غيرها من عواصم المديريات «المحافظات» حضرها ممثلون عن المعاهد الدينية فى انحاء المملكة المصرية «لم تكن الجمهورية قد نشأت بعد» حددنا فيها المجموعة من المطالب ونقلناها إلى المسئولين بالازهر وبالحكومة. اذكر منها:

١- إدخال اللغة الانجليزية إلى معاهد الازهر.

٢- فتح باب الكلية العسكرية والمدنية أمام حملة الثانوية الازهرية.

٣- فتح معاهد دينية للبنات فهن نصف المجتمع. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

٤- إتاحة الفرصة للمتفوقين باعادة فتح باب الدراسات العليا، وتعيين معيدين بكليات الازهر.

٥- إعادة النظر فى المناهج والكتب الدراسية.

ولم نكن نكتفى بعقد المؤتمرات ورفع المطالب والتوصيات بل كنا احيانا نقيم المظاهرات أو ندعو إلى الاضراب. وكثيرا ما جعلنا هذا نصطدم بالشرطة. ونبيت فى «الأقسام» ونتعرض للإيذاء من أجل الأزهر.

وفى المرحلة الجامعية تبلورت المطالب وتحددت أكثر من قبل. وقد التقينا مع عدد من المسئولين فى الازهر للحوار حول هذه القضايا: فكان منهم المتجاوب إلى اقصى حد، كالمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين. ومنهم من لم يعر هذه التطلعات بالا، واعتبرها امانى بعيدة المنال.

ومازلت اذكر آخر مؤتمر عقدناه -وانا طالب فى تخصص التدريس سنة ١٩٥٣- فى ساحة كلية الشريعة بالدراسة.. حضره ابناء الكليات الثلاث، ومعهد القاهرة ومعهد البعوث، وتحدثت فيه طويلا عن مطالبنا وتطلعاتنا الدينية والعلمية والادبية والاجتماعية.

واذكر أننى ابتدأت هذا المؤتمر الحاشد بقصيدة مازال اخوانى الأزهريون يحفظون بعضها ويذكروننى بها اذا لقونى. ولم أعد احفظ منها الا ابياتا قليلة، فقد ضاعت فيما ضاع فى أتون المحن المتتابعة التى ابتليت بها مصر، ودعاة الإسلام فيها.

من هذه الآبيات:

صـــبرنا إلـــى أن مـــل مـــن صـــبرنا الصـــبر
وقلـــنا: غـــدا أو بعـــده ينجـــلى الأمـــر
فكـــان غـــد عـــاما ولومـــد حبـــله
فقـد ينطـــوى فى جـــوف هـــذا الغـــد الدهـــر
وقلنـــا: عســـى أن يـــدرك الحـــق أهـــله
فصاحت «عســـى» من «لا» و«لا» طعمـــها مـــر
وماذا علينا بعد أن فار مرجل من الغيظ والألم يغلى به الصدر؟!
ســـددنا بطول الصـــبر منـــا صـــمامه
فـــزادت عليـــه النـــار، فانفجـــر القـــدر

وفى هذه الفترة ١٩٥٣/١٩٥٢ بعد أن أوقفت معارك القناة، التى شارك فيها الازهر بكتيبته التى ذهبت إلى الشرقية واحتفل بها فى قاعة الشيخ محمد عبده بالدراسة فى يوم من أيام الازهر الخالدة- عدنا إلى القاهرة لنوجه عناية اكبر إلى اصلاح الازهر من داخله، وبعث الحيوية فى كلياته ومعاهده ليتبوأ مكانه فى قيادة الأمة تحت لواء الاسلام كما كان من قبل.

وبعد تفكير وبحث وحوار، قررنا ان ننشىء لجنة سميناها «لجنة البعث الازهرى» وهى تتألف من مجموعة من شباب الازهر آمنوا بربهم ورسالتهم وآلوا على أنفسهم أن يرفعوا صرح الازهر عاليا أويموتوا تحت أنقاضه.

وكان من أهداف هذه اللجنة:

- المساهمة فى ايقاظ الوعى الاسلامى وتكوين جيل جديد يفقه الاسلام ويعمل به ويجاهد فى سبيله. ويجمع أبناء الازهر من خريجيه وطلابه حول هذا الهدف الرفيع. واصلاح اوضاع الازهر ومناهجه اصلاحا شاملا يمكنه من حمل رسالة القرآن إلى العالم الاسلامى والعالم الانسانى وتأمين مستقبل الثقافة الاسلامية المهددة وايجاد الينابيع الدائمة التى تصب فى الازهر وذلك بتقرير حفظ اجزاء من القرآن فى مدارس الدولة وتكثير جمعيات التحفيظ وضمها إلى الازهر.

واتبعت اللجنة فى مهمتها عدة وسائل لتنبيه الرأى العام، داخل الازهر وخارجه إلى رسالة الاسلام وقضية الأزهر وذلك عن طريق القاء المحاضرات وتنظيم الندوات وطبع الرسائل والنشرات واعداد المراجع والتشجيع على البحث للناضجين من شباب الازهر ليتخصصوا فى شعب الثقافة الاسلامية المختلفة والعمل على اصدار مجلة دورية تنطق باسم شباب الازهر والعمل على أن يكون قادة الازهر وموجهوه من الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله.

وقد كلفنى الاخوة الزملاء مؤسسو اللجنة احمد العسال وعلى عبدالحليم ومحمد الراوى وحسن الشافعى وعبدالعزيز خالد ومحمد مراد وغيرهم، أن ابدأ بكتابة الرسالة الأولى من رسائلها، المعروفة بها، والمعبرة عن مهمتها.

ولم تكن امامى الا الاستجابة لهذه الرغبة وكتبت رسالة بعنوان «رسالتكم يا أبناء الازهر» ومازلت اذكر أنى عرضتها على الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى ليقرأها ويبدى ملاحظاته عليها، فأجاب ذلك مشكورا وقرأها. وقال عنها، انها من امتع ما قرأت، فكرة وعاطفة وأسلوبا. وعرضتها كذلك على الداعية المفكر الأستاذ د. عبدالعزيز كامل رحمه الله فسر بها كثيرا ولكنه نصحنى بأن أخرج أحاديثها، حتى تأخذ الصيغة العلمية.

وتمت الرسالة وذهبت بها إلى المطبعة، وذلك فى اواخر سنة ١٩٥٣ ولكن أحداثا قاهرة حدثت فى أوائل سنة ١٩٥٤، انتهت بنا إلى معتقل العامرية ثم إلى السجن الحربى، فتوقف عمل اللجنة كما توقف طبع الرسالة واستردتها بعد ذلك من المطبعة. وظلت مطمورة ضمن أوراقى التى سلمت من الضياع فى المحن المتتابعة التى لحقت بدعاة الاسلام فى مصر.

وحين بعث إلى الاخ الاستاذ الحسينى هاشم الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية والاخ الدكتور عبدالودود شلبى، المشرف على العدد التذكارى لمجلة الازهر بمناسبة عيده الألف، بطلب كتابة مقالة عن الأزهر فى هذا العدد رجعت الى أضابيرى. لأجد الرسالة القديمة مكتوبة بخط الأخ الكريم الشاعر الأديب الأستاذ محمد حواطر، الذى طالما سجل بقلمه احاديثى وخطبى بمدينة المحلة الكبرى.

ولقد وجدت أن فى الرسالة افكارا ومعانى يجب أن تنشر من جديد، وان

كانت تحمل حرارة الشباب وحماسه المتوقد. كما رأيت أن اعمل فيها يد التهذيب والاضافة والحذف والتعديل، وان بقيت فى جوهرها كما كانت قديما.

البحث عن وظيفة

● أشرت فضيلتكم فى بداية حوارنا إلى أن شبح البطالة بين خريجى الأزهر كاد ان يحول بينك وبين الالتحاق بالازهر- كما كان يفكر عمك- فهل واجهت هذه المشكلة عقب التخرج فى الجامعة؟ وهل بحثت عن وظيفة فى الإعلانات المبوبة لطالبى الوظائف؟ ام ماذا حدث؟!

●● قال الشيخ القرضاوى:

بعد ان تخرجت شاء الله أن أعين مدرسا فى معاهد الأزهر بعد أن حصلت على اجازة التدريس من كلية اللغة العربية وكان ترتيبى الاول. واحمد الله ان كان ترتيبى الاول. فى الشهادة العالية من كلية اصول الدين وكان عدد الطلاب ١٨٠ طالبا وان اكون الاول على طلاب تخصص التدريس من ابناء الكليات الثلاث وعددهم ٥٠٠ طالب. لذلك عندما قدمت للتعيين كنت أول المعينين فعينت فى معهد بنها الدينى فى ذلك الوقت ١٩٥٤، بعد ذلك تطورت الامور وكان موجودا أمام اسمى أنه اذا جاء يتسلم عمله يسلم لرجال المباحث. لذلك لم اتسلم عملى فى معهد بنها وبقيت فترة مختفيا انتقل من بيت إلى بيت.

وبعد اعتقال عدد من الاخوان تركت القاهرة وذهبت إلى طنطا عند خالتى وبقيت عندها داخل البيت ولا اخرج ولكن الاهل والاقارب فى قريتنا وهى قريبة من طنطا حوالى ٢٠ كيلو مترا، عرفوا بوجودى فبدأوا يأتون لزيارتى، بعض الناس المتابعين من رجال الأمن احسوا بهذه الحركة فأبلغوا السلطات وجاءوا فى ليلة من الليالى وقبضوا على. فاعتقلت واخرنى هذا الاعتقال سنتين حيث خرجنا من المعتقل فى يونيو ١٩٥٦.

أيضا قدمت إلى الوظيفة لأعمل مدرسا فى الازهر، وكان اسمى أيضا أول قائمة المعينين ثم عرضت الأسماء على المباحث العامة فى ذلك الوقت فرفضوا تعيينى وأرسلوا للازهر يجب أن ترسلوا الاسماء الينا أولا قبل اعلانها حتى يؤخذ رأينا فيها.

طبعا رفضت.. وكان المقصود ألا أتولى عملاً يتصل بالجماهير، لا تعليمى ولا خطابى أو أى عمل دعوى أى لا يعين واعظا ولا اماما وخطيبا ولا مدرسا فأغلقت هذه امامى. فأصبحت أبحث عن عمل خاص ما هو العمل الخاص المناسب لى؟! ليس إلا المدارس الخاصة وأصبحت أتتبع اعلانات المدارس الخاصة فى الصحف والذين يبحثون عن وظائف مدرسين للغة العربية. واذهب إلى المدارس فيقولون: إنك خريج كلية اصول الدين ونحن فى حاجة إلى مدرسى لغة عربية من خريجى كلية اللغة العربية أو كلية دار العلوم.

ومما أذكره فى تلك الفترة ان نصحنى البعض بارتداء البدلة وقالوا أن ذلك سيكون أفضل! فقلت فى نفسى لا مانع وعندما ارتديت البدلة قال لى اخونا د. احمد العسال: انت الآن تحقق كلام كارل ماركس فى أن الاقتصاد هو الذى يفرض السلوك على الناس!! قالها الشيخ القرضاوى وهو يضحك من قلبه واخذت أحدث نفسى واتذكر ما كنت أقوله من أن أبأس الناس هم الموظفون وأبأس الموظفين المدرسون وأبأس المدرسين مدرسو اللغة العربية والدين وأبأس هؤلاء خريجو الشريعة وأصول الدين!! فانطبق على هذا الأمر.

اخذت أقول: يارب.. يوسف القرضاوى الذى كان أول دفعته ويعد نفسه ليكون شيئا مذكورا أصبح يرفض فى المدارس الخاصة!! فذهبت إلى مدارس تسمى «مدارس الشرق الخاصة» وهذه تتبع الاستاذ ياسين سراج الدين فهو الذى أنشأها وهى فى الزمالك ولها فرع آخر فى جاردن سيتى أو فى المنيرة. وذهبت إليها فى الزمالك وقلت أجرب. وكان مديرها رجلا تربويا قديما اسمه الاستاذ عبدالحليم بشير فقدمت اليه أوراقى ووجد فيها أننى الأول على طلبة أصول الدين، والأول على طلبة تخصص التدريس فقال الرجل: صحيح يا استاذ نحن محتاجون إلى مدرس لغة عربية ولكن مثلك فى تفوقه وتميزه قادر على أن يدرس اللغة العربية فقلت له أنا أديب وشاعر. ولم أدخل اللغة العربية لأنى اعتقدت انى درست فى معاهد الازهر من اللغة العربية من نحو وصرف ما يكفينى لذلك لم ادخل كلية اللغة العربية ولا دار العلوم قال لى: ومن أجل هذا سأقبلك. وقبلنى مدرسا.

وبقيت أذهب إلى المدرسة حقيقة على مضض لأنى ما أعددت نفسى لهذا

الأمر وكنت أسكن فى شبـرا وأنتقل يوميا إلى الزمالك فبقيت فترة لم تطل، لأن المدارس تبدأ فى اوائل سبتمبر.

برقية عاجلة بعد العدوان الثلاثى

وبعد ذلك فى اكتوبر حدث العدوان الثلاثى ولما حدث عطلت المدارس فقلت ما بقائى فى القاهرة؟!! فذهبت إلى «صفط تراب» بقيت فترة هناك، فإذا ببرقية تصلنى من وزارة الاوقاف من أستاذى البهى الخولى: نريدك الحضور إلى القاهرة لتتولى منبر الازهر وكذا.. وأنا لم أستجب لهذا ما شأنى بذلك. فبعثوا إلى بأحد الاصدقاء الأخ اسماعيل حمد جاءنى فى القرية وقال لى الجماعة يريدونك أن تأتى لأمر ضرورى الآن اخذوا الشيخ محمد الغزالى إلى الازهر لأنهم لا يستطيعون أن يتركوا منبر الازهر فارغا. ومكان الشيخ الغزالى فى جامع الزمالك فارغ ويريدونك ان تكون به فى هذه الفترة لتقوية الروح المعنوية وتحميس الناس فى مواجهة العدوان الثلاثى والوزير الشيخ احمد حسن الباقورى والشيخ البهى الخولى والشيخ سيد سابق، كلهم يلحون عليك فى هذا الامر.

فذهبت إلى القاهرة وتوليت منبر الزمالك بمكافأة ١٢ جنيها وكان الناس يفدون إلى هذا المسجد وتذاع منه ما بين الحين والحين الصلاة بالاذاعة واعقد ندوة بعد صلاة الجمعة للرد على اسئلة المصلين واصبح الناس يتوافدون من ضواحى القاهرة للصلاة بالمسجد وكان الناس يظنون انى شيخ الاسلام وانا اخطب بمكافأة ١٢ جنيها.

ثم شاء القدر أن ينتهى العدوان ويخرج الانجليز والفرنسيون والاسرائيليون وتهدأ الأمور فإذا بهم يجدون ان الناس تتوافد اكثر على المسجد ورجال المباحث يتتبعون الناس حتى مر واحد منهم وقال لى: من هذا الشخص الذى يصلى عندك ويسلم عليك؟

قلت له يا أخى: هذا الشخص عضو مجلس الشعب لدائرة صفط تراب المهندس سعد الدين خضر» وناديته هذا هو!!.

فاعتذر وقال أنا اسف: فهم - يقصد رجال المباحث- «قرفوا الناس» يتتبعونهم فى كل مكان، وفى النهاية منعونى من الخطابة بعد اكثر من سنة

فأرسل الناس برقيات إلى وزير الداخلية نرجو اعادة هذا الخطيب الذى يفد اليه الآلاف من نواحى القاهرة وضواحيها فقلت لهم: هذه البرقيات تضر ولا تنفع وهذا يخيفهم أكثر.

مسابقة الوعظ

يواصل الشيخ القرضاوى مشوار البحث عن وظيفة.. ويقول:

بعد ذلك عقدت مسابقة للوعاظ والأئمة والخطباء ودخلت فيها أنا وعدد من زملائنا والاخوان الذين خرجوا من المعتقلات والحمد لله كنت فى طليعة الذين نجحوا فى هذه المسابقة وعينا نحن عشرة من الاخوان واعترض رجال المباحث فتدخل الشيخ الباقورى وتعهد لهم انهم لن يعملوا فى مجال الخطابة أو الوعظ، ولكن يعملون فى أمور ادارية ولذلك عينا نحن العشرة فى قسم «النظار» بالأوقاف وكان قسما على السطح وحضرنا انا وزميلى الأخ احمد العسال وبعض الاخوة: عبدالرؤوف عامر وعبدالتواب هيكل -الموجود حاليا بالدوحة- وغيرهم. نحن عينا يوما واحدا ثم انتدبنى الاستاذ بهى الخولى المراقب العام للشئون الدينية ومعى الاستاذ احمدالعسال للمراقبة وعملت مشرفا على معهد الأئمة وكان خاصا بتثقيف الائمة وتنويرهم وانتدب العسال للاشراف على مكتبة الوزارة، المهم ابعدنا عن القسم الادارى والارشيف الذى لا نفهم فيه شيئا. وبعد ذلك تولى الشيخ محمود شلتوت مشيخة الازهر وهو شيخنا ونعرفه منذ كنا طلبة وبيننا وبينه مودة وصلة عميقة فقال لنا يجب أن تنقلوا إلى الازهر، وفعلا كنا أربعة منهم أنا والاخ احمدالعسال وإمامان آخران طلب نقلنا إلى الازهر. وانتقلنا إلى الادارة العامة للثقافة الاسلامية فى الازهر ومديرها فى ذلك الوقت هو استاذنا د. محمد البهى وعملنا معه واستقر بنا المقام فى وزارة الاوقاف واصبحت موظفا وراتبى ١٩ جنيها.

***

أعجبتنى النظرة التجديدية المتوازنة فى المدرسة السلفية

يواصل الداعية الإسلامى الكبير الشيخ يوسف القرضاوى مشوار ذكرياته ويروى كيف تم وضع اللبنات الأولى فى البناء الثقافى والعلمى وهو لايزال صبيا صغيرا لم يتجاوز بعد الثانية عشرة وكيف كانت الانطلاقة الأولى مع أحد عمالقة الفكر الاسلامى وهو حجة الاسلام أبوحامد الغزالى وكتابه

الشهير «احياء علوم الدين».. إلى جانب المؤثرات الروحية الأخرى والتى ساهمت فى ارساء قواعد علمية للجانب الروحى ترتكز على فهم صحيح لأصول الدين ووعى كامل بإشراقات العقيدة السمحة.

يقول الشيخ القرضاوى:

كنت أقضى فصل الصيف فى قريتنا ولم أكن أجد لنفسى شيئا، أصبحت أقرأ فى كتب الأدب ما تيسر منها وفى كتب التصوف قبل ذلك فى فترة الصبا كنت أقرأ ما هو ميسور لعوام الناس فى البلدة، سيرة بنى هلال، أبوزيد الهلالى، والزير سالم والمهلهل بن ربيعة وسيف بن ذى يزن وعنترة بن شداد وهذه القصص التى هى ملاحم شعبية كان الناس يستمتعون لقراءاتها وأحيانا كان الشاعر يأتى بالربابة ويحكى القصة والناس تستمع إليه.

بعد أن دخلت المعهد أصبحت اقرأ كتب الأدب والتصوف وقد هيأ الله إلى أن قرأت كتابين للغزالى وأنا فى السنة الأولى الابتدائية كتاب: احياء علوم الدين ومنهاج العابدين.

وهنا يتوقف شيخنا قليلا مشيرا إلى نقطة مهمة حيث شهدت تلك المرحلة ومع بداية قراءاته هذه أولى خطواته فى التعرف على التصوف ويستطرد موضحا: لقد تعرفت بذلك على التصوف مبكرا عن طريق كتبه وعن طريق أحد اعلامه وهو الإمام أبوحامد الغزالى الذى أعتبره شيخى الأول رضى الله عنه.

فقد شاء القدر - كما أشرت من قبل - أن يهيىء لى كتابين للامام الغزالى أحدهما وجدته بين كتب زوج خالتى الشيخ طنطاوى مراد رحمه الله وكان رجلا صالحا حافظا لكتاب الله يعيش فى خدمة بيت الله قلما يخالط الناس هذا الكتاب هو «منهاج العابدين» الذى صنفه الغزالى قبل وفاته بقليل وقد وجدت متعة كبيرة فى قراءة هذا الكتاب واستعنت به فى دروسى ووعظى فى تلك المرحلة وان كان لى عليه مآخذ وملاحظات خصوصا فى باب التوكل والزهد وما فيه من توجهات حكايات تتسم بالمبالغة والافراط.

والكتاب الثانى: «احياء علوم الدين» فقد كان يشتريه جار لنا هو الشيخ بيومى العزونى رحمه الله وكان من نبهاء أهل القرية الذين كان لهم من الاطلاع على بعض كتب الشافعية فى العبادات خصوصا فى الطهارة والصلاة

ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء وكان تلميذا لأحد مشايخ الطرق فى بلدتنا وهو الشيخ محمد أبوشادى الذى كان خليليا ثم استقل بطريقة قوامها العبادة والذكر ثم قراءة الاحياء وشعارها الذى يحفظه مريدوها: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده فإن كان ولابد من ذكر غيره فليذكر الآخرة وليذكر الصالحين

(واعتبروا أن ذكر الآخرة مغاير لذكر الله وهو غير صحيح لأن ذكر الآخرة يعنى: ذكر لقاء الله وحسابه وجزائه).

وقد شهدت بعض حضراتهم ولم أستمر معهم إذ لم يشبعوا كل نهمى ولم يوافقوا مزاجى الوسطى.

وهذا ما جعل جارنا الشيخ بيومى رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب الأحياء الذى أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم فى اجازات الصيف خصوصا ربع «المهلكات» وربع «المنجيات» مع تحفظى شخصيا على بعض ما فيه من غلو لم يكن ملائما لطبيعتى ولكنى كنت أتأثر بما فيه من رقائق وترتعش جوانحى ويترقرق دمعى وهذا من دلائل اخلاص الغزالى رحمه الله ولما رآنى الشيخ بيومى حريصا على الكتاب تركه لى هدية وقد بقى عندى حتى اننى اصطحبته معى إلى المعتقل عام ١٩٤٩ وهو وبعض أجزاء من العقد الفريد لابن عبد ربه فى الأدب.

وفى المرحلة الثانوية تعرفت على بعض كتب التصوف الأخرى مثل شرح ابن عجيبة لحكم بن عطاء الله السكندرى وبعض كتب الشيخ عبدالوهاب الشعرانى وغيرها.. ويستطرد الشيخ القرضاوى: وفى هذا الاتجاه أيضا وفى تلك المرحلة توثقت صلتى بدعوة الاخوان المسلمين وهى دعوة ربانية الأساس والوجهة وقد كان مؤسسها الامام حسن البنا رحمه الله رجلا ربانيا بدأ صوفى النشأة ثم تحرر من قيود الشكلية الصوفية مبقيا على جوهرها وهو سمو الروح وطهارة القلب ومحاسبة النفس وصدق الصلة بالله تبارك وتعالى وسلامة الصدر من الاحقاد والحب فى الله والبغض فى الله وقد تجلى ذلك فى شعارات الجماعة مثل: الله غايتنا والرسول قدوتنا كما تجلى ذلك فى مناهج تربيتها ومظاهر نشاطها حتى قال الشيخ حسن البنا: ان دعوتنا دعوة سلفية وحقيقة صوفية وطريقة سنية وهيئة سياسية وكانت وسائل الاخوان

فى التربية والتوجيه تؤكد هذا الجانب وتعمقه مثل: الأسرة والكتيبة والمخيم وتركيزها على الذكر والبساطة والتلاوة للقرآن والمأثورات من الأدعية وحب الخير للناس.

وزاد هذا الجانب تعميقا فى فكرى ونفسى اتصالى باستاذنا البهى الخولى رحمه الله وهو رجل ذواقة للمعانى الربانية عميق الحاسة الروحية وقد كان يرأس الاخوان فى الغربية وكانت له محاضراته ودروسه التى يظهر فيها الجانب الربانى والتى تجسدت بوضوح فى كتابه «تذكرة الدعاء» الذى قدم له الشهيد حسن البنا.

وكان للاستاذ البهى الخولى لقاءات خاصة مع مجموعة من الشباب اصطفاهم كنت واحداً منهم - نصلى الفجر معا كل اسبوع ونذكر الله سبحانه وتعالى ونعيش فى جو روحى محلق وقد أطلق على هذه المجموعة اسم «كتيبة الذبيح» يعنى بالذبيح اسماعيل عليه السلام الذى أسلم عنقه طاعة لله دون تلكؤ ولا تردد حيث قال كما حكى القرآن الكريم عنه: «قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» أضف إلى هذا أنه فى دراستى العالية بكلية أصول الدين لقيت بها بعض شيوخنا الربانيين الذين عمقوا فىَّ هذا الجانب الروحى أو الربانى أبرزهم اثنان:

الأول: الشيخ محمد الأودن أستاذ الحديث.

الثانى: شيخنا عبدالحليم محمود استاذ الفلسفة، والشيخ الأودن أزهرى معمم والشيخ عبدالحليم أزهرى متخرج فى فرنسا يلبس حينذاك «البدلة» ولا يلبس العمامة وكان لكل شيخ منهما طريقته وتأثيره.

الشيخ الاودن يؤثر بقوة كلامه وتدفقه والثانى يؤثر بصمته وتعمقه وكان داعية إلى الزهد والاقبال على الله وكانت روح الشيخ الاودن أقرب إلى الروح الثورية وهو محرض دائما ضد الباطل وكان بروحه وثوريته وقوة منطقه وسخائه فى بيته وتواضع مظهره أقرب إلى نفسى وإلى طبيعتى وان كنت أحب الشيخ عبدالحليم محمود وأقدره وقد درسنى الفلسفة فى السنة الثالثة والسنة الرابعة فى كلية أصول الدين على حين لم يدرسنى الشيخ الأودن وانما كانت زيارتى له فى بيته بضاحية الزيتون.

ولقد اتسعت دراستى للتصوف فى تلك الفترة كما اتصلت اتصالا أعمق

بالمدرسة السلفية وأماميها المجددين: ابن تيمية وابن القيم وقد أعجبت بالنظرة الشمولية التجديدية المتوازنة فى هذه المدرسة ومقاومتها لما دخل على الاسلام من تحريفات وانحرافات فى الفكر أو فى السلوك ووجدت فى انتاج هذه المدرسة ما قوى عندى التوجه الربانى بضوابطه الشرعية.

● لكن الملاحظ أن فضيلتكم ابتعدتم عن المتصوفة رغم هذه العلاقة القديمة بجذورها القوية؟!

. لقد كان التصوف عندى فكرا وروحا وخلقا لا عهد علي شيخ ولا التزاما بطزيقة من الطرق الصوفية المعروفة وقد أغنتنى دعوة الاخوان عن أية طريقة وأغنانى إمامها وأصحابه عن البحث عن شيخ رسمى من مشايخ الطرق.

كما صدنى عن الطرق ما دخل عليها من خلل واضطراب فى الفكر وفى السلوك وكذلك فقد أهل الصدق والاخلاص في صفوف قوادها إلا من رحم ربك وغلبة الاتجار بالاسم والزى واللقب على الكثيرين.

ولا غرو أن يلمس المراقب المنصف فى جنبات كثير من التصوف المعاصر: الشركيات فى العقيدة والبدع فى العبادة والسلبية فى الأخلاق والشكلية فى الذكر والتسيب فى الفكر ومع هذا لم اتخذ موقفا عدائيا من التصوف كله بل ظللت أنتفع به وأقتبس منه فى محاضراتى وخطبى وفى مؤلفاتى وكتبى.

ويعود شيخنا بالحديث مرة اخرى إلى الشيخ بيومى والقراءات الأولى فى كتاب الاحياء حيث كان يناديه الشيخ «أبويوسف» ويضحك شيخنا وهو يتذكر الشيخ بيومى وهو يناديه رافعا صوته وكأنه أمامه: يا شيخ أبايوسف ستأكل الفولاودج على موائد الملوك.. كما قال أبوحنيفة لصاحبه أبى يوسف.

وقد أهلنى هذا مع طول سماعى فى فترة الصبا لدروس الدين فقد كنت مداوما علي حضور دروس أهل العلم فى بلدنا كان فى بلدنا علماء أجلاء فى الحقيقة منهم المدرس فى كلية أصول الدين مثل الشيخ احمد محمد صقر رحمه الله والمدرس فى كلية الشريعة الشيخ محمد عبدالله وفى المعاهد مثل الشيخ عبدالمطلب البتا والواعظ مثل الواعظ الشهير الشيخ أحمد البتا كانوا علماء ولهم مكانة ومنزلة عند الناس وهيبة فى قلوبهم واحترام كنت حريصا علي حضور مجالس هؤلاء وكانت عندى حافظة وذاكرة لاقطة تكاد تحفظ كل

ما يقال فى هذه الدروس فلذلك تكونت عندى حصيلة جيدة من السماع ومن قراءاتى فى كتاب الإحياء وعلوم الدين وبعض الكتب الرخيصة التى اشتريتها مثل: قراءة القلوب للشيخ عبدالعزيز الدرينى وغيره.

أول خطبة

● كان طلبة الأزهر وهم فى المراحل الأولي من التعليم يلقون خطب الجمعة والدروس الدينية بالمساجد وغيرها هل تذكر أول خطبة أو درس دينى ألقيته؟

- مازلت أذكر أول مرة ألقيت فيها درسا فى المسجد وقد كنا فى رمضان وكنا نجلس فى انتظار الشيخ عبدالمطلب البتا ليلقى الدرس فتأخر كثيرا فقالوا لى: ما رأيك يا شيخ يوسف: تقول لنا كلمتين مما تعلمت فى الأزهر؟! فقلت والله.. لا مانع وجلست على كرسى الشيخ وبدأت فى شرح حديث نبوي شريف مازلت أذكره: يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن وذكرت هذه الخصال وشرحتها وفتح الله علىّ وكان الناس في اصغاء كامل فما كانوا يظنون ان هذا الولد ابن السادسة عشرة يحل محل المشايخ الكبار ويقول درسا بهذا المستوى فكانوا فى غاية الاصغاء والانصات حتي انتهيت من الدرس وبعد الدرس كانت هناك أسئلة من الحضور أجبت عنها بتوفيق الله وهذا أهلنى فيما بعد أن أتولى درس رمضان فى زاوية من الزوايا - أى مسجد صغير أشبه بمساجد الجماعة فى قطر وهناك زاوية سيدى صالح فحملت مسئولية درس ما بين المغرب والعشاء في شهر رمضان فى السنة التالية وفي السنة الرابعة وفى الصيف بعد أن أكملت الثالثة من القسم الابتدائى ارتقيت المنبر لأول مرة وخطبت خطبة مشهورة مازلت أذكر موضوعها وهو: الشكر لله سبحانه وتعالى وكان لها وقع عظيم عند الناس ولم تكن تقليدا لشيخ من الشيوخ أو أى من الخطباء ووجد الناس خطبة من نوع جديد ومن ذلك الوقت بدأت أرتقى المنبر كلما جاءت المناسبة.

وهكذا قدر لى أن أعمل فى الدعوة الدينية عن طريق الخطب والدروس فى قريتنا وأن أعمل بالدعوة فى جماعة الاخوان المسلمين عن طريق الشعر أولا والدعوة ثانيا كانوا يبعثوننى إلى القرى المجاورة والمدن التابعة لطنطا مثل المحلة الكبرى وكفر الزيات والسنطة وبسيون وغيرها وهكذا ظللت طوال فترة الطلب أشتغل بالدراسة والحمد لله كنت متفوقا.

● هذه الذاكرة والحافظة القوية بلاشك كان لها تأثيرها على دراستك كما هى الحال فى الخطابة؟!

ـ الحمد لله كنت متفوقا فى الدراسة وكنت فى أول الفرقة باستمرار ولو تأخرت سنة أكون الثانى أو الثالث وأذكر فى بعض السنوات شغلت بالدعوة فلم أكن الأول إلا اننى كنت باستمرار فى طليعة الفوج إلى أن اعتقلنا فى سنة ١٩٤٩ وأنا طالب في السنة الخامسة اعتقلت أنا وزميل لى رحمه الله وهو الاخ والصديق محمد الدمرداش سليمان مراد كنا نسكن معا وعرفنا اننا مطلوبون فذهبت معه إلى قريته وذهبت المباحث إلى قريتنا وذهبت المباحث وفتشوا فلم يجدوا أحدا ثم ادركوا بذكائهم اننا اختفينا معا أنا والدمرداش ولذلك ذهبوا إلى قريته وفعلا كنا هناك واختفينا فى بيت الجيران فأخذوا والدته، بعد ذلك عرفنا فقلنا انه لا يمكن أن نترك والدته فى الحبس ولذلك ذهبنا وسلمنا أنفسنا وبقينا فى سجن قسم أول طنطا ثم رحلنا بعدها إلى معتقل الهايكستيب فى اليوم التالى لمقتل الشيخ حسن البنا لأننا قرأنا يومها فى الجرائد: مقتل الشيخ البناء اغتيال الشيخ حسن البنا ذهبنا يومها إلى الهايكستيب ثم إلى معتقل الطور وبقينا فى الاعتقال تسعة أشهر حتى فرج الله عنا.

وقد طلبنا أن ندخل الامتحان ونحن فى المعتقل حيث أخذنا الكتب معنا وطلبنا أن تعقد لنا لجنة أو يأخذونا فى الحراسة ولكنهم رفضوا طلبنا بعد أن قدمنا الاستمارة وبدون صور فشاء الله أن يفوتنا فتكاسلنا ويئسنا إلى أن أراد الله الافراج عنا بعد سقوط وزارة ابراهيم عبدالهادى التى اعتقلتنا وأفرج عنى فى الدفعة الأولى وبقى على الامتحان سبعة عشر يوما فذهبت إلى بلدتنا لمدة يومين ثم عدت إلى طنطا وتفرغت تفرغا كاملا للمراجعة فى المواد الدراسية والتى أهملناها عندما فقدنا الأمل والحمد لله دخلت الامتحان وشاء الله أن يكون ترتيبى هو الثانى على معاهد المملكة المصرية فى ذلك الوقت وهذا جعلنى أحصل على جائزة اقتسمتها أنا والأول وكانت الجائزة ٣٣ جنيها تقاسمناها معا كل واحد ١٦,٥جنيه وكان هذا مبلغا طيبا فى ذلك الوقت.

الفصل السادس

حكايتي الحقيقية مع دولة قطر


الشيخ القرضاوى فى أحد الدروس
بمسجد الشيوخ بالدوحة

قطر.. محطة كبيرة ومهمة فى مشوار حياة الداعية الإسلامى الكبير الشيخ يوسف القرضاوى.. وقائع الأحداث وتسلسلها يؤكد أن قطر هى التى طلبته، وأن الرجل استجاب لندائها طواعية وعن حب، رغم أن مغريات أخرى وعوامل جذب ـ فى ذلك الزمان ـ كان من الممكن أن تكون حائلا بين توجه الشيخ إلى قطر.

لا نريد أن نطيل فى مقدمات تمهيدية للوصول إلى قطر والتى تمثل علامة بارزة ومحورية فى المسيرة القرضاوية.. ولندع شيخنا يقودنا بنفسه إلى البوابة القطرية.. يقول:

عندما انتهيت من دراستى فى الجامعة وحصلت على المركز الأول على خريجى الجامعة، كان من حقى أن اختار أى بلد للابتعاث إليه فى بعثات الأزهر، والحقيقة انى قد طلبت دولة قطر أو رشحت لها.

وقد كان الأزهر لا يرشح المدرسين للدول العربية إلا بعد امتحان فالحمد لله أديت الامتحان وكان ترتيبى الأول على المتحنين للبعثات مع أنه كان يمكن أن اختار أى بلد أشاء وكان المبعوثون عادة إذا خيروا فى ذلك الوقت اختاروا الكويت فقد كان راتب المبعوث فى الكويت أعلى راتب فى ذلك الوقت ولكنى اخترت قطر.. وخيرونى لترتيبى الأول.

والسبب فى الاختيار انى كنت قد طلبت قبل ذلك من فضيلة الشيخ عبد الله بن تركى الذى كان مفتشا للعلوم الشرعية وقد زار مصر فى سنة ١٩٥٧ وكنت اخطب يومها خطبة الجمعة فى جامع الزمالك واستمع إلى وكان معه

أحـد المدرسين الذين جـاءوا إلى قطر مـبكرا وهـو أخـونـا وصـديقنـا الشـيخ يوسف عبد المقصود فاستمع إلى الشيخ ابن تركى واعجب بى، وقـال للشيخ يوسف عبد المقصود: كيف تستطيع أن تحصل على هذا الخطيب؟!

فقال له: يمكن طلبه من وزارة الأوقاف.

قـدمت إلى قطـر وتسلمت عـملى مـديرا للمـعهـد الدينـى الثـانوى فى اليـوم الرابع مـن ربيع الآخـر ١٣٨١/٤/٤ هجـرية الموافق ١٥ من سـبـتـمـبـر ١٩٦١. وبدأت رحلتى فى هذا البلد الحبيب فبدأت اتعرف على أهله كنت قد تعرفت من قـبل على فـضيلة الشـيخ عـبـد الله بن تـركى - رحـمـه الله - فـى زياراته للقـاهـرة من قبل وقـد كـان حـريصـا على التعـاقـد مع علمـاء الأزهـر ليـدرسـوا العلوم الشرعية فى البلاد على أساس صحيح.

ومـازلت اذكـر أن أول من زارنى فى مكتبى بعد أن تسلمت العـمل هو الشـيخ عبد الله الأنصارى - رحـمه اللـه - جاءنى إلى المعهد الدينى القديم وقـد كان مبنى صـغيـرا أزيل الآن واصبـح مـحله رئاسـة المحـاكم الشـرعيـة بـالقـرب من الجـامع الكبيـر والديوان الأميـرى، جاءنى بلحيتـه السـوداء وعـمـامتـه المتـميـزة وصـافحنى وسلم على بحـرارة وقـال: لقد عـرفنـاك من قبل حضورك وأحببناك قـبل أن نـراك واخـوك عـبـد الله بن ابراهيم الأنصـارى من طلبـة العلم هنـا، ومـدير مـدرسـة صـلاح الدين الأيوبى فـقلت له مـداعبـا: المثل يقـول: «تسـمـع بالمعيدى خيـر من أن تراه» ولكنه قـال: قد صـدق الخبـر الخبـر، إلى آخـر مـا قلناه فى تلك الجلسة وتناشـدنا الأشـعـار وتبادلنـا الأحاديث وبعد ذلك تعـرفت على الشيخ عبد الله بن زيد آل مـحـمود زرته فى بيتـه، وكـان قـد عـرفنـى عن طريق بعض الكتب التى وصلت إليـه، ومنها كتاب الحـلال والحرام فى الإسـلام والطبعة الأولى من كتابى العبـادة فى الإسـلام وأخذ يناقشنى فى بعض ما ورد فى الكتاب.

ثم فى يوم الجـمـعـة التـالى القـيت درسـا فى الجـامع الكبيـر بعـد خطبـة الجـمعـة، خطبـة خطبها الشـيخ عبد الله بن تركى وكـان هو الخـطيب للجـامع بعد الدرس ذهبنـا للجلوس مع الشيخ العـالم الكبير، كـبير علمـاء قطـر والرجل الذى له باع طويل فـى التـعليم والتـربيـة والعلم، الشـيخ مـحـمـد بن عـبـد العـزيز المانع - رحـمـه الله - كـان بيتـه بجـوار الجـامع الكبيـر، وقد سلم علـى بحـرارة

واثنى على حديثى الذى قلته، وكنا كلما ذهبنا للجامع الكبير زرنا الشيخ ابن مانع وكان رجلا عالما بحق وله اطلاع واسع على الكتب ومعرفة بالكتب والمؤلفين وموضوعات الكتب المخطوط منها والمطبوع وكان مجلسه لطيفا ومعشره محببا، وكان الشيخ ابن مانع حنبليا معتزا بحنبليته وكان يتمثل بقول القائل:

أنا حنبلى ماحييت فإن مت

فوصيتى للناس أن يتحنبلوا

ولكن لم يكن متعصبا بل كان رجلا سمحا سهلا واسع الأفق، وكان مما يباهى به أنه أول من جلب علماء الأزهر إلى المملكة العربية السعودية وكان يفاخر بهذا الأمر، يقول: كان عندنا فى وقت من الأوقات مجموعة من المشايخ اسماؤهم اتفقت كان عندنا الشيخ النمر، والشيخ الضبع، والشيخ القط، والشيخ الديب، والشيخ سرحان «أبو السراحين» كذ واحد من آل سرحان فكانت هناك حديقة حيوانات وهذا من لطف الشيخ بن مانع رحمه الله.

بداية التفاعل القطرى

● قلت: هل كان فى ذهنك تصور معين عندما جئت إلى قطر؟ وهل كنت تتوقع مرور الأحداث بالطريقة التى حدثت الآن؟

●● أول ما جئت قطر ظننت أنى سأعكف على القراءة والكتابة ولن أظهر للناس خصوصا فى مجتمع لا يعرفنى لكن سرعان ما تعرف الناس على وتعرفت عليهم فما استطعت أن أخبئ نفسى لأعيش مع الأوراق والكتب كما كنت أظن، بعد مدة قصيرة جاءت ذكرى الإسراء والمعراج فاحتفل بها وطلب منى أن ألقى كلمة بهذه المناسبة ثم جاء شهر رمضان المبارك على العادة وقد استن الشيخ ابن تركى أن يبعث بالعلماء الذين يدرسون العلوم الشرعية إلى مساجد الدوحة وضواحيها ليدرسوا للناس فى شهر رمضان المبارك وكان نصيبى أن نكون فى مسجد ولى العهد ونائب الحاكم - آنذاك - الشيخ خليفة بن حمد حفظه الله وكان المفروض أن اقتسم مع بعض العلماء يكون نصف الشهر لى ونصف الشهر لعالم آخر، وفعلاً ظللت أسبوعين، وحينما جاء العالم الآخر سأل الشيخ خليفة أين القرضاوى؟ فقال له موجود فقال له:

أريد أن يستمر معى وفعلا استمررت مع الشيخ خليفة فى درس العصر منذ ذلك الوقت وإلى الآن حتى بعد أن تغير المسجد إلى مسجد آخر ثم إلى مسجد آخر وبعد أن صار أميرا وأنا معه فى درس العصر الذى يداوم عليه حقيقة وهذا مما يذكر له ويشكر أنه يداوم على حضور درس العصر طوال رمضان لا يتخلف إلا عن مرض.

ولم يكن فى ذلك الوقت إذاعة ولا تلفاز ولا صحافة وكان المسجد هو الشىء الوحيد الذى نطل منه على الناس، حتى أن أهل بيت الشيخ خليفة بالداخل من الحريم وغيرهم قالوا نريد أن نسمع الشيخ القرضاوى فصنعوا ما يشبه إذاعة داخلية ثم كبرت هذه الإذاعة وأصبحت تذاع من المسجد الكبير مسجد الشيوخ على مستوى أهل الدوحة إذاعة محلية ظلت عدة سنوات قبل أن تأتى الإذاعة الرسمية فلما جاءت الإذاعة الرسمية كنا نحن قد بدأنا الإذاعة فى أهل الدوحة.

بعد ذلك كنت اخطب الجمعة فى بعض المساجد فى مسجد درويش فى أم غويلينة فترة ودروس ما بعد الجمعة إلى أن بنى جامع أبى بكر الصديق فتوليت خطابة الجمعة فيه، ثم لما بنى مسجد عمر بن الخطاب وأصبحت الجمعة تنقل عن طريق الإذاعة انتقلت إلى مسجد عمر بن الخطاب وإلى اليوم.

صلاة التراويح

ويتوقف شيخنا أمام بعض الأحداث التى ارتبط بها وتعود عليها فى قطر ويقول:

من الأشياء التى اعتدت عليها فى قطر.. صلاة التراويح.. منذ قدمت إلى قطر من أول رمضان وإلى الآن، كنت فى أول الأمر أصلى فى مسجد عند جسر رأس أبو عبود، وحتى قبل أن ينشأ هذا الجسر كنت أسكن هناك فكنت أصلى التراويح فى ذلك المسجد «مسجد الرفاعة» ولايزال هذا المسجد موجودا، وتمت توسعته بعدها، وكان أول الأمر عدد الناس قليلا وظل المسجد يتسع ويضيق بالناس، فانتقلنا إلى المسجد الكبير فى أم غويلينة ثم إلى مسجد الشيخ خليفة أمام قصره القديم ثم انتقلنا إلى الجامع الكبير وإلى

يومنا هذا والحمد لله أصبح الجامع الكبير الآن على سعته يضيق بالناس وخصوصا فى بعض الليالى الخميس والجمعة و٢٧ رمضان وأواخر رمضان عموما فكان المسجد الكبير يضيق بالناس من الرجال والنساء وهذا من فضل الله تبارك وتعالى.

تأليف الكتب المدرسية

● لكن هل اقتصر الأمر على الخطابة والتدريس فى المعهد الدينى فقط؟!

- إلى جانب عملى فى الخطابة عملت فى التأليف المدرسى تأليف أكثر من عشرين كتابا لوزرة التربية والتعليم فى التفسير والحديث والتوحيد والفقه، وجملة كتب أخرى وكنا والحمد لله أول من طور كتب العلوم الشرعية فى المنطقة حينما جئنا كانت تدرس بعض الكتب القديمة الصعبة فى عباراتها الملغزة احيانا، يعنى كان هناك كتاب فى الفقه اسمه: «أخصر المختصرات» نحن نعرف أن المختصرات تحاول التركيز.. يسميها العلماء المتون، وكانوا يقولون «من حفظ المتون حاز الفنون» والمتن عبارة عن تركيز بعبارات موجزة، فاخصر المختصرات يعنى أعقد المعقدات، كانوا يظنون أنه مادامت ألفاظه قليلة فهو كتاب سهل ولذلك طلبنا تعديل هذه الكتب وكتابة كتب جديدة بنمط جديد تخاطب العقل المعاصر، وتراعى مستويات التلاميذ فى مراحل اعمارهم المختلفة وبدأنا ذلك بكتب الفقه والتوحيد وفى المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية ثم كتب التفسير والحديث والبحوث الإسلامية المختلفة فكان هذا أول ما صنعناه فى قطر أول توجه نحو تعديل الكتب والمناهج الدراسية ثم دخلت وزارة المعارف فى ذلك الوقت فى هذا الموضوع بقوة، واستجاب لنا فى هذا فى الحقيقة الشيخ قاسم بن حمد آل ثانى وزير المعارف الأسبق - رحمه الله - الذى كانت بيننا وبينه مودة وكان يستجيب لمقترحاتنا كلما اقترحنا عليه شيئا من هذا عن طريق الشيخ ابن تركى وبعد وفاة بن تركى تبعه الشيخ الأنصارى، وكنت أزوره ومعى الشيخ عبد المعز عبد الستار بين الحين والحين، فكان الرجل فى الحقيقة يستجيب لكل ما يدعم الجانب الدينى فى الوزارة وكل ما يطور العمل فيها ولذلك سرعان ما أمر بتعديل هذه الكتب والمناهج وتوسعت الوزارة فيها وكانت رائدة فى منطقة الخليج حتى أن كتبنا الأولية والتى ألفناها كانت تطلب فى المملكة العربية

السعودية لينتفعوا بها ويسيروا على نهجها، ثم دخلت المملكة، ودخلت الكويت والبحرين، وغيرها فى هذا الأمر ونسجت نسجها.

فترة خصبة

ويذكر شيخنا د. القرضاوى باعتزاز شديد أن الفترة التى قضاها فى قطر كانت فترة خصبة، وذلك كما يقول: لأننى قضيت فيها أخصب سنوات عمرى يعنى أن المدة التى كانت قبل قطر كانت مدة تكوين وبناء، كنت أكون فيها نفسى، الجانب العلمى فجئت إلى قطر جاهزاً مكونا، فقضيت فى قطر السنوات لاعطى ثمرة التكوين القديم وكان من فضل الله على فى قطر أن فتح لى القلوب والعقول وحب الناس وهذا مما أحمد الله تعالى عليه أن تشعر بحب الناس وهذه منة من الله تعالى.

ومازلت أذكر فى بلاد كثيرة فى الجزائر وفى أوروبا وأمريكا والمؤتمرات وغيرها وتأتى الأسئلة وتبدأ بهذه العبارة: «نحبك فى الله».. فهذا مما أحمد الله عليه وارجو أن يكون هذا دليلا على حب الله تعالى وأن يغفر الله لى ما لا يعلم الناس عنى ففى الحديث: ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من جيرانه الأدنيين انهم لا يعلمون عنه إلا خيرا إلا قال الله تعالى قد قبلت علمكم فيه، وغفرت له ما لا تعلمون».

فعشت فى قطر اعطى وأعلم وأفتى، وقد تعود الناس حتى قبل أن تأتى إذاعة وتليفزيون قطر تعود الناس الاتصال بى تليفونيا وكان الرقم سهلا محفوظا وظل سنين طويلة «٢٢٥٢٢٢» وكان الاتصال فى أى وقت فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء حتى كان الناس احيانا فى شهر رمضان يتصلون بالليل وآخرون بالنهار، والأسئلة لا تنتهى ولما جاءت إذاعة قطر ظللت أقدم فيها لسنين طويلة برنامج «نور وهداية» ولما جاء تليفزيون قطر ومنذ بدايته وإلى اليوم قدمت برنامج «هدى الإسلام» وكان يقدم فى أول الأمر فى حلقتين كل حلقة ربع ساعة يوم الاثنين ويوم الجمعة فاقترحت عليهم مرة واحدة فى الأسبوع ويكون نصف ساعة ومنذ فترة صار حوالى ثلاثة أرباع الساعة وهو والحمد لله برنامج مشاهد ومسموع ليس على مستوى قطر وحدها ولكن على مستوى البلاد التى حولنا فى البحرين والإمارات والمنطقة الشرقية بالسعودية واصبح يكون مدرسة فى هذه الناحية.. فى الفتوى التى تتعامل مع محكمات

الشرع دون الغفلة عن مقتضيات العصر، وهذا هو الذى يميز البرناج ويمثل منهجى فى الافتاء وهو منهج التيسير فى الفروع والتشديد فى الأصول. لا أشدد على الناس فيما يسر الله سبحانه وتعالى فى أمر وسهل فيه والله تعالى يقول: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» ويقول: «ما جعل عليكم فى الدين من حرج» «ما يريد الله أن يجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد أن يطهركم ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» فهذا هو المنهج الذى اتبعته.

فالأمور المحكمة التى فيها دليل بين واضح أتمسك بها ولا أتنازل عنها ولا أرضى فلانا أو علانا من الناس مادام قد وضح لى الحق لا أتنازل عن رأيى فيها، لأنى أرى الحق واضحا فيها.

هناك أمور تحتمل التيسير والناس فى حاجة إلى التيسير لماذا لا نيسر على عباد الله سبحانه وأنا أقول: إذا كان هناك قولان متكافئان أو متقاربان فى الأدلة أحدهما احوط والآخر أيسر فبماذا افتى عموم الناس؟.. أفتيهم بالأيسر، وإن كنت افتى الخاصة قد أشدد على بعض الخاصة وأقول إنه لا يليق بك كذا، إنما عموم الناس يحتاجون إلى التيسير.

سألنى بعض الناس ما هو دليلك على اختيار الأيسر بدل الاحوط قلت دليلى: إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن اثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس عنه وكان ينكر على أصحابه إذا طولوا فى إمامة الصلاة.. ويقول: من أم بالناس فليخفف فإن وراءكم الضعيف والمريض والكبير، وذا الحاجة فمعنى هذا أن الإنسان يجب أن يراعى، أى سيروا بسير أضعفكم «فالضعيف أمير الرفقة» لابد أن نراعى الضعفاء ولا نفتى للأقوياء وحدهم وخصوصا فى عصرنا هذا الذى ضعف فيه الدين ورق فيه اليقين فالناس بحاجة إلى التخفيف والتيسير.

فمنهجى التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوى عملا بقول الرسول «صلى الله عليه وسلم» الذى رواه الشيخان عن أنس: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».. فأنا أيسر ولا أعسر فى الفتوى.. وأبشر ولا أنفر فى الدعوة.. بعض الناس يتبنون جانب الترهيب والتخويف ولا يتحدثون إلا عن النار وعذاب القبر وهذه الأشياء ويبالغون أحيانا ويأتون بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ليخوفوا الناس.

أما أسلوبى فهو الموازنة بين الترغيب والترهيب، والترجيح والتخفيف على ما هو منهج القرآن: «اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم» «وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان» «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو».. «نبيء عباديء أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم».

«إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم».. هذا هو التوازن الذى ينبغى أن يكون هو منهج الإنسان المؤمن فى حياته.. وأعتقد أن هذا المنهج هو المنهج الأصوب فى رأيى لأنه المنهج الموافق للقرآن الكريم ومنهج الرسول العظيم «صلى الله عليه وسلم».

علاقة حب

منذ أول يوم وصل فيه شيخنا أ.د. يوسف القرضاوى إلى الدوحة أخذت أواصر المحبة والمودة تتوطد وتتعمق حتى لمست قلوب الناس فتعلقوا به وتعلق هو بهم أيضا، لأن الأمر كما أوضح فضيلته هو حب لله وفى الله ولهذا كان لابد أن يتم ويمتد ويتصل فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

وقد ظهر التعبير عن ذلك جلياً من جانب أهل الدوحة فى الاتصال المباشر بالشيخ ومتابعته وملاحقته تليفونيا وفى لقاءاته العلمية فى كل مكان بالدوحة.

وبالنسبة لشيخنا فقد كشف عن هذا الحب للدوحة وأهلها بوضوح شديد عندما سافر إلى ألمانيا عام ١٤٠٥ هجرية واضطر لأن يقضى رمضان فى مدينة «بون» على فراش المرض، وفى تلك الفترة ازداد شوقه وحنينه إلى الدوحة ولقاء الناس فى مساجدها وأثر فى نفسه أكثر الاتصالات الدائمة من أبناء قطر الذين لا يعرفهم معرفة شخصية بالمستشفى فى ألمانيا للسؤال عنه والاعراب عن أملهم وخالص دعواتهم بالعودة إليهم سالما وقد أثر ذلك فى نفس شيخنا، وهاج القريض عنده ونظم قصيدة طويلة على سرير المرض بمستشفى بون الجامعى لجراحة الاعصاب تسجل هذا الشوق والحنين وتعكس علاقة الحب المتبادل بين الشيخ ومريديه.

يقول فى قصيدته هذه والتى تبلغ السبعين بيتا :

يا إخـــوة فى رضـــا ربى عرفتهمـــو
فى دوحـــة الخيـــر، يا حيـــاكم الله

هلا بعثتم شـــعاعا من مســـاجدكم
تلوح منـــه لنا فى «بون» أضـــواه؟!

فـــلا أذان ولا قـــرآن نســـمعه
ولا تراويحنـــا، واحـــر قلبـــاه!!

إنى لأذكـــركم فـــى كل أمســـية
ذكر الغـــريب بعيـــد الدار مـــأواه

كـــم التقينـــا على ذكـــر وموعظـــة
وأفضـــل الذكـــر قـــرآن تلونـــاه

فى موسم الطهر فى رمضان الخير، تجمعنا
محبـــة الله لا مـــال ولا جـــاه

من كـــل ذى خشـــية لله ذى ولـــع
بالخيـــر تعـــرفه دوما بســـيماه

جيـــل على الحـــب والايمـــان مرتبـــط
قـــد عبـــرت عنـــه أرواح وأفـــواه

إن أنس أوجههـــم لـــم أنس روحهمـــو
وكلهم فى نقـــاء الروح أشـــباه

قد قدروا موسم الخيرات فاســـتبقوا
والاســـتباق هنـــا المحمـــود عقبـــاه

صـــاموه قامـــوه إيمـــاناً ومحتســـبا
أحيـــوه طوعا وما فى الخيـــر إكراه

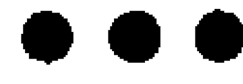
والوقت كالنـــاس منه ما يمـــوت وما
يحيـــا فطـــوبى لمن بالذكر أحيـــاه

وكلهـــم بات بالقـــــرآن مندمجــــا
كأنه الـــــدم يســــرى فى خـــــلاياه
فالأذن ســــامعة والعين دامعـــــــة
والروح خاشـــــعة والقـــــــلب أواه
أحببتهـــم وأحبــونى بلا غـــــرض
إلالقـــــــــــاء على ربى وتقـــــواه
ما كان لله يبقـــى دائمـــــــا أبـدا
رغم الشـــــدائد يلقـــاه وتلقـــــــاه
وما يقـــــوم على دنيـا ومنفعـــــــة
فسوف ينهار ما لم تبـــق دنيـــــــاه



شـــتان ما بين من إبليس قـــــــائده
ومن يقود رسول الله ممشـــــــــــــاه
من اهتدى بهدى الأخيار كان عـــــلى
خيـــــــر وســــار وعين الله ترعـــاه
ومن مشى خلف ركب السوء ضاع كما
ضـاعوا وتاه بعيـــــدا مثلما تاهـــوا
هما طريقان ما للناس غيـــــــرهما
كـــــــل امـــرئ يتـــــولى ما تولاه
إما طـــــــــريق إلى الفــــــردوس بينة
فى محكم الذكـــــر جلتها وصــــاياه
أو الطـــــــريق إلى نـــــار مســــعرة
يهوى إليهــــا من الشـــيطان أغـــواه
فويل من يشـــــــترى بالخـــلد هاوية
وخــــاب مـــن بـــاع آخــــراه بأولاه

وأعجب لمن سار فى درب الهوى وغوى
ولم يقـــــل ســاعة ندمان: ويلاه!
يقول: ربى رحيــم ســوف يغفر لى
قد غره الجهـل بالمـولى وأغـــراه
من يعرف الله يعـــرفه برحمتـــه
وبطشـــــه فهـــو يرجـوه ويخشـاه



يا إخوة الصدق والإيمان فى قطـــر
لكم فؤادى وما ضــمت حنــــاياه
أنســــيتمونى آلامــى بحبكمــــو
وصــادق الحــب ينسى المــرء بلواه
وبالهـــواتف رغم البـعد تغمـــرنى
فضلا وذو الفضل يبدو فى سـجاياه
لولا قيود مـــن الأسـقام قاهــرة
لطـــرت شـــوقا إليكم يعلم الله!
ما حيلة الطير محبوس ولا قفص؟!
لو رام طير لخانته جنــــــاحاه
لكم تمنيت لو أقضى ليـــالى من
شـهر الرضـا معكم أشـــتم رياه
وكم حننـت لسـجدات أقـول بها:
ســـبحان ربــى وأدعوــه بعليـاه
وبالشـــــوقى إلى وتر القنــوت به
أدعو الكريم الذى عمـت عطـاياه
أدعـوه والدمـــع بالعينين مختنـــق
والقلب محتـــرق مما شــــهدناه

فى كل أرض أرى الإسلام فى خطـر
من أهـــله وبنيـــه قبـل أعـــداه
تفـــرقوا شـــيعا والكفـــر مجتمـــع
واليـــوم يبدو الذى قد كان أخفـــاه
فاجمـــع إلهى شـمل المسلمين على
هـــــداك وانصـــر لمن للدين والاه



يا إخوتى ليس لى منكم سوى طلب
هل يخذل الأخ من فى الله أخـــاه؟
إذا قرأتم وصـــليتم صـــلاتكم
وقـــــام قائمكـــم لله ناجــــاه
وهزت الأرض بالتسبيح ســـجدته
وبللت وجهـــه بالدمـــع عيناه
وراح يدعو بما يحـلو له طلبـــا
للحسنيين: بدنيـــاه وأخـــــراه
فلا تخلوا أخاكم من دعائكمـــو
بظهر غيب وستر الليل أرخـــاه
ولتشفعوا لى إلى ربى وربكمـــو
وادعوا ليوسف: لا تتـــركه رباه
ادعوه يكشف ضـــرائى ويغفـــر لـــى
فضلا فلا كاشـــف للضـــر إلا هـــو
ادعوه يمنحنـــى عفـــوا وعـــــافية
فليس أكـــرم منـــه فى عطـــاياه
ادعـــوه يقبلنـــى فى المخلصـــين له
من استـــقاموا وقــــالوا: ربنـــا الله
وأنتم القـــوم لا يشـــقى جليســـكمو
ومن شـــفعتم له يكـــرمه مـــولاه

المحنة الكبرى للإخوان المسلمين
اضطرتني للبقاء في قطر تسع سنوات متصلة

مع نهاية المدة التى كانت مقررة لإعارة شيخنا العلامة د. يوسف القرضاوى إلى قطر فى عام ١٩٦٤م كان مقررا أيضا ـ أو بحسب خطته هو ـ أن يحصل على درجة الدكتوراه من جامعة الازهر ويعود من المعهد الدينى إلى الجامعة استاذا ومعلما.

لكن يبدو ان الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن وحدث العديد من المفارقات العجيبة والطريفة أيضا المضحكة المبكية فى آن واحد.

واضطرت الظروف شيخنا إلى أن ينقطع عن مصر لمدة تسع سنوات متصلة بعد المحنة الكبرى ـ كما يسميها ـ شيخنا التى تعرض لها الاخوان المسلمون فى مصر عام ١٩٦٥.

ومن قطر وفى ظل الاوضاع الجديدة بدأت فصول النهاية لرسالة الدكتوراه التى خاض بشأنها شيخنا معركة مع كلية اصول الدين وجامعة الازهر بسبب «سفره العظيم» عن الزكاة.

ولندع شيخنا يلقى الضوء على تلك التطورات وما أعقبها من تفاعلات.

يقول الدكتور القرضاوى: كان موضوع رسالتى للدكتوراه عن الزكاة فى ضوء

القرآن والسنة.. ومقدمة إلى كلية اصول الدين.. ولكن مشايخ الكلية توقفوا وقالوا فى هذه الرسالة أليق بأن تكون فى كلية الشريعة وليس فى كلية اصول الدين، لأن روحها روح فقهية ونحن لسنا كلية الفقه وأنا أقول لهم هذه كلية فى ضوء القرآن والسنة.

كان مشرفى الأول رجلا متعاونا جدا معى، وهو الشيخ أحمد على ومازلت اذكر حينما ذهبت إليه لأهديه الطبعة الأولى من كتابى الحلال والحرام فى الإسلام فى عام ١٩٦٠ تقريبا وعندما رأى الكتاب وتصفحه قال لى: لماذا استعجلت بنشر هذا الكتاب قلت: وما المانع يا فضيلة الشيخ؟!

قال: مثل هذا الكتاب كان جديرا بأن تقدمه رسالة مع التغيير فى بعض الشكليات وسجلت بعض المراجع وأعطيته شكلا معينا وقدمته رسالة وبعد سنة واحدة كنت أخذت الدكتوراه.

قلت له: أنا أريد أن أقدم الدكتوراة فى بحث ضخم كبير، يحمل اسمى.. قال لى: يا عبيط.. المطلوب منك الآن أن تأخذ رخصة ليكون اسمك الدكتور يوسف القرضاوى وبعد أن تصبح د. يوسف القرضاوى ألف ما تشاء.

أنا فى الحقيقة لم يتبين لى صدق هذا الكلام وحقيقته الا بعد أن جربت ما جربت وعانيت ما عانيت من أجل رسالتى فمشايخ اصول الدين اعتذروا عن عدم الاشراف على الرسالة وقالوا هذه أقرب إلى الشريعة وبعضهم قال: ان فيها آراء خطيرة.

وبغض المشايخ رحمهم الله كتبوا إلى شيخنا د. عبدالحليم محمود عميد كلية اصول الدين فى ذلك الوقت ارجو أن تعفينى من الإشراف على رسالة الطالب يوسف القرضاوى حول الزكاة لأنها تتضمن آراء دينية خطيرة لا أستطيع أن أتحمل مسئوليتها وفعلاً أعفى الشيخ من الإشراف مع ان الطالب هو الذى يتحمل مسئولية الآراء الفكرية وليست مسئولية المشرف فتعبت فى ذلك الوقت، ولم أستطع أن أنهى الموضوع مع أنى نزلت فى عام ١٩٦٤ وكنت أظن أننى سأناقش الرسالة وأرجع إلى الكلية.

جاءت سنة ١٩٦٥ وهى تحمل المحنة الكبرى للاخوان المسلمين وكدت أنزل إلى مصر من اجل الرسالة ايضا، ولكن الكلمة التى قلتها عن الاشتراكية ونشرت فى الحلقات الماضية بالشرق يعنى نجانى الله بسببها وبعض اخواننا

اخذوا إلى السجن من الطائرة وكنا فى اوائل سبتمبر فأنزلوهم من الطائرة ونجانى الله وكما جاء فى الحديث: «لا تتمنوا لقاء العدو ولكن اسألوا الله العافية» وإذا وقع البلاء نسأل الله الصبر عليه.

بعد ذلك اضطررت لأن أبقى فى قطر تسع سنوات متصلة ولم أنزل إلى القاهرة من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٣.

فى اواخر سنة ١٩٧٢ قيل لى إن هناك محاولات لإتاحة الفرصة لمن فاتتهم الفرصة للحصول على الدكتوراه بسبب المدة وكانت عندنا فى الازهر ست سنوات وقد فات عليها حينئذ اكثر من اثنتى عشرة سنة وقالوا: إن الشيخ عبدالحليم محمود وهو وزير للأزهر اصدر قرارا بمد الرسائل لمدة ١٢ سنة فقلت لنفسى: إن هذه المدة أيضا فاتت على إلا انه بالبحث وجد انه رغم انى قدمت الرسالة فى سنة ١٩٦٠ إلا أن مجلس الجامعة لم يوافق عليها الا بعد سنة، طبعا انا لو علمت بذلك حينها لثرث غاية الثورة.

ولكن هذا كان رحمة حيث اتاح لى فرصة عدة أشهر فقدمت فى ذلك الوقت.

إلا انه كانت توجد مشكلة وهى أننى كنت نشرت كتابى فقه الزكاة لأننى عندما يئست من الرجوع إلى مصر أشار على بعض الاخوة بأننى يمكن أن احصل على الدكتوراه من باكستان من جامعة البنجاب فى لاهور وهى جامعة عريقة وبها قسم للدراسات الإسلامية ويرأسه رجل علامة هو البروفيسور علاءالدين الصديقى وأصبح الآن رئيس الجامعة، وأنا لى علاقة بهذه الجامعة منذ عام ١٩٦١ أو ١٩٦٢ تقريباً.

فقد ارسلت لى إحدى الطالبات التى تدرس الماجستير بأنها تعد رسالة عن كتاب «الحلال والحرام» كبحث تتم به الماجستير فطلبت بعض المعلومات وأرسلت إليها وكان اسمها «جميلة شوكت» وهى الآن استاذة دكتورة وكان الذى يشرف عليها البروفيسور علاءالدين الصديقى هذا .

فقالوا لى: حاول أن تقدم للدكتوراه هناك ويمكن ان تستعين بالأستاذ أبوالأعلى المودودى فى هذا فكتبت رسالة للأستاذ المودودى أوضح له هذا الأمر وهل يمكن أن يكلم الجامعة فى هذا؟

وفعلا رحب الأستاذ الصديقى وقالوا له: إننا نعرف قدره وعلمه، فليأت ولنتفاهم فى الموضوع.

وفعلا ذهبت وكانت اول مرة ازور فيها باكستان واخذت الطائرة إلى كراتشى ومنها إلى لاهور وبقيت فى لاهور ثلاثة أسابيع قابلت الاستاذ علاءالدين الصديقى واستقبلنى هناك الاخوة فى الجامعة واهل العلم استقبالا طيبا واقاموا لى الاحتفال ومما أذكره ولا انساه ان أحدهم نظر إلىَّ وقال: أنت يوسف القرضاوى؟ قلت له نعم: قال: الحمد لله فقال: انت يوسف القرضاوى؟ أقول له نعم وهو يقول الحمد لله ثلاث مرات.

فتعجبت من أمره وسألته: علام تحمد الله يا أخى؟!

فقال: ظننا أن مؤلف كتاب «الحلال والحرام» هذا شيخ كبير فى السن فى الثمانين من العمر، ولكنك والحمد لله شاب وكنت ايامها بلحية سوداء وفى شرخ الشباب.. ورحب بى الاستاذ الصديقى وقال: ولكن عندنا مشكلة كبيرة!!

فقلت له: ما هى المشكلة؟!

فقال: من الذى سيشرف عليك؟! كل من هنا يعتبرون أنفسهم تلاميذ لك وقراء لكتبك فمن الصعب ان نجد من يشرف على رسالتك نحن عندنا نوعان من الدكتوراة:

ـ الدكتوراة العادية هذه دكتوراة الفلسفة.

ـ ودكتوراة العلوم.. أو الإنتاج ويسمونها D.let وهذه الدكتوراة لا تعطى إلا للقلائل من الناس وتعطى لإنتاجهم العلمى إذا كان اصيلا ومعترفا به ونحن نعتبر كتبك من هذا النوع فنحن نعطيك هذه الدكتوراه فارسل إلينا بكتبك ونعرضها على مجموعة من كبار اهل العلم ونحن متأكدون أنهم سيقومونها التقويم الصحيح..

فقلت له والله إن كان الامر كذلك فأنا عندى كتاب اعتبره هو الكتاب الام وبذلت فيه جهدا كبيرا فأنا أود أن يكون على رأس هذه الكتب انه لايزال مخطوطا فقال لى ما هو: قلت: كتاب فقه الزكاة.

وموضوع الزكاة هذا اشتغلت به أكثر من عشر سنوات وهو الآن جاهز للطباعة.

فقال: هذا يكون جيدا جدا فأسرع بطباعته وارسل الينا مجموعة الكتب وإذا كان لديك اشياء اخرى اطبعها فكل ذلك يكون فى صالحك، ورجعت من لاهور إلى قطر ومن قطر أخذت زوجتى واولادى إلى بيروت واتفقت مع احدى المطابع لنشر الكتاب وبدأنا فى شهر أغسطس ١٩٦٩ بطباعة كتابى فقه الزكاة وصورت عدة ملازم فى ذلك الصيف، وقلت له كلما انتهت ملزمة ارسلوها إلى لاراجعها وابعثها اليكم طبعا الشتاء كان بطيئا جدا فأرسلوا إلى خمس ملازم او ستا وهو كتاب كبير «مجلدان» إلى ان جاء الصيف التالى سنة ١٩٧٠ وذهبت من أول الإجازة الصيفية إلى آخرها إلى أن انهينا الكتاب وبدأنا فى طباعته.

موت عبدالناصر

ويواصل د. القرضاوى حديثه قائلا: ويشاء الله ان يتوفى عبدالناصر فى ذلك الوقت وبدأت الازمة فى مصر تنفرج وعندما انتهى الكتاب كان الشتاء قد بدأ ودخلنا فى سنة ١٩٧١ وأشاروا على بأنه لم يعد هناك حاجة لأن تذهب إلى باكستان.. الآن البحث فى مصر.. فبدأنا نبحث فى مصر.. وظهرت حكاية السنة التى أشرنا اليها.. وقلت نكتفى بتقديم الكتاب إلى مصر لكنى واجهتنى مشكلة جديدة.. فقد كان كتاب فقه الزكاة قد نشر، ومن شروط قبول الرسائل فى الازهر الا تكون منشورة وبالتالى لم يعد يصلح كرسالة وبدأ بعض الاخوة البحث فى مصر وكلية اصول الدين عن مخرج وكانوا متعاونين حقيقة.

وعملت رسالة اخرى بعضها مكتسب من كتابى مشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام وبعضها فصول جديدة وعملت رسالة وقدمتها وكان عنوانها «الزكاة فى الاسلام وأثرها فى حل المشاكل الاجتماعية».

فى الحقيقة كان يوما حافلا يوم مناقشة رسالة الدكتوراه يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٣.

● قلت فى يوم عيد الثورة ٢٣ يوليو؟!

- قال الشيخ القرضاوى: فعلا كان يوم اجازة رسمية.

● هل تذكر لجنة المناقشة والحكم على الرسالة!!

ـ الشيخ القرضاوى: كان رئيس اللجنة الشيخ محمد على السايس وكان زميلا للشيخ شلتوت فى تأليف بعض الكتب مثل مقارنة المذاهب فى الفقه.

وقدمنى تقديما أعتز به وقال: ان الامر لو كان بيدى لأعطيت الاستاذ يوسف القرضاوى كذا.. وكذا.. حتى أن الشيخ عوض الله حجازى وكان مديرا لجامعة الازهر وعضوا باللجنة قال له: يا سيدنا الشيخ انه ليس استاذا بعد...

فرد عليه الشيخ السايس قائلا: لا.. أستاذ ونص!!

وحصلت على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.

● وماذا عن جامعة البنجاب فى ظل هذا التطور؟

ـ د. القرضاوى: لما وجدنا الفرصة فى الازهر متاحة لم نتابع معهم ولم يكن هناك داعٍ لباكستان.

● هل رجعت إلى قطر بعد الحصول على الدكتوراه؟

ـ د. القرضاوى: لا.. أنا مستمر فى قطر.

لكن يشاء القدر ان تنشأ فى الصيف الذى اخذت فيه الدكتوراه كليتا التربية للبنين والبنات نواة لجامعة قطر.. وكنت قبل ان احصل على الدكتوراه قد عينت فى الكلية.

ولكن الله سبحانه وتعالى اراد ان احمل الدكتوراه رسميا قبلها، فعدت لأعمل فى جامعة قطر أؤسس وأرسى قسم الدراسات الإسلامية فيها.

من المعهد إلى الجامعة

وظللت سنة أجمع فيها بين ادارة المعهد الدينى وقسم الدراسات الاسلامية ثم تفرغت بعد ذلك لقسم الدراسات الاسلامية فى كلية التربية، وكنت أضع المناهج وأدرسها وكان معى مدرس واحد كنت ادرس الثقافة الاسلامية لطلاب وطالبات الجامعة خصوصا الدفعة الأولى والثانية، وأدرس لطلاب وطالبات الأدب العام الدراسات فى السيرة والسنة وكنت أدرس فى العقيدة والتفسير والفقه وأصول الفقه، بل وعندما بدأت الطالبات فى التربية العملية

كنت معهن في التربية العملية أفادتني دراستي في تخصص التدريس في جامعة الازهر حيث درسنا علم النفس والتربية دراسة جديدة وكنت اول دفعتي فهذا افادني في تلك المرحلة.

وبعد اربع سنوات أسست كلية الشريعة وأيضا كلفت بهذا الامر وكنت العميد المؤسس لكلية الشريعة وانتقل قسم الدراسات الاسلامية ليصبح كلية الشريعة والدراسات الاسلامية في جامعة قطر، والحمد لله انضم إلى بعض الاخوة الذين بدأوا المشوار من أوله تقريبا.. اخونا د. عبدالعظيم الديب ود. محمد نصار، وعدد من الاخوة منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا فكانت فترة الجامعة فترة جديدة في حياتي في قطر فقد انتقلنا إلى جو اكاديمي جديد وكنت اتناوب انا وصديقي د. محمد ابراهيم كاظم رحمه الله الذي كان أول مدير لكليات التربية ثم مديرا لجامعة قطر بعد ذلك وكانت فترة التأسيس للجامعة في الكليات المختلفة بدأناها بالكليات ثم أنشئت المراكز البحثية ومنها مركز بحوث السنة والسيرة الذي كان تأسيسه بناء على توصية من المؤتمر العالمي الثالث الذي انعقد في قطر للسنة والسيرة، كان بداية لاحتفالات الامة الإسلامية بالقرن الخامس عشر الهجري، كانت قطر هي الرائدة في هذا الجانب، في هذا المؤتمر العالمي العظيم الذي استضافته قطر وكان شيئاً رائعا، ورأسه اخونا وصديقنا عبدالله بن ابراهيم الانصاري رحمه الله وحضره عدد من الائمة والأعلام والباحثين وكبار الشخصيات في العالم الإسلامي اوصى هذا المؤتمر بإنشاء مركز للسنة والسيرة في قطر وتبنت الجامعة هذا الأمر وصدر القرار من سمو الأمير، بتأسيس مركز السنة والسيرة وتكليفي بهذا الامر وتعييني مديرا له، ومازلت أشرف بالعمل في هذا المكان خادما لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته وهو مجال عظيم ثم تبع مركز قطر مراكز أخرى في هذا المجال لعلها اوسع اختصاصا واكبر ميزانيات واكبر حجما من مركز قطر ولكن كان لمركز قطر الريادة وهو الذي بدأ بالتخطيط لمشروع موسوعة حديثة كبرى وقد كتب في هذا المشروع «نحو موسوعة للحديث النبوي» ومعها كراسة لأسئلة حول هذا الموضوع ووزعناها على الكثيرين في العالم الإسلامي ومازال المركز يعمل في الجامعة وماتزال كلية الشريعة تقوم بدورها بعد أن

أضيف إليها قسم جديد فقد كانت فى البداية بمثابة كليتين - كلية الشريعة التى تهتم بالفقه وأصوله وهذا تخصص وكلية أصول الدين التى تهتم بدراسة أصول الدين والتفسير والحديث والعقيدة واضيف اليها حديثا قسم القانون ولذلك اصبح اسمها الآن كلية الشريعة والقانون والدراسات الاسلامية ليدرس القانون تحت حضانة الشريعة هذا سعيت إليه أيام عمادتى للكلية وأصبح حقيقة واقعة وقلنا إنه اذا كان ولابد من دراسة القانون فلابد ان تكون دراسته فى ظل الشريعة بدلا من ان يكون القانون ندا للشريعة، فى الطرف المقابل لا ليكن فى حضانتها وتحت ظلالها وبذلك يدرس القانون دراسة مقارنة وهذا ما تقوم به هذه الكلية الآن.

فى جامعة
الإمام عبدالقادر الإسلامية بالجزائر

فوجئ شيخنا الدكتور القرضاوى ذات يوم فى منتصف الثمانينات بصاحب السمو الشيخ خليفة يستدعيه للحضور إلى الديوان الأميرى لأمر مهم.. وتوجه د. القرضاوى على الفور إلى هناك وإذا بسموه يعرض عليه رسالة من الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد حملها سفير الجزائر بقطر يطلب فيها أن يقوم الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى برئاسة المجلس العلمى لجامعة الإمام عبدالقادر الإسلامية بالجزائر، خلفا للداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى الذى اضطرته ظروفه الصحية إلى العودة إلى مصر.

وقبل أن نبدأ فى عرض تفاصيل هذه المهمة الجليلة فى حياة شيخنا د. القرضاوى لابد أن نتوقف قليلا مع شيخنا لنتعرف على المحور الجزائرى فى مسيرة ومشوار حياة الدكتور القرضاوى ، خاصة وأن العلاقة مع هذه الدولة كانت مميزة ومتميزة ولها تأثيراتها المختلفة على الأساس التعليمى والتربوى والمسار الدعوى ودفع الاتجاهات القويمة للصحوة الإسلامية ومحاولة تصحيح ما اعوج منها واعادته إلى طريق الصواب.

قلت للدكتور القرضاوى:

● متى بدأت صلة فضيلتكم بالجزائر وكيف كانت؟

ـ الشيخ القرضاوى:

ابتدأت صلتى بالجزائر الشقيقة منذ أوائل الثمانينات وكنت قبل ذلك أدعى إلى ملتقى الفكر الإسلامى الذى تعقده وزارة الشئون الدينية فى الجزائر كل عام ولكن كنت اعتذر على أساس أن هذا ملتقى يخدم أهداف الحكومة الاشتراكية الديكتاتورية القائمة وقيل لى إن الوزير يحاول أن يسير الملتقى لأهداف الحكومة لذلك آثرت الاعتذار كلما جاءتنى دعوة.

ثم يشاء القدر أن يزور قطر أحد علماء الجزائر.. وقال لى إن الوضع الآن تغير وأن وزير الشئون الدينية فى الجزائر رجل من تلاميذ ابن باديس ورجل صدق، وحبذا لو تستجيب للدعوة، وسألت عن اسمه فقال لى: اسمه عبدالرحمن شيبان، فقلت سأستجيب إن شاء الله إن جاءتنى دعوة، ولم ألبث إلا قليلا حتى تلقيت دعوة لحضور ملتقى الفكر الإسلامى وكان موضوعه عن السنة النبوية وعقد فى مدينة «تلمسان» وذهبت لأول مرة إلى الجزائر ولقينى بعض الشباب الإسلامى المتحمس فى الفندق الذى نزلت به وقالوا: كيف استجبت لهذه الدعوة ألا تعلم أن هذا الملتقى ملتقى مشبوه؟!

قلت: والله لقد استجبت لهذه الدعوة من أجلكم!! فقد قيل لى إن فى الجزائر شبابا مسلما، وأن هذا الشباب يحتاج إلى تثبيت وترشيد فأنا جئت من أجلكم وليس لى هدف ولا أى فائدة أو هوى فى حضور هذا الملتقى فإذا كان حضورى غير مفيد أو يضركم أو يضر الدعوة أو الصحوة الإسلامية فأنا لا أحضره بعد ذلك ويشاء الله أن يكون الملتقى مجالا لنشاط متعدد فقد ألقيت كلمة فى حفل الافتتاح والقيت كلمة رئيسية فى المحاضرات وعلقت على كثير من المحاضرات وخطبت الجمعة وألقيت عددا من المحاضرات فى الأندية والمدارس والتقيت بالطلاب والطالبات وهم قد تعودوا أن يأتوا بالطلاب والطالبات للملتقى وينزلوهم فى مدارس تابعة للدولة ويذهب بعض المحاضرين مثلى ومثل الشيخ الغزالى لمحاضرة هؤلاء فكانت مجالات متعددة لنشاط متنوع فى الحقيقة وكان بين الجلسات وبعضها البعض يلتف الشباب والشابات حولى ويسألوننى أسئلة متنوعة.

وبعد هذا النشاط المكثف جاءنى الشباب الذين لاقونى فى أول الأمر. وقلت

لهم: ما رأيكم؟!.. هل ترون أن أحضر بعد ذلك أم ترون وجودى ضارا بالدعوة والصحوة؟!

قالوا: يجب أن تحضر إن وجودك كان مهما ونافعا وضروريا فى هذا الأمر.

فقلت الحمد لله وفعلا بدأت أحرص على حضور الملتقى الإسلامى.

بعد الملتقى فى تلمسان ألقيت عدة محاضرات فى العاصمة الجزائر وفى السنة التى بعدها كان هناك ملتقى فى مدينة قسنطينة وهى مدينة المجدد المصلح الشيخ «عبدالحميد بن باديس الذى انطلق منها بدعوته المعروفة وهى عملية استبقاء الإسلام والعروبة فى الجزائر وحفظ الناس هذا النشيد المشهور.

«شعب الجزائر مسلم.. وإلى العروبة ينتسب»

«من قال حاد عن أصله.. أو قال مات فقد كذب»

وانتقلت جمعية العلماء من هذه المدينة إلى المدن الأخرى وكان هناك والحمد لله نشاط طيب فى قسنطينة والمدن الأخرى.

طباعة كتبى

وفى هذه السنة جاءنى بعض الناشرين وأصحاب المكتبات يطلبون نشر كتبى داخل الجزائر وقالوا: إن الشباب المسلم يبحث عن هذه الكتب فلا يجدها لأن هناك قيودا على الاستيراد وتحويل النقود لذلك ينتظرون معارض الكتب التى تقام فى كل عام فيبيت الشباب عند المعرض وعندما يفتح أبوابه يهجمون هجمة واحدة على الكتب الإسلامية فتنتهى فى ساعات فقالوا: إن الشباب متعطش لهذه الكتب، ولا يكفى أن نستورد عشرات أو مئات من هذه الكتب نحن فى حاجة إلى آلاف منها، وقلت لهم: ليس عندى مانع اطبعوا هذه الكتب ووزعوها داخل الجزائر، فهذه الكتب من حق ناشرين خارج الجزائر، فما دمتم توزعونها داخل الجزائز فلا حرج عليكم، وأنا أعتقد أن هذه الكتب جديرة أن تحدث ثورة - الكتب الإسلامية بصفة عامة - ولا أقصد كتبى - تحديدا - لأنه ليس هناك مجال لإقامة جمعيات إسلامية ولا أى منظمات إسلامية، الكتاب هو الشىء الوحيد المباح فقلت لهم انتهزوا هذه الفرصة وانشروا هذه الكتب ووزعوها لتصنع فكرا إسلاميا ووعيا إسلامياً جديدا.

وفعلا بدأوا ينشرونها واخذوا من الشيخ الغزالى حفظه الله وعدد من كبار الدعاة الإسلاميين وبدأ الكتاب الإسلامى ينتشر فى الجزائر.

الغزالى فى قطر

● قلت: ألم تكن الجامعة الإسلامية بالجزائر قد بدأت بعد؟

- قال الشيخ القرضاوى:

لا.. فى هذه الأيام لم تكن الجامعة موجودة وأذكر أنه فى هذه الأيام بعدما حدث ما حدث عام ١٩٨١ فى مصر، وكان الشيخ الغزالى خارج مصر فى ذلك الوقت، فأرسلت إليه وكنت عميدا لكلية الشريعة فى ذلك الوقت ليحضر ويبقى معنا فى كلية الشريعة وجاء وظل معنا أستاذا زائرا لمدة ثلاث سنوات مقيما فى قطر وعلى الرحب والسعة من الجميع وقام بدوره الطيب، وفى هذه الأثناء فكرت الجزائر أن تقيم الجامعة الإسلامية جامعة الإمام عبدالقادر للعلوم الإسلامية فى قسنطينة وطلب الرئيس الشاذلى بن جديد من الشيخ الغزالى أن يتفرغ لهذه الجامعة ليكون مستشارا لها ومديرا لمجلسها العلمى ومسددا لخطاها وفعلا تكلم معى الشيخ الغزالى فى هذا وقلت له: الجزائر أولى من قطر.. الجزائر تحتاج أكثر وبلد فى بدايته الصحوة والنهضة وفى فترة الاستقلال بعد محاولة الفرنسة لمدة ١٣٠ عاما فالبلد محتاج لفضيلتك.

وذهب الشيخ الغزالى بعد أن اقيمت هذه الجامعة وكان الشاذلى بن جديد وثيق الصلة بالشيخ الغزالى ووثيق الصلة بعدد من العلماء المداومين على حضور ملتقيات الفكر الإسلامى وكنت أنا منهم.

واستمرت هذه الصلة بالجزائر.. سواء حضور ملتقيات الفكر الإسلامى أو حضور محاضرات أثناء العام حيث دعونى مرات أخرى لإلقاء محاضرات فى الجامعة نفسها وفى ندوات مختلفة فى الولايات المتعددة وتوثقت الصلة بالجزائر.

وعندما حدثت الثورة التى حدثت عام ١٩٨٨ قال لى بعض الإخوة إن الثورة التى توقعتها بسبب الكتب الإسلامية قد حدثت بالفعل، وخرج الرئيس الشاذلى بن جديد.ووعد بأنه سيبدأ إصلاحات دستورية وسياسية فى البلاد

ويبدأ الانفتاح وسيسمح بالتعددية وقيام الأحزاب الإسلامية وفعلا سمح بقيام أول حزب إسلامى أنشىء فى ذلك الحين وهو «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» وذهبت مع فضيلة الشيخ الغزالى وقابلنا الشاذلى بن جديد وشكرناه وأثنينا على خطوته الشجاعة أنه فتح الباب للإسلاميين وهو ما يعتبر خطوة تقدمية بناءة حتى لا يعمل الناس فى الظلام وفى السراديب تحت الأرض يعملون علنا ولماذا لا يتاح للإسلاميين ما أتيح لليساريين والماركسيين والليبراليين والعلمانيين وكل الفئات الأخرى ونشرت هذه المقابلة حينئذٍ فى وسائل الإعلام المختلفة بالإذاعة والتليفزيون والصحف.

طلب الرئيس الجزائرى

وقد ظل فضيلة الشيخ الغزالى لمدة خمس سنوات بالجزائر وهو يعطى سواء على مستوى الجامعة أو على المستوى العام بالتليفزيون والإذاعة ثم تعب صحيا، واضطر أن يعود إلى مصر.

وكان الرئيس الشاذلى بن جديد حريصا على هذه الجامعة وكان يعتبر أنها ثمرة من ثمرات عهده ولذا أشار عليه بعض خلصائه لأقوم مقام الشيخ الغزالى فى إدارة المجلس العلمى للجامعة وتنوير الجامعة بما ينبغى أن تفعله فى برامجها واتجاهاتها وطلب ذلك من أمير دولة قطر رسميا، وقام سفير الجزائر بمقابلة سمو الأمير وطلبنى الأمير وقال لى: إن الرئيس الشاذلى بن جديد يطلبك وأنا لا أرى مانعا من أن تذهب إليه لمدة عام.. ومكانك هنا محفوظ، وهذا موقوف على رغبتك، لقد وافقت على هذا معلقا على رغبتك فقلت: أنا ليس عندى مانع، خاصة وأنا أرى أن الجزائر فى حاجة فعلا، وهذه مكرمة من قطر أن تعين الجزائر فى هذا الصدد على أن اتردد على قطر بين الحين والآخر.

وفعلا ذهبت إلى الجزائر وكان عملى فى ذلك العام قسمين لأنه عمل من الجامعة من ناحية ومع وزارة الشئون الدينية من ناحية أخرى ومن هنا كنت أقيم فترة فى العاصمة وفترة فى قسنطينة، فى العاصمة ألقى دروسا أسبوعية فى المسجد الكبير هناك وهو أقدم جامع بالجزائر ألقى فيه درسا فى التفسير والقى محاضرات فى الجامعة ومعهد الدراسات الإسلامية.

ثم أذهب مرة أخرى إلى قسنطينة لرئاسة المجلس العلمى للجامعة والقاء بعض المحاضرات أيضا.

وكنت أيضا أدعى للمحافظات المختلفة وكما تعرف فإن الجزائر بلد كبير به ٤٨ محافظة على ما أذكر فلو استجاب الإنسان لمرة واحدة لمحافظة يحتاج إلى سنة كاملة ولكنى ذهبت إلى عدد كبير من المحافظات وكان لى أحاديث فى التليفزيون والإذاعة ولقاءات فى الصحف.

وكانت سنة حافلة بالنشاط.

قلت: لماذا لم تستمر فى الجامعة سوى سنة واحدة فقط؟ أم أن سنة واحدة كانت كافية للمهمة؟!

- قال الشيخ القرضاوى:

خلال هذه السنة حقيقة بدأت تظهر النذر السياسية والخلافات بين جبهة الإنقاذ والآخرين، حتى بين الإسلاميين وبعضهم والبعض، وحاولت فى تلك الفترة أن أقرب بين وجهات النظر بين جبهة الانقاذ وحماس والنهضة وهى كلها اتجاهات إسلامية وفقنا حينا وأخفقنا أحيانا على كل حال، كانت هذه هى السنة التى قضيتها ولم أحاول أن أعود مرة أخرى لأن الأمور بدأت تتطور بسرعة فى الجزائر والدخول فى الانتخابات ووجدت أن الجو لا يشجع على الاستمرار فرأيت أنه لابد أن أعود لأن الجو بدأ يتلبد بالغيوم ولا يعرف على ما تقدم الجزائر وما هو الأمر المخبأ لها.

فقد كان الإنسان يحس بأن شيئا سيحدث والقوى التى توجه العالم وتنظر إلى الإسلام بخوف هل يمكن أن تسمح بقيام دولة للإسلام فى الجزائر هذا ما كان الإنسان يخافه ويتوقع ألا يتم بهذه السهولة التى يظنها إخواننا هناك فعدت إلى قطر.

محاولات الإصلاح

● قلت من خلال معاصرتك لبدايات الأزمة الجزائرية ومحاولاتك لرأب الصدع بين فصائل التيارات الإسلامية.. فما هو تقييمك لما جرى ولماذا جرى أساسا؟!

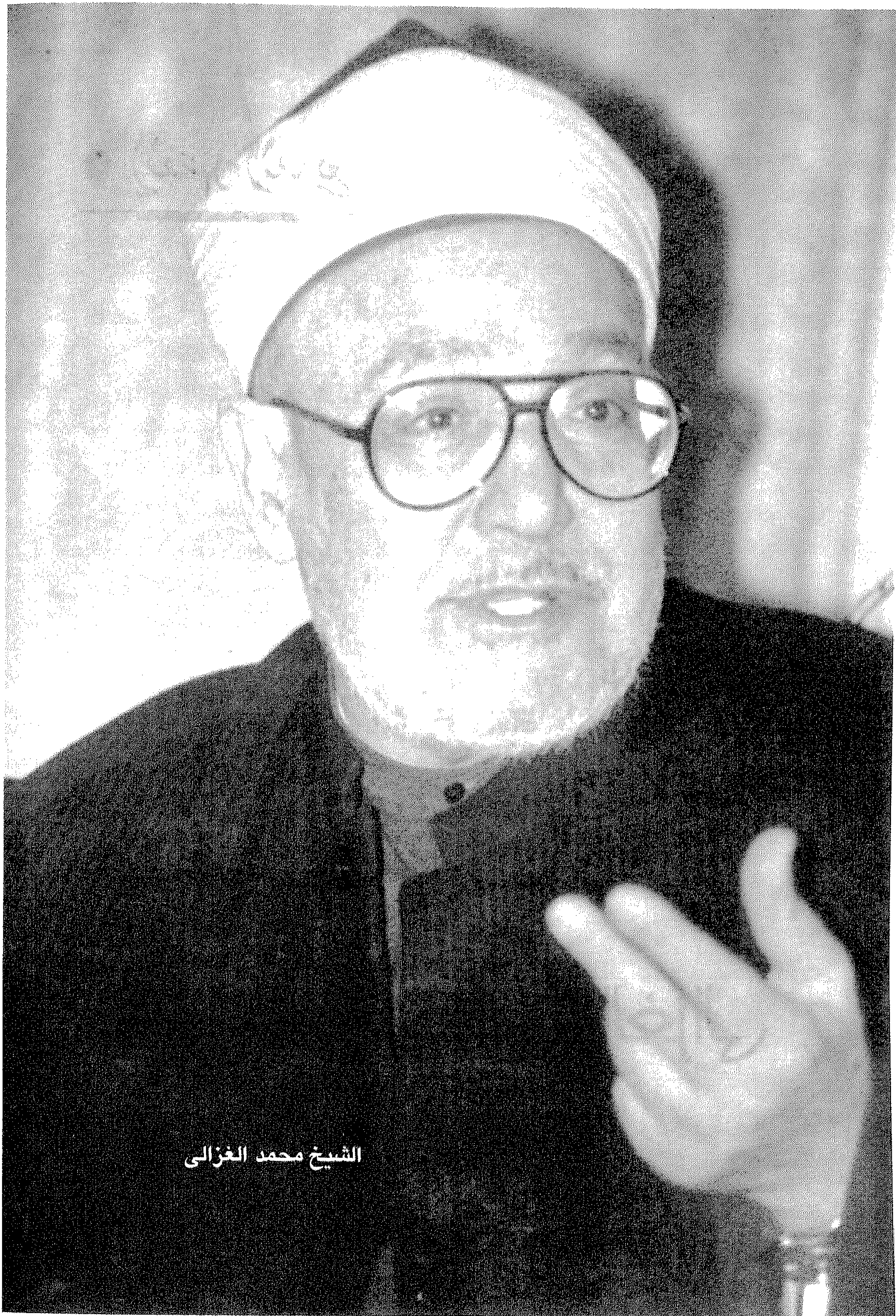
ـ الشيخ القرضاوى:

ـ محاولاتى فى رأب الصدع كانت بين الإسلاميين وبعضهم البعض لأن هذا أمرى يعنينى فى الدرجة الأولى وكتبت عنه فى عدد من كتبى ما يؤرقنى أن الفصائل الإسلامية للأسف تتباعد فيما بينها مع أن الواجب هو أن تتقارب وبعض الفصائل تريد أن تنظر أنها صاحبة الحق و حدها وأن الآخرين لا مكان لهم بجوارهم وأنا حاولت أن أقول يا جماعة إنه لا مانع أن تتعدد الفصائل الإسلامية والجماعات الإسلامية كلٌ يخدم الإسلام بطريقته وقد نتفق فى الأهداف ونختلف فى ترتيبها وقد نتفق فى الأهداف ونختلف فى الوسائل والمناهج أنت ترى الوصول بطريق التربية وهذا يرى الوصول بالقوة، وآخر يرى الوصول بالسياسة وآخر يرى بالتأثير الاقتصادى وآخر يرى بالتغيير الحضارى فلا مانع.. ثم إن الناس قد يختلفون على الأشخاص ويمكن أن يتفقوا على الأهداف والمنهج والوسيلة ولكنى لا أؤمن بالشخص كقائد. فهناك أسباب للاختلاف ولا مانع أن توجد هذه الأسباب.. وقد كتبت كتابا فى هذا المعنى بعنوان الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم لا مانع أن نختلف فى المناهج والوسائل وحتى فى بعض الأهداف ولكن يجب أن نقف صفا واحدا فى القضايا المصيرية قضايا الأمة الكبرى لا يجوز أن نختلف فيها، يجب أن يكون بيننا قدر من التعاون والتنسيق والتضامن إذا كنا فى معركة فيجب أن ننسى الخلافات الجزئية ونقف جبهة واحدة فى المعركة والله تعالى يقول: «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» يعنى فى حالة المعركة لا اختلاف نحن فى معركة، الإسلام وأمته فى معركة مع أعدائه والقوى المتربصة به الماكرة به الخائفة منه، الكارهة له، كيف نتفرق وحالنا هذه.

وهذا أمر يعنينى من قديم لذلك لما رأيت الخلاف بين الإسلاميين بالجزائر.. ناديت أن يوحدوا صفوفهم حاولنا أن نقرب وكما قلت فشلنا حينا ونجحنا حينا ولم نستطع أن نجعل الجميع يقفون صفا واحدا.. وهذا مما يؤسف له.

♦ الفصل السابع

القرضاوى والغزالى


الشيخ محمد الغزالى

لم يكن أحد ليخطئ وهو يتحدث عن قمة الهرم الدعوى والفكر الإسلامى أحد هؤلاء الإعلام الثلاثة: الشيخ محمد متولى الشعراوى.. والشيخ محمد الغزالى.. والشيخ يوسف القرضاوى.. كانوا اضلاع المثلث الذهبى فى الحق.. والدفاع عن الإسلام وأهله.. وبذلوا جهودا جبارة فى محاولة انتشال المجتمع من وهدة التردى العلمى والأخلاقى والسياسى والدينى والاقتصادى.. وغيرها من محاور الاختراق والاحتراق وفرصة الهيمنة والسيطرة.

بدأت العلاقة بين الشيخين القرضاوى والغزالى علمية روحية وكان القرضاوى شغوفا بمقالات الغزالى التى كان ينشرها فى مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية تحت عنوان «خواطر حرة».. ولم يكن يعلم عنه أى شىء.. وسر سرورا كبيرا حين علم بالصدفة أن الشيخ الغزالى من خريجى الأزهر وذلك حين وقع ذات مرة أسفل مقال له بـ: «محمد الغزالى.. الواعظ».

والتقاه لأول مرة فى معتقل الطور مع الإخوان.. يقول القرضاوى ومن حسن حظى أن كان أمامنا - فى مسجد السجن - الشيخ محمد الغزالى فقد من الله تعالى على أن كنت مع الغزالى فى حذاء واحد.. وأن يكون هو أمامنا فى كل الصلوات.

وسجل القرضاوى علاقته الوطيدة ومشوار الكفاح فى كتاب «الشيخ الغزالى كما عرفته.. رحلة نصف قرن.. وصدر فى الأيام الأخيرة لحياة الشيخ الغزالى.. تقديرا لدوره وكفاحه من أجل هذا الدين.. وكان القرضاوى حريصا على أن يصدر الكتاب والشيخ على قيد الحياة لأنه يرى أن التكريم الحقيقى للعلماء يجب أن يكون وهم أحياء وليس بعد رحيلهم.

ومن السنن الحميدة التى استنها الشيخ القرضاوى رثاء كبار علماء الأمة سواء فى خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب فى الدوحة أو الكتابة فى الصحف وغالبا هما معا.. وحدث ذلك مع الشيخ الغزالى وغيره.. وقد رثاه بكلمة ضافية حدد فيها موقع الغزالى ودوره وأثره وجهاده فى سبيل نصره الحق.. وجعل لها عنوانا مؤثرا.. «وأخيرا هوى النجم».

وفيما يلى نص الكلمة التى رثى بها القرضاوى العلامة الغزالى:

وأخيرا هوى النجم..

وأخيرا هوى النجم الساطع، واندك الجبل الأشم، وطوى العلم المنشور، وغابت الشمس المشرقة، وترجل الفارس المعلم.. ومات الشيخ الغزالى.

أخيرا فقدت الأمة الإسلامية علم الأعلام، وشيخ الإسلام، وإمام البيان ورجل القرآن.

أخيرا أغمد قلم كان سيفا على أعداء الله، لم يفل له حد طالما أرعب الملاحدة والمنافقين، وخرس لسان ظل يجلجل ويدوى خلال ستين عاما، بالدعوة إلى الله، يحشد الناس ألوفا ألوفا فى ساحته، ويجمعهم صفوفا.. صفوفا على دعوته.مات الشيخ الغزالى، وهو فى قلب المعركة لم يلق السلاح، ولم يطو الشراع بل ظل يصارع الأمواج، ويواجه العواصف التى هبت من يمين وشمال على سفينة الإسلام، تريد أن يبتلعها اليم، وأن تغرقها الرياح الهواج.

فقد نشرت وكالات الأنباء أن الشيخ أصيب بالأزمة القلبية الحادة، وهو يحاضر فى ندوة: (الإسلام والغرب) التى عقدت فى الرياض. لقد سقط الفارس والسيف مسلط فى يده! وأحسبه من (الشهداء) إن شاء الله، فقد مات وهو يدعو ويدافع عن الإسلام، كما مات غريبا.

كنت أعلم أن الشيخ الغزالى مصاب بجلطة منذ سنوات، وأن أطباءه نصحوه وأكدوا عليه ألا يسافر لأن صحته لا تحتمل متاعب السفر، ولكن الشيخ لم يكن يسعه إذا دعى إلى عمل إسلامى أن يرفض، ويقول: إن الكريم لو دعى إلى طعنة لأجاب!

ولهذا سافر إلى أمريكا ممثلا لمجمع البحوث الإسلامية.

وفوجئت حين قرأت حضوره مهرجان الجنادرية الثقافى بالرياض، ليشارك

فى ندوة عن (الإسلام والغرب)، مع أن الشيخ أرسلت إليه دعوات كثيرة من عدة أقطار - خصوصا من الخليج - تلح عليه أن يساهم ببعض المحاضرات فى ليالى رمضان، ولكنه اعتذر بلطف للجميع.

ويبدو أن الله تعالى قدر له هذا السفر لأمر يعلمه سبحانه، وهو أمر يحبه الشيخ رحمه الله. ذلك أن يكون مثواه الأخير بالقرب من مثوى رسول الله عليه الصلاة والسلام ومسجده الشريف، بمدافن البقيع بالمدينة المنورة، التى ألف بها كتابه القيم (فقه السيرة) ودمعه يختلط بالمداد تأثرا وحبا للرسول الكريم. وما كان يتاح له هذا إلا بمثل ما حدث والله غالب على أمره.

وقد أخبرنى صديقه وصديقى أ. د. محمد عمر زبير الذى حضر جنازته ودفنه بالمدينة: أن قبره فى موضع متميز، قريب جدا من قبر الإمام مالك، بينه وبين قبر الإمام نافع أحد القراء السبعة، رضى الله عنهم جميعا.

لقد عرفت الشيخ الإمام منذ نحو نصف قرن فعرفت فيه العقل الذكى، والقلب النقى، والخلق الرضى، والعزم الأبى، والأنف الحمى، عرفت الغزالى فما عرفت فيه إلا الصدق فى الإيمان، والسداد فى القول، والإخلاص فى العمل، والرشد فى الفكر، والطهارة فى الخلق، والشجاعة فى الحق، والمعاداة للباطل، والثبات فى الدعوة، والمحبة للخير، والغيرة على الدين، والحرص على العدل، والبغض للظلم، والوقوف مع المستضعفين، والمنازلة للجبابرة والمستكبرين، مهما أوتوا من قوة.

عرفت الشيخ الغزالى فعرفت رجلا يعيش للإسلام ، وللإسلام وحده، لا يشرك به شيئا، ولا يشرك به أحدا، الإسلام لحمته وسداه، ومصبحه وممساه، ومبدؤه ومنتهاه. عاش له جنديا، وحارسا يقظا، شاهر السلاح، فأيما عدو اقترب من قلعة الإسلام يريد اختراقها صرخ بأعلى صوته، يوقظ النائمين، وينبه الغافلين، أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكيه على الله.

قد تختلف مع الشيخ الغزالى فى قضية أو أكثر، وقد تنقده فى بعض ما ذهب إليه من آراء، ولكنك لا تستطيع أن تشك فى صدقه واخلاصه وغيرته. وهو على كل حال مجتهد فى فهم دينه وفى خدمته بالطريقة التى يراها أصلح وأصوب، فإن أصاب فله أجران، وأن أخطأ فله أجر واحد.

لقد ترك الشيخ الغزالى بصمات واضحة على العقل الإسلامى، لا يمحوها

اختلاف الليل والنهار: بما ألف من عشرات الكتب، وما أنشأ من مئات المقالات، وما أقام من آلاف الدروس والخطب والمحاضرات، وما أذيع له من أحاديث لا تحصر فى الإذاعات والتلفازات.

كما كان للشيخ تلاميذ وطلاب تلقوا عنه العلم فى الجامعات التى عمل فيها: فى الأزهر فى مصر، وفى أم القرى فى مكة، وفى كلية الشريعة فى قطر، حيث سعدنا به فيها لمدة ثلاث سنوات، وفى جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية فى الجزائر، الذى بقى فيها خمس سنوات متصلة.

لقد لقن الشيخ طلابه الموازنة بين العقل والنقل، وبين الأصول والفروع، وبين الدين والدنيا، ولم ينسق وراء الذين يريدون أن يبطلوا النصوص باسم المصالح، ولا الذين يريدون أن يرفضوا المنقول باسم المعقول، ولا الذين يريدون أن يقيموا حربا بين الإسلام والعصر، أو بين الإسلام والتطور، إنه يقول للذين يطالبون الإسلام بإن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور بأن يسلم؟!

قد يأخذ الناس على الشيخ الغزالى بعض آرائه وفتاواه، لأنها ليست على مشربهم، ولكن الذى أعلمه أن الشيخ الغزالى لم يخرج فى فتوى أو رأى على اجماع الأمة المستيقن وقد بينت ذلك فى كتابى عنه. وقد اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية قديما بأنه خرق الإجماع فى قضايا الطلاق وما يتعلق به. وهو الذى قال فيه تلميذه الحافظ الذهبى: وله فتاوى نيل من عرضه بسببها، وهى مغمورة فى بحر علمه.

وأنا أقول: إن هذه الفتاوى التى أوذى من أجلها ابن تيمية وأدخل فيها السجن ومات فيه، هى المعتمدة الآن لدى كثير من أهل الفتوى، وهى التى أنقذت الأسرة المسلمة من الانهيار.

لقد صدح الشيخ الغزالى بما يرى أنه الحق، ولا يسع عالما يخشى الله ألا يفعل ذلك، مادام من (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله).

ربما كان فى عباراته - فى أحيان قليلة - بعض الحدة، و ما ذلك إلا أثر من آثار الحرارة التى تتوقد فى صدره، فهو لا يطيق العوج، لا من المسلمين ولا من غيرهم، فإذا رأى عوجا تأجج قلبه نارا، تظهر على ثمرات قلمه ولسانه.

قد عاش الشيخ الإمام رحمه الله عمره كله محاربا للقوى المعادية للإسلام

فى الداخل والخارج، والتصدى لتياراتها، والعمل على هدم أوكارها، وهتك أستارها، وكشف عملائها، وهو هنا مقاتل عنيد، لا يستسلم ولا يطأطىء، ولا يلين يوما.

وقف فى وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها (أحقاد وأطماع).

وفى وجه الصهيونية، التى اغتصبت الأرض المقدسة وشردت الأهل، وخططت لهدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان على أنقاضه.

وفى وجه التنصير، الذى يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم، ليصبح المسلمون عبيدا للصليبية الغربية.

وفى وجه الشيوعية التى سماها (الزحف الأحمر) ونبه على خطرها من قديم، واكتساحها للجمهوريات الإسلامية فى آسيا.

وفى وجه الحضارة المادية وإباحتها الجنسية، وعصبيتها العنصرية، ومحاولتها للسيطرة الامبريالية، وإن لم ينكر ما فيهامن عناصر ايجابية يمكن الاستفادة منها.

وفى وجه العلمانية اللادينية، التى تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض تريد الإسلام عقيدة بلا شريعة، وسلاما بلا جهاد، ودينا بلا دولة، واتباعا أعمى للغرب «شبرا بشبر، وذراعا بذراع».

وقد بدأ الشيخ هذه المعركة من قديم، حين رد على صديقه الشيخ خالد محمد خالد فى كتابه (من هنا نعلم) ولكنه لم يقس عليه، وكان يظن به خيرا، وأنكر على الأزهر حين فكر بعضهم أن يجرد الشيخ خالدا من شهادة العالمية، وقد صدقت الأيام ظن الغزالى، وعاد خالد إلى رحاب الإسلام الذى نشأ فى ظله، وتربى فى أحضانه.

وبقدر لين الشيخ الغزالى مع الأستاذ خالد، كان نارا تكوى وتحرق، على العلمانيين المعادين علنا لشريعة الإسلام، وهو يقول لماذا لا نسمى هؤلاء باسمهم الحقيقى؟ إنهم المرتدون!

لقد عرفت الشيخ الغزالى عن كثب، عرفته فى معتقل الطور، وعرفته بعد المعتقل، وعايشته وصحبته فى السفر والحضر.

وقد وجدت الشيخ الذى يشتد ويحتد فى نزاله الفكرى، فيهدر كالموج، ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث، حتى إنك لتحسبه فى بعض ما يكتب مقاتلا فى معركة، لا مجادلا فى قضية، وتحسب القلم الذى فى يده، كأنما السيف أو الرمح فى يد ابن الوليد: و جدته - عن كثب - إنسانا رقيق القلب، قريب الدمعة، نقى السريرة، صافى الروح، حلو المعاشرة، كريم الخلق، باسم الثغر، موطأ الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطا متواضعا، هينا لينا، بعيدا عن التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء، تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفا إنسانيا، ويهتز خشوعا وتأثرا، إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، يعترف لكل ذى موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله يقول بصراحة لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط على أحد.

لقد عاش الشيخ الغزالى حياته كلها حر الفكر والضمير، حر القلم واللسان، لم يعبد نفسه لأحد إلا لربه الذى خلقه فسواه، لم يبع ضميره ولا قلمه لمخلوق كان. وكم حاول أصحاب السلطان أن يشتروه، ولكنهم لم يقدروا على ثمنه. وكيف يمكن أن يشترى من يريد الله والجنة؟! ولقد لوح له بالمناصب التى يسيل لها لعاب الكثير من عبيد الدنيا، ولكن الشيخ لم تلن له قناة، ولم يغره وعد، كما لم يثنه وعيد. لقد كان يتمثل بالشافعى رضى الله عنه وهو يقول:

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً
وإذا مت لست أعدم قبراً!
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حر ترى المذلة كفراً!

ومما يذكر للشيخ الغزالى هنا: أنه رفض الخضوع لأهواء العوام، كما رفض الخضوع لسلطة الحكام. وكتب مرة مقالة يقول فيها: أهواء العامة لا تهادن. ولم يحاول أن يزايد بإرضاء الجماهير، على حساب ما يراه حقا فى دينه، كما يفعل ذلك بعض (الأدعياء) الذين يحسبهم الناس (دعاة) وما أعظم الفرق بين الدعاة والأدعياء!

- لقد مات الشيخ الغزالى، ولكن أفكاره لم تمت، إن الأفكار لا تموت بموت أصحابها، إنها لم تزل حية ناطقة فى كتبه الأصيلة المتميزة، التى انتشرت فى المشارق والمغارب، وطبعت مرات ومرات، وترجم كثير منها إلى عدد من اللغات، وفى تلاميذه المنتشرين فى أنحاء العالم، الذين يحملون دعوته، ويتبنون رسالته.

لقد ألفت كتابا عن شيخنا الغزالى كما عرفته، خلال نصف قرن فى ٢٨٦ صفحة، وقد نشرته صحيفة الشرق القطرية، على ثلاثين حلقة، خلال شهر ر مضان قبل الماضى (١٤١٥هـ) ثم نشرته دار الوفاء فى مصر. وقد ظهر خلال معرض الكتاب الدولى فى القاهرة الذى أقيم فى الشهر الفائت. ولا أدرى هل قدر للشيخ أن يراه بعد صدوره أم لا؟ وهوبعض ما للشيخ من حق على وعلى أمثالى ممن انتفعوا بعلمه، واقتبسوا من ضيائه.

ليس هذا الكتاب تاريخا للغزالى، فلا أزعم أنى أملك كل أدوات المؤرخ، ولا أملك المعلومات الكافية لمثل هذا العمل، وأنا أعلم أن الشيخ - رحمه الله - قد كتب قصة حياته، وكنت أدعو الله أن يمد فى عمره فى عافية وتوفيق وبركة، حتى يضيف إلى كتابه فصولا وفصولا، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

كما أرجو أن يوفق الله بعض أبنائنا الدارسين فى أقسام الدعوة وغيرها أن يقدموا فى أطروحاتهم العلمية دراسات إضافية عن الشيخ رحمه الله وعطاءاته الخصبة والمتنوعة، بما يليق بمكانة الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية.

وقد قلت فى مقدمة ذلك الكتاب:

ما أقدمه اليوم إنما هو ذكريات وخواطر وأفكار، تحاول أن تقدم صورة للشيخ الإمام، صادرة من معرفتى به، ومعايشتى له، وقراءتى وسماعى له، نحو نصف قرن من الزمان.

أجل لست أؤرخ للغزالى فما أنا بالمؤرخ، ولكنى أشير إلى ملامح من حياته وسيرته، عرفتها عن معايشة وقرب، ولا أزعم أنى رسمت له صورة بينة الملامح، فما أنا ممن يحسن الرسم.

وربما قيل : إنك تكتب بقلم المحب لا بقلم الناقد، وأنا أشهد أنى أحب

الغزالى وأتقرب إلى الله بحبه، ولكنى لم أعدم الحق فيما خط قلمى، ولا ينبغى أن يغمط الإنسان من يحب، فرارا أن يتهم بالتحيز، فالعدل يحكم القريب والبعيد، والصديق والعدو (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى).

وإنى لأنكر على الإسلاميين أنهم لا يعطون مفكريهم وعلماءهم وأدباءهم ما يستحقون من تكريم وتقدير، ينزلهم منازلهم، فى حين يصنع العلمانيون والماركسيون هالات مكبرة حول رجالاتهم، حتى يجعلوا من الحبة قبة، ومن القط جملا! وصدق فيهم قول الشاعر

وبقيت فى حلف يزين بعضهم   بعضا ليدفع معور عن معور!

وإذا قيل: إنك تنظر إلى الشيخ بعين الرضا، وعين الرضا لا تبصر العيوب، فحسبى أن أقول: إنى لا أزعم أن الغزالى مبرأ من العيوب، فما هو بالملك المطهر، ولا بالنبى المعصوم، وإنما هو بشر يخطئ كما يخطئ البشر، ويصيب كما يصيب البشر، ولكن أخطاءه وزلاته مغمورة فى محيط حسناته وميزاته.

وإذا بلغ الماء القلتين لم يحمل الخبث

فكيف إذا كان بحرا لا تكدره الدلاء؟!

والحق أن هذا الكتاب أو هذه الدراسة التى قدمتها عن الشيخ الغزالى - رحمه الله - أثبتت أننا أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام فذ من أئمة الدعوة والتجديد، بل نحن أمام مدرسة متكاملة متميزة من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها، ولها أسلوبها، ولها مذاقها الخاص، وتحتاج إلى دراسات عدة لابراز خصائصها ومواقفها وآثارها. فليس الغزالى ملك نفسه، ولا ملك جماعة أو حركة ولا ملك قطر ولا شعب، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء.

لقد عاش الشيخ - رحمه الله - بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدا: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغى أن يؤتى الدين من قبله و تفريطه، بل يجب أن يتنبه دائما لأعدائه فى الداخل والخارج، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعا ذائدا، بل مقاتلا مهاجما، فخير وسيلة للدفاع الهجوم، لا يلقى السلاح، ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى قائمة،

والحـرب على الإسـلام وأمـتـه دائـرة، لم ينطفـئ لهـا أوار، والدم الإسـلامى مستباح، وأكثر الموكلين بالحراسـة يغطون فى نوم عميق، أو مشغولون بالجدل حول فروع المسائل، وصغائر الأمور!

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب فى جبهتين واسعتين:

الأولى: جبهـة الخصـوم الكائدين للإسـلام، المتـربصين به الشـر، الكارهين لانتشار النور وعودته إلى قيد الحياة من جديد.

بعض هؤلاء من خارج الإسلام، وخارج أرضه، من القوى العالمية التى تخافه أو تبـغضـه: من اليـهـودية والصليبـيـة والشيـوعـيـة والوثنية، الذين اختلفت دياناتهم، واختلفت طرائقـهم، ولكن اتحـدت أهدافـهم على ضـرب الإسـلام، ووقف مـسـيرته، ووضـع الأحجـار والعـثـرات فى طريقـه، وهم الذين قـال الله فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ الأنفال: ٧٣ ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾الجاثية: ١٩.

وبعض آخـر - للأسف الشـديد - من داخل أرض الإسـلام بل من أبنـاء المسلمين أنفسـهم، وممن يحملون أسمـاء المسلمين: محـمـد وأحـمـد وحسن وحسين وعمـر وعلى.. ولكنهم لا يضـمـرون للإسـلام إلا شـرا، ولا لدعاته إلا عداوة، ولا لشريعته إلا تنكرا.. وربما عادوه لأنه ضد شهواتهم المحرمة، وضد مظالمهم المفترسة، وضد مصالحهم الآثمة، وضد مطامعهم الفاجرة.

والجبهة الثانية: جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسـلام، الذين يضرون الإسـلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه، ويهشمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفـعـون ذبابة عنه! هؤلاء الذين سـمـاهم الشـيـخ (البدعـاة الفـتـانين) الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

لقد كان يشكو من دعاة أغلبهم نكبة على الإسلام، وقذى فى عينه! إنهم لا يقـرءون ولا يعـانون، والقليل من الحقـائق لديهم لا يضـعـونه فى مـوضـعـه الصـحيح، وعلل الأمـة لا تلقى منهم أسـاة ولا بكاة، لأنهم مـشـدودون إلى جدليات الماضى السحيق، ولا يدركون مـاجد حولنا، ولا الطفرات الهائلة التى قفزت بها الحياة على أرضنا.

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الدم يسقط فى أول مراحل الطريق، فالعقل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد، أو يلبى حاجات الحق. إن مكمن الخطر على مستقبل الإسلام ومستقبل أمته وصحوته، تكمن فى هؤلاء الذين وجه إليهم الشيخ جل كتبه فى المرحلة الأخيرة، عساهم أن يتعلموا من جهل، وينتبهوا من غفلة، وينتهوا من الإعجاب بالرأى والازدراء للغير، وأن يتعلموا الذلة على المؤمنين، والتوقير للكبار، والرحمة للصغار.

يقول الشيخ: (والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين، يعلو الآن نقيقهم فى الليل المخيم على العالم الإسلامى، ويعتمد أعداء الإسلام - فى أوروبا وأمريكا - على ضحالة فكرهم فى إخماد صحوة جديدة لديننا المكافح المثخن بالجراح).

إن الحضارة التى تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة مادام لا يوجد بديل أفضل!

هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة؟! أو عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى، وفطرة أسلم، وسيرة أحكم؟

لقد نجح بعض الفتيان فى قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعا أو جذورا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقا تتساقط مع الرياح.

وشرف الإسلام أنه يبنى النفس على قاعدة ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ الشمس: ٩-١٠.

وإنه يربط الاستخلاف فى الأرض بمبدأ: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ الحج: ٤١:.

وهذا يخيف الشيخ الإمام ويثير فزعه على غد الأمة. يقول رحمه الله : (لقد خامرنى الخوف على مستقبل أمتنا لما رأيت مشتغلين بالحديث - ينقصهم الفقه - يتحولون إلى أصحاب فقه، ثم إلى أصحاب سياسة تبغى تغيير المجتمع والدولة على نحو ما رووا وما رأوا!!.

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الدينى الهابط هو أنه لا يدرى قليلا ولا

كثيرا عن دساتير الحكم، وأساليب الشورى، وتداول المال، وتظالم الطبقات، ومشكلات الشباب، ومتاعب الأسرة، وتربية الأخلاق.. ثم هو لا يدرى قليلا ولا كثيرا عن تطويع الحياة المدنية، وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة، والأهداف الكبرى التى جاء بها الإسلام.

إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم! هززت رأسى أسفا وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية!

إن الرسالة التى استقبلها العالم قديما: استقبلها المقرور للدفء، واستقبلها المعلول للشفاء، هانت على الناس فلم يروا ما يستحق التناول، وهانت على أهلها فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمى محارمهم.

فى مقدمة كتابه: (الإسلام فى وجه الزحف الأحمر) كتب الشيخ يقول: رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته. وأعرف أننى بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة!! ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام!!

وفى مقدمة كتاب: (قذائف الحق) قال الشيخ:

أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التى نزلت بأمته، كى يبنوا أنفسهم على أنقاضها.

يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قررنا نحن أن نبقى، وإن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة، ولو أقتضى الأمر أن نذهب فى سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة! إلى أن يقول فى نهاية المقدمة:

إن الله أخذ على حملة الوحى أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه. وأكد عليهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾آل عمران:١٨٧، فما بد من البيان وعدم الكتمان.

وأعلم أن ذلك قد يعرض لمتاعب جسام، ولكنى أقول ما قال صديقنا عمر بهاء الدين الأميرى:

الهول فى دربى وفى هدفى وأظل أمضى غير مضطرب!

ما كنت من نفسي على خور   أو كنت من ربى على ريب!

ما فى المنـــايا ما أحـــاذره   الله ملء القصـد والإرب!

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٧

شيخنا الحبيب:

لقد فقدتك الأمة أحوج ما تكون إليه، فقدتك والمعركة بين ـ الإسلام وأعدائه ـ حامية الوطيس، والأعداء جاءوا الأمة من فوقها ومن أسفل منها، «وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر» وظن الناس بالله الظنون، «هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا».

كنا فى حاجة إلى قلمك السيف، أو سيفك القلم، ليصول ويجول، مدافعاً عن الحق فى مواجهة الباطل، عن الإيمان فى مواجهة الكفر، عن الإسلام المحاصر من اليهودية العالمية، والصليبية الغربية، والوثنية الشرقية، ومن عملائهم فى ديار الإسلام ممن ينتسبون إلى الإسلام وهو منهم براء.

فقدناك يا شيخنا، والمؤامرة تبيت والمؤتمرات تعقد لضرب صحوة الإسلام ـ بيد أبنائه ـ تحت أسماء خداعة وعناوين كاذبة تحت «اسم الإرهاب» وهم أكبر الإرهابيين وتحت عنوان «العنف» وهم أول من استخدمه، وتحت اسم «التطرف» وهم صانعو المتطرفين.

يريدون ألا يبقوا للجهاد جذوة تتقد، ولا للدعوة شمعة تضىء، ولا للصحوة صوتاً يجلجل، ولكنا تعلمنا منك أن كيد الله أقوى من كيدهم، ومكره سبحانه وتعالى أسرع من مكرهم، ويده أشد من أيديهم «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون».

شيخنا الحبيب.. لا نجد كلمات فى روعة بيانك نودعك بها، كل ما نقوله لك: إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون..

اللهم اغفر لشيخنا الغزالى وارحمه وأسكنه الفردوس الأعلى، وتقبله فى

عبادك المخلصين، واجزه خير ما تجزى به الأئمة الصادقين، واحشره مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وأجرنا فى مصيبتنا فيه، واخلفنا فيه خيراً، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله آمين.

***

من طرائف ما وجدته على مواقع الدردشة على الإنترنت... نقل البعض حواراً شعرياً بين الشيخ القرضاوى والغزالى..

فقد كتب الشيخ القرضاوى أبياتاً يمدح فيها رفيقه فى العلم والجهاد الشيخ محمد الغزالى قال فيها:

أردت تجـديد صـــــرح الدين إذ عبثـت
به السـنون فهـدت منـه جـدراناً
فما وهنـت منـه أحجـار ترممـه
وما هـى أسـه تبنيـه بنيـانا
ترسى الأسـاس عـلى التوحيد فى ثقـة
وترفع الصـرح بالأخـلاق مـزداناً
حتى بلغـت الأعـالى مصـلحا بطـلا
تطـل من فوقهـا كالبـدر جـذلانا
وثلة الهدم فى السـفلى مواقفهـم
صـبوا عليـك الأذى بغيـا وعـدوانا
ترميـك بالإفـك أقـلام وألسـنة
خـانت أمانتهـا يا بئس من خـانا
كذلك لابـد للبنـاء مـن حجـر
يصـيبه أو يصـيب الطيـن أردانا

فرد عليه الشيخ محمد الغزالى بعد أن قال: يا رب سلم.

آذوك ظلما، فلم تجز الأذى بـأذى
لكن جعلت جزاء السوء إحســـانا
فكنت كالنخل يُرمى بالحجـارة من
قوم فيرميهـــــمو بالتمـــر ألوانا
قـــد أوســـعوك أكـاذيب ملفقـة
وأنت أوسعتهم صـــفحا وغفـــرانا
ومن تكن برســــــول الله أسـوته
كانت خلائقـــــه روحـــا وريحـانا.

الفصل الثامن

المعركة مع العلمانية



الشيخ القرضاوى مع الداعية عمرو خالد





.. والفنان حسن يوسف فى مؤتمر بالدوحة

●● المواجهة مع العلمانية ورجال العلمانية لك معهم معارك ومواقف تاريخية سواء فى اللقاءات العلنية أو فى الكتابات والخطابة وكيف بدأت علاقتك معهم؟

- د.القرضاوى: العلمانية فى الغرب مقبولة لأن الغرب تاريخيا بدأ يواجه الجمود الدينى.. بدأ يواجه محاكم التفتيش.. بدأ يواجه أناسا يتبنون نظريات قديمة يضفون عليها القداسة ويعتبرونها الدين، كانت الكنيسة الغربية تمثل الجمود ضد التحرر والظلم ضد العدل والتخلف ضد التقدم والوقوف مع الإقطاع ضد الفلاحين ومع الحلول المظلمة ضد الشعوب وذلك عندما ثار الناس قالوا: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس» لأن هؤلاء تعاونوا مع هؤلاء.

نحن لم يكن عندنا هذا.. ليس الدين عندنا ضد العلم، الدين عندنا علم والعلم عندنا دين والعلماء الكبار عندنا كانوا من أهل الدين عندما تقرأ ابن سينا أو ابن رشد أو الفخر الرازى أو ابن النفيس أو أحد هؤلاء تجد أنهم تعلموا تعليما دينيا وبعضهم كان فى العلم الشرعى، فابن رشد هذا كان شارحاً لأرسطو بل أكبر شارح لأرسطو وفيلسوف من أعظم الفلاسفة، بعض المؤرخين يعتبره أعظم فلاسفة الإسلام وهو صاحب كتاب الكليات فى الطب الذى كان يدرس فى أوربا لعدة قرون وهو فى الوقت نفسه فقيه من فقهاء المالكية المعدودين وقاض من قضاة الشرع وله كتاب فى الفقه المقارن يعتبر من أعظم ما ألف فىً الفقه المقارن اسمهعنوانه: (المجتهد ونهاية المقتصد).

الفخر الرازى صاحب التفاسير وكتب الأصول وعلم الكلام كانت شهرته فى الطب لاتقل عن شهرته فى الدين.

ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى ترجم له تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية باعتباره من الفقهاء فنحن ليس عندنا صراع بين العلم والدين فإذا كانت العلمانية بمعنى الجانب العلمى والعقلية العلمية واتباع المنهج العلمى والمنهج التجريبى أو منهج الاستقراء فنحن نرحب بها والعالم الإسلامى هو الذى اكتشف المنهج التجريبى والمنهج الاستقرائى وطبقه بالفعل ونقض المنطق الأرسطى، ابن تيمية له كتابان فى نقض المنطق الصورى الأرسطى والغرب تعلم المنهج التجريبى من المسلمين روجر بيكن وفرنسيس بيكون تعلم هذا من الحضارة العربية الإسلامية كما شهد بذلك مؤرخو العلم شهد بذلك جوستاف لوبون وشهد بذلك بريستول فى كتابه «الإنسانية» وشهد بذلك دريمر فى كتابه «النزاع بين العلم والدين» وشهد بذلك جورج سارتن فى كتابه «تاريخ العلم» .

الغرب من حقه أن يلجأ إلى العلمانية لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق الذى وضعهم فيهم رجال الكهنوت فى الكنيسة الغربية نحن ليس عندنا رجال كهنوت ولاعندنا كنسية ولا عندنا هذا الصراع، لسنا فى حاجة إلى العلمانية والعلمانية معناها عندنا رفض الشريعة يعنى العلمانية ليس معناها الالحاد، وكما ذكرت فى كتبى انما العلمانية معناها أن تقبل الإسلام عقيدة وترفضه شريعة وهذا غير مقبول لأنه لايمكن أن يتم إيمانك إلا بالرضا بحكم الله ورسوله: «إنما كان قول المؤمنين حين دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا»، «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»، «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم».

الإيمان بالإسلام يقتضى أن نؤمن به نظاما كاملا للحياة عقيدة وشريعة وأخلاقا وآدابا ورسالة حضارية.. هذا هو الإسلام.

العلمانيون يرفضون هذا الجانب، يريدون أن يأخذوا الجانب الروحى من الإسلام، يعنى أن يظل الإسلام فى القفص الصدرى فى الضمير.. علاقة بين الإنسان وربه.. فإن خرج من الضمير فليكن بين جدران المسجد وحتى لايعطوا الحرية الكاملة للمسجد ليس من حق المسجد أن يصبح محوراً

موجها فى الحياة، كما كان المسجد فى أيام النبوة وعصر الصحابة وصدر الإسلام.. كان الإسلام يوجه الحياة.. لا يراد أن يكون المسجد تابعا للدولة يأتمر بأمرها.. إذا أرادت الدولة الصلح مع اليهود فالصلح مشروع وإذ كانت تريد الحرب مع اليهود فالصلح حرام هذا ليس هو الإسلام ولذلك نحن وجدنا أن العلمانية غير مقبولة إسلاميا.. فى المسيحية ظاهر الإنجيل يفيد أنه لامانع أن يكون هناك للدولة شيء وللدين شيء لأنه قال «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله».. نحن ليس عندنا هذا، قيصر وما لقيصر كله لله ليست عندنا هذه الثنائية.

أيضا حتى الفكر الغربى من قديم -من عهد أرسطو- أن الله ليس له علاقة بالعالم لايعلم الله فى العالم شيئا ولايدبر فيه أمراً.. حتى أن وول ديورانت له تعليق فى كتابه قصة الفلسفة أو مناهج الفلسفة قال يا الإله أرسطو من إله مسكين إنه أشبه بملك الإنجليز يملك ولايحكم..» فالفكر الغربى يقبل هذا.. نحن عندنا لايقبل الإسلام هذا.. لأن الله هو الملك هو الخالق رب الناس إله الناس ملك الناس من شأنه أن يحكم «أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا».

فمن عناصر التوحيد ألا تبغى غير الله ربا ولاتتخذ غير الله وليا ولاتبغى غير الله حكما «أقول إن المناخ الدينى والمناخ الفكرى فى الغرب يسمح بوجود العلمانية على خلاف المناخ عندنا لايسمح بوجود العلمانية ولاضرورة للعلمانية، إذ لاتؤدى وظيفة عندنا إلا عزل الدين عن الحياة وهذا لايجوز أن يقبله المسلمون وليس من مصلحة المسلمين أن يعزل الدين عن الحياة لأنك إن فعلت ذلك عزلت مصدر القوة للأمة ومصدر النور والحيوية للأمة.. هذه أمة دينية أمة الدين هو صانعها وهو أساسها.. إذا عزلت الدين عنها كأنك عزلت الروح عن الجسم كأنما أخذت «حوتا» ووضعته فى الصحراء سيموت.

من أجل هذا نرفض هذه العلمانية يعنى عزل الدين عن المجتمع وعن الدولة وعن الحياة وإنما لو كانت العلمانية بالمعنى الذى يفهمه بعض الناس أنه اتباع منهج العلم والاحصاء والتخصيص للمستقبل أن يكون كل شيء بناء على دراسة هذا ما نراه لازما ونراه فريضة وضرورة..

● قلت هل حدثت مواجهة بينك وبين أصحاب الفكر العلمانى؟

●● د.القرضاوى: من ناحية المواجهة وجهًا لوجه لم تتم إلا فى تلك الندوة التى عقدت فى الدوحة وبعد ذلك تمت مع غيرى تمت مع الشيخ الغزالى ومع الدكتور عمارة فى مصر وفى الإسكندرية والدكتور العوا ومجموعة فى معرض الكتاب وفى نقابة المهندسين أظن فى الإسكندرية وتمت هنا فى قطر فى لقاء بين الدكتور محمد عمارة والدكتور فؤاد زكريا وفى الواقع سلم الدكتور فؤاد زكريا بمقولات الدكتور عمارة وقال فى النهاية أنا لا أمانع فى هذا، وكنت أنا موجوداً فى ندوة كان أقامها نادى الجسرة ولعلها قد نشرت ولكن مسجلة ويمكن الاطلاع عليها ولكن مع اعترافهم هذا فإنهم يقولون إن هذا مغالطة، يعتبرون طرح الإسلاميين لهذه الأفكار التى يسلمون بها ويتهمونهم بأنها مغالطة ومحاولة لتزيين الصورة أو كسب أرض جديدة وهذا الكلام وجه لى شخصيا فى محاورات ومناقشات عامة.

هم يتخذون أساليب معينة للمغالطات وللتنفير من الإسلام مثل قضية التطرف ومحاولة اتهام الإسلاميين جميعا بمحاولات التطرف وقضية الإرهاب أو العنف وقضية ما يسمونه «الإسلام السياسى» وأنا ناقشت هذه القضية فى قضايا معاصرة وقلت إنه لايوجد إسلام سياسى وإسلام روحى فالإسلام هو روحى وسياسى واقتصادى وأخلاقى وفكرى وتربوى، الإسلام هو رسالة شاملة ولايمكن أن تنزع الجانب السياسى فيه والذين يقولون إنه لاسياسة فى الدين ولادين فى السياسة حينما يحتاجون إلى الدين يلجأون إليه فى سياستهم ويطلبون من أهل الدين أن يؤيدوهم لماذا تأتون إلى الدين فى هذا الوقت؟! الإسلام فيه النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفيه الجهاد فى سبيل الله وفيه التشريع وفيه اقامة الحدود فى نظام المعاملات ونظام القضاء ونظام الإمارة والخلافة وهذه كلها فى صميم السياسة وكيف كما قلت أن المسلم وهو يصلى لله وهو فى أعماق الصلاة يدخل فى السياسة يقرأ الآيات التى تحرم الربا، والدولة تبيح الربا الآيات التى تتحدث عن الخمر، والدولة تبيح الخمر الآيات التى تتحدث عن الحكم بما أنزل الله والدولة لاتحكم بما أنزل الله، يتحدث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو معطل كيف تمنع هذا يمكن وأنت فى الصلاة تقنت وأنت تعرف من ضمن القنوت قنوت النوازل، كنا فى أيام

فلسطين ندعو على اليهود وأيام البوسنة والهرسك ندعو على الصربيين ونحن فى قلب الصلاة كيف تقول إسلام سياسى هذا يعنى محاولة خداع العوام بمثل هذه الألفاظ وبعض الناس الذين لاثقافة لهم يمكن أن تخدعهم مثل هذه الكلمات والعبارات.

● هل لك أصدقاء علمانيون أو حتى حاولوا أن يقيموا علاقة من نوع ما معهم؟

●● د.القرضاوى: علمانيون يمكن أن يكونوا مستتيرين ولكن لم يصلوا إلى درجة تتبنى العلمانية اللا دينية المتطرفة، هناك تطرف علمانى، كما أن هناك تطرفا دينيا، هناك تطرف علمانى ضد الدين إذا كان داخل الدين هذا متطرف، هناك الذين يريدون أن يطاردوا الدين حيث يجدونه، ودعاة الدين ولايريدون أن يجعلوا لهم الحق كغيرهم؛ يعنى بالله عليك كيف تسمح للشيوعى واليسارى والماركسى والقومى وكل من له إيديولوجية معينة أن يكون له حزب يعبر عنه ولاتسمح للمسلم أو أصحاب الدين الإسلامى أن يكون لهم حزب يعبر عنهم؟ هل هذا عدل؟!

أوروبا فيها الأحزاب الديمقراطية المسيحية والأحزاب الاشتراكية المسيحية والحزب المسيحى الذى حكم فى أكثر من بلد، فى ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وفرنسا فلماذا يحرم الإسلاميون مجرد تمسكهم بالإسلام، ومناداتهم بالإسلام، من حقهم المشاركة فى المشروع السياسى للأمة أى أنك تعاقب الإنسان لانتمائه للإسلام فهذا أمر غريب.

● وماذا عن دعوى العلمانية الإسلامية؟

●● أجاب د.القرضاوى: من غرائب ما ذكره بعض الليبراليين الجدد، ممن يعيشون فى أمريكا، ويدورون فى فلكها الفكرى والسياسى: ما يسمونه (العلمانية الإسلامية)!!

ولا أدرى كيف تكون العلمانية إسلامية؟! هل يقبل أن نقول: الشيوعية الإسلامية؟! أو (اللا دينية الإسلامية)؟!!

إن العلمانية معناها: فصل الدينٍ عن الدولة، بل فصل الدين عن حياة المجتمع، بحيث يبقى المجتمع معزولاً عن الدين وتوجيهاته وتشريعاته، فهذا هو مفهوم العلمانية المعروف عند الناس فى الشرق والغرب.. فكيف يكون هذا المفهوم إسلاميا؟

هل يقر الإسلام على نفسه أن يعزل عن توجيه الدولة والتشريع لها، بل عن حياة الناس والمجتمع كله، وتبقى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بغير دين؟

تذكر (موسوعة العلوم السياسية) الكويتية: أن العلماني عكس الديني، ويستخدم اصطلاحاً للإشارة إلى: مدخل للحياة ينفصل تماماً عن الدين، ويتشكل كلية باهتمامات زمنية دنيوية. وهي على المستوى الشخصي تعني: استبعاد الحس والشعور الديني من نظرة الفرد إلى جميع الأمور التي تتعلق بحياته وعلاقاته وسلوكياته، ومعاملاته السياسية وغيرها.

والعلمانية على المستوى العام هي: المذهب الذي يؤمن بضرورة ابعاد المؤسسات والمضامين الدينية عن ممارسة أي تأثير في أي من مجالات الحياة! بما في ذلك التعليم والتشريع والإدارة.

وهكذا ترى جميع الباحثين من كل الاتجاهات يرون التناقض بين العلمانية والدين لأن العلمانية هي (اللادين) فكيف تلتقي مع الدين؟

يقول هذا المدعي: العلمانية الإسلامية مصطلح جديد نطرحه اليوم وهو مصطلح مفزع ومقلق لكثير من رجال الدين وبعض الليبراليين الرومانسيين وهو مصطلح جديد في التسمية ولكنه قديم في التطبيق. نرى أن العمل به الآن هو الدواء الناجع والواقعي والعلمي للرد على بعض رجال الدين من اتهام العلمانية والعلمانيين العرب بالالحاد. ومن ذلك قول راشد الغنوشي من أن الطرح العلماني لعلاقة الدين بالدولة متأثر بالنمط الغربي، ولاسيما في صورته الفرنسية والشيوعية المتطرفة (مبادىء الحكم والسلطة في الإسلام) وقول الشيخ يوسف القرضاوي من أن العلمانية إلحاد كما في كتابه (الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ١٩٨٧م).

فإذا أردنا الإصلاح العلماني السياسي على وجه الخصوص، فليكن من داخل الإسلام وليس من خارجه. والعلمانية هي طريق الإصلاح ولا طريق لعلمانية تطبيقية غير طريق العلمانية الإسلامية التي نجح في تطبيقها أول الحكام العلمانيين العرب المسلمين، وهو الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

وهذا القول الذي قاله الكاتب الذي يلقي الكلام على عواهنه دون تمحيص ولا تدقيق: مليء بالأخطاء، بل الأكاذيب.

● فقد ادعى عليَّ أنى أقول: إن العلمانية إلحاد، ونسب ذلك إلى كتابى (الإسلام والعلمانية وجها لوجه) ومن قرأ ما كتبته فى فقرة (العلمانية والإلحاد) وجد قولى صريحا: إن العلمانية لاتعنى بالضرورة الإلحاد، فهو ليس من اللوازم الذاتية لفكرة العلمانية كما نشأت فى الغرب، فإن الذين نادوا بها لم يكونوا ملاحدة ينكرون وجود الله، بل هم ينكرون تسلط الكنيسة على شئون العلم والحياة فحسب.. الخ.

كل ما قلته: إن المسلم العربى الذى يقبل العلمانية يكون فى جبهة المعارضة للإسلام، وخصوصا فيما يتعلق بتحكيم الشريعة.. وقد تنتهى به علمانيته إلى الكفر إذا أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة وهذا غير ما يدعيه على الكاتب الأمريكانى!!

● وزعم الرجل أن أول من نجح فى تطبيق العلمانية الإسلامية، هو معاوية بن أبى سفيان، أو الحكام العلمانيين المسلمين فى رأيه.

وهذا افتراء على معاوية، كما بينا ذلك فى كتابنا (تاريخنا المفترى عليه) فكيف يقبل المجتمع المسلم فى عصر الصحابة والتابعين: العلمانية، وهو فى (خير القرون) التى أثنى عليها النبى صلى الله عليه وسلم ولو رضى بذلك معاوية ما رضى بذلك المجتمع المسلم فى ذلك العهد.

وإذا كان معاوية علمانيا، مخالفا لنهج الرسول وخيرة أصحابه، كما يزعم الكاتب، فكيف نتخذه أسوة لنا، وقد حرف الدين واتبع غير سبيل الراشدين؟! وكيف يكون الفلاح فى هذا المنهج المنحرف؟؟

● ولم يكتف هذا الرجل بالكذب على معاوية، فقد كذب على عثمان، الخليفة الثالث، صهر رسول الله، والمبشر بالجنة، وأحد السابقين الأولين من المهاجرين، الذين أثنى عليهم القرآن فى سورة التوبة، وأحد الباذلين فى سبيل نصرة الإسلام. واتهمه الكاتب بالعلمانية، وأنه كان يعذب المعارضين لسياسته مثل أبى ذر الذى نفاه إلى الربذة، وكتب التاريخ تقول: إن أبا ذر هو الذى طلب منه ذلك. واتهمه أيضا بأنه هو الذى صنع تاج بنى أمية، ووضعه على رأس معاوية، الذى أكمل علمانية عثمان وزاد عليها.

● وأكثر من ذلك: أن هذا الكاتب تطاول على الرسول الكريم نفسه، وزعم أنه وزع غنائم حنين على أهله وعشيرته وحرم الأنصار، أى اتهمه بالمحاباة

والظلم، وجعل من قبيلته قريش صاحبة الحق الوحيدة فى الخلافة عندما قال: «الأئمة منا أهل البيت»، وكذلك: «الأئمة من قريش».

وهذا كلام غير دقيق عن رسول الله، فهو لم يعط أحدا من أهله وعشيرته من بنى هاشم، أو بنى عبد مناف، بل أعطى بعض الناس من قريش كما أعطى غيرهم من قبائل العرب كغطفان وفزارة وغيرهما، من باب تأليف القلوب، وهو ما جعله القرآن مصرفاً من مصارف الزكاة فهو فى هذا التأليف لقلوب بعض الزعماء، وبعض القبائل، يسير فى ضوء القرآن، ويطبق حكم القرآن.

أما حديث «الأئمة منا أهل البيت» فلم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا لم يعتمده أهل السنة وهم جمهور الأمة.

وأما حديث: «الأئمة من قريش» فقد اشتهر بين العلماء، ولكن الشهرة لاتعنى دائما: الصحة ومما يشكك فى ثبوته: أنه لو كان معرووفا لدى الأنصار، ما قال قائلهم يوم السقيفة: منا أمير ومنكم أمير. وهم ليسوا من قريش، ولو كان معروفاً لدى المهاجرين، لرد به عليهم أبوبكر، وكفى به حجة لو صح. ولكنه لجأ إلى ترجيح المهاجرين باعتبارات اجتماعية، كقوله: إن العرب لاتدين إلا لهذا الحى من قريش!

وعلى كل حال لم يرد الحديث بهذا اللفظ فى الصحيحين ولا أحدهما، وإنما ورد بأسانيد لم يسلم سند فيها من مقال، وإنما صححه من صحيحه بكثرة طرقه وشواهده.. كما قال محققو المسند فى تخريج الحديث (١٢٣٠٧) عن أنس: إن إسناده ضعيف لجهالة راويه: بكير بن وهب الجزرى.. ولكن صححوه بكثرة طرقه الضعيفة!

ورأيى: أن الأحاديث الخطيرة التى تقرر مبادىء وأصولاً مهمة للحياة الإسلامية، لايجوز أن يقبل فيها ما كان ضعيفا بأصله، وإنما صحح بكثرة طرقه، ولاسيما أن الائمة المتقدمين مثل: ابن مهدى وابن المدينى وابن معين والبخارى وغيرهم، ما كانوا يعتمدون على كثرة الطرق هذه إنما اشتهرت بين المتأخرين.

وهذا الحديث بألفاظه المختلفة هو عمدة القائلين باشتراط القرشية فى نسب الإمام أو الخليفة، وخالف فى ذلك الخوارج وبعض المعتزلة وغيرهم. وزعم بعضهم أنهم خالفوا الاجماع فى ذلك.

ورد عـيـهم العـلامـة الحـافظ ابن حـجـر بأنه عـمل بهـذا القـول: من قـام بالخلافة من الخوارج على بنى أمية كقطرى، ودامت فتنتهم أكثر من عشرين سنة، حتى أبيدوا، وكذا من تسمى بأمير المؤمنين من غير الخوارج كابن الأشعث، ثم من قام فى قطر من الأقطار فى وقت ما فتسمى بالخلافة، وليس من قريش، كبنى عباد وغيرهم بالأندلس، وكعبد المؤمن وذريته، ببلاد المغرب كلها، وهؤلاء ضاهوا الخوارج فى هذا، ولم يقولوا بأقوالهم، ولاتمذهبوا بمذهبهم، بل كانوا من أهل السنة الداعين إليها.

قال عياض: اشتراط كون الإمام قرشيا مذهب كافة العلماء، وقد عدوها فى مسائل الاجماع، ولا اعتداد بقول الخوارج وبعض المعتزلة.

قال ابن حجر معلقاً: ويحتاج من نقل الاجماع إلى تأويل ما جاء عن عمر، فقد أخرج أحمد عنه بسند رجاله ثقات، أنه قال: (إن أدركنى أجلى وأبوعبيدة حى استخلفته، فإن أدركنى أجلى بعده استخلفت معاذ بن جبل).

ومعاذ أنصارى لا قرشى، فيحتمل أن يقال: لعل الإجماع انعقد بعد عمر أو رجع عمر.

على أن هذا الإجماع لو صح قد يكون سنده ارتباط المصلحة فى ذلك الزمن يكون الخليفة من قريش، لما كان لهم من المكانة والغلبة على غيرهم من العرب، أى أنهم أهل الحماية والعصبية، كما شرح ذلك ابن خلدون فى مقدمته، والاجماع إذا كان سنده مصلحة زمنية لايكون حجة ملزمة على وجه الدوام. فإن المصلحة التى كانت سند الإجماع إذا تغيرت، لم يعد للاجماع المتقدم حجية.

ولهذا نرى أن دعوى الكاتب فيما سماه (العلمانية الإسلامية) لا أساس لها من العلم أو الدين أو التاريخ.

ولو دعا هذا الكاتب إلى (العلمية) لنتخذها منهاجا للأمة بدل الغوغائية والارتجالية، والعشوائية، لكنا أول المرحبين بذلك. وقد دعونا إلى ذلك فى كثير من كتبنا أما الدعوة إلى العلمانية، ووصفها بـ (الإسلامية) فهو قول ينقض آخره أوله، ولايقوم على أساس، وهو كما يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الحج: ٨، ٩).

● وفى حوار مع صحيفة المصرى اليوم أجرته الزميلة رانيا بدوى مع الشيخ القرضاوى خلال زيارته للقاهرة فى سبتمبر ٢٠٠٨ ونشر فى عدد الاثنين ٨ سبتمبر أجاب الشيخ عن أسئلة مهمة حول العلمانية وتأثيراتها فى الحكم بالدول الإسلامية المختلفة خاصة فى مصر وتونس وماليزيا وغيرها وهذا جانب من الحوار:

● كيف انتقلت العلمانية إلى الإسلام؟

- انتقلت من باب التقليد الأعمى بدعوى أن الغرب لم يتقدم إلا عندما تحرر من الدين فعلينا أن نفعل مثلهم وهذا خطأ، لأن دين الغرب غير ديننا، والأزهر غير الكنيسة، والمسيحية غير الإسلام، فالعلم عندنا دين والدين عندنا علم.

والغرب غير الشرق وتاريخهم غير تاريخنا، وقد فرضت العلمانية على المسلمين بالقوة وبالحديد والنار وبالرصاص وبالسجون، وظهر ذلك جلياً فى تركيا، حيث انتصرت العلمانية على الشعب التركى بهذه الطريقة وبقوة الجيش، وحتى اليوم الجيش هو الذى يحرس العلمانية فى تركيا.

● فى رأيك إلى أيهما تميل الشعوب العربية: الحكم الإسلامى أم العلمانى؟

- الشرق عموماً مازال يرفض هذه الفكرة فلو عملت استفتاء فى مصر نصه: هل ترضى بالعلمانية أم بالشريعة الإسلامية لحكم مصر؟ طبعاً الأغلبية ستشير إلى الشريعة الإسلامية، وعندما أتحدث عن الشريعة الإسلامية فيجب أن نفهمها فهماً صحيحاً فى ضوء اجتهاد عصرى صحيح وليس فى ضوء الجمود والانغلاق.

● ألم يكن تزايد الاتجاه إلى العلمانية بسبب عدم وجود شخصيات إسلامية جيدة قادرة على تسيير الأمور وحكم البلاد؟

- دولنا كلها تحكم بالعلمانية، ولاتوجد دولة تقول إنها تحكم بالشريعة الإسلامية إلا السعودية.. فإذا كان هناك خلل فى الحكم فهو بسبب العلمانية وليس حكم الإسلام.

● ومع ذلك لم تقدم السعودية نموذجاً يحتذى به فى الوطن العربى؟

- ولا البلاد الأخرى التى لاتحكم بالشريعة الإسلامية، مثل سوريا والعراق

ولا مصر، فلا أحد منهم تقدم وهم يحكمون بالعلمانية.. الشريعة الإسلامية لاتحكم وحدها بل عن طريق رجال، لذا يجب أن نربى رجالاً قادرين على الحكم.. نحن نقول الآن فى مصر اننا نحكم بالديمقراطية فهل نحن نحكم بالديمقراطية فعلاً؟ هذا ليس عيباً فى الديمقراطية، إنهم يتبعون ديمقراطية الثلاث تسعات وهذه ليست ديمقراطية فنحن كما ندعى الديمقراطية ولانحققها، ندعى أيضاً الإسلام ولا نحققه.. وحتى الآن لم نجد دولة واحدة تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية باجتهاد عصرى صحيح. ولكن عموماً الإسلاميون أكثر قبولاً لدى الشعوب العربية والإسلامية.

● أليس غريباً أن تقول إنه لا توجد دولة إسلامية بحق فى العالم كله، أليست مسألة تستحق التوقف؟

●● إذا لم يسع الناس إلى إيجاد النموذج الإسلامى، فإنه لن ينزل لهم من السماء.. الدولة الإسلامية يجب أن يقيمها المسلمون وان لم يسعوا لذلك فلن تقوم، فهى مسئولية المسلمين قبل كل شىء.. يجب أن يتعاونوا فيما بينهم ويتوقفوا عن سوء الظن فى بعضهم البعض، وأن يتشاركوا ويتفاهموا.

● وكيف تقيم تجربة الحكم فى ماليزيا التى مزجت بين الحكم العلمانى وتطبيق الشريعة الإسلامية، وما وصلت إليه من تقدم وازدهار ملموس عالمياً؟

●● ماليزيا نموذج له طبيعة خاصة، لأنه يقوم على عناصر مختلفة منهم الملاويون وهم أصل البلاد ويمثلون حوالى ٥٥٪ من عدد السكان، إلى جانب العنصر الصينى والهندوسى وباقى الاقليات، وحتى تنجح فى التعامل مع هذا التآلف وهذه التعددية حكمت بالعلمانية، ولكنها علمانية غير متطرفة وليست ضد الدين الإسلامى، إضافة إلى إخلاص ماليزيا فى التنمية فقد اتبعت المنهج العلمى واستغلت قوة العنصر الصينى المسيطر حقيقة على معظم ثروات البلاد، رغم أن الملاويين المسلمين هم الأغلبية فالفنادق والبنوك والأبنية الضخمة ملك الصينيين، وهو ما يجعلنا حذرين من التجربة الماليزية، ولكنها حققت التنمية وان كانت ليست النموذج الأمثل الذى ننشده وأتمنى أن نحاول ذلك فى المستقبل.

● قلت إن العلمانية فى ماليزيا غير مضادة للدين فهل يمكن أن تكون العلمانية غير مضادة للدين؟

- أقصد أنه كما توجد أنواع من العلمانية المتطرفة المعادية للدين، مثل العلمانية الماركسية التى هى دائما معادية للدين وتعتبره أفيون الشعوب هناك علمانيات هادئة لاتضطهد من يدينون بالدين الإسلامى ووسطية فى ممارستها الحكم.

● وأين ترى العلمانية المتشددة؟

- فى تركيا وتونس، فهما نموذجان للتطرف العلمانى فى مواجهة الإسلام.. فمثلاً الحكومة الديمقراطية المنتخبة فى تركيا كاد يطاح بها بحكم محكمة، وهى طبعاً محكمة أسسها علمانيون.

● إذا لم تستطع المحكمة العلمانية التغلب على أردوغان وجول بانتماءاتهما الإسلامية فى تركيا إلا أن العسكريين تغلبوا على حكومة ديمقراطية منتخبة، وازاحوها بين ليلة وضحاها فى موريتانيا الدولة.الإسلامية؟

- المشكلة أن الكثير من البلدان العربية يحكمها العسكريون من وراء ستار.. ففى موريتانيا بمجرد أن حاول الرئيس المنتخب أن يستخدم سلطاته ويعزل رئيس الأركان ورئيس الحرس، انقلبوا عليه.

وهذا ما فهمه وأدركه رجب طيب أردوجان وعبدالله جول فى تركيا، فهما يملكان سلطة تغيير أعضاء المحكمة ووضع عدد من القضاة الإسلاميين بدلاً منهم، ولكنهما خافا لأنهما لو فعلا ذلك سيتدخل قادة الجيش، فهم الحكام الفعليون فى منطقة الشرق الأوسط والبلاد العربية.

● لماذا وضعت تونس ضمن هذه القائمة رغم انها دولة عربية إسلامية؟

- العلمانية التونسية شديدة التطرف فهى مثلا ترى أن من يصلى الفجر مضاد للدولة، يجب أن يوضع على القائمة السوداء والمرأة المحجبة تمنع من دخول المدرسة والجامعة ودخول القطاع العام ولا تستطيع أن تلد فى مستشفى حكومى إلا إذا خلعت الحجاب ولذلك تعد نموذجاً للعلمانية المضادة للدين الاسلامى.

● وماذا عن العلمانية المصرية؟

- معقولة فهى تحكم بغير ما هو فى الشريعة ولكنها تترك الناس.. كل واحد حر وإن كانت لا تخلو من بعض المضايقات والاضطهاد كمنع المذيعة المحجبة

من الظهور على شاشة التليفزيون المصرى.. ومطاردة الجماعات الاسلامية.

● هل يراعى الدستور المصرى الشريعة الإسلامية؟

- الدستور الحالى لا أستطيع أن أحكم عليه لأننى لم أقرأه قراءة مستوعبة ولكن أعتقد أن من أكثر الدساتير التى كانت تراعى الشريعة الاسلامية فى التاريخ المصرى الحديث هو دستور ١٩٢٣ إما مراعاة مباشرة أو بشكل غير مباشر بحيث لا يكون مضادا تماما للشريعة.

● ما القوانين التى تراها ضد الشريعة؟

- القوانين التى تبيح الربا وتعطل الحدود والقوانين التى تبيح الخمر والخلاعة ولا تضع لهما حدودا وقوانين تقييد حرية الانسان مثل قوانين الارهاب والطوارىء وهى مخالفة للشريعة الاسلامية مخالفة بينة.

● فى رأيك.. لماذا الحوف من وصول الجماعات الاسلامية إلى كرسى الحكم؟

- المجتمع االاسلامى ليس رافضا للجماعات الاسلامية بل يرحب بهم وفى وقت من الاوقات اقبل الناس على انتخاب الاسلاميين وحصلوا على ٨٨ مقعدا فى البرلمان المصرى من حوالى ١٠٠ منطقة رشحوا انفسهم فيها؛ أى حوالى ٨٠٪ من المناطق التى تنافسوا عليها رغم عدم وجود ديمقراطية والأصل فى الازمة أن الحكام هم الذين لا يريدون أن يتزحزحوا عن مناصبهم.

● وهل أنت شخصيا مقتنع بكفاءاتهم للوصول إلى الحكم؟

- نعم ماداموا سيحكمون وفقا للشريعة.. ولكن فلنقل إننى أساسا مع الديمقراطية.. وأن يختار الشعب من يحكمه، يختار الإسلاميين يختار الديمقراطيين أو القوميين المهم أن يكون للشعب حق الاختيار وإن أساءت الشعوب الاختيار فعليها تحمل مسئولية اختيارها.

● مثلما حدث مع حماس؟

- حماس لم تستطع أن تحقق ما تريد ومنذ يوم وصولها إلى السلطة يحاصرونها بالمشاكل ولم يمكنوها من عمل شىء وكما قال الكاتب فهمى هويدى فإنها لم تكون طرفا فى الانقلاب، بل قامت ضد الانقلاب لأنه كان

يدبر لها انقلاب فسبقت وقامت هى به أولا وقالت: «أتغدى بيهم قبل ما يتعشوا بى» ومع ذلك هناك أمور وتفاصيل كثيرة لا أحب الدخول فيها لكننى أدعو الجميع فى فلسطين إلى الوقوف صفا واحدا، فحرب الفلسطينى للفلسطينيين من المحرمات.

وعلى أى حال تجربة حماس ليست التجربة الإسلامية المنشودة فى الحكم وليست النموذج برغم أنها لم تتمكن ـ كما قلت ـ من فعل ما يمكننا من الحكم على نجاحها أو فشلها.

الفصل التاسع

مع الصحوة الإسلامية



لقاء مع الفنانات المحجبات.. عفاف شعيب.. وأخريات



أحد الشباب وقبلة احترام للشيخ

شغلت قضية «الصحوة الإسلامية».. حيزاً كبيراً فى مسيرة شيخنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوى، بل إنه يمكننا حقيقة اعتبار كل مشوار حياته كان من أجل الصحوة، وللصحوة، فقد كان أحد بواعث هذه الصحوة ومفجر كوامنها لدى شباب الأمة فى مقتبل حياته ولايزال حتى الآن، ووقف لها فى عنفوان انطلاقتها مرشداً وموجهاً، يكبح جماح انفلاتها إذا ما بدر، ويذود عن حياضها كل متربص، منتهز للفرص، متصيد للأخطاء، كانت خطبه وكلماته بمثابة برامج عمل، ومناهج جديدة وقواعد للتصحيح وتعديل المسار، وللتزود بوقود الانطلاق لكل فصائل الصحوة بمختلف تياراتها.

لذلك لم يكن غريباً أن تكون كلماته موضع تحليل ودراسة بعد الرصد الكامل من القوى الداخلية والخارجية سواء المعادية صراحة للإسلام أو التوجه نحوه أو تلك المتوجسة خيفة منه، فأخذت مأخذ الجد كل تحرك أو ميل نحو الإسلام، تعد له العدة المناسبة، وتجهز خططها الخبيثة لوأد كل نبتة ترى أنه سيكون لها أى أثر.

لن نطيل فى المقدمة وسندع شيخنا يحدثنا عن الصحوة وحكايته معها وكيف بدأت؟ ورؤيته لهذه الظاهرة التى ألف عنها ما يزيد على أربعة كتب تحمل فى عناوينها صراحة اسم الصحوة وتعرض لهمومها وآمالها.

فى البداية يؤكد شيخنا على نقطة مهمة وهى موضع تساؤل أيضاً من العديدين.. يقول:

الصحوة الإسلامية أو اليقظة هذه ظاهرة ليست غريبة على طبيعة الإسلام

وطبيعة أمته بل الغريب حقاً ألا تكون، فمن طبيعة الأمة المسلمة ألا يستمر نومها وغيبها عن الوعى أزماناً تتطاول.. فمن طبيعة الإسلام أن يوقظ فيها عوامل التنبه وبواعث التحرك ما دام قرآنها محفوظاً فى الصدور، متلّوا بالألسنة، مسطوراً فى المصاحف وذلك ما تكفل الله بحفظه: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».. وما دامت سيرة نبيها بين أيديها، وسيرة أبطالها نصب عينيها تضىء مصباح التأسى، وتوقد جذوة الحماس فى القلوب.

ومن طبيعة الأمة أنها لا تجتمع على ضلالة، ولابد أن يقوم فيها طائفة على الحق، يهدون به، ويدعون إليه، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم: «لاتزال طائفة من أمتى قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك».

ويقول: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.

وصحوة الأمة حقيقة يؤكدها التاريخ: فهذه الأمة قد أصابتها نكسات ونكبات كبرى منذ فجر تاريخها ظن الناس معها بها الظنون، وابتلى بها المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً، ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج وأن تحول الهزائم إلى انتصارات، وأن تخلق من الضعف قوة، ومن التفرق وحدة ومن الأشلاء المبعثرة جسماً عملاقاً.

والحقيقة التى يؤكدها التاريخ أيضاً أن الصحوات الكبرى لهذه الأمة لم يصنعها غير الإسلام حين يجد من يعلى كلمته، وينادى باسمه، ويجند قوى الأمة تحت رايته.. والأمثلة على ذلك كثيرة سواء فى الحروب الصليبية، أو فى مواجهة التتار، أو فى معارك التحرير والاستقلال فى الأوطان الإسلامية كافة حيث كان الإسلام هو المحرك الأكبر، وهو القائد الحقيقى لكل معارك الجهاد ضد الاستعمار الغازى لبلاد المسلمين.

ولا غرو أن توقظ النكبات الكبرى الناس ما داموا على بقية من سلامة الفطرة... وهو ما حدث فى الصحوة الإسلامية التى نشهدها حالياً، والتى ظهرت بدايتها بوضوح مع محنة ١٩٦٧ والتى سميت بالنكسة وحنين الناس إلى الدين وأن القومية العربية ولا الاشتراكية الثورية ولا اليسار العربى ولا هذه الأشياء كلها استطاعت أن تصنع نصرا يعتز به الناس بالعكس إن

إسرائيل التى كان يقال سنرميها فى البحر ونؤدب إسرائيل وما وراء إسرائيل، انتصرت كان لا يقال فى الأيام الستة ولكن كان يقال فى الساعات الستة قد انتهت، فكان الناس فى حاجة إلى موئل جديد يلوذون به ويرجعون إليه، فلم يجدوا إلا الدين وهزيمة القوم أمام إسرائيل أتاحت هذه الفرصة فقد كان جناحهم مكسوراً فتركوا الناس يلوذون بهذا الحصن الحصين وهو الإسلام وبدأ ظهور الصحوة ثم بدأت تنمو شيئاً فشيئاً، فعندما جاءت سنة ١٩٧٣ كانت بداية إنبات هذه البذور.

التيارات المتطرفة

بدأت فى عام ١٩٧٤ أكثر من أى وقت، التقى بطلاب الجامعات وأحضر مخيماتهم وأزورهم فى ملتقياتهم يدعوننى لإلقاء محاضرات فى داخل الجامعة والكليات، وقفت فى الحقيقة والشهادة لله أنا والشيخ الغزالى ضد التيارات المتطرفة يعنى الشباب فى ذلك الوقت كان يتبنى بعض الأفكار المتطرفة وأنا مازلت أذكر أنى سئلت فى أحد معسكرات الشباب هل مصر دار إسلام أم دار حرب؟ وثرت على الذى سألنى وقلت له هل تعرف معنى دار حرب معنى دار حرب أننا لسنا أهلها وأننا غرباء فيها وأن هذه الدار للنصارى وللشيوعيين ونحن ليست دارنا، لأن دارنا دار إسلام وهذه ليست دار إسلام.. هل تعرف أن معنى دار حرب أنه لو دخل اليهود هذه الدار لا ندافع عنها ونحن لا ندافع إلا عن دار إسلام.. فهذا كلام خطير جداً.

مصر دار إسلام وستظل دار إسلام وستظل مدافعا عن الإسلام وهى التى دافعت عن الإسلام أيام التتار وأيام الصليبيين وأسرت لويس التاسع فى المنصورة فى دار ابن لقمان وهى التى حملت لواء الإسلام فى العصر الحديث وهى بلد الأزهر وبلد الدعوة الإسلامية ولا يمكن أن نفرط فى مصر فهى قلعة من قلاع الإسلام وستظل كذلك.

وفى الحقيقة قاومنا هذه الأفكار المتطرفة، وبدأ هؤلاء الشباب يرجعون إلى الوسطية وأصبحت الأغلبية فى هؤلاء الشباب هم الذين يلتزمون التيار الوسطى والمنهج الوسطى حتى أنهم كانوا يحرصون على أن يدعونى ويدعوا الشيخ الغزالى ويدعوا هذا اللون من الناس ليساعد تيار الاعتدال بعيداً عن تيار العنف والغلو والتطرف حينما أصدرت فى مجلة الأمة دراسة عن صحوة

الشباب الإسلامى ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها. مقالتان تبناهما هؤلاء الشباب وطبعوهما فى رسالة ووزعوا منهما عشرات الآلاف وكذلك رسالتى: «ظاهرة الغلو فى التكفير» وهذا قبل أن يقتل الشيخ الذهبى وهؤلاء الشباب طبعوا هذه الرسالة وتبنوها.

الواقع كانت صلتى بمصر دائماً وكانت خطبتى فى ميدان عابدين فى مناسبات العيد كانت أيضاً فى هذا الإطار، وذلك لم يستطع أحد أن يأخذ على شيئاً أن خرجت عن الخطة الوسطية رغم أنى ذهبت فى أوقات كانت حرجة جداً أذكر كنت أخطب فى عيد الأضحى والرئيس السادات فى القدس فى أول مرة وفى المرة الثانية كان فى كامب ديفيد يعنى أيام العيد كان بعد لقاء القدس وهذا فى أثناء كامب ديفيد والجو يغلى وأى كلمة كانت ممكن تنقلب إلى نار مستعرة وتنفجر إلى براكين ولكنى كنت حريصاً جداً على أن أضبط العواطف وأن أنير العقول ولا أسمح للحماسة الهوجاء أن تأخذ منى الزمام ولاحظت فى ذلك الوقت أن الغربيين كانوا مهتمين بهذه اللقاءات وكان يأتى أناس يصورون هذه التجمعات، ولا أحد يعرف من هؤلاء وعرفت بعد ذلك أنهم كانوا من فرنسا ومن أمريكا.

وقد تأكدت من ذلك بنفسى، فمنذ سنوات رآنى أحد الأصدقاء الأخ الدكتور محمد مرسى مدير إدارة الوثائق فى دولة الإمارات فى أبوظبى وقرأ لى من كتاب صدر بالفرنسية عن أول خطبة خطبتها فى ميدان عابدين وفيها نقل مطول لأجزاء من الخطب التى ألقيتها منقولة نقلاً حرفياً، وتذكرت ما قلت تماماً: قلت يومها «من أراد أن يعرف مصر فلينظر إلى هؤلاء الشباب، مصر ليست شارع الهرم، ليست الملاهى الليلية، مصر ليست هى المراقص، مصر هى هؤلاء الشباب هم الذين يجسدون حقيقة مصر وتاريخ مصر وشعب مصر إلى هذا الكلام وجدته بنصه ما يدل على أنهم سجلوا هذا الكلام وأفرغوه ليس تلخيصاً.

يضرب الشيخ القرضاوى مثالاً آخر على اهتمام القوى الأجنبية ومتابعتها لخطوات الصحوة الإسلامية يقول: من الأشياء الطريفة التى أذكرها عندما حدث ما حدث فى سبتمبر سنة ٨١.

يقصد ما حدث فى مصر بالطبع كنت فى أمريكا فى ذلك الوقت قال لى

أحد الإخوة حدث فى مصر أحداث كبيرة وحدثت اعتقالات، اعتقلوا المعارضة جميعاً، فؤاد سراج الدين وإبراهيم شكرى والأستاذ عمر التلمسانى كنا نحن فى حاجة لأن نتابع هذه الأخبار كنا مدعوين على الغداء عند أحد الإخوة وكنا ننتظر كل نصف ساعة نشرة الأخبار.

وفى إحدى النشرات إذا بنا نفاجأ بشيخ معهم فى التليفزيون فقال لى أصدقائى أليست هذه صورتك؟ قلت: نعم وإذ بهذه الصورة مأخوذة من خطبة صلاة أحد الأعياد، وعرضوا فى اللقطات الجمع الكبير فى أثناء السجود ولقطة فى أثناء الخطبة وأحد الإخوة من أمراء الجماعة الإسلامية الأخ حلمى الجزار وبعدها قمت بالقاء كلمة للشباب فوجدت عندهم أرشيفا كاملا لهذه الأمور بالصوت والصورة يبرمجون كل شىء عندنا ولا يصنع هذا الأمر عبثا.

ويشير إلى الوضع المقلوب أو المعاكس لذلك على الجانب الإسلامى قائلا: طبعا فى مصر كانت الصحافة تتجاهل هذا الأمر ولا تتكلم عنه اللهم إلا فى المرة الأخيرة وحينما تكلم السادات وقال: يقولون إنهم ربع مليون هم ١٠٠ ألف فقط!!!

الصحوة مستمرة

قلت للشيخ القرضاوى: هل لا تزال الصحوة قائمة حتى الآن؟!

فأجاب بسرعة وبلا أدنى تردد قائلا: لاشك إن الصحوة قائمة ولا يستطيع أحد أن ينكر وجودها أنت كنت تصلى معنا فى المسجد،المسجد يصلى فيه أكثر من ألفى رجل وامرأة انظر إلى الموجودين تجد ٩٨٪ من الموجودين شباب يعنى هذا كل عمل الصحوة وليس هذا المسجد فقط وإنما مساجد أخرى فى نفس الشىء أنا قادم من العمرة الذين يملأون مواسم الحج والعمرة هم هؤلاء الشباب، هذا الاقبال على الدين من الشباب والشابات والرجال والنساء هذه الصحوة والاقبال على التدين على قراءة الكتاب الإسلامى التعامل الإسلامى، على البعد عن المعاملات الربوية، على الجهاد فى أفغانستان وفى البوسنة والهرسك وفلسطين وثورة المساجد هذه أطفال الحجارة هذه كلها عمل الصحوة صحيح أن الضربة موجهة الآن إلى الصحوة

وهى فى غاية العنف وهى للأسف آتية من الخارج ومستعينة بالداخل لتدمير هذه الصحوة وعلى قدر ما كانت قوة الصحوة جاءت قوة الضربة إنها ضربة فى غاية العنف لتواجه قوة الصحوة، فالصحوة موجودة وليس من السهل إطفاء شمسها كما قال الله تعالى: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون». يمكن أن تعوق مسيرتها بعض التعويق يعنى بأن يحال بينها وبين الشعب كما نرى فى بعض البلاد، وكما رأينا فى الجزائر، لن تترك الصحوة لتسير فى المجرى الصحيح ويحكم الناس من انتخبوه بالفعل وقامت القوة وحالت دون ذلك القوة العسكرية الغاشمة، الصحوة الآن نراها تؤثر فيها النقابات حيث ينتخب الإسلاميون فى نوادى هيئات التدريس فى اتحاد الطلاب فى ثقة الناس فى أنها تعطى المعونات لهؤلاء ولا تثق بالآخرين هذا كله أثر الصحوة البنوك الإسلامية الموجودة بالعالم الإسلامى أصبحت يعنى عشرات البنوك هذه من آثار الصحوة آثار اقتصادية انتصار الجهاد فى أفغانستان وفى البوسنة هذا كله أثر من آثار الصحوة ولاشك. صحيح أن هناك أخطاء فى الصحوة وهناك فصائل أساءت إلى الصحوة حينما اهتمت بالجزئيات على حساب الكليات وبالفروع على حساب الأصول.

وشغلت الناس بالمعارك الجزئية والجانبية على حساب المعارك الكبرى والقضايا المصيرية للأمة واتخذت العنف سبيلا مع أننا لسنا فى حاجة للعنف وأن الذى يحتاج إلى العنف هو الذى لا يجد الإقبال من الناس ونحن نجد الإقبال من الناس من كل حدب وصوب فلسنا فى حاجة إلى اتخاذ العنف سبيلا للصحوة إطلاقا وهناك أخطاء بلاشك وأكثرها بحسن نية أكثر من أناس مخلصين ولكنهم للأسف تاهوا عن الطريق الصحيح وهذا هو الخطر الذى يواجه الصحوة من داخلها هؤلاء أناس الخلل عندهم فكرى، الخلل فى الفهم، فى العقل وليس فى الضمير ضميرهم سليم ونيتهم طيبة ولكنهم كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - «عن الخوراج يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم وقيامه إلى قيامهم وقراءته إلى قراءتهم ولكن وصفهم بأنهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم، لم يتفقهوا فى القرآن لم يتعمقوا فيه، لم يصل إلى أعماق عقولهم وقلوبهم ومن أجل هذا وصفهم بأنهم يدعون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام وهذا هو الخطأ».

ويتوقف الشيخ القرضاوى هنا متأملا بعض الوقت ويستطرد قائلا: لذلك مهمة الذين وضعهم الله موضع التسيد للصحوة والقيادة الفكرية لها .. أن ينيروا لها الطريق، وأن يحاولوا أن يكونوا لها آباء، فالصحوة لا ترشد عندما تكون أنت لها ممثل اتهام تتهم وتريد أن تقضى عليهم، لا .. إنما ينبغى أن تعاملهم معاملة الأبوة، كالأب حينما يرى الانحراف من ابنه ينبغى أن يعامله بحكمة، يفضل الرفق واللين على الشدة والغلظة، لأنه فى كثير من الأحيان تكون الشدة والغلظة ضارة أكثر مما تنفع وتجعله ينفر أكثر ويبعد أكثر فنحن نريد منهجًا يجمع بين الرحمة والحزم.

وكما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يكن حازما فليقس أحياناً على من يرحم

وكما قال تعالى لنبيه «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» ولكن مع هذا ينبغى أن تقول لهم أخطأتم وإن هذا ليس بصحيح لا تربت على أكتافهم وتتركهم على الخطأ والتيه والضلال لابد أن نقول لهم إنكم أسأتم ويجب أن تحسنوا وقد أخطأتم ويجب أن تعودوا إلى لطريق الصحيح.

المرأة.. فى الصحوة

ذكرت أن الصحوة كان من مميزاتها أنها شملت الشابات والشباب أيضا والجديد فيها أيضا واللافت للنظر العنصر النسائى لكن قضية المرأة استغلها أعداء الصحوة وحملوا على أصحاب الصحوة فى كثير مما طرح من قضايا وآراء بشأن المرأة؟!

هذا اتهام الصحوة عامة بظلم المرأة أو الجور على حقوقها أو محاولة دفنها حية هذا اتهام ظالم، لأنه ما هى الصحوة؛ فكما قلت لك إن هناك فصائل فى الصحوة إذا نظرنا إلى الجمهور الأكبر فى الصحوة لم يكن موقفه كما ذكرت، الجمهور الأكبر فى الصحوة هو الذى يتبع الوسطية الإسلامية، أنا أتحدث عن تيار الوسطية الإسلامية وأعتبر أن هذا هو المعبر الحقيقى عن الصحوة الراشدة الناضجة الداعية، فإذا كنا نريد أن نحكم على الصحوة ينبغى أن نحكم عليها من خلال تيار الوسطية الذى هو الأقدم من ناحية الظهور والأرسخ قدما والأعرض

قاعدة فهذا ينصف المرأة ويعطيها حقها وأعتقد أن من يمثلون هذا التيار فضيلة الشيخ الغزالى والفقير إلى الله تعالى وأنا ذكرت أن المرأة من حقها حتى أن ترشح للمجالس النيابية لى فتوى مطولة فى هذا وأعتقد أن الإخوان المسلمين تأثروا بهذه الكتابات وأصدروا تقريرا عن المرأة يتضمن هذا الموقف الوسطى المعتدل والمنصف للمرأة والمعطى لها حقها فى الحياة وهذا هو ما ينبغى، فى الجزائر رأيت المرأة تحضر الاجتماعات والمحاضرات وتقوم بالنشاط ولم أجد حرجا وأحيانا بعض الإخوة كان لهم تصريحات شديدة ولكنها كثيرا ما كان يرد عليها وتختفى يعنى هذا هو الوضع القائم هناك طبعا بعض آراء للإخوة المتشددين وكما قلت هذا آفة من آفات الصحوة فالآراء المتشددة والمتطرفة بالنسبة للمرأة وبالنسبة لغير المسلمين يعنى بالنسبة لبعض القضايا موجودة إنما هذه لا تمثل كل الصحوة ولا الجمهور الأكبر لأتباع الصحوة.

الفنانات التائبات

● قلت: هل هناك علاقة للصحوة الإسلامية بموضوع الفنانات التائبات؟!

●● قال الشيخ القرضاوى بسرعة:

طبعا هو أثر من آثار الصحوة يقينا، الصحوة امتدت حتى أثرت فى هذا.. تعرف أن لى أرجوزة تقول:

أولئكم هم الأصوليون كم أفسدوا الدنيا وشاقوا الدين

فجندوا لحربهم كل القوى — فما لهم غير الغناء من دوا
فكل يوم يكسبون أرضا — تمتد طولا بيننا وعرضا
حتى غزوا ساحة أهل الفن — وأفسدوا المخرج والمغنى
ومن عجيب ما نرى ونسمع — توبة أهل الفن هذا المفجع
ممثلات ترتدى الحجاب — أليس هذا العجب العجاب؟!
وراقصات يعتزلن الرقص — كأن هذا الرقص كان نقصا!
من ذا يعيب الهز للبطون — وذاك من روائع الفنون
أليس من ميراثنا الثقافى — رياضة الخصور والأرداف؟!
فيما رجال أهل الفن أسرعوا الخطى — قد أوشكت دولتكم أن تسقطا

مـــــاذا وراء هـذا الـتـــحـــجـب إلا تـآمـــــــــــر أثـيـم أجـنـبـى

يـدعـــو رجـــال الفن أن يتـــوبوا كـــــأنما كـــــانت لهـم ذنـوب

ألـيـس يـدرى هـؤلاء الـســـــادة أن الفنون قـــمـــة العـــبــادة

مــــــا الـفـن إلا صـلـوات الـروح دعـك مـن المتـــون والشــــروح

قطعا توبة أهل الفن هذه أثر من آثار الصحوة يقيناً وإن كنت أنا أقول لهم وقد التقيت بهم أكثر من مرة فى مصر عند أختنا الحاجة ياسمين الخيام فكنت أقول لهم أنا لا أريد أن تعتزلوا تماما، أنا أريد أن تخوضوا المعركة كما كان سيدنا عمر يقول لا يبقى موقف أو مجلس كنت أجلس فيه فى الجاهلية إلا جلست فيه بالإسلام أنتم لكم شهرة ولكم أسماء خوضوا المعركة ادعوا بل حتى فى الفن نفسه يمكن أن تلتزموا بالفن، الفن الملتزم هذا يحتاج إلى جهد، وقلت لهم: ليتكم تعملون مع بعضكن جمعية للالتزام بالفن الصحيح البعيد عن الإثارة وعن الغرائز وعن هذه الأشياء فلاشك هذا من ثمار الصحوة.

كلام فارغ

● قلت تابعت حضرتك الحملة التى شنت على الفنانات التائبات واتهامات بأن وراءها جهات تمولها؟

●● فقال الشيخ القرضاوى:

نعم تابعت هذا.. وهذا كلام فارغ يعنى ماذا تظن من يهمه أمر الإسلام وأمر توبة الفنانات حتى يدفع لهم ملايين بدل كن يكسبن، من هو فى دولة تفعل هذا، يعنى هذا شخص أين هذا الشخص الذى يدفع ملايين لمن يتوب هذا كلام لا يقبل.

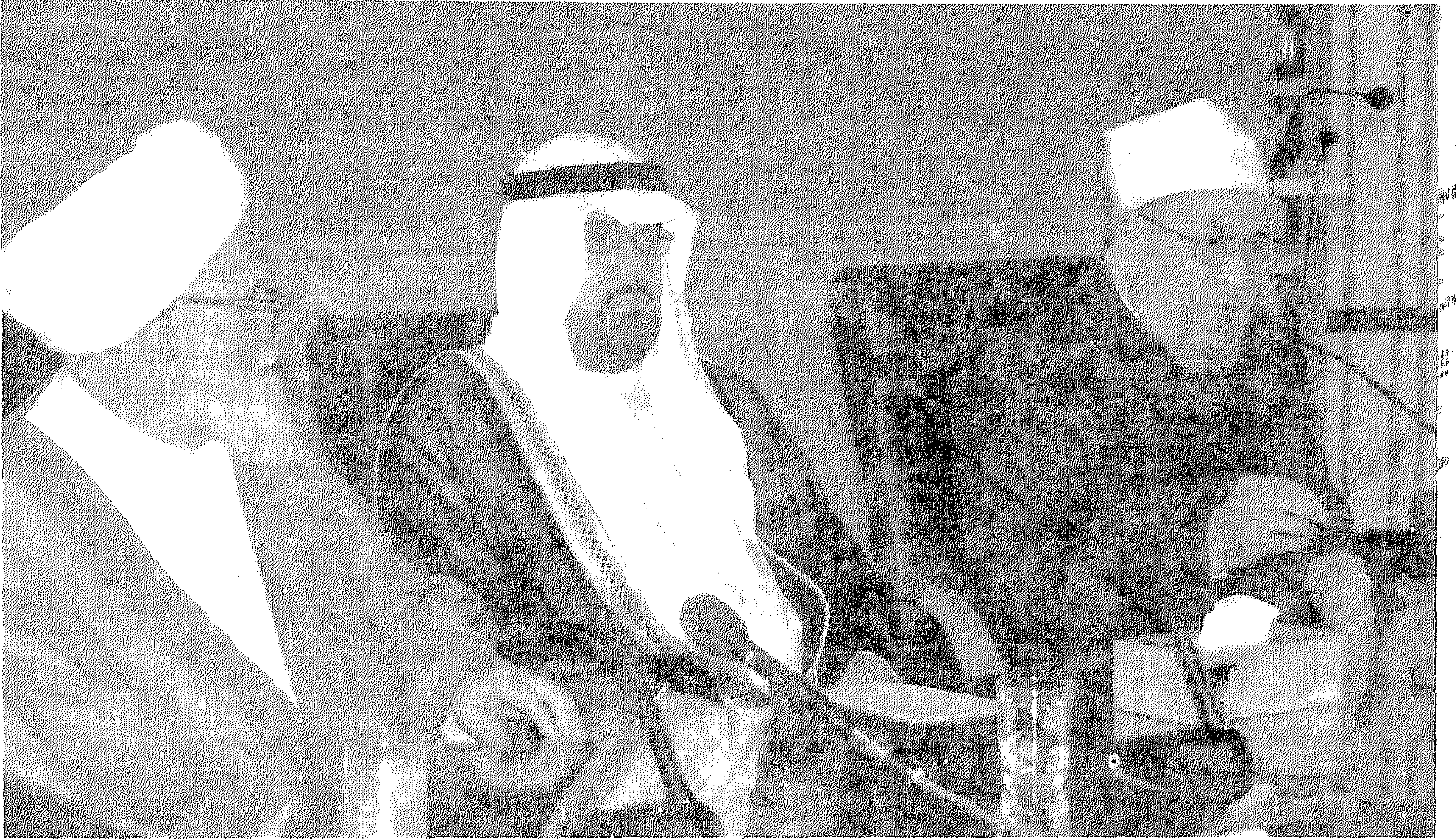
البعض قال هذا فى سكرة من سكرات الخمر.

الفصل العاشر

فى مواجهة التكفير



حوار ودى مع آية الله على تسخيرى مستشار الرئيس الإيرانى



تسخيرى يتابع حديث القرضاوى فى أحد المؤتمرات الإسلامية

الحقيقة أن قضية «التكفير» والتطرف والغلو.. شغلت حيزاً كبيراً فى تفكير الشيخ القرضاوى.. وكان من أوائل من نبهوا إلى خطورتها وحذر منها.. فكتب محللاً وناقداً.. وخطب فى محافل الشباب محذراً وموجهاً.. وكان لكلماته المقروءة والمسموعة والمرئية صداها الواسع وتأثيرها الطيب فى الأوساط المختلفة.

وقد تعرض للقضية فى العديد من مؤلفاته خاصة وثيقة الصلة بالصحوة الإسلامية - وما أكثرها - بل وأفرد لها رسالة خاصة نشرها أولاً فى مجلة المسلم المعاصر.. وفى مقدمة كتابه الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف.. ثم نشرها بتوسع فى كتيب صغير: ظاهرة الغلو فى التكفير.. نشرته مكتبة وهبة.

ومن أسباب انزعاج القرضاوى وغيره أن بروز تيار التكفير الذى يغلو ويتوسع فى رمى المسلمين بتهمة الكفر والمروق من دين الإسلام أو عدم الدخول فيه أصلاً.. هو أمر جديد لم يكن معروفاً بهذه الحدة من قبل فى مصر.

قال القرضاوى فى مقدمة كتابه «ظاهرة الغلو فى التكفير»: فقد شغلتنى قضية التكفير منذ سنوات عديدة عندما حضر إلى بعض الإخوة الذين خرجوا من المعتقلات والسجون بعد محنة الإخوان المسلمين الثالثة فى عهد الثورة.. وكان مما حدثنا عنه هؤلاء الإخوة هذه الظاهرة الجديدة التى كانت الشغل الشاغل للمعتقلين والسجناء والسلطة الحاكمة آنذاك ألا وهى ظاهرة التكفير أو الغلو فيه والتفات طائفة جلهم من الشباب حديث السن حديث العهد بالدعوة - حول هذا الفكر المتطرف إلى حد جعلهم يرفضون الصلاة مع

إخوانهم فى العقيدة وشركائهم فى الاضطهاد والمحنة وأساتذتهم فى الدعوة والحركة.

ويرى أن الذى مهد لدخول هذا الفكر إلى رؤوسهم وقربه إلى عقولهم هو العذاب الذى قاسوه فى السجن الحربى.. والمعاملة الوحشية التى عومل بها السجناء والمعتقلون والتى لا تتفق مع دين ولا خلق ولا قانون ولا إنسانية.

لقد اقتيد هؤلاء الشباب البرآء من بيوتهم إلى ساحات التعذيب وصب عليهم من ألوان القهر والإذلال والتنكيل ما لا يكاد يحتمله بشر، لقد تفننوا فى إيذاء الأبدان وإهانة الأنفس.. والاستخفاف بالعقول وتحطيم الشخصية والاستهانة بالآدمية إلى حد يعجز القلم عن تصويره ويتوقف العقل فى تصوره.

إنهم ـ فى نظر أنفسهم على الأقل ـ لم يقترفوا ذنباً إلا أن يقولوا ربنا الله.. لم يقترفوا فى حق أحد جرماً.. ولم يفكروا فى شر ولم يجتمعوا على معصية وفجور.. كل ما فعلوه أنهم آمنوا بالإسلام نظام حياة.. والتزموا به فكراً وسلوكاً.. واعتبروا الدعوة إليه وإلى تطبيق شرعه واجباً يأثمون بتركه والتقصير فيه.. فلماذا يشردون ويعذبون وينكل بهم أشد التنكيل.

ويرى الشيخ القرضاوى أن هناك عوامل أخرى ضاعفت من حجم المأساة وزادت الطين بلة على حد قوله منها:

● إن الفسقة والفجار والملاحدة واللادينيين طلقاء أحرار لا يحاسبهم أحد ولا يعاقبهم أحد.. بل وثبوا على أجهزة الإعلام والتوجيه وغيرها يوجهونها كما يشاءون إلى الكفر والفسوق والعصيان.

● إن الذين يعذبونهم وينكلون بهم لا دين لهم ولا تقوى.. بل كان منهم من يسخرون من تدينهم.. ومنهم من ظهر على لسانه من الكلمات ما يصل به إلى الكفر البواح حتى قال واحد منهم: هاتوا ربكم وأنا أحطه فى زنزانة!! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

● إن بعض الكتب الإسلامية الحديثة التى كتبت فى هذه الظروف نفسها كانت تحمل بذور هذا التفكير وتدفع إليه دفعاً بما تتسم به من قوة التعبير وحرارة التأثير.

ولعل الشيخ القرضاوى يقصد هنا كتابات الشيخ سيد قطب.. كما كشف عن ذلك وتتبعه فى مؤلفاته مثل: فى ظلال القرآن الكريم.. ومعالم فى الطريق.. على وجه الخصوص.

وازداد خطر هذا التيار التكفيرى.. خاصة بعد أن بدأ نطاق التكفير يتسع لا ليشمل من والى الحكام أو رضى بحكمهم.. بل من سكت عن تكفيرهم.. وهذا يعم جمهور الناس.

إن هذا الغلو الذى انتهى بهؤلاء الشباب المخلصين الغيورين على دينهم إلى تكفير من خالفهم من المسلمين واستباحة دمهم وأموالهم هو نفسه الذى انتهى بالخوارج قديماً إلى مثل ذلك وأكثر منه حتى أنهم استحلوا دم أمير المؤمنين على رضى الله عنه ـ وهو من هو قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وسابقة فى الإسلام وجهاداً فى سبيله.

ويعلن الشيخ القرضاوى رأيه بوضوح وقوة فى التكفير والتكفيريين.. «إنى أنكر اتجاه التكفير وأعارض القائلين به أياً كانوا وفيهم من يسمونهم جماعة التكفير والهجرة.. وإن كانوا هم لا يسمون أنفسهم بذلك.

إلا أن الشيخ يضع بعض النقاط على الحروف فى أخطاء المعالجة والتعامل مع تيار التكفير فى مقدمتها:

● إن الصحافة ـ فى معظمها ـ تناولت موضوع جماعة التفكير تناولاً غير سليم وغير مفيد فهو يقوم على التهويل والمبالغة وتصوير غير الواقع والخروج عن الموضوعية وعن الأدب أحياناً ومن ذلك:

ـ وصف هؤلاء الشباب باسم الشعوذة والدجل وهذا غير صحيح فإنهم أُوتوا من فساد الفكر لا فساد الضمير.. ومن سوء الفهم لا من سوء النية.

ـ الهجوم على بعض الآداب والمظاهر الدينية التى حرصوا عليها وينبغى أن تحمد لهم.. بدل أن يهاجموا بها مثل: إطلاق اللحى واستعمال السواك وتحجب النساء.. وغيرها.

ـ اتهامهم بالعمالة لدولة أخرى.. وفى رأيى أن مثل هؤلاء الغلاة لا يصلحون أن يكونوا عملاء لأحد كائناً من كان.. لأنهم ينظرون للناس كافة باستعلاء.. باعتبار أنهم وحدهم المؤمنون والجميع كفار جاهليون وإذا اتصلوا بأحد من

الناس أو اتصل بهم أحد من هنا أو هناك فهو فى نظرهم عميل لهم وأداة لتحقيق غاياتهم.. مهما يكن مبلغه من القوة ومبلغهم من الضعف.

● ثانياً: كنت أود أن يحاكموا إلى قضاء مدنى عادى.. نسمع فيه أصواتهم بحرية وعلنية.. وتكون فرصة يتعرف الناس على فكرهم ويطلعوا على ما فى جعبتهم دون حاجز أو قيد يفرضه القضاء العادى.

● ثالثاً: كما أنكرنا عليهم استخدام العنف والهدم فى معارضة خصومهم أياً كانوا فنحن ننكر على السلطة أى استعمال للعنف معهم.. فقد جربنا العنف فى عهود سابقة فلم ينتج إلا شراً ولم يولد إلا عنفاً مثله أو أشد منه.

فالفكرة يجب ألا تقاوم إلا بالفكرة.. واستخدام العنف وحده فى مقاومتها قد لا يزيدها إلا توسعاً.. ولا يزيد أصحابها إلا إصراراً عليها.. إنما الواجب أن تعالج بالإقناع والبيان وإقامة الحجة وإزاحة الشبهات.

خاصة أن هؤلاء المكفرين فى مجموعهم أناس متدينون مخلصون صوامون قوامون غيورون قد هزهم ما يرونه فى المجتمع من ردة فكرية وتحلل خلقى وفساد اجتماعى واستبداد سياسى.. فهم طلاب إصلاح حريصون على هداية أمتهم وإن أخطأوا الطريق وضلوا السبيل.

وينبغى أن نشير إلى خطورة الحكم بالتفكير على إنسان ما.. وما يترتب عليه من آثار هى فى غاية الخطر أيضاً:

- إنه لا يحل لزوجته البقاء معه ويجب أن يفرق بينها وبينه لأن المسلمة لا يصح أن تكون زوجة لكافر بالاجماع المتيقن.

- إن أولاده لا يجوز أن يبقوا تحت سلطانه لأنه لا يؤتمن عليهم ويخشى أن يؤثر عليهم بكفره وبخاصة أن عودهم طرى.. وهم أمانة فى عنق المجتمع الإسلامى كله.

- إنه فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامى بعد أن مرق منه وخرج عليه بالكفر الصريح والردة البواح.. ولهذا يجب أن يقاطع ويفرض عليه حصار أدبى من المجتمع حتى يفيق لنفسه ويثوب إلى رشده.

- يجب أن يحاكم أمام القضاء الإسلامى لينفذ فيه حكم المرتد.. بعد أن يستتيبه ويزيل من ذهنه الشبهات ويقيم عليه الحجة.

ـ إنه إذا مات لا تجرى عليه أحكام المسلمين.. فلا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ولا يورث.. كما أنه لا يرث إذا مات مورث له.

ـ إنه إذا مات على حاله من الكفر يستوجب لعنة الله وطرده من رحمته والخلود الأبدى فى نهار جهنم.

ومن أشد المخاطر لتيار التكفير فى تلك المرحلة: أنه لم يعد يكتفى بالجانب النظرى.. بل طفق يتخذ طريق التنظيم والتجنيد للشباب المتحمس.. ومن انضم إليه اجتهد أن يغسل دماغه من الأفكار التى يعتنقها جمهور المسلمين فهى فى نظره أفكار خاطئة.. بل ضالة وإن قال بها علماء كبار لأنها مخالفة لظاهر القرآن والسُّنة.. وهنا تبدأ مرحلة «تثقيف» مركزة تقوم على أصولها الخاصة التى ترفض الآخر.. كل الآخر.. مسلماً أم عير مسلم وترفض فقه الآخرين كله.. والتى تتمثل فى التمسك بظواهر النصوص وترك المحكمات وسوء الظن بالناس جميعاً.

ثم بدأ الأمر يزداد خطراً حين سلكوا طريق العنف..

وبدأوا يصدرون فتاوى خطيرة فيما بينهم.. فمن تركهم عدوه مرتدا وأجازوا لامرأته أن تتزوج غيره وإن لم يطلقها.. بل أجازوا أن يخطفوا الفتاة ويزوجوها لأحدهم.. لأن رضا أبيها الكافر غير مطلوب وغير معتبر.

وقد أعطوا أنفسهم كل سلطات الإفتاء والقضاء والشرطة.. فيفتون بإباحة دم من شاءوا من الناس ثم يصدرون حكمهم المبرم الذى لا راد له ولا يقبل الاستئناف ولا النقض.. وبعد ذلك يشرعون فى التنفيذ.. وأحدهم لا يحسن أن يفتى فى مسألة من مسائل الميراث ولا يحسن أن يكون قاضياً فى محكمة جنح!!

موقع سيد قطب

يدخل فى إطار حرب تيار التكفير والتكفيريين ما بذله د. القرضاوى من جهد علمى وفكرى فى كشف بعض المنابع الرئيسية فى هذا الاتجاه.. والإعلان صراحة وبكل وضوح عنه.. خاصة ما يتعلق بالتوجهات التكفيرية عند سيد قطب وركونه إلى فكرة التكفير والتوسع فيه.. بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه فى مواضع كثيرة ومتفرقة من الظلال وما أفرغه فى كتابه «معالم فى الطريق»: أن المجتمعات كلها قد أصبحت جاهلية.. وهو لا يقصد بالجاهلية جاهلية العمل والسلوك فقط بل جاهلية العقيدة.. إنها الشرك والكفر بالله حيث لم ترض بحاكميته تعالى.. وأشركت معه آلهة أخرى.. استوردت من عندهم الأنظمة والقوانين والقيم والموازين والأفكار والمفاهيم واستبدلوها بشريعة الله وأحكام كتابه وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ورغم الإطراء الشديد الذى قدمه الشيخ القرضاوى لشخصية الشيخ سيد قطب وإعلانه الاحترام والتقدير لجهده وجهاده.. إلا أن كشف الاتجاه التكفيرى على وجه الخصوص لدى سيد قطب.. فتح أبواباً عديدة لانتقاد القرضاوى والهجوم عليه.. خاصة من «القطبيين» أو المتحمسين لأفكار سيد قطب ومن ذلك على سبيل المثال ما كتبه جمال سلطان معاتباً الشيخ القرضاوى.

أخذنى العجب الشديد من عالم كبير بحجم الشيخ يوسف القرضاوى - حفظه الله- وهو يكتب عن الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- سواء فى مذكراته أو بعض مقالاته وكذلك فى كتبه؛ إذ كان ملاحظا ذلك الإلحاح الغريب من قبل الشيخ على اتهام سيد قطب بأنه كان "تكفيريًا"، متطرفًا يكفر المسلمين جماعات وأفرادا، حكومات ومحكومين، دولا وشعوبًا، وخاصة فى مرحلته الأخيرة (مرحلة المعالم)، حيث يقسم الشيخ حياة سيد قطب الفكرية إلى مرحلتين: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ومرحلة: معالم فى الطريق.

وعلى الرغم من أن الشيخ يوسف قدم الكثير من التبجيل والتوقير والإجلال لسيد قطب وعطائه وتضحياته فى تلك الكتابات.. فإنها كانت أشبه بمقدمة اعتذار عن القسوة اللاحقة فى الكتابة عن الرجل وتاريخه وفكره، ولقد تعجبت كثيرا من إجهاد الشيخ يوسف نفسه -مع كثرة مشاغله وأعبائه- لكى يثبت للقارئ أن سيد قطب كان تكفيريًا، ويأتى بنصوص كثيرة مطولة من كتاباته، خاصة مما يتحدث فيه عن الجاهلية والكفر والردة التى رآها انتشرت فى جنبات الأرض فى العصر الحديث، ويطالب القارئ بأن يتأمل بعض العبارات والمصطلحات، ويحرص حرصا مثيرا على وضع خطوط تحت كلمات وألفاظ بعينها، لكى يلفت ذهن القارئ إليها ويستحثه على تأمل تطرفها وروح التكفير فيها، ويدقق لكى يثبت له أن الرجل ليس كاتبًا معتدلا أو حاداً فى عبارته فقط، وإنما كان كاتبًا تكفيريًا، وبالتالى متطرفًا.

الشيخ لم يذكر -للأمانة- صفة التطرف أو الإرهاب، ولكن الأمر لا يحتاج إلى كثير شرح لكى يطلق القارئ الذى يرى الشيخ يوسف -على قدره- يثبت له ويحاصره بالشواهد والسقطات التى تؤكد أن الرجل كان تكفيريًا، أقول: لا يحتاج القارئ كثير جهد لكى يطلق صفة "المتطرف" على سيد قطب، ومن ثم "الإرهابى" بالضرورة. هل هذا هو المآل الذى يقصده الشيخ يوسف من جهده المتتالى والمتكرر من أجل إثبات أن سيد قطب كان تكفيريًا يكفر المجتمعات والحكومات والأفراد والشعوب؟ الأمر محير للغاية.

ثم ما هى القيمة العملية التى يمكن أن يحصلها الشيخ القرضاوى أو قارئه من هذا الجهد المضنى الذى يثبت به -بكل سبيل- أن سيد قطب كان

تكفيريًا؟ هل هو تحذير القارئ من كتابات سيد قطب، والنظر إلى كتاباته بحذر وريبة، والتشكك فى كل سطر يقرؤه له، ولا يدع مجالا لحديثه أن يصل إلى قلبه ووعيه؟ هل المقصود هو تنفير المثقف المسلم من كتب سيد قطب ودعوته إلى الارتياب فى كتاباته والتحقير من رشده الدعوى ومكانته فى الفكر الإسلامى؟ هل هذا هو المطلوب؟

أنا لا أتصور أن الأمر فيه من حظوظ النفس أو ما يعرف بالغيرة بين العلماء من القبول الواسع لأحدهم دون سواه، وذلك أنه على الرغم من البون الكبير بين الرجلين، والحضور المهيب لسيد قطب فى أجيال الإسلاميين على مدار نصف قرن كامل.. فإن الشيخ القرضاوى أيضا له مكانته الكبيرة فى قلوبنا وقلوب أبناء الحركة الإسلامية والمثقفين الإسلاميين بغزارة إنتاجه وعلمه وسعة أفقه؛ فما هو السبب إذن الذى يجعل الرجل يُجهد نفسه وقارئه كل هذا الإجهاد من أجل أن يثبت له أن سيد قطب كان تكفيريًا؟

هل هى بقايا التوتر الحزبى القديم بين الفصيل الذى انتمى إلى سيد قطب من الإخوان المسلمين، والفصيل الآخر الذى انتمى إلى الشيخ مصطفى مشهور -رحمه الله- ومجموعة التنظيم الخاص، وهى التوترات التى بدأت فى المعتقلات وتفجرت فى أوائل السبعينيات الميلادية بعد الخروج من سجون عبد الناصر؛ حيث سرت موجة غامضة بين الفصيل الثانى من أجل تحقير سيد قطب وشأنه ومكانته وقيمته؟ وأذكر أن حوارًا دار بينى وبين شخصية كبيرة فى ذلك الفصيل، كان يعمل أستاذا فى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، ورأيته يحقر بشدة من سيد قطب وقيمته ومكانته، ويصر على تكرار وصف "شخص عادى جدا فى الإخوان، لم يكن له أى دور قيادى أو توجيهى"، وأدركت يومها أن هناك مرارة شديدة مرجعها إلى آفة الحزبية البغيضة، نفست عن نفسها فى الطريق الخطأ؛ إذ أن سيد قطب لا يمكن قياس قيمته ومكانته بالمقاييس الحزبية أو التنظيمية، كما أنه حتى بذلك القياس فمن الصعب أن نتصور أن الرجل الذى اختارته قيادة الجماعة كمسئول أول عن الدعوة والتوجيه يكون شخصا مريبا أو لا قيمة له، كذلك الشخص الذى تختاره الجماعة رئيسا لتحرير صحيفتها الرئيسية أيضا لا يمكن التهوين من أمره تنظيميا، لكن المسألة -كما قدمنا- أبعد من هذا المقياس ضيق الأفق.

والمؤسف أن هذه الروح المريضة تسللت إلى كتابات عديدة ممن حاولوا التأريخ لتجربة الإخوان من أبنائها، وعفا الله عن الأستاذ محمود عبد الحليم فى كتابه "الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ" أتى بالأعاجيب من أجل إهانة سيد قطب وتشويه صورته؛ فقد ذكر -على سبيل المثال- أن سيد قطب كان فى السابق من الدعاة إلى العرى والإباحية، ولكى يستدل على هذا الكلام الموجع والفاحش ادعى أن سيد كتب مقالاً فى جريدة الأهرام قديمًا ذهب فيه هذا المذهب، ودعا فيه إلى الإباحية والعرى، ودافع عن الحرية فى ذلك، ومنذ ذكر عبد الحليم هذه الفرية المؤسفة، ونشط عدد من الباحثين يبحث عن هذه المقالة المذكورة فلم يعثر لها على أثر، وهو أمر مدهش.

إن هذا الأمر لو كان حدث بالفعل من أحد فى مرحلة ما قبل التزامه، فإنه بلا شك أمر يشينه كمسلم وحتى كإنسان عربى ذى مروءة، بعيدا عن الالتزام الشرعى، وبالتالى فنبل المؤرخ أن يتحاشى مثل هذه السوءات وأن يسترها إن وجدت، خاصة أنها لا قيمة لها أبدا فى سياق تسجيل تطور تاريخ الرجل؛ لأن له كتابات وكتبا أخرى شهيرة تقول إنه كان أديبا يميل إلى المذهب الرومانسى ونحو ذلك وكان من مدرسة العقاد. أما أن يذهب الباحث "الأمين" لكى ينقب فى قمامة التاريخ الأدبى لكى يخرج بما يشين الرجل -إن كان حقيقيًا بالفعل- فهذا ما يصعب تبريره أو فهم أسبابه، فكيف -والأمر كله كذب وافتراء- يليق بباحث "إسلامى" ينتمى إلى جماعة كبيرة، ويسجل تاريخها أمام الرأى العام؟

الأمر الذى يزيدك حيرة أن الشيخ القرضاوى يصر هو الآخر على ذكر هذه الفرية وتكرارها أمام القارئ بدون أى مبرر، وهو لا يعرفها، وإنما يحكيها منسوبة إلى محمود عبد الحليم، إلا أنه يحاول التشكيك فيها، ويؤكد أن أحدا لم يعثر على مثل هذه المقالة المزعومة، فلماذا -وهى على هذا القدر من التفاهة والقبح- تصر على ذكرها، وتنقلها عن باحث غير حصيف، ولا أقول غير ذلك تأدبا. لماذا يعيد الشيخ القرضاوى ذكر هذه الحكاية الكاذبة والترويج لها حتى لو كان يذكر تشككه فيها بعد ذلك؟ هل ضاق بنا الكلام فيما هو ثابت ومسجل وشهير، لكى ننقب فى قمامة التاريخ الأدبى والشاذ فيه والعجيب؟

إن الشيخ القرضاوى -حفظه الله- كتب وأكد على قيمة تراث سيد قطب وأهميته وعلوه، فإذا كان الأمر كذلك، فإنه حتى لو وقعت شبهة فى الأسلوب قد يخطئ فهمها أحد من الشباب فينزع إلى التطرف أو التكفير؛ فإن الحكمة أن ننبه الشباب إلى خطأ مثل هذا الفهم، وأن نوجهه إلى أفضل ما يمكن فهمه -فى هذا الجانب- من كتابات سيد قطب، وأن الرجل عند حديثه عن الكفر والردة والجاهلية ونحوها إنما كان يصف أفكارا وسياسات ونظما شاذة ومعادية للدين حقيقة، ويصف حالاً من الجهالة الحقيقية كانت منتشرة فى مجتمعات المسلمين، توارثت الإسلام دون بذل جهد متجدد لإحياء جوهره وروحه، وهو مفهوم شائع لدى كثير من أهل العلم فى تلك الأوقات، وتكررت عبارة أن "الناس اتخذت العبادات عادات"، ولكن سيد قطب لم يكن يكفر أشخاصًا أو أعيانا، وهو أمر لا يختلف كثيرا عن وصف حالات القبوريين وهم بالملايين فى العالم الإسلامى بأنهم يقعون فى وجه من أوجه الشرك والجاهلية، من غير أن نصف أعيانا بالشرك والجاهلية.. فتلك قضية أخرى.

ولو كان الأمر أمر تحذير للشباب من شبهات التطرف ومخاطره فهناك أكثر من أسلوب وطريق لتحذير الناس من الغلو والتطرف والتفسير المغلوط للكتابات، مهما كانت الشبهة فيها، وهناك كثيرون ممن كتبوا وعلقوا على كتابات سيد قطب بحب وأمانة وإخاء وفقوا فى هذا الجانب وأعادوا تفسير بعض عباراته مضمومة إلى أخرى لتنفى عنها شبهة تكفير الأعيان. وللتأكيد على أن الأسلوب الأدبى الذى كتب به سيد قطب من الخطأ التعامل معه بعيدا عن "روح" النصوص الأدبية، ومثل هذا التأويل ليس عسيرا على عالم بحجم الشيخ القرضاوى، عهدنا فيه التماس الأعذار والتأويلات للاجتهادات القديمة والجديدة سواء، ولكنه -مع الأسف- الأمر الذى غاب عنه عندما نظر فى كتابات سيد قطب، ولو كان المجال متسعا لبسطت النصوص التى أوردها من كلام قطب رحمه الله، وكشفت سهولة تأويل النص بما يدفع عن الرجل شبهة التكفير، وأيضا بما يحمى شبابنا من الوقوع فريسة للتأويلات المتطرفة التى تدفع بهم فى اتجاه التكفير والتطرف، ولكن حسبنا الإشارة إلى خطأ منزع التشهير بالرجل، وخطورة التأسيس لمثل هذا المبدأ الذى يجهد فيه العلماء أنفسهم من أجل إثبات ضلال الآخرين لتحذير الناس منهم.

وقد رد الشيخ القرضاوى بقوة على تلك الانتقادات مفندا إياها ومشددا على انه كتب ماكتب وناقش ماناقش من باب النصيحة فى الدين والاعذار إلى الله وبيان ما اعتقد أنه الحق.. وإلا كنت ممن كتم العلم أو جامل فى الحق أو داهن فى الدين أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

قال القرضاوى فيما أسماه كلمة أخيرة فى الجدل حول سيد قطب:

لم أكن أقصد أن أخوض هذه المعركة التى دخلتها على كره منى، فليس بينى وبين سيد قطب إلا كل مودة ومحبة واحترام، بل أكن له ما أكنه لأئمة الدعوة مثل حسن البنا والمودودى، والسباعى، والغزالى وغيرهم. وأنا لست من أقران سيد قطب حتى يتصور البعض أن يكون بينى وبينه من التغاير ما بين الأقران بعضهم وبعض، على أنَّا - وإن جمعتنا ساحة الدعوة - يظل لكل منا ميدانه وحلبته التى يصول فيها ويجول، فبيننا عموم وخصوص من وجه كما يقول المناطقة.

ولكنى فوجئت بما أثارته مذكراتى من (وقفة مع سيد قطب) وما ذكرته عما تحمله فى المرحلة الأخيرة من حياته الفكرية من ميل إلى (تكفير مسلمى اليوم) - مع محاولتى التخفيف من عباراتى ما استطعت - مما جعل كثيراً من قراء المذكرات يطالبوننى بالأدلة التى تثبت هذه الدعوى. ولم يسعنى إلا أن أنقل من ثلاثة كتب (نصوصا صريحة) تصرح بتكفير مسلمى اليوم.

واكتفى معظم القراء بهذه الشواهد الناطقة، ولكن عددا من الاخوان المتحمسين - الذين لا أشك فى إخلاصهم - مثل جمال سلطان وأحمد عبدالمجيد ومحمود عزت وغيرهم - عز عليهم أن يتصف سيد بتلك الصفة (تكفير المسلمين) وأنا - والله - يعز على ذلك، ولكن ما حيلتى والشواهد تدمغنى، والنصوص الواضحة المتكررة لا تدع لى مجالا. وليست الأمور بالتمنى!

على أن هذا الفكر لم يكن مجرد فكر نظرى تجريدى معلق فى الهواء، بل هو فكر موصول بالواقع بنى صاحبه على أساسه جدرانا وسقوفا ورتب عليه نتائج وآثارا كررها وأكدها فى كتبه.

ومن ذلك: أنه رأى التركيز على وجوب الدعوة إلى اعتناق هذه العقيدة، لا على عرض التشريع أو النظام الإسلامى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، فإنما يتأتى ذلك بعد وجود الجماعة المسلمة.

ومن ذلك السخرية بدعوى إحياء الفقه الإسلامى وتطويره وفق حاجات العصر، وتجديد الاجتهاد، ونحو ذلك، مع غيبة المجتمع المسلم، بل مع انقطاع الوجود الإسلامى منذ زمن بعيد!

وأذكر أن الأخ الفاضل عادل الصلاحى - مترجم (الظلال) إلى الإنجليزية - طلب لقائى فى لندن، وأخبرنى بأنه فوجئ بما كتبت عن سيد، وأنه لقى سيدا قبل استشهاده، وعلم منه: أنه يركز قبل كل شىء على التربية.

قلت له: وهذا صحيح، ولكن على أى شىء يربى من انضم إليه؟ هنا مربط الفرس كما يقولون.

ثم قلت له: كيف تترجم العبارات التى تحمل دلالة واضحة على تكفير مسلمى اليوم؟

قال: بصراحة أنا لا أترجمها حرفيا، بل أذكر معنى عاما يقرب من مدلولها إلى القارئ، وإن لم ينقل إليه المعنى المراد!

قلت له: وهل ترى أنك بهذا تكون قد أديت أمانة الترجمة؟ وماذا تصنع لو جاء معقب عليك، وقال: إن المترجم تعمد تحريف الترجمة؟!

فسكت الرجل، ثم قال: وما الحل؟

قلت: ولا حل عندى إلا الصدق ومواجهة الحقائق مكشوفة، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم على أن الذى يهون من هذه القضية عدة أمور:

١- إن هذا الفكر نتيجة اجتهاد من قائله، أسسه على ظواهر واعتبارات شرعية وعقلية، وهو اجتهاد يعذر صاحبه، بل يؤجر عليه أجرا واحدا، وإن كان فى القضايا الأصولية والعلمية كما حقق شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من علماء الأمة.

٢- إن الظرف الذى ظهر فيه هذا الفكر، وصاحبه فى سجن الطغاة، ودعاة الإسلام يشنقون ويعذبون ويشردون، والشيوعيون يمكن لهم: يجعل لمتبنيه عذرا أكبر.

٣- إن صاحب هذا الفكر لم يكن من المتاجرين بالدين، أو المتزيين بزى أهله، بل كان رجلا صادقا مخلصا، وعاش لهذا الدين حتى قدم رقبته رخيصة فى سبيل الله.

وعلى كره منى سأضطر أن أقول بعض كلمات أعقب بها على الذين ناقشوا هذه القضية على موقع إسلام أون لاين.نت، وبعضهم من إخوانى وبعضهم من تلاميذى، وليس فى العلم كبير ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف - ٧٦) ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢) .

بعض الإخوة لم يعترضوا على الموضوع، ولكنهم اعترضوا على «التوقيت»، قائلين: ليس هذا أوان إثارة هذا الأمر، وقد قلت: إنى دفعت إليه دفعا، ثم ما هو الوقت المناسب لإثارة ذلك وقد مضى على الشهيد قطب ثلث قرن أو يزيد؟ ثم إن الأمانة العلمية، وما أخذه الله على العلماء من البيان وعدم الكتمان: يوجب على أن أقول الحق لأمة الإسلام، وأنا هنا أقول ما قاله الحافظ الذهبى فى ابن تيمية: شيخ الإسلام حبيب إلينا ولكن الحق أحب إلينا منه.

وتمنى بعضهم لو أنى استمررت فى نهجى الذى عرفت به، وهو نهج تجميعى يبنى ولا يهدم، يجمع ولا يفرق، فلماذا أثير هذه القضية وأفرق الصفوف اليوم؟

ومعاذ الله أن أكون داعى فتنة أو مفرق صف، وقد علم الجميع: أنى أدعو إلى التقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية من سنة وشيعة وزيدية وإباضية فكيف أفرق بين أهل السنة - بل أهل الدعوة - بعضهم وبعض؟!

ومما أذهلنى وآذانى ما ذكره الأخ أحمد عبدالمجيد - تعريضا - أن إلصاق تهمة التكفير بسيد قصد بها الإساءة إلى الرموز الإسلامية.

ويعلم الله كم كنت حريصا ألا أدخل هذا المعترك، وكم أجلته وأجلته، ولكن متى كان الأشخاص مقدسين عندنا؟

لقد كنت مترددا بين الإبقاء على سمعة الشهيد من ناحية، وبيان الحقيقة الشرعية من ناحية أخرى، فترجحت الثانية على الأولى لأن البيان فريضة، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وخطأ سيد لا ينقص من منزلته ولا من مثوبته عند الله، فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.

ومما ذكره الأخ عبدالمجيد بحق قوله: «حدث تغير فى أفكار سيد قطب،

عندما كان فى مستشفى ليمان طرة، طلب من أسرته كتب الشهيد حسن البنا والأستاذ المودودى، فبدأ يتنبه إلى أمور كانت غائبة عنه وخصوصا فى ضرورة التركيز على موضوع العقيدة، ثم بدأ يطلب كتب ابن تيمية وابن القيم، وبدأ التغير فى تفكيره وكتاباته، وظهر ذلك جليا فى الطبعة الثانية من الظلال، والأجزاء الأخيرة منه بدءاً من الجزء ١٣، وكتاب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ومعالم فى الطريق، ولو فرضنا أن هناك أخطاء عند سيد قطب - وهو بشر - فإن التقييم العادل أن نأخذ الأفكار الراشدة ونترك غيرها ولا نرفض المنهج بأكمله» انتهى.

وهذا كلام منصف متزن، وهو العدل الذى أمرنا به (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) (الأنعام: ١٥٢)، وأنا لا أقول غير ذلك، فلم أقل يوما: اعدموا تراث سيد قطب، أو احرقوا كتبه كما أحرقت كتب الإمام الغزالى وغيره قديما، ففى هذا التراث كنوز لا ينبغى أن تهمل إلى جوار (المطبات) التى يجب أن نحذر. وهذا ما أدين الله تعالى به.

ومما دهشت له أن أكثر المعلقين دفعهم الحماس بعيداً عن لب الموضوع، فتحدثوا فى أشياء جانبية، وتركوا الجوهر، وهو (النصوص الصريحة) المنقولة من كتب سيد رحمه الله.

ومما قاله بعضهم: إن الناس قرءوا (الظلال) ولم يفهموا ما فهمته من فكرة (التفكير). وهذا الكلام غير صحيح، فقد أثار جدلا طويلا داخل الإخوان فى السجون، ومن آثاره بحث قضية: هل نحن جماعة المسلمين؟ أم نحن جماعة من المسلمين؟ حتى أن مكتب الإرشاد أرسل إلى «سيد» الأخ عبدالرءوف أبو الوفا يسأله عن هذه المسألة، ومن ذلك سؤال الأستاذ عمر التلمسانى له وسؤال الحاجة زينب الغزالى له.

وقد رأينا تجمعات فى أقطار مختلفة يسمون (القطبيين)، يتبنون فكرة التكفير، وقد رأيت من آثار ذلك: من سألونى عن الصلاة فى البيوت، وترك المساجد باعتبارها معابد الجاهلية، وهو مما فهموه من الظلال فى تفسير قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة)، وقد رددت عليهم فى الجزء الأول من كتابى (فتاوى معاصرة).

ومن قرأ أدبيات جماعات التكفير يجد آثار هذا الفكر وعباراته المعروفة

فى صلب هذا الفكر، وإن لم يصرحوا بالنقل عنه.

وأنبه هنا على مسألة مهمة، وهى: أن أكثر الإخوان قرءوا الظلال، ولم يفهموا منه أمر التكفير، لأنهم قرءوه وهم يحملون فكر البنا، فلم يتأثروا بالفكر الجديد، وحملوه على ما فى رءوسهم من أفكار سابقة غرستها فيهم تربية البنا، حتى أكثر الذين كانوا فى تنظيم ١٩٦٥ - وسيد على رأسه - لم يكونوا يحملون مبدأ التكفير.

على أن هؤلاء - عادة - لا يقرءون الظلال، وإنما يقرءون فقرات منه على فترات، ربما كانت متباعدة، وقلما يربطون بين الفقرات بعضها وبعض.

على أن الذين لم يأخذوا فكرة التكفير لم تخطئهم رشحات من تأثير هذا الفكر الثائر الرافض على مفاهيمهم وعلاقاتهم بالآخر، ورفض الانفتاح والحوار، والمفاصلة الشعورية مع المجتمع، وإعلان الحرب على العالم كله، حتى المسالمين، والسخرية بدعاة الاجتهاد وتطوير الفقه، وغير ذلك، واتهام دعاة التسامح والموسعين بالهزيمة النفسية والسذاجة الفكرية...إلخ.

قد ينطبق حكم سيد قطب على بعض الأنظمة الحاكمة التى تتبنى «التطرف العلمانى» الذى يجاهر بالعداوة لشريعة الإسلام، ويحارب دعاته، ويعمل على تجفيف منابع التدين فى الحياة من التعليم والإعلام والثقافة، وهم الذين تحدثت عنهم فى كتابى «التطرف العلمانى فى مواجهة الإسلام»، هؤلاء فئة قليلة مبغوضة من الأمة وموالية لأعدائها.

أما تكفير الجماهير من مسلمى اليوم، كما تنطق بذلك ظواهر نصوص سيد قطب، فلا نوافقه عليها بحال من الأحوال والله يغفر له.

نقطة «الأدبية» و«الفقهية»

ومما أثاره عدد من الإخوة المعقبين: ما تعلق بـ (أدبية) سيد رحمه الله لا (فقهيته)، وأنه كان (أديبا)، ولم يكن (فقيها)، وأنه أعلن ذلك مرارا. فلا ينبغى أن نحاسبه بما يحاسب به الفقهاء بعضهم بعضا إذ لم يكن واحدا منهم.

وأود أن أقول لهؤلاء الإخوة: إننى أحترم النزعة أو الملكة الأدبية عند سيد، وأراه من أعظم أدباء العصر، ومن أجل هذا لا أطالبه بتدقيق الفقهاء، ولا

بتعمق الأصوليين، وهذا ما أوافق فيه الإخوة المعقبين، ولا اعتراض لى عليه.

ولكن الذى أخالفهم فيه هو اعتبارهم الأدب أو التعبير الأدبى سببا فى غموض الكاتب، وضبابية ما يكتب، والتباسه على قارئه، فالأمر عندى بالعكس تماما، فالكاتب الأديب الأصيل إذا كتب فى أى علم أضفى عليه من إشراق يراعه ومن نصاعة بيانه ما يجليه ويقربه إلى القارئ، ويزيح عنه أى لون من الغموض، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمى المتأدب).

وقد رأينا هذا فى كتابات العلماء الأدباء، مثل: محمد عبده، ود. محمد عبدالله دراز، وحسن البنا، ومحمد الغزالى، وعلى الطنطاوى، ومصطفى السباعى، والبهى الخولى وغيرهم.

وسيد قطب يأتى فى مقدمة هؤلاء، فلم أر أديبا هو أنصع منه بيانا، ولا أوضح أسلوبا فى كل ما يكتبه، فى التفسير وفى غيره، وقد يقال: إنه لم يكتب (تفسيرا) بالمعنى الحرفى للكلمة، وهذا صحيح بالنسبة للنصف الأول من الطبعة الأولى من الظلال، ولكنه فى الأجزاء الثلاثة عشر الأخيرة، وفى الأجزاء الأولى من الطبعة الثانية، اجتهد أن يكون مفسرا، ويكاد يكون أفرغ تفسير ابن كثير - أو خلاصته - فى الظلال.

ولم يكن الرجل من دعاة الرمزية أو السريالية أو غيرها من المذاهب الأدبية التى تعمد إلى الغموض وتغلف مقولاتها وأفكارها بأغلفة تحجب معانيها عن جماهير القراء، ولم يكن سيد كذلك من دعاة الباطنية الذين يقولون القول، ولا يريدون به ما يفهمه سائر الناس. بل كان رجلا صريحا بينا لا يحب الظلام ولا الضبابية فيما يقول ولا فيما يفعل.

والقضية التى نتحدث عنها - قضية تكفير مسلمى اليوم - ليست قضية فقهية بعيدة عن اختصاص سيد كما يتصور أو يصور بعض الإخوة المتحمسين، بل هى قضية فكرية محورية أساسية، أو قل هى: قضية أصولية اعتقادية، هى ألصق بعلم العقائد والكلام منها بعلم الفقه والفروع، ولأنها قضية فكرية محورية مركزية عند سيد، رأيناه يلح عليها، ويكررها ويؤكدها بأساليبه البيانية الرائقة والرائعة حتى تتضح كالشمس فى رابعة النهار.

ومما آلمنى كثيرا دخول بعض الإخوة فى هذا الميدان، وبضاعتهم مزجاة من

العلم الشرعى، وحتى من المنطق العقلى، وظنوا أن الحماس ورص الكلام يغنى شيئا فى القضايا العلمية الكبيرة.

لقد جاءوا بمن يمكن أن يسموا (شهود النفى) فى القضية، ليقولوا: إنهم لقوا سيداً رحمه الله ولم يجدوه يكفر المسلمين، أو سألوه: هل تكفر المسلمين؟ فنفى ذلك، وقال من قال: يجب أن نضم أفعال سيد إلى أقواله حتى نكون منصفين معه.

ونسى هؤلاء ما قرره علماؤنا من (قواعد علمية) تحكم الأمور وتضبطها، من هذه القواعد: أن المثبت مقدم على النافى، وأن من حفظ حجة على من لم يحفظ.

فإذا جاء عشرة ثقات وقالوا: لم نسمع فلانا يشتم فلانا، وجاء رجل ثقة، وقال إنه سمعه يشتمه، وكان من أهل العدالة والضبط، أخذ بقول هذا الواحد، لأنه علم ما لم يعلموا، فهم حدثوا بما يعلمون وهو حدث بما يعلم، وحفظ ما لم يحفظوا، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

وما ذكره الإخوة من تعارض فعل سيد مع أقواله: قد غفلوا عن أصل مهم، وهو: أن الذى يحكم على العالم ويعبر عن رأيه هو قوله لا فعله، لأنه فعل امرئ غير معصوم، فلا غرابة أن يناقض فعله قوله، وسلوكه عمله، مادام لا عصمة له، وقد قال بعض الأئمة:

اعمل بقولى ولا تركن إلى عملى ينفعك علمى ولا يضرك تقصيرى

وإن كنت أحيى ـ على وجه الخصوص ـ مقالة الأخ معتز الخطيب التى ناقشت الموضوع مناقشة علمية مستنيرة وموضوعية، كذلك أحيى مقالات أخرى جيدة مثل مقالة العالم الأزهرى المتمكن الدكتور يحيى هاشم فرغلى، على ما فيها من تمحل، وإن كان يبدو لى أن بعض هذه المقالات لم تكتب تعليقا على كلامى.

وأريد أن أؤكد للمعلقين جميعا أنى لم أدع على الرجل دعوى من كيسى بل من كيسه هو، وما آخذته إلا بكلامه البين الجلى المفهوم، فإن كان رجع عن مضمون هذا الكلام الجلى فى أواخر حياته ـ رحمه الله ـ فليقل هذا ولا حرج، إنه تراجع عن هذا الفكر ولم يعد يلتزمه أو يؤمن به.

وحبذا أن يقول ذلك أولى الناس به، شقيقه الكاتب الكبير الأستاذ محمد قطب حفظه الله، فليت صديقنا العزيز يفعلها ويستريح، فيعلق على الأقوال التى نقلتها من الظلال ومن غيره وأمثالها بسطر واحد يضع الأمور فى نصابها.

لقد درسنا على شيوخنا فى الأزهر علما يسمونه (أدب البحث والمناظرة)، ومن قواعده المقررة: إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل، فلا يطلب من ناقل قول إلا أن يكون نقله صحيحا ثابتا عمن نقله عنه، ولا يطلب من صاحب دعوى إلا أن يقيم الدليل على ثبوتها.

وأنا ادعيت دعوى أقمت الدليل عليها بنقول صحيحة، ولا يشكك أحد فى صحة النقول، وإنما يشكك المشككون فى ثبوت الدليل، وأنا لا أدرى وجها للتشكيك فيه بحال، وقد قيل: توضيح الواضحات من المشكلات، وقال الشاعر:

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن قال: إن سيد قطب غير قادر على الإفهام، لأنه أديب وليس بفقيه فقد أساء إلى سيد وأساء إلى الأدب والأدباء.

ولا يفوتنى هنا أن أنبه على حقيقة لا ريب فيها وهى: أننى - وحاشى لله - لا أكفر سيد قطب، ولا أؤثمه ولا أضلله بل أخطئه فى اجتهاد فلا يخلط الإخوة بينى وبين من اتهموا سيدًا بالكفر والضلال ومن رموه بالقول بوحدة الوجود، أخذا من متشابه كلامه فى سورة «الحديد» وسورة «الإخلاص» ولم يردوا المتشابه إلى المحكم الذى امتلأت به كتبه كلها، وهى تكذب هذه الدعوى التى لا تقوم على رجلين.

بين حسن البنا وسيد قطب

ويحلو لبعض الإخوة أن يعقدوا مقارنة بين حسن البنا وسيد قطب، محاولين أن يثبتوا انهما كانا على خط واحد ونهج واحد، وان سيدا لم يتجاوز خط البنا ورحم الله الرجلين.

وأنا أقول: إن سيداً أشاد بالبنا فى كتاباته القديمة التى جمعها فى كتاب (دراسات إسلامية) فكتب عن حسن البنا وعبقرية البنا. ولكنه لم يتحدث -

فيما علمت - عن فكر البنا ومقاصده، ولم ينقل عنه فى كتبه كما نقل عن المودودى والندوى، وإن كان يجمعه بحسن البنا الاتجاه العام لنصرة الإسلام والذود عن حماه.

أما المنهج فكان لكل منهما شخصيته وتميزه من حيث المنطلق ومن حيث الغاية ومن حيث الوسيلة ومن حيث الروح العامة، فأما المنطلق، وإن كان إسلاميا لكليهما نجده مختلفاً كثيراً بينهما فحسن البنا ينطلق من أن الامة الإسلامية موجودة وأن المسلمين موجودون، ولكنهم يحتاجون إلى عمل كبير لتفقيههم بالإسلام وتربيتهم عليه، بدءا بالفرد المسلم فالبيت المسلم، فالشعب المسلم، فالحكومة المسلمة، فالأمة المسلمة.

وسيد قطب ينطلق من أن الأمة المسلمة قد انقطع وجودها منذ زمن، ولا بد من اعادتها من جديد، وكل الموجودين اليوم من سلالات اقوام كانوا مسلمين وأوطانهم كانت من قبل داراً للإسلام، ولم تعد اليوم داراً للإسلام، وإذا لم يكونوا مسلمين فعلينا أن ندعوهم إلى اعتناق العقيدة الإسلامية، وان يدخلوا فى الإسلام من جديد.

حسن البنا يرى أن الإسلام - باعتباره ديناً - قائم موجود، وأن هناك أمة تؤمن به من المحيط إلى المحيط وأن الأمة المسلمة من أشد الأمم فى الأرض تمسكاً بدينها، وان الإنسان العاصى أو المفرط من عامة المسلمين نجد اصل الإيمان مغروسا فى أعماقه، ولكنه إيمان نائم أو مخدر، وهو فى حاجة إلى إيقاظ وبعث وتنبيه وهذه مهمة الدعوة الإسلامية ورجالها.

نجد حسن البنا يقول فى رسائله: يا قومنا- وكل المسلمين قومنا - ندعوكم إلى كذا وكذا.

بخلاف سيد قطب، فهو يرى أن الإسلام قد انقطع وجوده من الأرض، فلا توجد أمة مسلمة، ولا يوجد مجتمع مسلم، بل لا يوجد أفراد مسلمون، لا بمعنى أنهم ارتدوا عن الإسلام، بل لأنهم لم يدخلوا أصلاً فى الإسلام، لأن دخول الإسلام لا يتحقق إلا بشهادة أن «لا إله إلا الله»، بما تتضمنه من إفراد الله تعالى بالحاكمية، وهم لم ينطقوا بالشهادة بهذا المدلول.

وهذا هو المفهوم الذى أنكره العلامة الندوى على سيد وعلى المودودى من قبله، وسماه «التفسير السياسى للإسلام».

حسن البنا يشعر بوجود الإسلام وأمته، ويتعاطف معها، ويعيش بهمومها، وسيد قطب لا يحس للإسلام ولا لأمته بوجود من حوله، بل يقول: قومنا على ملة، ونحن على ملة، وهم على دين ونحن على دين آخر.

غاية حسن البنا أن يصحح فهم المسلمين للإسلام الذى يعتنقونه بحيث لا يقتصر على المعنى اللاهوتى أو التعبدى الشعائرى، بل يجب أن يفهموه بشموله وتكامله وتوازنه: عبادة وجهاداً، ودينا ودولة، خلقا وقوة، ثروة وغنى، تربية وتشريعاً، وبعد تصحيح الفهم تبدأ عملية تجديد الإيمان وغرس المعانى الربانية والأخلاقية.

وغاية سيد قطب: أن يعلن رفض هذا المجتمع كله من حوله- فهو مجتمع جاهلى، لم يدخل بعد فى الإسلام المطلوب- وأن ندخل الناس فى الإسلام من جديد، وندعوهم إلى اعتناق عقيدته، كما دعاهم الرسول وأصحابه، وأن نشعرهم بأنهم شىء ونحن شىء، وأن نصارحهم بذلك بلا وجل ولا خجل حتى يعرفوا حقيقة أنفسهم.

وسيلة حسن البنا: هى الدعوة والحوار والتربية والتغلغل فى المجتمع، والعناية به بحل مشاكله وأخذه بالرفق والتدرج والانفتاح على المخالفين، والتسامح معهم دون تفريط فى حقوق الأمة.

وسيلة سيد قطب: هى الدعوة والتربية أيضا مع غرس الشعور فى العصبة المؤمنة القليلة- التى هى المسلمة دون من عداها - بالعزلة الشعورية من المجتمع، ورفض الانفتاح والتحاور مع الآخر، بل وتجب التعبئة الفكرية والشعورية ضده، وتقديم سوء الظن بهؤلاء الذين لا يضمرون إلا الشر والعداوة للمسلمين.

الروح العامة فى منهج حسن البنا هى: التسامح والانفتاح والحكمة والتدرج.

والروح العامة فى منهج قطب هى: التشدد والصرامة وإغلاق الأبواب.

ومن أجمل ما عبر عن اختلاف المنهجين: المفكر المؤرخ المستشار طارق البشرى حين قال: «إن سيد قطب صاحب فكر يختلف كثيراً عن فكر حسن البنا- رحمهما الله- ولكن الأمر لا يقوم بالمقارنة بموازين مطلقة، إنما يجرى

وصف كل فكر وظروف إعماله، وفكر حسن البنا- لمن يطالعه- فكر انتشار وذيوع وارتباط بالناس عامة، وهو فكر تجميع وتوثيق للعرى، وفكر سيد قطب فكر مجانبة ومفاصلة، وفكر امتناع عن الآخرين.

فكر البنا: يزرع أرضاً وينثر حباً، ويسقى شجراً وينتشر مع الشمس والهواء.

وفكر قطب: يحفر خندقا ويبنى قلاعاً ممتنعة عالية الأسوار، الفرق بينهما هو الفرق بين السلم والحرب

موقف الإخوان فى معتقل ١٩٦٥

وقد حاول بعض الإخوة المحبين لسيد والمعظمين له أن يؤولوا كلماته هذا الظاهرة فى دلالاتها على ما نقول. وقال أحدهم- الأخ د.إبراهيم عبيد- فى تعقيب له: أليست هذه العبارات التى قالها سيد مثل ما قاله الإمام حسن البنا فى بعض الناس: ليسوا إخواناً، وليسوا مسلمين!

ونقول: إن هذه العبارة التى صدرت من حسن البنا- برغم شدتها وقسوتها حتى أن بعضهم أنكر صدورها عنه، وبعضهم زعم أنه أكره عليها- لا يمكن أن تحمل على ظاهرها؛ لأنها ضد منهج حسن البنا، وضد كتاباته كلها، وضد الأصل العشرين الذى ختم به الأصول التى وضعها لفهم الإسلام فى إطارها وفى حدودها، فلهذا يجب أن تؤول لتتفق مع الاتجاه الفكرى والعقدى العام لحسن البنا فهى كلمة متشابهة، يجب أن ترد إلى سائر كلامه المحكم.

وهذا بخلاف ما نقلناه عن سيد قطب، فهى ليست كلمة ولا كلمتين، ولا عبارة ولا عبارتين قيلت فى موضوع أو موضوعين، بل هى فكرة تجرى فى كتبه الأخيرة مجرى الدم فى العروق، ولا نجد فى كلامه الآخر ما ينقضها إلا كلامه القديم.

وقد نقلها كثيرون عنه ممن لقوه وسمعوا منه فى مستشفى طره، كما حكى ذلك الأخ إبراهيم عبده نفسه حين قال: لما دخلنا المعتقلات سنة ١٩٦٥ فوجئت- كما فوجىء كثيرون غيرى من الإخوان- بفتنة عارمة، تقول بتكفير المسلمين جميعاً! وتزعم أن هذا القول مرجعه الأستاذ قطب، أوحى به إلى الذين التقوه فى مستشفى طره. وكانت فتنة مزلزلة، رفضناها جميعاً.

واستبعدنا أن تصدر من الأستاذ سيد. وكانت فتنة هددت المجتمع الإخوانى داخل السجن بالانقسام حتى وصل فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى فحسم هذه القضية، وقف- كعهدنا- به وقفته الصلبة المنضبطة وأصدر دراسته تحت عنوان «دعاة لا قضاة» وانتهت الفتنة والتزم الإخوان إلا قليلا.

وقد بدأت الدراسة التى أملاها الأستاذ الهضيبى- أو أقرها- بنقد بعض كلمات الأستاذ المودودى فى تفسير «لا إله إلا الله» وهو بهذا يرد- ضمنيا- على سيد قطب؛ لأن سيد أخذ كلام المودودى وعمقه وفصله ورتب عليه آثاراً وأحكاماً، لم يرتبها المودودى نفسه.

وأعتقد اعتقاداً جازماً أن الأستاذ الهضيبى لم يقرأ ما كتبه سيد، ولا أحد من إخوانه فى ذلك الوقت، وإلا لرد عليه. إذ لم تكن كتاباته الجديدة قد انتشرت فى ذلك الوقت، ولذلك كانت كل المحاورات والمجالات حول ما سمعه بعض الأشخاص من سيد مشافهة.

وهذا باستثناء جماعة «القطبيين» الذين قرءوا ودققوا وعرفوا وآمنوا بما دعوا، والتزموا به وتحمسوا له، ودافعوا عنه، ودخلوا السجون فى سبيله.

موقف سيد قطب من جمهور المسلمين

كما لاحظت أن الإخوة الذين عقبوا علىَّ كلهم- إلا واحداً- أغفلوا شيئاً مهما هو محور القضية، وهو ما نقلته عن سيد رحمه الله من كتبه فقد تناسوا هذا تماماً وظلوا يركضون بعيداً: يبحثون عمن لقى سيدا من سأله فأجابه، ومن سمع منه كذا وكذا، وأنا لا دخل لى بهذا كله، أنا أحكم على فكر الرجل من خلال نصوصه المكتوبة. والنص المكتوب هو أدل شىء على فكر الإنسان بخلاف ما يقول شفهيا، مما قد لا ينقل بنصه تماما، وما قد ينقل حسب فهم السامع، وما ينقل بعيداً عن سياقه وملابساته.

كنت أود من الإخوة المعقبين- ما داموا يحترمون المنطق العلمى والبحث الموضوعى- أن يقفوا عند النصوص التى نقلتها- وهى ليست كل ما قاله الشهيد رحمه الله- ويبينوا لنا المراد منها نصا نصاً لينظر القارىء فى

تفسيرهم لها؛ أهو مقبول أم مرفوض؟ طبيعى أم متكلف؟ ولكنهم للأسف- لم يجشموا أنفسهم مشقة هذا الجهد.

وعندى رأى فى تفسير الموقف العلمى لسيد وهو ما شهده الناس منه وسمعوه منه فى الفترة التى خرج فيها من ضيق السجن على باحة المجتمع، فقد واجه الجمهور الأعظم من الناس- التى شهدت نصوصه بأنه لم يدخل فى الإسلام بعد ولم يفهم «لا إله إلا الله» بمدلولها الحقيقى الذى حدده- فوجد هذا الجمهور يستقبله فى كل مكان بالفرحة والترحاب، ويتعاطف معه، من كان منهم من الإخوان ومن لم يكن، ووجدهم فى المساجد مقبلين على الله تالين لكتاب الله، أو مستمعين له متأثرين به، فلم يكن من السهل عليه أن يحكم على هؤلاء الناس بالكفر حقيقة الناس فى الواقع الذى يراه أوضح وأكبر مما سطره فى الكتب فلهذا سمعوا منه ما سمعوا ورأوا منه ما رأوه وأجابهم حين سئل بما أجاب مما قد يعتبر تراجعاً عما قرره فى كتبه.

ولكن ما فى الكتب من نصوص ناصعة البيان ظاهرة الدلالة يبقى كما هو لا نملك أن نغيره أو نسقط منه حرفاً أو نزيف دلالته فالحقيقة لا تقبل هذا والشهيد سيد قطب نفسه لا يرضى هذا التزييف.

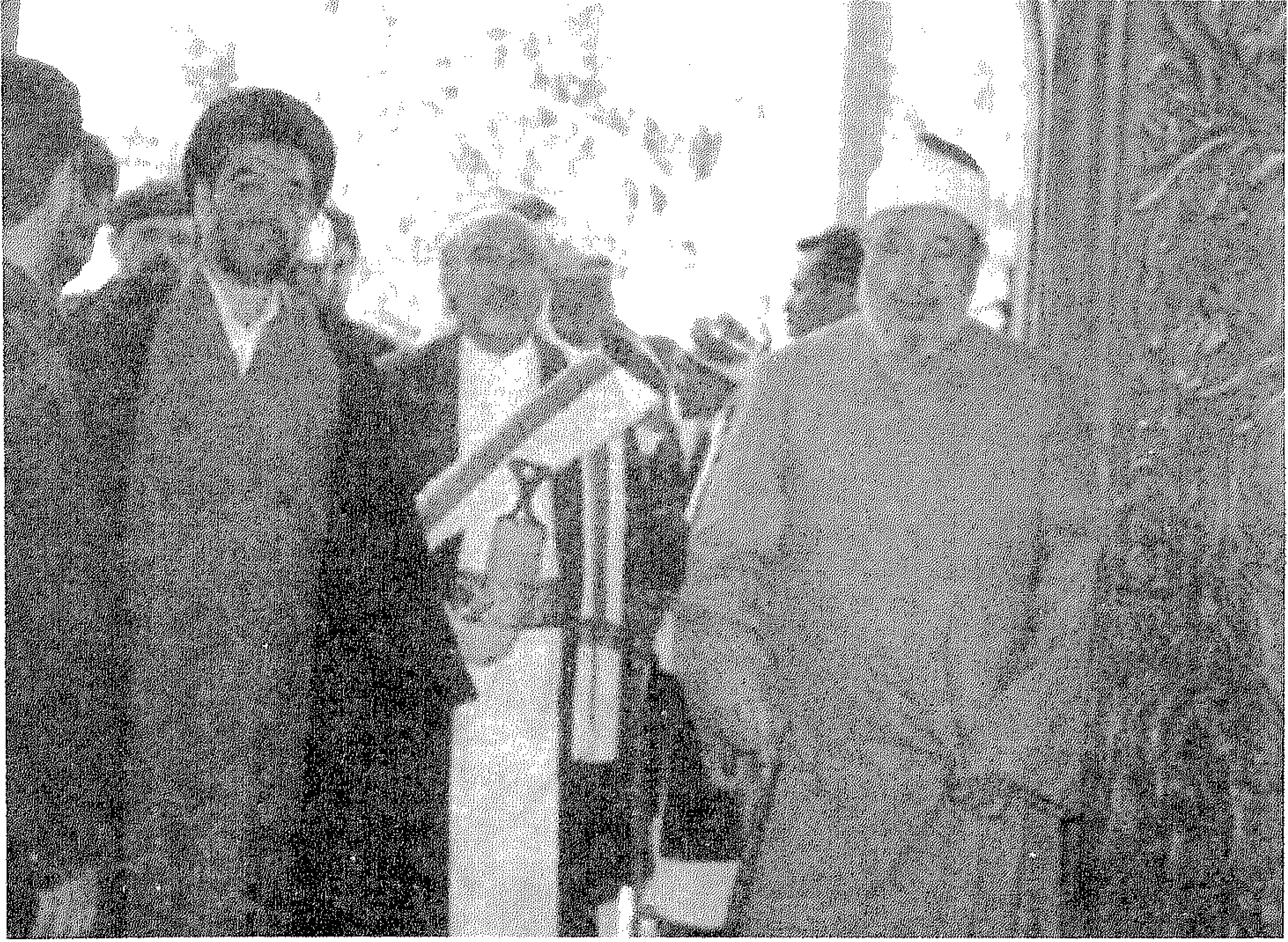
وأعتقد- والعلم عند الله- أن الشهيد، لو قدر الله أن ينسأ فى أجله ويعايش الناس فى حياة طبيعية ويتحدث إليهم ويسمع لهم ويناقشهم ويناقشوه لغير رأيه فيهم، وعدل مما كتبه من قبل، فقد عرفنا من خلائقه: أنه كان رجلاً صلباً فى دين الله شجاعاً فى الحق، لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يبالى أن يقول: أخطأت فيما أخطأ فيه.

ولا يسعنى إلا أن أدعو الله له بواسع المغفرة والرحمة، وأن يجزيه بنيته وبذله لدينه، وأن يأجره الأجرين فيما أصاب فيه من اجتهاد ويجزيه الأجر الواحد فيما أخطأ فيه.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

الفصل الحادى عشر

حلم مشيخة الأزهر



الشيخ وحضور دائم فى المناسبات الاسلامية



شيخ الأزهر.. وشيخ الأمة!!

طرحت فى بعض الآونة فكرة أن يتولى الشيخ د. يوسف القرضاوى مشيخة الأزهر.. وأظنها بكل يقين لم تكن مسألة رسمية.. وإنما كانت من قبيل الأمانى والأمنيات لدى جمهرة من الناس وعدد من العلماء حدثوا أنفسهم بهذا سواء فى داخل مصر أو خارجها.. حتى أن البعض سأل الشيخ القرضاوى نفسه عن إمكانية ذلك ورأيه أو موقفه لو طلب منه ذلك.

والى أعلمه أن الشيخ يعلم يقيناً أن مسألة توليه مشيخة الأزهر غير واردة.. لسبب جوهرى.. وهو أن المعدة الرسمية لا تستطيع ان تهضمه.

لكن الذى لايمكن إنكاره ولا تجاهله.. أن الأمر ربما كان موجوداً فى العقل الباطن للشيخ منذ سنوات شبابه الأولى وكانت من أمنيات شبابه حتى وإن ذكرها فى باب الملح والطرائف أن يكون شيخاً للأزهر.

يذكر الشيخ القرضاوى أنه فى السنة الأولى من المرحلة الثانوية وفى حصة اضافية.. دخل عليهم الفصل شيخ ظريف وصاحب نكتة وأراد ان يتسلى مع الطلاب فقال: أريد من كل طالب منكم أن يذكر أمنيته التى يريد أن يحققها فى حياته وفى مستقبل أيامه، ماذا يريد أن يكون؟!

وطفق الطلبة فى الفصل يذكر كل منهم مايريد أن يكون فى مستقبل حياته فقال أحدهم: أريد أن أكون ضابطاً فى الجيش.. وقال له الشيخ: ستكون إن

شاء الله خفيراً حارسا على مقابر الموتى!

وقال أحد الطلاب: أريد أن أكون مدرسا فى ثانوى الأزهر مثل فضيلة الشيخ.

فقال له الشيخ: ستكون معلم كتاب فى قريتكم.

حتى جاء عندى وقال لى ماذا تريد؟

- قلت له: اسمح لى فضيلة الشيخ أن أصارحك بما أريد.. إنى أريد أن أكون شيخاً للأزهر!!

وتوقع الطلاب ان يعلق الشيخ الساخر على طريقته وخصوصا مع غرابة الأمنية.. ولكن فاجأ الجميع بقوله: لا تستبعدوا هذا يا أولاد.. فكم من أمل كبير قد تحقق.. وكم من حلم بعيد أصبح حقيقة.. وفى التاريخ وفى الواقع أمثلة كثيرة لأناس حلموا أحلاماً ظنها الناس من شطحات الخيال أو من توقعات المحال اجتهد أصحابها وجاهدوا حتى وصلوا إليها.

وفى حوار مع تليفزيون قطر عن ذكريات الشيخ القرضاوى سأله المذيع عبدالعزيز السيد عن هذه الواقعة وهل لاتزال الأمنية واردة؟ فأجاب القرضاوى: أولا قد فات الأوان من ناحية.. فأنا فى الخامسة والسبعين من عمرى.. ومن ناحية ثانية.. لم يعد شيخ الأزهر وحده قادراً على تحقيق مايريده من إصلاح وتجديد حتى تسانده الدولة.. أو على الأقل تطلق يده.. ومن لمثلى بمثل هذا!؟ وثالثاً: لابد لمن يتولى مثل هذه المناصب فى عهد الثورة أن يخضع لسياسة الدولة ويعمل على ارضائها.. ويسير فى ركابها.. ولهذا يبعد على مثلى أن يكون فى هذا المنصب.. وكل ميسر لما خلق له.

يشير د. القرضاوى إلى تعليق صديقه وزميله د. أحمد العسال على هذه الرغبة قائلا له: أردت شيئاً وأراد الله لك شيئاً آخر أفضل مما أردت.. فقد أردت أن تكون شيخاً للأزهر وأراد الله لك أن تكون شيخاً للأمة بأسرها.. وهناك فرق بين المنصبين:

فشيخ الأزهر يختاره الحاكم سواء وافق اختياره اختيار الناس أم لا.

- أما شيخ الأمة فتختاره الأمة عن حب وطواعية.

- وشيخ الأزهر يملك الحاكم عزله.. ولكنه لايملك أن يعزل شيخ الأمة لأنه لم ينصبه هو.. إنما نصبته الأمة.

الأكثر تأثيراً.. عالميًا

احتل د. يوسف القرضاوى صدارة القائمة لأكثر العلماء والشخصيات تأثيرا على مستوى العالم وذلك فى استطلاع دولى لمعرفة العشرين شخصية الأكثر تأثيرا فى العالم.؛ أجرته مجلتا «فورين بولسى» الأمريكية و «بروسبكت» البريطانية.

وكشفت نتائج الاستطلاع التى نشرت الاثنين ٢٣ ـ ٦ ـ ٢٠٠٨ أن أبرز عشر شخصيات من بين الشخصيات العشرين التى اختارها المستطلعة آراؤهم، هم علماء دين، ومفكرون واقتصاديون، وأدباء مسلمون.

وصوت أكثر من ٥٠ ألف شخص على مدار الأسابيع الأربعة الماضية لاختيار ٢٠ شخصا يشكلون بأفكارهم اتجاهات الرأى العام، وذلك من لائحة ضمت ١٠٠ شخصية فى جميع التخصصات.

قائمة هذا العام تصدرها رجل الدين التركى البارز فتح الله جولان، الذى وصفته المجلة الأمريكية بأنه «عالم إسلامى يقدر أتباعه فى أرجاء العالم بالملايين، ويحظى بسمعة طيبة وأخرى سيئة فى آن واحد».

وأوضحت «فورين بولسى» «أن» جولان يعتبر قائدا روحيا لمن ينتمون لحركته، فهو يرشدهم إلى المبادئ الإسلامية المعتدلة.. أما من يحظى بينهم بسمعة سيئة، فيعتبرونه تهديدا للنظام العلمانى التركى».

واحتل فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوى رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين المرتبة الثالثة بين أبرز المفكرين على مستوى العالم.

وعنه قالت المجلة الأمريكية: «إن الشيخ القرضاوى» من خلال برنامج الشريعة والحياة الذى تبثه قناة الجزيرة الفضائية يصدر فتاوى أسبوعية تتطرق لكافة مناحى الحياة، مثل موقف الإسلام من تناول كافة أنواع الخمور، وما إذا كانت مقاتلة القوات الأمريكية فى العراق تعد شكلا مشروعا من أشكال المقاومة.

وفى المرتبة السادسة حل الداعية المصرى عمرو خالد، الذى قدمت له «فورين بولسى» قائلة: إنه بإجادة فن الحديث الذى يجذب الجماهير وأسلوبه غير النمطى، مزج خالد بين رسالات التكامل الثقافى والعمل الجاد من خلال دروس توضح كيف يحيا المسلم حياة هادفة.

الشخصيات العشر المتصدرة للقائمة ليس كلهم علماء دين، فمن بينهم اقتصاديون وسياسيون وأدباء مسلمون.

ففى المرتبة الثانية حل محمد يونس الاقتصادى البنغالى الحائز على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٦ والذى يوصف بأنه «المصرفى العالمى الداعم للفقراء».

وقالت المجلة الأمريكية إنه «منذ ٣٠ عاما، ومن خلال نظامه البنكى، قدم «يونس» قروضا لأكثر من ٧ ملايين من الفقراء حول العالم، أغلبهم فى بلده بنجلاديش.

وتعتمد فكرة بنك يونس على تقديم قروض صغيرة بلا فوائد للفقراء الذين لا يشملهم الغطاء البنكى التقليدى من أجل الشروع فى مشاريع متناهية الصغر.

ومن الاقتصاد إلى الادب، حيث جاء الروائى التركى أورهان باموك، الحائز على جائزة نوبل، فى المرتبة الرابعة.

وترى «فورين بولسى» أن «أعمال باموك التى تكشف بمهارة علاقة بلده الشائكة بالدين والديمقراطية والحداثة، هى التى أهلته للحصول على جائزة نوبل فى الأدب عام ٢٠٠٦».

وإلى مجال السياسة، حيث حل الناشط الحقوقى والسياسى الباكستانى البارز «اعتزاز أحسن» فى المرتبة الخامسة.

وعرضت له المجلة الأمريكية قائلة: إن أحسن، وهو رئيس نقابة محامى المحكمة العليا فى باكستان، يعد «خصما عنيدا لحكم الرئيس برويز مشرف.. فعندما أقال مشرف رئيس المحكمة العليا افتخار تشودرى فى مارس ٢٠٠٧، قاد «أحسن» مظاهرات حاشدة ضمت آلاف المحامين، للمطالبة بإعادة تشودرى لمنصبه.

وفى المرتبتين السابعة والثامنة حل كل من الفيلسوف الإيرانى عبدالكريم سروش، والداعية السويسرى الشهير طارق رمضان على التوالى.

وبعدهما جاء العالم الأوغندى المتخصص فى علم الإنسان محمد معمدانى، الذى قالت عنه المجلة الأمريكية إنه «يكشف دور المواطنة والهوية، وتسطير القصص التاريخية فى فترة ما بعد استعمار إفريقيا».

وأخيرا، حلت فى المركز العاشر بالقائمة شيرين عبادى، الناشطة فى مجال حقوق الإنسان، وأول إيرانية تعمل قاضية وهى أيضا أول إيرانية تفوز بجائزة نوبل للسلام فى عام ٢٠٠٣، و «لا ترى تعارضا بين الإسلام والديمقراطية»، بحسب «فورين بولسى».

القرضاوى رئيساً للاتحاد العالمى لعلماء المسلمين

تم الاعـلان فى لنـدن يوم الاحـد الموافق ٢٣ مـن جـمـادى الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤/٧/١١م، عن ميـلاد الاتحاد العالمى لعلماء المسملين وتم اختيار الدكتور يوسف القرضاوى رئيسا له.

وتلك هى المرة الأولى التى تطرح فيها فكرة وجود مرجعية للمسلمين، تشمل مختلف مذاهبهم وفرقهم، وفى الوقت ذاته تكون مستقلة وخارجة عن وصاية الأنظمة أوالجماعات والشمول والاستقلال يمثلان إضافة حقيقية بالغة الأهمية للعمل الإسلامى العام.

حضره حوالى ٢٠٠ شخص من علماء المسلمين، السنة فيهم والشيعة، وأباضية عمان وزيود اليمن، الأمر الذى وفر للاجتماع عنصر تمثيل الأمة الإسلامية بصورة نسبية خصوصا أن الحاضرين لم يكونوا يمثلون الاقطار الإسلامية وحسب، وانما كان منهم ايضا من جاء ممثلا للأقليات الإسلامية حيث وجدت.

وفى افتتاح الاجتماع التأسيسى رد الشيخ يوسف القرضاوى، صاحب الفكرة الذى انتخب رئيسا للاتحاد، على السؤال لماذا الاتحاد؟ ولماذا لندن؟

قائلا: إن كل أصحاب الديانات والكيانات السياسية لهم أطرهم المرجعية باستثناء المسلمين وبسبب تشتت المرجعيات والوصايات المفروضة عليها فإن

المسلمين فقدوا الثقة فى كثير منها، بل تصدى للفتوى والحديث عن الإسلام وباسمه كثيرون من غير ذوى الصفة، فأساءوا إلى الاسلام وشوهوا صورته على النحو الذى يعرفه الجميع ، ومن ثم بات من الضرورى تشكيل مرجعية مستقلة تستعيد ثقة المسلمين، وتكون تعبيرا صادقا عن وسطية الإسلام واعتداله حيث يرجى أن يكون لتلك المرجعية صوت فى مختلف القضايا التى تهم المسلمين، والتى تتجاوز الأمور الفقهية إلى توحيد صفوفهم والتعبير عن آمالهم والحفاظ على هويتهم الثقافية والحضارية.

أما لماذا لندن فلعدة أسباب أولها أن عقبات حالت دون عقد الاجتماع فى ست دول عربية وإسلامية تمت مفاتحتها فى الأمر واعتذرت عن الاستجابة لأسباب مختلفة ومفهومة.

وثانيها إن الرابطة الإسلامية فى إنجلترا عرضت استضافة اللقاء، وتولت من جانبها عبء وترتيب أمر عقده.

وثالثها أن أعضاء المجلس الأوروبى للافتاء كانوا من بين الأعضاء المؤسسين، وكانوا موجودين لدورتهم العادية فى لندن، ورؤى أن ذلك سوف ييسر التحاقهم بالاجتماع التأسيسى وكانت تلك التيسيرات عنصرا مشجعا على عقد المؤتمر فى العاصمة البريطانية، ومساعدا على تحقيق المراد منه.

بداية فكرة الاتحاد

فى مقر جمعية مصر للثقافة والحوار بالقاهرة، أقيمت يوم السبت الموافق ٧ من جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ، ٢٤ من يوليو ٢٠٠٤م ندوة عقدها فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين، شارك فيها عدد من العلماء والمهتمين بالشأن الإسلامى من الإعلاميين والسياسيين، من أبرزهم: الدكتور عبدالصبور شاهين المفكر الإسلامى، والدكتور سيف الدين عبدالفتاح أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة، والدكتور عبدالفتاح إدريس أستاذ الفقه بجامعة الأزهر، والدكتور جمعة على عبدالقادر أستاذ التفسير بجامعة الأزهر، والدكتور عبدالعظيم الديب أستاذ الفقه والأصول بقطر، والأستاذ السيد عبدالرءوف، رئيس تحرير جريدة عقيدتى «سابقا» والأستاذ أحمد فراج الإعلامى المصرى، والدكتور محمد مختار المهدى

الأستاذ بجامعة الازهر، رئيس الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة، والدكتور جابر قميحة أستاذ الأدب الإسلامى بجامعة عين شمس بمصر.

كان الهدف من عقد الندوة ـ حسبما أشار القرضاوى ـ هو إطلاع الحضور على التفاصيل الخاصة بإنشاء الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين، وليتم التباحث بينهم فيما يمكن عمله، من خلال استشعار العلماء لمسئولية القيام بدورهم تجاه أمتهم.

وقد افتتحت الندوة بتلاوة بعض آيات من الذكر الحكيم، ثم تحدث الشيخ القرضاوى عن فكرة نشأة الاتحاد الإسلامى لعلماء المسلمين، وكيف كانت البداية، منوهاً أن الفكرة مستقاة من حاجة الأمة إلى ما يجمعها، لمواجهة محاولات الأعداء فى اجتثاث وتحطيم الرموز الإسلامية، فى زمن تسعى فيه كل القوى للتوحد والتجمع تحت راية واحدة، فهناك تكتلات سياسية، واقتصادية، وفكرية، بل ودينية.

أوضح القرضاوى أن فكرة إنشاء الاتحاد، ظهرت منذ خمس سنوات، وكان هناك حرص شديد على ان يكون مقر الاتحاد فى احدى الدول العربية، وكانت قطر على رأس الدول المرشحة لاستضافة الاتحاد، ولكنها اعتذرت، ثم اعتذرت الإمارات ايضا، ثم كان التفكير فى اليمن، ولكن للأسف لم تحتضن أية عاصمة عربية هذا الاتحاد.

وذكر القرضاوى أن بعض الدول العربية عرضت استضافة الاتحاد ولكن لأغراض سياسية، فلم نقبل أن يكون الاتحاد خاضعاً لأية دولة أو أية جماعة لأنه فى الأصل قائم على فكرة التعاون والاتحاد بين المسلمين جميعا، فهو ملك للمسلمين جميعاً.

ثم أفاد القرضاوى أنه ـ بناء على نصيحة بعض إخوانه ـ رأى أن يعلن الاتحاد فى دولة أوروبية محايدة، وتم ترشيح أيرلندا التى قبلت من قبل ان تكون مقرا للمجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث، فتم التشاور مع فضيلة الشيخ حسين حلاوة الأمين العام للمجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث فى الوقت الذى طلب فيه من الدكتور محمد سليم العوا الصياغة القانونية لمشروع الاتحاد ثم تم تسجيل الاتحاد بالفعل فى أيرلندا، وكان التفكير فى الإعلان عنه إما فى لندن أو فى بيروت، وقدر الله تعالى أن يكون الإعلان عنه فى

لندن، فى الحادى عشر من يوليو عام ٢٠٠٤م، تحت شعار: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله»، وكان هذا وسط حشد كبير من العلماء تجاوز الثلاثمائة عالم من جميع أنحاء العالم وتم بعد الإعلان عنه اختيار مجلس الحكماء، ومجلس الامناء، واللجنة التنفيذية للاتحاد.

بعد إعلان الاتحاد بدأ التفكير فى إنشاء مكاتب فرعية له فى كثير من الدول، على أن يتم ذلك وفق مراحل مخطط لها، وتم الاتفاق مبدئيا على مكتبين: الأول فى مصر، والثانى فى بيروت.

وعن أسباب اختيار مصر لتكون أول دولة عربية يتم إنشاء مكتب فرعى للاتحاد بها، قال القرضاوى: «إن مصر تعتبر القبلة الثقافية للمسلمين، وهى بلد الأزهر الشريف، وبلد الدعوة الإسلامية»، وأضاف القرضاوى: بحكم تطوافى فى بلاد العالم، أقول: إنى أرى مصر أرجى بلاد الله للإسلام، فالشعب المصرى شعب متدين بفطرته، لا يحركه شىء كما تحركه كلمة الإسلام والإيمان، والتاريخ شاهد على خدمة المصريين للإسلام، فهل صد الصلبيين عن بلاد الإسلام غير مصر؟

وهل قضى على الغزو التترى إلا المصريون؟ فمصر دائما بلد رائد فى الخير، معطاء فى النفع لغيره.

وقد رفض القرضاوى بادئ الأمر أن يتولى رئاسة الاتحاد بحكم سنه «٧٦ عاماً»، ولكن العلماء أصروا على أن يكون هو الرئيس، لقدرته على تفجير الطاقات الكامنة فى العلماء لخدمة الإسلام فى هذا المشروع.

ومن خلال كلمته فى الندوة أوضح القرضاوى الأدوار المنوطة بالاتحاد، حيث سيتم إنشاء لجان متنوعة تستوعب طاقات العلماء، فهناك لجنة للتربية والتعليم، ولجنة للمرأة، ولجنة للشباب، ولجنة للتأليف والنشر، ولجنة للأقليات المسلمة، ولجنة للإغاثة، وغيرها من اللجان المختلفة.

وقد طالب القرضاوى فى ثنايا كلمته السادة العلماء بأن يصلحوا نياتهم، حتى يرزقهم الله تعالى التوفيق فى هذا الاتحاد.

أمين عام وثلاثة نواب للرئيس

ذكر القرضاوى فى كلمته أنه تم اختيار الدكتور محمد سليم العوا من مصر أمينا عاما للاتحاد، كما تم اختيار ثلاثة علماء ليكونوا نوابا لرئيس الاتحاد،

وهم: الدكتور عبدالله بن بيه، وزير العدل الموريتانى «سابقا» ويقيم بالسعودية الآن، وهو يمثل الجانب السنى، وآية الله التسخيرى، ممثلاً عن الجانب الشيعى، والشيخ أحمد الخليلى ممثلا عن الجانب الإباضى.

وشدد القرضاوى على ان الاتحاد يسعى لأن يكون اتحادا لجميع المسلمين بجميع طوائفهم، وأن الاتحاد لن يتطرق للخلافات بين الطوائف، وإنما لمناقشة القضايا التى تهم الأمة الإسلامية بشكل عام، ولا يعنى هذا إذابة الفوارق الفكرية بين الطوائف، ولكن محاولة للجمع والتوحد.

اجتمعوا ولم يجمعوا

ثم ترك الدكتور القرضاوى المجال للسادة المشاركين ليدلوا بآرائهم حول فكرة الاتحاد، وكيفية تفعيله، فتحدث الدكتور عبدالعظيم الديب مشيداً بهذا الاتحاد، واعتبره المرة الوحيدة التى اجتمع فيها العلماء من أنفسهم وبإرادتهم ولم يجمعوا، إشارة إلى أن الاتحاد خرجت فكرته من العلماء أنفسهم، وليس لتأييد فكرة أو محاربة أخرى.

واقترح الديب أن تنشأ من الاتحاد أجهزة متخصصة فى التنظيم والإدارة والإعلام، كما نبه على ضرورة مواجهة خطر التنصير الذى يواجه المجتمع المسلم، وخاصة فى هذه الآونة ثم تحدث الأستاذ السيد عبدالرؤوف، والذى اقترح أمرين: الأول: عقد سلسلة ندوات للتعريف بالاتحاد والدعوة للانضمام إليه، والتبرع للاتحاد، الآخر: أن يكون هناك برنامج عملى عاجل، يشعر الناس به، بخلاف تحقيق الاهداف الكبيرة للاتحاد التى تتطلب وقتاً طويلاً.

وفى كلمته ركز الدكتور جمعة على عبدالقادر على اهتمام الاتحاد بالناحية الإعلامية، والعمل على اصدار كتيبات، أو نشرات أو مجلة وغير ذلك من وسائل الإعلام.

أما الدكتور محمد مختار المهدى، فقد اعتبر أن ميلاد الاتحاد يعد بارقة أمل للأمة كلها، مبينا أنه ينبغى أن يكون الاتحاد امتداداً للمؤسسات الإسلامية القائمة، وليس منافسا لها.

وفى كلمته ركز الدكتور عبدالصبور شاهين على تحقيق شعار الاتحاد، فالمرجو من علماء الاتحاد ألا يكونوا من علماء السلطان، ولا من علماء الشيطان.

عملية «التنادى»

أما الدكتور سيف الدين عبدالفتاح فقد اقترح القيام بما أسماه بعملية «التنادى»، حيث يتنادى علماء المسلمين على مساحة المعمورة بما يشعر الناس بالأخطار والنوازل التى تصيب الأمة، وكيفية مواجهتها.

وطالب الدكتور سيف بتعميق مفهوم المؤسسية فى الاتحاد، حيث يراها أصل العمل الإسلامى، والتفكير فى كيفية الحفاظ على المؤسسة، حفظ الابتداء، وحفظ البناء، وحفظ البقاء.

مخاطبة الشعوب قبل مخاطبة النخبة

أما الدكتور جابر قميحة فقد طلب من الاتحاد الاهتمام بتعليم الشعوب أولويات الإسلام وتاريخه وحضارته، وأن الصورة التى وصلت للغرب عن الاسلام مشوهة، وحكى أنه قابل امرأة يهودية فى أحد أسفاره، فقبل يد طفلها، فتعجبت من فعله، فأخبرها أن هذه سنة عمرية - أى من عمر بن الخطاب - فقالت: عمر بن الخطاب السفاح الذى كان يقتل الأطفال والنساء؟!! فحكى لها من عمر، متأسفا أن كثيرا ممن يعرض الإسلام وتاريخه لا يعرضه العرض الصحيح، مما يرسخ الشبهات حوله.

المرأة حاضرة

وفى سؤال وجه للدكتور القرضاوى من الأستاذ أحمد فراج عن حضور المرأة فى الاتحاد، أجاب القرضاوى أنه قد نص بدستور الاتحاد على مشاركة المرأة، وأن هناك عددا من النساء شاركن فى اللجنة التأسيسية، وعلى رأسهن الدكتورة سعاد صالح أستاذة الفقه بجامعة الأزهر الشريف.

كلمة القرضاوى فى افتتاح الاتحاد

فى افتتاح مؤتمر الاتحاد العالمى للعلماء المسلمين، الذى عقد فى العاصمة البريطانية لندن الاحد ١١ - ٧ - ٢٠٠٤ وحضره المئات من العلماء من مختلف دول العالم، وانتهى باختيار الدكتور القرضاوى رئيسا له: ألقى د. القرضاوى الكلمة التالية:

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى

لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير، وهادى البشرية إلى الرشد، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا وقائد دربنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين أما بعد:

فيا أيها الإخوة من علماء الأمة وورثة الأنبياء، وحملة مصابيح الهداية الربانية لكم عليَّ حق التحية، وخير ما أحييكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكم على حق الشكر: أن استجبتهم لدعوتى، وهى فى الحقيقة دعوتكم، وحققتم أمنيتى، وهى فى الحقيقة أمنيتكم، وتجشمتم عناء السفر وتكاليفه، لا تريدون من أحد جزاء ولا شكورا، إلا ابتغاء مرضاة الله، وإعلاء لكلمة دعوته، وتمسكا بوحدة أمته والحق أنى لا أستطيع أن أشكركم أو أكافئكم، إنما الذى يملك أن يكافئكم على جهودكم وتعبكم وبذلكم هوالله تبارك وتعالى الذى قال فى كتابه فى مشاركة المجاهدين: «ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» التوبة.

ولكم على حق التهنئة، فأهنئكم ونفسى بهذا الحدث التاريخى الجلل، أن يكون لعلماء المسلمين، «ورثة الأنبياء، ورسل الضياء، وحملة مصابيح الهداية الربانية»: كيان عالمى يجمع شملهم، ويوحد كلمتهم، ويسمع صوتهم، على اختلاف أقطارهم، واختلاف ألسنتهم، واختلاف عروقهم، واختلاف مذاهبهم، فقد ذابت هذه فى بوتقة الإسلام، الذى يجعل منهم أمة واحدة، هى أمة التوحيد، أمة القرآن، أمة محمد عليه الصلاة والسلام، أمة القبلة الواحدة، والعقيدة الواحدة، والشريعة الواحدة، والحضارة الواحدة، والمصير الواحد.

إننا نحمد الله تعالى أن أصبح الحلم حقيقة، وأصبح المثال المنشود واقعا ملموسا، ورأينا علماء الأمة فى المشارق والمغارب يجمعون على ضرورة تأسيس هذا الكيان الكبير على تقوى من الله ورضوان وهو كيان قام لله وحده، لدينه ولرسالته، وللغايات العليا التى بعث بها رسله، وأنزل بها كتبه، وسيستمر هذا الكيان إن شاء الله، لأن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

ولقد بين لنا التاريخ الحامل والواقع الماثل: أن المسلمين لم يضر بهم شىء مثل التفرق والاختلاف، ولم ينفعهم شىء مثل الاتحاد والائتلاف، ولاسيما إذا كان على البر والتقوى، والاعتصام بحبل الله المتين، لقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الأنفال: ٤٦ وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» رواه البخارى عن ابن مسعود وقد رأينا اصحاب الاديان المختلفة يتقاربون فيما بينهم، على بعد ما بينهم من الخلاف فى الأساسيات، رأينا اليهود والمسيحيين يتقاربون فيما بينهم، على ما كان بينهم من عداوة تاريخية، ومع هذا أصدر الفاتيكان وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح، ليقرب مسافة الخلف بينه وبينهم.

ورأينا الكاثوليك والبروتستانت يقترب بعضهم من بعض، مع ما كان بين الفريقين من صراع سقط فيه الملايين.

وفى عصر الحرب الباردة: رأينا الشيوعيين والرأسماليين يتقاربون فيما بينهم، وينشئون ما سمى سياسة «التعايش السلمى».

فما بال المسلمين وحدهم يتباعدون بعضهم من بعض؟ وما بالهم يتيحون الفرصة لدعاة الفرقة ومثيرى الفتنة؟

وإذا كان اتحاد الأمة فريضة وضرورة فأولى الناس بالاتحاد هم علماء الأمة، فاتحادهم هو بداية لاتحاد أمتهم.

موقف العلماء بعد هدم الخلافة

لقد كان للمسلمين قديما خلافة تضمهم وتجمع شتاتهم، وتجسد وحدتهم، وهى - كما عرفها العلماء - نيابة عن رسول الله فى حراسة الدين، وسياسة الدنيا به، فهى قيادة دينية ودنيوية، روحية وزمنية، وقد ظل المسلمون تحت هذه الراية الجامعة أكثر من ثلاثة عشر قرنا، حتى ألغيت الخلافة فى سنة ١٩٢٤م، فألغى معها آخر تجمع لأمة الإسلام تحت راية العقيدة الإسلامية.

ومن المعروف: أن المسلمين ليس لهم «سلطة دينية» أو «كهنوتية» كما عند اليهود والنصارى وغيرهم ولهذا كان تحطيم مؤسسة الخلافة يعنى: أن يحدث فراغ هائل فى الحياة الإسلامية، ولا غرو أن أمسى المسلمون بعد سقوط الخلافة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام، كما يعبر الأدب العربى.

إن لليهود حاخاماتهم الذين يرجعون إليهم، وإن للمسيحيين آباءهم الروحيين من الكرادلة والأساقفة والقسيسين، فللكاثوليك باباهم الشهير فى الفاتيكان، وللبروتستانت مجلس الكنائس العالمى، وللأرثوذكس قيادتهم الدينية المعروفة، وللبوذيين والهندوس والسيخ مثل ذلك، ولكن المسلمين وحدهم هم الذين ليس لديهم هذه القيادة الدينية التى يحتكمون إليها إذا اختلفوا، ويرجعون إليها إذا ائتلفوا.

وإذا كانت الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، فإن فتوانا اليوم: أن العلماء هم الذين يجب أن يقوموا بدور الخلافة والخلفاء.

السعى إلى تأسيس اتحاد للعلماء

لقد عانيت ـ وعانى معى إخوة كثيرون ـ حتى استطعنا ان نحقق هذا اللقاء، ولم يكن هذا من تلكؤ العلماء فى الاستجابة للدعوة، فيشهد الله أنى ما دعوت عالما إلا بادر بالتلبية، ورحب وشجع.

ولكن الظروف التى تمر بها الأمة جعلت كثيرا من الأنظمة والحكومات تتخوف من أى تجمع يحمل اسم الإسلام وعنوان الإسلام، ولا سيما إذا كان يجسد موقف العلماء على مستوى العالم.

واليوم أسجد لله تعالى شكرا: أن جمع هذه الصفوة من علماء الأمة ودعاتها ومفكريها تحت راية واحدة، وفى مكان واحد، ليتشاوروا فى أمرها، ويمضوا بالسفينة إلى بر الأمان باسم الله مجراها ومرساها، فى وسط الأمواج المتلاطمة، والأعاصير الهائجة.

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة واضحة وضوح الشمس فى ضحى النهار، وهى: أن هذا الاتحاد للمسلمين جميعا، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، سنتهم وشيعتهم، مشرقيهم ومغربيهم، ليس هذا الاتحاد محسوبا على قطر من الاقطار، ولا نظام من الأنظمة، ولا جماعة من الجماعات، ولا مذهب من المذاهب، ولا اتجاه من الاتجاهات.

إنه لكل أهل القبلة، أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله

وإن من الخير كل الخير: أن يتناسى المسلمون الخلافات الجانبية بينهم، وأن يجتمعوا على الحد الأدنى من الإسلام، أو ما يصير به المسلم مسلما،

وأن يقفوا عند الشدائد والمحن صفا واحدا، وجبهة متراصة، كما قال تعالى:
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ الصف: ٤

لقد رأينا كل قوى العالم من حولنا تتضام وتتلاحم بعضها مع بعض، ناسية ما كان بينها من خلافات وصراعات وثارات، حين رأت أن الخير كل الخير فى التكتل، وان الشر كل الشر فى التشرذم.

عضوية المرأة

ولأن هذا الاتحاد لكل المسلمين، فهو اتحاد للعلماء والعالمات من المؤمنين والمؤمنات، فلقد كان من الطبيعى والمنطقى أن يكون للمرأة حضورها ومشاركتها فى عضوية هذا الاتحاد، فالمرأة شقيقة الرجل، هو منها وهى منه «بعضكم من بعض» وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وعلماء الأمة مجمعون على ان المرأة يمكن ان تصل إلى درجة الاجتهاد المطلق، وأن تتولى منصب الإفتاء.

ولقد كان فى نساء السلف من بلغت مرتبة عالية من العلم والفقه فى الدين وحسبنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، التى أكثرت من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثرت من الإفتاء بعده، حتى استدركت على عدد من الصحابة فى عدد من القضايا، وألفت فى ذلك كتب.

ولا ننكر أن بعض عصور التراجع والتخلف فى بعض الاقطار حرمت المرأة من حقها فى طلب علم الدين والفقه فيه، ومنعها من دخول المسجد للصلاة أو التعلم وهذه العصور ظلمت الرجال والنساء جميعا، وما زال بعض الناس يحملون بعض هذا الفكر الذى لا يمثل حقيقة الإسلام، ولا صورة المرأة المسلمة فى عصر النبوة وعصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

ولقد أنصف الإسلام المرأة وكرمها: إنسانا وأنثى وبنتا وزوجة وأماً وعضواً فى المجتمع، ويكفينا فى هذا الآية الكريمة: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» التوبة.

ومن الظلم للإسلام: أن يُتهم بأنه يهمش المرأة، أو يحتقرها، ولهذا دعونا عددا من أخواتنا من اهل العلم والدعوة، ليشاركنا فى رسالتنا، فاستجبن جميعا لدعوتنا، مشكورات مأجورات، ولكن منهن من لم تساعده ظروفه على الحضور.

كما أؤكد: أننا لا نريد بهذا الاتحاد الصدام مع أحد، لا فى الخارج ولا فى الداخل، لا نريد الصدام فى الخارج مع الغرب المسيحى، ولا مع الشرق الوثنى، كما لا نريد الصدام فى الداخل مع الحكومات المحلية بل نريد أن نتعامل مع الجميع بروح الناصح الأمين، وعاطفة الأخ المشفق، ويد الجراح المداوى، نؤثر الرفق على العنف، والرحمة على الشدة، والحق على القوة، وندفع السيئة بالحسنة، بل بالتى هى أحسن، كما أمرنا القرآن.

إن هذا الاتحاد قوة تبنى ولا تهدم، وتجمع ولا تفرق، وتقرب ولا تباعد، وتحبب ولا تبغض، وتحيى ولا تميت.

الحوار الإسلامى - المسيحى

ونود أن نعلنها صريحة: أن اتحاد علماء المسلمين ليس اتحادا منغلقا على نفسه، بل هو مفتوح الأبواب والنوافذ على العالم من حوله من الاديان والحضارات والفلسفات وهو - من منطلقه الدينى المحض - يؤمن بالتعددية العرقية، والتعددية اللسانية، والتعددية الدينية، والتعددية الثقافية، وان الله هو الواحد، وما عداه متعدد وان هذا التعدد واقع بمشيئة الله المرتبطة بحكمته، وهو يؤمن بضرورة حوار المختلفين، لا بحتمية الصراع بينهم، وان الحوار يمكن ان يثمر إذا استقامت أهدافه، وصفت النيات، والتزم فيه بأدب الحوار، فكان - كما أمر القرآن - جدالا بالتى هى أحسن.

لهذا نرحب بالحوار الإسلامى المسيحى خاصة، لما للمسيح وأمه وكتابه من منزلة خاصة لدى أهل الإسلام ونرى أن هناك مجالات مهمة يمكن للطرفين أن يتعاونا فيها بوضوح، أذكر منها: أولا: مجال الإيمان بالله والدار الآخرة، فى مواجهة المادية العاتية، التى تنكر «الغيب» وكل ما وراء الحس، وتشيع الإلحاد فى العالم، وترى أن قصة الحياة كلها، أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شىء بعد ذلك «نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر».

وثانيا: مجال القيم الأخلاقية، فى مقابلة موجة الإباحية والتحلل، التى تكاد تدمر الفضائل الإنسانية الرفيعة، التى توارثتها البشرية من مواريث النبوة الهادية: من الحياء والعفاف والإحصان والإيثار والأخوة.

وثالثا: مجال العدل والكرامة والحرية، وكل ما يتعلق بحقوق الإنسان،

وسيادة الشعوب، وحقها فى استرداد حقوقها، وحريتها فى أرضها، وأبرز مثال لذلك: حق الشعب الفلسطينى المظلوم الذى تسفك كل يوم دماؤه، وتدمر منازله، وتجرف أراضيه، وتقتلع أشجاره، وتنتزع منه أرضه، وتستباح حرماته، وتداس مقدساته، على مرأى ومسمع من العالم المتحضر.

الإسلام والغرب

كما أننا نريد أن نتعامل مع الغرب من منطلق إنسانى وأخلاقى وإيمانى، وأن ننادى أحرار الغرب بما نادى به الإسلام أهل الكتاب من قبل: «ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضا بعضا أربابا من دون الله» آل عمران.

نريد ان نتعامل مع الغرب وأن يتعامل معنا الغرب معاملة الند للند، وأن يتخلى عن عقده الموروثة من عهد الحروب الصليبية القديم، وعهد الاستعمار الحديث، فنحن ابناء اليوم لا بقايا الأمس.

نريد أن نقف معا مدافعين عن الانسان فى كل مكان: عن كرامته وحقوقه وحرماته، ونقول لكل من جار على حق أخيه ما قاله ابن الخطاب: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

الإسلام والعنف

لقد ألصقت بالإسلام تهم هو برىء منها، فزعم زاعمون أنه دين يفرز العنف، ويثمر الإرهاب.

والحق أن الإسلام اعتبر الرحمة عنوانا له، فقال الله لرسوله: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» الأنبياء: ١٠٧ وقال الرسول عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة».

وحرص الرسول الكريم على الرفق، وذم العنف، وقال: «من حرم الرفق فقد حرم الخيركله».

كما دعا إلى السلام بين الناس، إلا إذا تعرضت أمته وحرماتها للعدوان، فهنا يخوض المعركة كارها، كما قال تعالى: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» البقرة: وإذا انتهى اللقاء بين المسلمين وخصومهم بغير قتال، عقب القرآن

عليها بمثل قوله تعالى: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال» الأحزاب.

وإذا خاض الإسلام الحرب مضطرا فإنه يقيدها بقيم أخلاقية تضبط سيرها، قبل المعركة وخلالها وبعدها، فيحرم العدوان، وينهى عن قتل النساء والولدان والشيوخ والرهبان والحرث والمدنيين بشكل عام «وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» البقرة.

وإذا وجد من ابناء المسلمين من انتهى بهم الغلو والشطط إلى تبنى العنف والارهاب، فلا يمكن ان يحمل الإسلام ولا الأمة الإسلامية الكبرى وزرهم، ففى كل بلاد العالم يوجد أفراد وجماعات تتبنى فكر العنف، وتمارس الارهاب، ومنهم كاثوليك وبروتستانت وهندوس ويهود، ولم تتهم أديانهم ولا أممهم بالعنف والإرهاب.

نهج الأمة الوسط

إن هذا الاتحاد حر حرية تامة فى تبنى المنهج الذى يريده لإصلاح الأمة، وتجديد دينها، وترشيد مسيرتها، وتجميع قواها، ولكنى استطيع أن أقول من خلال المشروع الذى ارسلته إلى عدد كبير من العلماء، وطلبت منهم الارسال بالموافقة مع ابداء اى ملاحظات على المشروع، وقد جاءت موافقة المئات من علماء الامة دون تحفظ، بل مع الحماس فى التأييد، والمطالبة بالاسراع فى تحقيق المطلوب، من خلال هذا استطيع ان اقول: إن الاتحاد يتبنى - فى الجملة - تيار التجديد والإحياء والإصلاح، الذى دعا إليه علماء ودعاة ومصلحون كبار، فى مشرق الأمة ومغربها، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ولقد استجابت لهم الجماهير الغفيرة من أمتنا الكبرى، التى لا يحركها شىء كما تحركها كلمة الإسلام.

إن لهذا التيار منهجا فى الدعوة والفتوى والتعليم والاجتهاد والتجديد، يمثل «الوسطية الإسلامية» التى اصبحت متميزة بمعالمها ومبادئها ومناهجها، التى لخصتها فى عشرين معلما، يمكنكم قراءتها فى الملحق المرافق وأهم هذه المعالم: أن باب الاجتهاد مفتوح، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحه، فلا يملك أحد إغلاقه، ولكنه مفتوح لأهله فى محله، فليس الاجتهاد كلأً

مباحا يرعاه كل من هب ودرج، فللاجتهاد شروط مقررة فصلها الأصوليون والفقهاء، فمن لم يملكها فلا يقحم نفسه فيما ليس من أهله كما ان الاجتهاد فى الظنيات، وليس فى الثوابت والقطعيات.

أيها الإخوة العلماء والدعاة:

إن هذا اليوم له ما بعده، وإننا أمام مسئوليات كبيرة، وهى مسئولية كل واحد منا، ليست مسئولية مجلس الأمناء، ولا هيئة الإدارة، وقد علمنا رسول الإسلام: أن المسئولية مشتركة «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

فلنحمل مسئوليتنا بنية صالحة، وعزيمة صادقة، مستعينين بالله، متوكلين عليه، وسيعيننا الله على قدر ما فى قلوبنا من خير وصدق، كما قال تعالى: «فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا».

والآن وقد أديت ما على، بفضل الله وحده، وبقى ما عليكم، وأدع الأمر لكم لتختاروا من تشاءون لقيادة سفينتكم، والله يتولاكم ويرعاكم.

اللهم اجعل يومنا خيرا من أمسنا، واجعل غدنا خيرا من يومنا ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير.

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

يوسف القرضاوى

البيان التأسيسى للاتحاد العالمى للعلماء المسلمين

فى ما يلى نص البيان التأسيسى للاتحاد العالمى للعلماء المسلمين الذى عقد فى العاصمة البريطانية لندن، الأحد ١١ ـ ٧ ـ ٢٠٠٤، وحضره المئات من العلماء والمفكرين المسلمين من مختلف دول العالم، وانتهى باختيار العلامة الدكتور يوسف القرضاوى رئيساً له: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه».

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وأتباعهم الصالحين أجمعين، وبعد:

فإن العلماء المؤسسين للاتحاد العالمى للعلماء المسلمين المجتمعين فى لندن يوم الاحد الموافق ٢٣ من جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤/٧/١١م، قد تنادوا لتأسيسه انطلاقاً من القيم الربانية الداعية إلى توحيد الله، وإفراده

بالألوهية والربوبية، والتزاماً بالمبادئ الإسلامية الداعية إلى تزكية النفس، وإصلاح الروح، وعدم الاغراق فى المادة على حسابهما، وتعبيراً عن المذاهب والمدارس الإسلامية كافة، ابتغاء مرضاة الله تعالى، ومصلحة الأمة الإسلامية، وخير الإنسانية جمعاء، وذلك بإنشاء كيان جامع للعلماء العاملين الذين يؤلفون المرجعية الشرعية للمسلمين فى بلدان العالم الإسلامى وخارجه الذين يحتاجون فى كل مناسبة إلى الاستماع لكلمة الاسلام الصادقة، وبيانه الناصع، وحجته الصحيحة التى لا يخاف الناطقون بها فى الله لومة لائم، ولا يحملهم على الانحراف فى القول بغض ولا حب، بل يلتزمون العدل مع القريب والبعيد على السواء«ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»، و «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى».

وإذ يدرك العلماء المؤسسون للاتحاد انه مع اتساع اهدافه وشمول عضويته ليس بديلاً عن المؤسسات القائمة فى البلدان الإسلامية أو خارجها، فإنهم يرجون أن يكون اضافة مهمة إلى عمل هذه المؤسسات جميعاً، ومعبراً صادقاً عن توجه الأمة الإسلامية، يتميز باستقلالية عن الدول والحكومات والاحزاب والجماعات، ولكنه يتعاون مع الجميع لتحقيق مصلحة الاسلام والمسلمين، وللنهوض بتبعة المرجعية الإسلامية التى يشعر المسلم الفرد، والمسلم فى جماعة او هيئة أو مؤسسة، أنها تتحدث باسمه، وتنطق بمكنون نفسه، وتدافع عن حقه فى البيان، فيبلغه للعالم كله من هم محل ثقته وتقديره واعتباره.

والهدف الرئيسى للاتحاد هو الحفاظ على الهوية الإسلامية للأمة بحيث تبقى دائماً كما جعلها ربها أمة وسطاً، قائمة بواجب الشهادة على الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصدق بالحق وهو فى محاولته الدائمة لبلوغ هذا الهدف يحرص على مواجهة الغلو أو الجفاء عنه بالاعتدال والوسطية، ومواجهة التسيب والتحلل بالالتزام بتعاليم الدين، ومواجهة الانحراف بنصوصه بالاستقامة على الفهم الصحيح لها، ومواجهة الابتداع المذموم بالاستمساك بالسنة والدعوة إليها.

ويؤكد العلماء المؤسسون من خلال إقرارهم للنظام الأساسى للاتحاد، على العمل جميعاً وأفراداً وفق أهدافه ووسائله لتحقيق غاياته وينطلقون فى عملهم من مجموعة مرتكزات، أهمها:

١- التأكيد المستمر على الالتزام بمبادئ الإسلام وقيمه وقواعده التى تحفظ كرامة الإنسان، وتصون حقوقه، وتضمن حرياته، وتمكنه من الإبداع فى عمارة الأرض، وإصلاح الكون.

والعلماء المؤسسون يرون أن من أكبر العوائق فى سبيل سيادة هذه المبادئ والقيم والقواعد هو محاولات الهيمنة المتكررة من قبل بعض الدول والقوى على الشعوب الإسلامية والشعوب المستضعفة على أوطانها وثرواتها وهم ينظرون إلى هذه المحاولات على أنها عدوان لا تجيزه الشرائع السماوية، ولا تقره النظم الدولية، ولا تقبله القوانين الوضعية، ولا تسمح به الأخوة الإنسانية.

وفى ضوء ذلك يرون أن احتلال فلسطين والعراق وأفغانستان كلها أعمال عدوان يجب على كل قادر مقاومته بما استطاع والجهاد فى سبيل الله والمستضعفين، وتحرير الأراضى الإسلامية المحتلة، واجب لا يؤدى حتى يتم تحريرها لكن هذا الواجب لا يعنى العدوان على الأبرياء، ولا يجيز مقاتلة النظم الحاكمة التى قد يظن أنها موالية للأعداء، فإن الأول عدوان لا يجوز شرعاً، والثانى فتنة تقصم ظهر الأمة، وتجعل بأسها بينها شديداً، ولا يفيد منها إلا العدو الذى لا يفرق فى عداوته الحقيقية بين حاكم ومحكوم وأن السبيل الأقوم لمنع وقوع هذه الفتنة هو إقرار العدل، والالتزام به.

٢- العمل بجدية لتقريب الفجوة القائمة فى دول العالم الإسلامى بين الحكام والمحكومين، تلك الفجوة التى تؤدى إلى صراعات وفتن تهدد ثرواتها وطاقاتها، ويقتضى هذا - فى نظر العلماء المؤسسين - أن ترد إلى الشعوب حقوقها فى حكم نفسها بنفسها، وأن تتم الاستجابة إلى الأمر الإسلامى بالشورى الذى يلزم الأمة برفض الاستبداد بجميع صوره وأشكاله، وفى طليعتها: الأنظمة الشمولية، وبأن يكون تداول السلطة متاحاً بالوسائل الديمقراطية، وبأن توظف الثروات لمصلحة الكافة، ولا سيما الطبقات افقيرة والمهمشة، وبأن يعمل على إزالة المظالم أيا كان نوعها، وإيصال الحقوق إلى أصحابها حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم وأن تواجه بحسم محاولات طمس هوية الأمة وإفساد تعليمها وإضعاف لغاتها فى أوطانهم كافة.

٣- وضع حقوق المرأة التى كفلها الإسلام وأهدرتها التقاليد الموروثة

والأهواء المنحرفة موضع التطبيق، فـ «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله» فكل فهم، أو فقه، أو رأى، أو قانون يأتى بخلاف هذا النص القرآنى المحكم فهو رد على صاحبه، ومن حق المرأة المسلمة وواجبها أن تحافظ على هويتها الإسلامية وتدافع عنها، والمسلمون لا يحتاجون إلى من يعلمهم كيف تُصان حقوق النساء، ففى دينهم الكفاية، ولكنهم مع ذلك يرحبون بكل انجاز إنسانى فى هذا الباب، ويرونه تحقيقاً لمبادئ الإسلام القرآنية والنبوية، ومن التزامهم بتلك المبادئ يأتى إباؤهم الاستجابة للدعوات المخالفة للفطرة الهادمة للأسرة، الخارجة عن حدود الإسلام، بل عن حدود الإسلام كافة، وهم فى مواجهتهم لهذه الانحرافات يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورضى بذلك من رضى، وكره ذلك من كره.

٤- الإقرار بواقع اختلاف الآراء وتنوعها داخل المدارس الفقهية والفكرية والإسلامية. وهو اختلاف يمكن أن يكون مصدر ثراء للفقه والثقافة والمجتمع، ويحقق اليسر المأمول به شرعاً، ومن خلال قبول هذا التنوع واحترامه تأتى إمكانية الإصلاح الفكرى والفقهى من داخل المنظومة الإسلامية نفسها، أو بأدواتها الذاتية، لا إملاء من الغير، ولا خضوعاً لسلطة أو رهبة من قوة.

٥- تقديم الإسلام للعالم بصورته السمحة، ووسطيته العاقلة، ورحابته التى وسعت خلق الله جميعاً بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار بالتى هى أحسن داخل الصف الإسلامى وخارجه، وبالاتفاق على ما يقبله الجميع، والاحتفاظ بخصوصية كل ذى رأى أو دين أو مذهب أو فكرة «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون».

وتأسيساً على هذا فإن العلماء المؤسسين يؤكدون على رفض الإسلام للعنف وسيلة لحل الخلافات الفكرية والسياسية أو لفرض الرأى على المخالفين سواء قام به أفراد أم جماعات أم حكومات.

ويلاحظ الاتحاد فى هذا الشأن بقلق تنامى ظاهرة (الخوف من الإسلام) فى الولايات المتحدة وأوروبا، والهجوم المتواصل الذى تتعرض له مؤسسات وأفراد وعلماء أجلاء لمجرد الانتماء إلى الإسلام.

والحق: أن الإسلام لا يبدأ أحداً بالخصومة، ولا يوجه نحو أحد سلاحاً، إنما يرد العدوان بالقدر اللازم لرده، وردع المعتدين «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، والعلماء المسلمون وهم يعلنون موقفهم ضد محاولات الهيمنة والاستتباع التى تمارسها قوى غربية أوروبية وأمريكية، يعلنون أن المسئولين عن هذه المحاولات وحدهم هم المعنيون بالموقف الرافض لها، ويؤكدون على توحد جهودهم مع جهود القوى الشريفة فى كل بقعة من بقاع الأرض التى تقف فى مواجهة تلك المحاولات وتناهض السيطرة الاقتصادية والسياسية، وتقاوم العولمة المستعلية الطامعة الباغية الرامية إلى استئثار قوة وحيدة بالنفوذ والثروات فى كل أنحاء الأرض، وفرض ثقافتها الخاصة على العالم كله ويدعون الدول والحكومات الإسلامية إلى التعاون مع شعوبها فى مواجهة الهجمة الضارية على الإسلام والمسلمين.

ولا يفوت العلماء المؤسسين أن يذكروا التجمعات الإسلامية فى ديار الغرب، ولا سيما الولايات المتحدة وأوربا، بضرورة مواصلة الاستفادة من المناخ الحضارى السائد فى هذه البلاد والمساهمة الفعالة فى إغناء هذا المناخ، والعمل على الإبقاء على المنجزات التى حققها وجودهم فى صورة مؤسسات قامت، أو حقوق أصبحت مسلماً لها، أو حريات لم يعد ممكنًا الانتقاص منها ذلك أن الاندماج الإيجابى فى هذه المجتمعات والإفادة الكاملة من حقوق المواطنة فيها، اندماجاً بلا ذوبان، ومحافظة على الهوية الإسلامية دون انغلاق، يمثل أولويات البقاء الإسلامى الضرورى لتبليغ كلمة الله إلى الناس كافة، إن لم يكن بالدعوة المباشرة فبالقدوة الصالحة، وهى متاحة لكل مسلم والسلوك الإسلامى الواعى صورة حسنة يقدمها كل مسلم وكل مسلمة فيدحض بها الصورة المشوهة التى يقدمها إعلام مغرض أو جاهل بحقيقة المسلمين وبمعنى التزامهم بدينهم.

وعلى الدول الغربية بالمقابل واجب كفالة الحقوق والحريات للمسلمين المقيمين بها، وتمكينهم من أداء واجباتهم الدينية بحرية، شأنهم شأن أهل سائر الأديان، ومنع التمييز بينهم وبين غيرهم من المواطنين بسبب الدين، واستيعاب الخصوصية الثقافية الإسلامية فى إطار التعددية التى كان الإسلام أول من نادى بها والتى تعدها المجتمعات الغربية من مفاخرها الحديثة.

٦- وتأسيساً على ما سلف يرى المؤسسون للاتحاد دورهم فى تكوين المرجعية الإسلامية العالمية مقترناً بدورهم فى بناء جسور الحوار والتواصل مع الناس كافة، والحكومات والمؤسسات الرسمية والشعبية جميعاً، ما كان منها إسلامياً وما لم يكن، وقد كان هذا من دوافعهم إلى إعلان تأسيس اتحادهم هذا من العاصمة البريطانية تأكيداً على الانفتاح على الآخرين المأمور به فى قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ولمثل ذلك فليعمل العاملون، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

صدر فى لندن فى ٢٣ من جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤/٧/١١م.

الاتحاد العلمى للعلماء

فى عيد ميلاده الثمانين:

في احتفالية مهيبة شهدتها العاصمة القطرية الدوحة بمناسبة بلوغه الثمانين، ترجى العلامة الشيخ يوسف القرضاوى من محبيه من جاكرتا إلى طنجة الدعاء له بأن يختم الله له بالشهادة فى سبيل الله لينقى من ذنوبه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

وشارك عدد كبير من العلماء وأصحاب الفكر ووسائل الإعلام فى الاحتفال الذى أقامته وزارات ومؤسسات قطرية عديدة؛ تقديرا لانجازات الشيخ وإسهاماته فى خدمة الدعوة، ولبلوغه الثمانين عاما.

قدم عدد من رموز الثقافة وأساتذة الجامعة والإعلاميين كلمات عددوا خلالها انجازات الشيخ، خاصة فيما يتعلق بالدعوة إلى الله، كما غصت القاعة بالحضور، وتعالت فيها التكبيرات، والدعاء للشيخ بطول العمر.

رفض الشيخ القرضاوى فكرة الاحتفال بعيد الميلاد «لأنه من بدع الغرب»، واستدرك قائلا: «لكن الثمانين لدى العرب لها مكانتها، وإذا بلغ المرء الثمانين فقد بلغ»، مضيفا أن «الإخوة قد فاجئونى بهذا الأمر، وهم لم يريدوا الاحتفال بعيد الميلاد».

اعتبر القرضاوى أن «هذه وقفة سن الثمانين، فبلوغ الثمانين يجعل المرء

يراجع نفسه.. ماذا قدم وماذا ترك». واستذكر علماء قال إنهم سبقوه فى هذا المسعى «أمثال الشيخ الغزالى والشهيد سيد قطب وحسن البنا، وأبو الأعلى المودودى وغيرهم كثير ممن حمل راية هذا العلم.. علم النبوة.. وميراثها».

ولفت إلى أن «مهمة العالم صعبة فى هذا الزمان.. إنها مهمة ثقيلة لعظم العبء الذى يحمله العلماء». وحدد مهمة العلماء بأن «يحفظوا للأمة وجودها وبقاءها إسلامية تحمل الرسالة الخالدة».

استصغر الشيخ ما قدم أمام المطلوب منه، قائلا: «أنظر إلى ما قدمت فأجده شيئا قليلا قياسا بعظمة الإسلام الذى ختم الله به الأديان وبنبيه الرسل وبشريعته الشرائع وبكتابه رسالات السماء».

ولفت أنظار العلماء إلى ما تقدمه الأمم الأخرى لدياناتها، ومثل لذلك باليهودية التى قال إنها «عادت وانشأ لها أصحابها دولة فى قلب الوطن العربى».

وقال: «ديننا يحتاج منا الكثير، ومديح الإخوة لن يزيدنى إلا إصرارا على الاعتراف بالتقصير، ولا أدعى أننى من الربانيين الذين قال الله فيهم «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون»».

واعتبر القرضاوى أن «من فضل الله تعالى على أن حبب فى خلقه وهى النعمة التى لا أستطيع أن أوفى شكرها لله تعالى؛ فقد فقدت أبى فى الثانية من عمرى، فكان عمى يحبنى كأفضل ما يحب الوالد أبناءه، وفقدت والدتى فى الرابعة عشرة من عمرى فعوضنى الله بخالاتى الأربع وجدتى التى مازلت أتذكر دعاءها لى إلى اليوم».

ووجه القرضاوى خطابه إلى المسلمين عامة قائلا: «أرجو أن يسامحنى أى شخص قد أكون ظلمته في يوم من الأيام، فأنا مسامح كل من أساء إلىّ، وأرجو أن يسامحنى ويصفح عنى كل من أسأت إليه»، واستدرك: «إننى مع مسامحتى فى حقى الشخصى، لكنى لن أسامح من أساء إلى الدين؛ لأنه ليس من حقى أن أسامح فى حق الدين».

وطلب القرضاوى من الجميع الدعاء له بأن يختم الله حياته «بالشهادة فى

سبيل الله لتنقى ذنوبى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس». ودعا الجميع إلى «العمل للإسلام، وأن تظل قضايا المسلمين حاضرة فى أذهانهم ونصب أعينهم مثل قضية فلسطين التى يجب أن تظل فى قلوب وعقول الناس من جاكرتا إلى طنجة، وكذلك قضية الدعوة والرسالة، فلابد أن تعلم الأمة أن لها رسالة يجب عليها أن تعيش لها وبها، وكل مسلم داعية إلى دينه».

تحدث فى الاحتفالية الدكتور محمد عبدالرحيم كافود رئيس المجلس الأعلى للثقافة والتراث والفنون، ومحمد عبداللطيف المانع نائب رئيس مجلس إدارة مصرف قطر الإسلامى، والدكتور يوسف الصديقى العميد المساعد لكلية الشريعة بقطر، والدكتورة أمينة الجابر الأستاذة بكلية الشريعة التى وصفت نفسها بوافدة النساء، والشيخ عبدالقادر محمد العمارى، والشيخ أكرم عبدالستار كساب، والدكتور على محيى الدين القرة داغى نائب رئيس مجلس إدارة إسلام أون لاين نت عضو المجلس الأوروبى للبحوث والإفتاء.

وأثنى كافود على القرضاوى ووصفه بأنه «علامة العصر وقطب من أقطاب هذه الأمة، ورجل قوى الحجة جمع بين ثقافة عصره وتراث الأقدمين، يقاوم التغريب ويحمل لواء الحوار العقلانى، ولعب دورا كبيرا فى الصحوة الإسلامية».

أما المانع فقال: إن القرضاوى «رائد تأصيل التجربة الإسلامية المصرفية، وله إسهامات جليلة فى قيادة الهيئات الشرعية فى العديد من المؤسسات المالية والمصرفية الإسلامية فى قطر والعالم، وهو المفكر المرجع الذى تعتد وتعتز به المجامع العلمية والفقهية لعطائه المثمر والمستمر».

د.على محيى الدين القرة داغى تحدث عن منهج الشيخ وعن المشاريع الكثيرة التى يرعاها والتى من أبرزها مشروع «إسلام أون لاين نت» ومشروع «رحمة للعالمين لنصرة سيد المرسلين».

كما عددت الدكتورة أمينة الجابر مناقب الشيخ، وخصت «دوره الرائد فى تعليم المرأة القطرية» وكانت الاحتفالية بدأت بآيات من القرآن الكريم، ثم قدم الشيخ عبدالسلام البسيونى التهنئة للشيخ، وألقى بعض الأبيات الشعرية المعبرة عن المناسبة، ثم عُرض فيلم وثائقى عن حياة الشيخ ولقاءاته مع بعض المسئولين وتسلمه بعض الهدايا والجوائز من قادة بعض الدول الإسلامية.

القرضاوى «فقيه الوسطية»

صدر عن لجنة من المفكرين وأساتذة الجامعات وعلماء الدين المسلمين فى دولة قطر كتاب عن الداعية الإسلامى البارز الدكتور يوسف القرضاوى تكريما له عن أبحاثه الفقهية، ولدفاعه عن الوسطية الإسلامية، وبمناسبة تجاوزه سن السبعين.

وشارك فى إعداد الكتاب نخبة من العلماء والمفكرين فى العالم الإسلامى وأساتذة فى جامعة قطر، على رأسهم الدكتور عبدالعظيم الديب، والدكتور على المحمدى عميد كلية الشريعة السابق بالجامعة، والدكتور جمال الدين عطية، والدكتور عدنان زرزور وهدفت اللجنة من وراء هذا الكتاب الموسوعى إلى تسليط الضوء على فكر القرضاوى الوسطى،'لايصاله إلى جمهور المسلمين، خاصة الشباب.

تضمن الكتاب كلمات تكريمية لعدد من العلماء والدعاة والكتاب، بجانب عدد من البحوث العلمية الجادة فى جوانب فكر الشيخ وفقهه ومنهجه.

وقال موقع القرضاوى على الإنترنت - نقلا عن الشيخ خالد بن حمد آل ثانى أحد أعضاء الأسرة الحاكمة فى قطر، والذى تحمس لنشر الكتاب على نفقته: إن هذا «الكتاب ليس تكريما لشخص القرضاوى بل هو تكريم لتيار الوسطية الإسلامية الذى يتبنى فضيلته (القرضاوى) الدفاع عنه والدعوة إليه لأنه المعبر عن ضمير الأمة ووجهها الإسلامى».

وأعرب القرضاوى عن امتنانه لهذا التكريم والقائمين عليه وقال: إنه «سفر ضخم لا أملك وأنا أقرأ عناوين البحوث وأسماء الأعلام من العلماء والدعاة والمفكرين المسلمين فى المشرق والمغرب الذين أسهموا فيه إلا أن أحمد الله واهب النعم ومانح العطايا وصاحب الفضل كله».

ويتضمن القسم الأول من الكتاب الذى يقع فى ١٠٦٨ صفحة من القطع الكبير كلمات تكريمية قدمها عدد من العلماء والدعاة، من بينهم فضيلة الشيخ الراحل محمد الغزالى بعنوان: «يوسف القرضاوى سبق سبقاً بعيدا»، والداعية الإسلامى الراحل أبو الحسن الندوى بعنوان «القرضاوى من كبار العلماء والمربين»، والدكتور حسن الترابى بعنوان: «العالم الدكتور يوسف القرضاوى»، والدكتور محمد عمر زبير بعنوان: «القرضاوى.. حامل لواء التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة».

ويتضمن القسم الثانى من الكتاب مقالات وأبحاثا فى فكر القرضاوى ومنهجه، منها بحث للدكتور أحمد الريسونى بعنوان: «يوسف القرضاوى فقيه المقاصد»، والدكتور أحمد صدقى الدجانى بعنوان: «يوسف القرضاوى وحوار العروبة والإسلام»، والدكتور أحمد العسال بعنوان: «الداعية الفقيه الشيخ يوسف القرضاوى ومسيرة خمسين عاما فى الدعوة إلى الله».

كما تضمن الكتاب عدد ا من الأبحاث فى الفكر الوسطى للقرضاوى، منها بحث للشيخ راشد الغنوشى بعنوان: «الوسطية فى الفكر الإسلامى للقرضاوى»، والأستاذ عادل حسين بعنوان: «القرضاوى فقيه الوسطية الإسلامية فى عصرنا»، والدكتور أحمد على الإمام بعنوان: «شاهد القرن الشيخ العلامة الفقيه المجدد»، وفضيلة الشيخ عبدالقادر العمارى بعنوان: «القرضاوى فقيه التيسير».

كما يتضمن الكتاب عددا آخر من الأبحاث، من بينها بحث للدكتور محمد هيثم الخياط بعنوان: «القرضاوى وموقفه من الحضارة الغربية»، والأستاذ منير شفيق بعنوان «الشيخ يوسف القرضاوى ومنهج الوسطية الإسلامية»، والأستاذ هانى محمد طايع: «المرأة وتيار الوسطية الإسلامية».

ودعا الدكتور يوسف القرضاوى أكثر من مرة إلى تطوير الخطاب الدينى، وكان آخرها فى ندوة له بنقابة الصحفيين المصريين فى ٢٠٠٣/٩/١ حيث

طالب بأن يقوم الخطاب الدينى على «الوسطية والتسامح بعيدا عن العنف والتعصب الأعمى»، انطلاقا من المنهج الإسلامى، وبما يلبى طموحات الأمة الإسلامية وأهدافها.

وشدد القرضاوى على ضرورة أن يقوم تجديد الخطاب الدينى على أساس الاحتفاظ بالأصول والثوابت، أما الشكليات فيمكن تطويرها والتعامل معها بمرونة على عكس المفهوم الذى يروج له البعض بأن نهدم الماضى ونعيد بناء العقيدة من جديد.

كما ذكر القرضاوى فى احدى الفتاوى التى تعكس أيضا اعتداله ووسطيته أن على المسلم أن يتعامل مع العدو بأخلاقيات الإسلام، موضحا أن «المسلم مطالب بأن يتعامل مع الناس جميعا بأخلاقيات المسلم، سواء فى حالة السلام أو فى حالة الحرب، فليس معنى أننا نعادى اليهود أو يعادوننا أو نقاتلهم ويقاتلوننا أن نتخلى عن أخلاقياتنا».

القرضاوى عضواً
بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

منح مجمع البحوث الإسلامية التابع لمشيخة الأزهر الشريف بجمهورية مصر العربية عضويته لفضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوى رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين.

وتعد هذه هى الخطوة الثانية التى يمتد فيها الاستفادة من علم وفقه العلامة القرضاوى بعد أن تم اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية منذ عدة سنوات.

وعلى الرغم من أن فضيلة العلامة القرضاوى عضو فى المجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة الذى يترأسه الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، فإن انضمام فضيلته إلى أى هيئة إسلامية لم يتم حتى الآن إلا بعد قرار المجمع.

وتم منح عضوية مجمع البحوث إلى كل من: د. رشيد قبانى مفتى لبنان، ود. جمود النهار مفتى اليمن، ود. محمد الصالح الأكاديمى السعودى.

ويعد المجمع الإسلامى إحدى الهيئات والمرجعيات السنية الكبرى فى العالم الإسلامى، وينظر إليه على أنه البديل لهيئة كبار العلماء التى تم إلغاؤها فى

الستينيات من القرن الـ٢٠، ويترأسه الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر د. محمد سيد طنطاوى.

ويتكون المجمع من عدد لا يزيد على خمسين عضواً من كبار علماء الإسلام: ثلاثون عضواً منهم من مصر وعشرون عضواً من خارجها من مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

ويتم تعيين أعضاء مجمع البحوث بناء على اقتراح من شيخ الأزهر يعرضه على رئيس الجمهورية، والذى يصدر بدوره قراراً بالتعيين.

ووفقاً للقانون المصرى، فإن «مجمع البحوث الإسلامية هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية، وتقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث، وتعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسى والمذهبى، وتجليتها فى جوهرها الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفى كل بيئة، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. ومعاونة جامعة الأزهر فى توجيه الدراسات الإسلامية لدرجتى التخصص والعالمية والإشراف عليها والمشاركة فى امتحاناتها».

حكاية المنع من دخول الإمارات

كشف الداعية الإسلامى الكبير د. يوسف القرضاوى لـ «الجمهورية» التفاصيل الكاملة لقصة منعه من دخول الإمارات العربية المتحدة يوم الخميس الماضى، رغم علاقاته التى وصفها بأنها وثيقة جداً مع رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وحكام الإمارات الآخرين..

قدم الشيخ القرضاوى رؤيته للأحداث التى تشهدها الساحة الدولية حاليا والحرب الأمريكية - الغربية على الارهاب، والإسلام المفترى عليه فى الصراع، وحقيقة دفاعه عن حركة طالبان، رغم انتقاداته الشديدة لها، واللقاء الوحيد العابر مع أسامة بن لادن المشتبه به الرئيسى فى أحداث التفجيرات فى نيويورك وواشنطن التى غيرت خريطة وملامح الصراع على الساحة الدولية، وذلك خلال جولات المصالحة بين الفصائل الأفغانية عقب انتهاء الاحتلال الروسى.

أدان القرضاوى بشدة عمليات التفجير، واستنكر بشدة أيضا تجييش كل هذه الآلات العسكرية ضد أفغانستان.. مؤكداً أن بن لادن مجرد ظاهرة لا يصح مواجهتها بأفكار الجنرالات، واصفا أفغانستان بأنها بلد يستحق الرأفة والرثاء، لا الضرب بالصواريخ والدبابات وغيرها.

وانتقد بشدة التدخل العسكرى من جانب التحالف الغربى لتغيير الانظمة

بالقوة مشددا على أن سيادة هذا المنطق تجعل الشعوب ألعوبة فى أيدى أصحاب الأهواء والمصالح.

.. وفيما يلى نص الحوار:

● الجمهورية: ما حقيقة ما حدث فى منع فضيلتكم من دخول الإمارات العربية المتحدة.. ثم ما حدث بعد ذلك من أن الإمارات اعتبرت الأمر مجرد خطأ فردى فقط؟!

●● القرضاوى: انا يكفيني هذا التعليل من جانب المسئولين في الإمارات وأنا مرتاح إلى هذا التفسير وأصدقه، وأتعامل على أساسه، لأن علاقاتى بدولة الامارات ليست سطحية، وأنت شاهدت فى الامارات ورأيت كيف يحتفى بى الناس - وعلاقتى وثيقة بالشيخ زايد بن سلطان وذهبت الى هناك وهنأته العام الماضي بالعودة واحتفي بى حفاوة بالغة، وفى كل وسائل الإعلام، وعلاقتي بالشيخ عبدالله بن زايد ايضا، وكنت أذهب اسبوعيا لبرنامج «المنبر» الذي يذاع كل يوم سبت في قناة أبوظبى الفضائية باصرار من الشيخ عبدالله الذى دعانى الى بيته اكثر من مرة، وحتي الشيخ حمدان بن زايد وزير الخارجية قابلته في شهر يونيو الماضى من اجل مشروع ائتلاف الخير بصفته هو الرئيس الاعلى للهلال الاحمر الاماراتى، واعلن انه سيقوم بدور كبير فى مساعدة هذا المشروع الذى يقوم بمساعدة الشعب الفلسطينى فى الداخل.

علاقات جيدة بالحكام

وعلاقاتى بحكام الامارات المختلفة أيضا جيدة خصوصا فى دبى الشيخ مكتوم والشيخ محمد بن راشد وقد كرمونى العام الماضى وتبنوا مشروعاتى الاسلامية الكبرى، مثل مشروع مؤسسة الموهوبين الذى تبناه الشيخ محمد بن راشد بكل قوة، وموضوع «إسلام أون لاين» الذى تبناه الشيخ حمدان بن راشد.

أيضا علاقاتى بالشيخ د. سلطان القاسمى حاكم الشارقة علاقة مودة قديمة وكذلك الشيخ حميد بن راشد النعيمى حاكم عجمان.. كل هؤلاء فأنا أستغرب الحقيقة أن يحدث ما حدث.. فإذا قالوا ان هذا كان تصرفا فرديا.. والله أنا أقبل هذا..

كل ما في الامـر انهم زعلوا من ان الاخ الذى نشـر الخبـر قـال انى قلت: ان هذا حدث باشـارة خـارجيـة والحقيقـة انني لم اقل هذا بالضـبط يعنى، ولكن الاخ تصرف في الكلام وأحيانا يحرف الكلام عن حقيقته..

وأنا أقول: ستظل علاقتى بدولة الامارات علاقة متينة ووثيقة، وستزول هذه السحابة وتتقشع سحابة صيف عن قريب وتعود المياه إلى مجاريها إن شاء الله.

حدث في المطار

- متى حدث هذا بالضبط؟!
- القرضاوى: يوم الخميس الماضى في المطار
- هل كان سبب الزيارة المشاركة فى برنامج المنبر بفضائية أبوظبى؟!
- القرضاوى: لا.. البرنامج أوقف منذ فترة.. ولم يعد موجوداً الآن.
- وما سبب الزيارة إذن؟
- القرضاوى: الزيارة لحضور اجتماع خاص بمصرف قطر الاسلامى وذلك في طريقى للقاهرة، للمشاركة فى مؤتمر الحوار الذى دعا إليه مجلس الاغاثة العالمى، وقلت أقضى هناك كم ساعة ثم أتوجه للقاهرة.
- ألم تتصل بأحد من الحكام أو المسئولين فى الإمارات وأنت فى المطار خاصة وانه تربطك بهم علاقة وثيقة؟!
- القرضاوى: الموضوع حدث يوم الخميس ليلا.. والعملية صعبة.. ولم أفضل أن أثير قضية وقتها، وفضلت العودة مرة أخرى في هدوء.
- هل عدت إلي الدوحة أم إلى القاهرة؟!
- القرضاوى: لا.. عدت إلى الدوحة.
- ألم تفكر بجدية الآن فى العودة إلى مصر؟
- القرضاوى: كل شئ بأوان.. وأنا حينما ذهبت فأنا أمثل مصر وعمامتى وجبتى تمثل الأزهر فى كل مكان.

الفتنة فى الأحداث الكبرى

● مع كل أزمة كبرى فى المنطقة يقع الناس فى حيرة شديدة، وتتعدد التفسيرات والتأويلات وتتضارب، وتتصارع المواقف المتطرفة، فما تفسيرك لهذه الظاهرة. وكيف يمكن مواجهتها؟!

● القرضاوى: لا أدرى فيم الخلاف.. هناك أشياء متفق عليها، ولا ينبغى الخلاف فيها.. أولها: أن ندين العنف غير المبرر الذى يستخدم القوة حيث ينبغى ان يستخدم الحوار.. هذا هو الارهاب.. لانه في نظرى يعنى: ان تستخدم العنف حيث يجب ان يستخدم الحوار من غير تمييز بين البرئ والمسئ والمظلوم والظالم اعتماداً على هذا المبدأ الميكيا فيللى المعروف ان الغاية تبرر الوسيلة وعادة الذين يستخدمون العنف.. لديهم غايات في نظرهم غايات شريفة ولكنهم يصلون إليها بمثل هذه الأشياء التى قد يقتل فيها مدنيون وأبرياء ونساء وأطفال وشيوخ، واناس لاناقة لهم ولا جمل.. فمثل هذه الأعمال يجب أن ننكرها ونديها.. ولذلك منذ صبيحة الأحداث في ١٢ سبتمبر أصدرت بيانا أنكرت فيه التفجيرات التى حدثت، أيا كان فاعلها أيا كان دينه أو وطنه، أو جنسه، ونحن لا نعرف من هو حتي الآن.

عصمة النفس الإنسانية

الثانى: إن المدنيين الذين ضربوا في مركز التجارة العالمي بنيويورك أناس أيضا ليس لهم يد في اتخاذ القرار السياسى، اناس يجرون على أكل عيشهم، يعملون في المبني من أديان وأجناس مختلفة، وأوطان متعددة، وفيهم نحو ألف من جنسيات شتى، لأنه كما قال لى الاخوة في أمريكا ان هناك نحو ٢٥٠٠ من المسلمين يعملون في المركز التجارى، وكانوا يصلون الجمعة.. كل جمعة واكثر من ١٥٠٠ كانوا يحضرون الصلاة.. فهؤلاء ايضا ضحايا لا ذنب لهم.

لذلك أدنا هذا العمل ونحن مستريحو النفس، لان النفس البشرية في نظر الإسلام معصومة ولا يجوز ان تقتل.

فلا يوجد دين يحترم النفس الإنسانية كالإسلام ولذلك في الحروب الرسمية التي تتواجد فيها الجيوش نهي النبى صلى الله عليه وسلم عن ان يقتل إلا من يقاتل.

الأمر الثانى الذى لا خلاف عليه: أنه لا يجوز من أجل هذا الأمر أن نشهد حرباً كونية شاملة تضم فيما تضم شعبا مسكينا بائسا مدمراً في الاصل، دمرته الحروب السابقة ودمره الاتحاد السوفيتى، فنحن ندمر المدمر نزيده تدميرا، فهذا منكر عندنا،

ولا يجوز أن نحارب الارهاب بارهاب مثله، الآن يحارب ارهاب أفراد او مجموعات صغيرة بارهاب دولة عظمى، اكبر دولة في العالم، تملك ما لا يملكه الآخرون، ومن اجل إنسان مشتبه فيه، هم كما يقولون: المشتبه الرئيسى.. والاشتباه لا يوجب عقوبة، حتى يصح ويتم التأكد من أن هذا المشتبه هو صاحب الجريمة، وإلا فالأصل فى الإنسان البراءة وان المتهم برئ حتى تثبت إدانته.

ما يجرى فى أفغانستان لا يجب أن يختلف فيه اثنان او تتناطح فيه عنزان كما يقولون، لأنه أمر مجرم.. وما نراه الآن يوميا ان الذين يقتلون هم المدنيون.. الناس في المستشفيات والمساجد، والطرقات، والبيوت هؤلاء البرءاء الآمنون يقتلون، وهم لا دخل لهم فى الإرهاب، ولا يد لهم فى العنف.

أفغانستان.. وحرب الخليج

● لكن رغم وضوح المسألة، وهذا البيان الناصع الذى قدمته فضيلتكم حدث خلاف وانقسام.. وقد حدث الانقسام والتعارض أيضا ولو بدرجة مختلفة اثناء حرب الخليج.. وظهر العديد من الفتاوى والاجتهادات؟!

●● القرضاوى: لا.. في حرب الخليج كان الخلاف أوضح، لانه كانت هناك دولة اعتدت على دولة، فكان هناك عدوان عراقي على الكويت، هذا لا تستطيع أن تنكره، ولا تستطيع أن تسكت عن إدانته، ولكن الخلاف جاء حينما حدث التحالف الدولي علي العراق واتخذ من هذا التحالف أداة للسيطرة على المنطقة فبدأ الناس ينكرون وجود القوات الاجنبية وتدخلها في المنطقة ووجودها في أرض الحجاز والجزيرة العربية وغير ذلك.. وجاء الخلاف ايضا يحسب وقع الاحداث على الناس في ذلك الوقت. وقد كنت حينئذٍ فى الجزائر واري وقع الاحداث في الجزائر غير وقعها على الناس في مصر وبلاد الخليج هناك لا يشعرون بما يجرى للكويتيين ولا للمصريين

وغيرهم ولكن يحسون بان فرنسا وأمريكا تهاجم صدام، وما دام يتصدى لهم بطل.. ولا يشعرون بما يشكو منه الناس الذين حدث لهم ما حدث في الكويت والذين هاجروا وعادوا إلى بلادهم وتركوا أموالهم وممتلكاتهم وكل شئ.

مسلمو أمريكا.. وضع مختلف

● ما تفسير فضيلتكم للفتاوى التى صدرت تؤيد دول التحالف، فى مواجهة الفتاوى المعارضة لها بشدة؟!

●● القرضاوى: لا أدرى ان هناك فتاوى صدرت تؤيد التحالف ضد أفغانستان.

● نعم، وحتى بعضها أباح للمسلمين الأمريكان أن يقاتلوا فى صفوف الجيش الأمريكى؟!

●● القرضاوى: لا.. لا.. المسلمون الأمريكان لهم وضع خاص.. لكن بالنسبة للدول الإسلامية لا اعتقد أن احداً يبيح محاربة أفغانستان.

● يبدو أن حمي محاربة الارهاب أوقعت البعض في ذلك وحدث رغما عنهم ربط بين الاثنين.. مقاومة الارهاب وضرب أفغانستان.

●● القرضاوى: الإرهاب شئ.. وضرب أفغانستان شئ، ما دخل الإنسان الأفغانى بالارهاب.. وما رأيت احداً من علماء المسلمين ممن لهم شأن أفتى بجواز ضرب أفغانستان من أجل وجود إرهابيين فيها.

ظاهرة بن لادن

لقد قلت للقائم بالأعمال في السفارة الأمريكية في قطر عندما زارنى في مكتبى ان حربكم لافغانستان.. حرب غير مبررة وغير ناجحة لن تؤدى هدفها، لانك عندما تشن حربا شاملة على مجموعات صغيرة من الناس تختفي في بلد ما.. الواقع انك ستصيب الذين ليس لهم عنزة ولا جمل وفي النهاية تقتل البرئ.

وقلت له أيضا: ان اسامة بن لادن هذا ليس شخصا: إنه يمثل رمزا لظاهرة.. وهى استخدام العنف في مواجهة الأقوياء.. لان الارهاب في الحقيقة هو نوع من مقاومة الضعفاء لجبروت الأقوياء، الضعيف ليس عنده

وسيلة فيتفنن فى وسائل.. وعنده الغاية تبرر الوسيلة وهذا بالطبع مرفوض اسلاميا، لانه ليس عندنا في الاسلام ان الغاية تبرر الوسيلة، لابد من شرف الغاية وطهر الوسيلة، الغاية الشريفة، والوسيلة النظيفة «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».. وهؤلاء لا يفعلون هذا، لانهم لا يجدون وسيلة أخرى.

ولو فرض ـ والكلام موجه للأمريكان – أنكم حصلتم على بن لادن، وهذا ليس بالأمر السهل، سيظهر ألف بن لادن آخر، المهم أن تبحث عن أسباب هذه الظاهرة.

أسباب الظاهرة

● وما الذى دفع هذه الظاهرة إلى الوجود؟!

●● القرضاوى: طبعا هناك اسباب كثيرة أدت الى وجود هذه الظاهرة وهذا النوع من السلوك.. ومن أهم الأسباب: وجود الظلم وتعدد المظالم، وخصوصا المظلمة الكبرى التي تشاهدها صباح مساء في أرض المقدسات ارض النبوات في فلسطين، والتجبر الشارونى، والقتل والتدمير، والتخريب والحرق، كل يوم.. أشياء تثير الحليم، وتشعل الهادى، وتجعل المظلوم ينفجر كالبركان، وويل للظالم إذا انفجر المظلوم.. كما يقول الشاعر:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

وهناك أسباب الفقر والجوع: سيدنا أبو ذر يقول «عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه».. فالجوع كافر.. الجوع والظلم والقهر لابد أن يفرز هذه النتائج.

ولا يمكن اغفال الاسباب والانحرافات الفكرية وهذه عرفناها في تاريخنا منذ عهد الصحابة الخوارج.. فقد كانوا اناسا عبادا صواما قواما.. كما جاء في الحديث يحضر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءاتهم، ومع هذا يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، هذا الخلل في الفهم لا يحارب بشن حرب إنما يحارب بتصحيح الفكرة الخاطئة وتصحيح المفاهيم المغلوطة وترشيد هذه المسيرة وهذا عمل أهل الفكر والابداع وأهل التوجيه، وليس عمل الجنرالات أصحاب الدبابات والصواريخ والطائرات، لأن مقاومة العنف المضاد لا تزيده إلا تصلبا، واصراراً على موقفه.

حرب أفكار

● وهذا ما حدث بالفعل؟!

●● القرضاوى: بالتأكيد.. هذا ما يحدث.. فالإرهابى.. انسان صاحب قضية ليس صاحب مصلحة عنده قضية مؤمن بها، وشديد التعصب لفكرته.. مغلق لا ينظر إلي وجهة نظر أخرى، آفته ليست في ضميره ولكن فى رأسه وفكره.

فهذه القضية لا تعالج بالحرب.. وقلت هذا للقائم بالأعمال الأمريكى في الدوحة فقال هل هذه حرب أفكار؟!. قالت له: نعم.. في المقام الأول هى حرب أفكار.. ما يجرى لا يمكن أن يقتلع الارهاب من جذوره.. لأن من يرد هذا الهدف فعليه أن يقيم العدل في الأرض، ويبصر صاحب الحق، ويفتح الأبواب أمام الفكر المعتدل، لأن المشكلة ان الفكر المعتدل يحارب ولا يجد له مجالا فيضطر هؤلاء ان يعملوا في السراديب وتحت الارض ولو اننا فتحنا الأبواب وهبت النسائم بالنسبة للفكر المعتدل.. لما حدث ما حدث، فهناك يحدث الحوار علي مرأى ومسمع من الناس، فهذه الأشياء أدت إلي ما نرى اليوم وما نجني ثماره المرة للأسف الشديد.

الحرب الدينية.. مرفوضة

● من وجهة نظرك.. هل يمكن استبعاد الدوافع الدينية وراء ما يجرى علي الساحة الآن؟!

●● القرضاوى: طبعا الرئيس الأمريكى بوش كان قد قال فى إحدى كلماته انها حملة صليبية ثم اعتذر عن هذه الكلمة ويبدو أن مستشاريه نبهوه الي خطورة هذه الكلمة فاعتذر وقال إنها ذلة لسان ولكن علماء النفس يقولون: أحيانا فلتات اللسان تعبر عن مكنون الضمائر وسيدنا علي يقول: غش القلوب يظهر علي صفحات الوجوه وفلتات الألسن والله تعالى يقول: «ولو نشاء لأريناكهم ولعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول».

هو قال هذا.. نحن نتمني ألا يكون هناك دوافع صليبية وراء هذا الأمر وان كانوا أعلنوا عن عملية «النسر النبيل» وهذا كان شعارا من شعارات الحروب الصليبية ونحن لا نريد المواجهة بين الإسلام والمسيحية.. ولعل الحضور

والمشاركة في المؤتمر الأخير بالقاهرة عن الحوار بين الأديان والمشاركة منذ أسابيع في مؤتمر بروما على مستوى عالمي مع كبار الكرادلة.. وكل هذا للتأكيد على ان الأديان يمكن أن تتفاهم وأن الحضارات يمكن أن تتحاور وليس من الحتمي كما قال بعض المفكرين الغربيين صراع الحضارات فيمكن للحضارات أن يكمل بعضها بعضا تتفاعل وتتكامل ويأخذ كل واحد من الآخر ما تفوق وأبدع فيه ويكون هذا لخير الانسانية.

ونحن على أى حال نرحب بثقافة الحوار بدل ثقافة الصراع، والصراع لا يجلب إلا الدمار علي كل الاطراف ونرحب بالسلام وديننا دين السلام.

الإسلام.. والإرهاب

● يلاحظ أنه مع كل حادث داخلي أو خارجى في العالم ويرتكبه أشخاص يهود أو مسيحيون.. لم نسمع أن قيل ولو مرة واحدة هذا إرهاب يهودى أو إرهاب مسيحى حتى في الصراع المسيحى - المسيحى في ايرلندا مثلا.. لكن ما ان يحدث حادث يقوم به أو يتهم فيه مسلم تنسحب صفة الارهابى ليس علي الشخص فقط ولكن على الإسلام كله.. هل هذه حالة خاصة بالإسلام.. أم بماذا تفسر ذلك؟!

●● القرضاوى: هناك رؤية خاصة مسبقة متعلقة بالإسلام واتهام الإسلام وإلا فالارهاب ليس ظاهرة إسلامية ولكن ظاهرة عالمية وقد رأينا الإرهاب داخل أمريكا نفسها في حادث أوكلاهوما سيتى.. في بادىء الأمر اتهموا المسلمين والعرب وهاجت الدنيا عليهم.. ثم تبين ان فاعلها امريكى والآن يقولون ان الجمرة الخبيثة هذه صادرة من داخل امريكا.. ولم يتهموا بن لادن.

وفى بلاد شتى في إنجلترا.. الجيش الجمهورى الايرلندى منذ سنين يقوم بعمليات وفي الهند قلت أنديرا غاندى وابنها راجيف غاندى.. ولم يقل أحد إن هناك ارهابا هندوسيا.

في اليابان ألم يحدث أن نشروا الغازات السامة في مترو الأنفاق.. في إسرائيل ألم يقتل اسحاق رابين.. إسرائيل هى الإرهابى الأكبر فى العالم.. وإذا كان هناك إرهاب أفراد.. فهذا إرهاب دول.. وإسرائيل هى بقوة امريكا..

وقلت لهم صراحة: انه لولا المال الامريكى والسلاح الامريكى والفيتو الامريكى ما استطاعت إسرائيل أن تصول وتجول في المنطقة بهذا العنف والتجبر والاستكبار في الأرض.

لذلك الصاق تهمة الارهاب بالإسلام والمسلمين ظلم مبين.

طيبون.. مخلصون.. ولكن!

● التقيتم بقادة طالبان وأجريتم معهم حوارات.. فهل هم فعلا بهذا السوء الذى يتحدث عنه العالم الغربى؟!

●● القرضاوى: طالبان.. هم جماعة من خريجى المدارس الشرعية التقليدية التي هى عبارة عن فروع للمدرسة الهندية الشهيرة المعروفة بمدرسة «دبيوبند» والتي يسمونها «أزهر الهند» والعلماء في تلك البلاد كلها فى الهند وباكستان وبنجلاديش او في أفغانستان ولكن غير متطورين فكريا.. وطالبان ليست مدرسة فكرية.. ولكن مع هذا أدافع عنهم بصفة أنهم ظهروا بعد اقتتال فصائل المجاهدين بعضهم مع بعض، انتصر المجاهدون على السوفيت لكن للاسف لم ينتصروا علي أنفسهم.. اتقنوا فن الموت في سبيل الله، ولم يتقنوا فن العيش في سبيل الله، فظلت الدماء تجرى، والمنشآت تدمر، ورأى الناس تصرفات سيئة، حواجز ودفع أتاوات، ودخل اناس كانوا حلفاء لبعض الفصائل مثل دوستم وجماعات الاوزبك وغيرهم وهؤلاء ليسوا من المجاهدين الملتزمين، فرأى الناس من سيئات هؤلاء ما جعلهم يضجون ويصرخون، فظهرت طالبان أول الأمر، بتأييد من باكستان، واستطاعوا بسرعة أن ينتصروا والشعب سلم لهم، لأنه يؤمن بالعلماء وينتصر للعلماء وهؤلاء اناس شرعيون، وسلم لهم الناس أسلحتهم، وسيطروا على ٩٠٪ من البلاد.

ولذلك أقول أيا كان وضع طالبان فلا يجوز لدولة ما أن تتدخل في بلد ما لإسقاط النظام وتعيين نظام آخر بدلا منه، فهذا شأن الشعوب وليس شأن الأمريكان ولا الأوروبيين ولا التحالف ولا غيرهم.. الشعب الأفغانى هو الذى يفعل هذا.. إنما التدخل بالقوات العسكرية لتفرض نظاما على الشعب.. هذا ما نرفضه.. وإلا أجزنا أن تصبح الأوطان ألعوبة فى أيدى الآخرين لهوى من

الأهواء أو لمصلحة من المصالح، يجيزون التدخل لفرض النظام الذى يرضيهم.

الوساطة مع الأفغان

● هل شاركتم من قبل في وساطات بين الفصائل الأفغانية المتصارعة؟

●● القرضاوى: شاركت أكثر من مرة فى الحقيقة، وإن كنا للأسف نتفق معهم، ويتفقون معنا على أشياء ثم بعد فترة تنقض هذه الاتفاقيات ويعود الأمر إلى ما كان عليه.. والشعب الأفغانى.. شعب مسكين في الحقيقة.. صار له اكثر من عشرين سنة وهو يقدم الضحايا وراء الضحايا والشهداء وراء الشهداء والمصابين المعوقين بالملايين.. والأرامل واليتامى.. غير من أصابهم القحط.

منذ أكثر من ثلاث سنوات عندما ذهبنا الى قندهار.. وجدنا آثار الدمار الهائل الذى خلفه السوفيت.. ولا أعرف ماذا يفعلون الآن.. يريدون ألا يبقوا من باقية.. يريدون أن يعود هذا الشعب إلى العصر الحجرى.. فهم يدمرون كل بقايا المنشآت الحيوية عنده، أى مصانع، أى مدارس.. أى مستشفيات.. فهذا شعب مسكين.

حتى في مطار قندهار ذهبنا في طائرة قطرية، وعندما تاخرنا قليلا حذرونا لو تأخرنا عن المغرب فلن تستطيعوا الهبوط لأنه لا يوجد إضاءة في المطار.

أفغانستان بلد يستحق الرأفة حقيقة والرثاء والرحمة، لا يستحق الضرب بالصواريخ وغيرها.. فماذا تضرب هذه الصواريخ، وكل هذه الترسانة الحربية الهائلة علام؟! لا يوجد ما يستحق هذا كله.

لقاء بن لادن

● هل التقيت فضيلتكم بأسامة بن لادن؟

●● القرضاوى: في الحقيقة أنا لقيته مرة في إحدى المرات التى ذهبت فيها للصلح ورايته فقط وسلم على ضمن الناس ولم أتكلم معه قط.

● ألم يكن له دور مؤثر على الفصائل المتصارعة؟!

●● القرضاوى: لا.. وإنما كان دوره مجرد شاب متحمس مثل كثير من الشباب ولكن ميزته أنه عنده فلوس، فهو يستطيع أن يساعد الجهاد بأمواله، وقلما تجد هذا.. واحد نشأ في الرفاهية والنعيم وورث من أبيه مئات الملايين، ويترك هذا كله ويذهب ليعيش فى الجبال والمغارات، لا شك ان هذا صاحب فكرة، عنده قضية يدافع من أجلها سواء كانت خطأ أو صوابا.. لكنه صاحب قضية.

● هل أخطأت طالبان بعدم تسليم بن لادن لواشنطن ألم يكن لها أن تسلمه وتقى أفغانستان كل هذا الويل من الآلة العسكرية الجبارة للغرب وتحمى البلاد من دمار محقق؟!

●● القرضاوى: والله هى وجهة نظر.. البعض يقول إن المقصود ليس أسامة بن لادن وحده، لأنهم لا يريدون أسامة فقط، ولكن يريدون تنظيم القاعدة، ومن معه من الأفراد.. ومنهم أناس أفغانيون الآن.. أصبحوا مؤيدين له.. فهو طلب يتبعه طلبات أخرى فهم يرون أن الرجل ساعد الجهاد الأفغانى، وخرج من بلده، وأخرج من داره ولجأ إليهم وأصبح جارا لهم والإسلام يقول: «المسلمون يجير عليهم أدناهم وهم يد علي من سواهم» والمرأة كما يقول الفقهاء: إن من حق المرأة إذا أجارت شخصا يجب على الدولة أن تجيره والنبى صلى الله عليه وسلم عندما أجارت أم هانئ بنت أبى طالب حماها.. قال لها الرسول: قد أجرنا من أجرت يا أم هانى.

فهؤلاء أصبح بن لادن جارا عندهم ويرون انه ليس من الاسلام أو المروءة تسليم رجل استجار بهم وأنا أرى فى الحقيقة ان النظام العالمى نفسه ارتكب عدة اخطاء فظيعة تسببت في هذه الكوارث منها:

إن بن لادن كان فى السودان، وكان يمارس عمله كمقاول ومستثمر ولكن للأسف طلبوا من السودان أن تخرجه.. فبعد أن كان يشتغل تجاريا واستثماريا اضطر إلى أن يذهب إلى باكستان ويشتغل لهم.

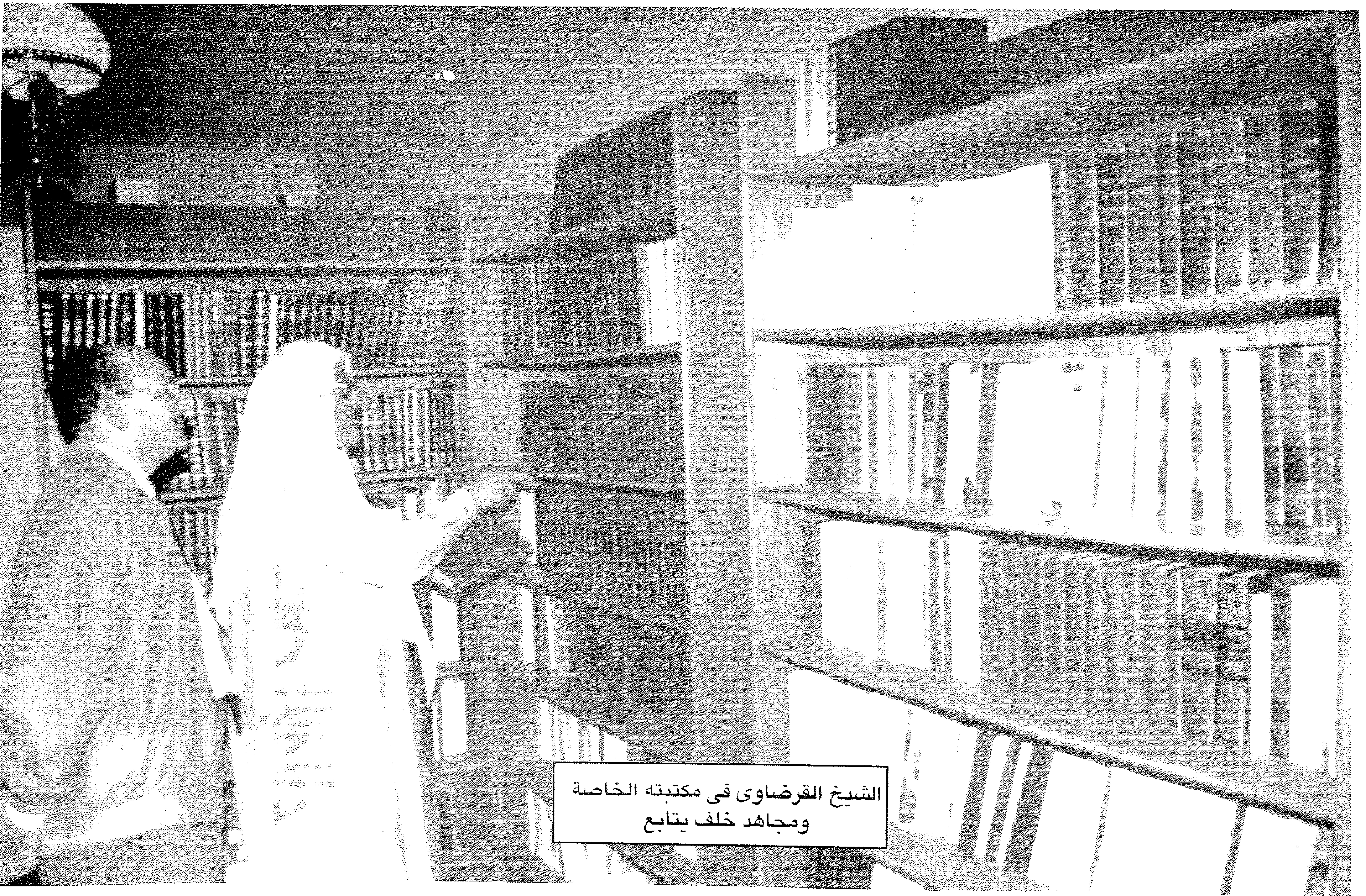
التنظيمات الإسلامية المعاصرة.. مريضة

● ألا تلاحظ أن التنظيمات والجماعات الإسلامية التى ظهرت خلال العقود الأخيرة كلها صغيرة ومنشقة عن بعضها ولا وزن لها، وكلها أضرت بالإسلام والمسلمين ولم تقدم خدمة حقيقية له.. بل إنها ألصقت تهم الإرهاب والعنف بالدين.

●● القرضاوى: كما قلت لك من قبل.. من أسباب ظهور هذه الفصائل وانحرافها هو غياب الفصائل المعتدلة عن الساحة، فلم يسمح للفصائل المعتدلة أن تقود العمل الإسلامية ظاهرا، ولم يسمح للشخصيات الإسلامية أن تؤدى دورها القيادى مع هؤلاء، فظهرت قيادات ضعيفة الفقه أو سطحية الفهم وغذى هذا ما يقع من مظالم على الأرض الإسلامية والشعوب، وما يقع من فساد وانحراف فى كثير من البلاد.

◆ الفصل الثانى عشر

على منصة الإفتاء



الشيخ القرضاوى فى مكتبته الخاصة
ومجاهد خلف يتابع

الفتوى.. واحدة من أعظم وأبرز القضايا فى المسيرة القرضاوية.. وكأنى بالشيخ القرضاوى قد ولد ليكون فى صدارة أعلام الموقعين عن الله بكل جدارة واستحقاق.. فمنذ اللحظة الأولى التى وضع فيها قدميه على طريق الدعوة والحوادث تستصرخه وتستنفر فيه روح المفتى وحكمة العالم صاحب البصر والبصيرة النفاذة إلى ما وراء حجب الغيب..

لقد منحه العامة والبسطاء من أبناء قريته وهم أناس أنقياء وعلى فطرتهم لقب صاحب مدرسة أو مذهب فقهى يعتد به ويسير الناس على منهاجه وأحكامه.. «على مذهب الشيخ يوسف».. وهى الكلمة التى قالتها سيدة فلاحة لزوجها بطريقة عفوية.. عندما غضب زوجها لأنها لمسته بيديها وهو متوضىء.. وكان أهل القرية ـ صفط تراب ـ يتبعون مذهبا يقول بنقض الوضوء بمجرد الملامسة بين الرجل والمرأة أيا كان نوع الملامسة.. وقالت له: «مشيها المرة دى على مذهب الشيخ يوسف.. حيث أفتى أهل القرية برأى مذهب آخر يقول بعدم نقض الملامسة الطارئة أو المعتادة التى تفرضها تفاعلات الحياة العادية للوضوء.

وعلى ما يبدو كانت هذه الواقعة هى بوابة منهج التيسير فى الفقه والانفتاح على كل المذاهب الفقهية المعروفة.. والخروج من شرنقة الاحتباس لرأى مذهبى واحد، وعدم الاعتداد بالآراء الأخرى فى المذاهب مهما كانت وجاهتها وقوة حجيتها.

وقد اختط الشيخ القرضاوى لنفسه منهجا واضحا فى الفتوى التزم به طوال حياته ولم يحد عنه.. وكان حريصا دائما على الإشارة إليه ومطالبة

الجميع بالالتزام به وهو منهج الوسطية والاعتدال.. وقد كان معه كل الحق.. فى إعلان ذلك والتأكيد عليه دائما.. فقد كانت الحركات والتيارات الإسلامية تعيش مرحلة قلقة أحيانا. تعسة أحيانا كثيرة.. وكانت السهام الموجهة إليها أكثر.. والحملات المغرضة لا تتوقف.. حتى أن المسلم العادى أصبح فى حيرة من أمره.. لا يدرى الغث من السمين ولا أين يضع قدمه حتى يكون فى أمانٍ بعيدا عن الفتنة.

لقد نجح الشيخ فى إرساء دعائم هذا المنهج حتى عرف به وكُرِّم من أجله فى كثير من البلاد الإسلامية.. فهو بحق من دعاة الوسطية الاسلامية التى تجمع بين الأصالة والمعاصرة والحريصة على التجديد دائما مع موازنة بين الثوابت والمتغيرات.. دون نسيان للماضى أو انعزال عن الحاضر ولا إغفال للمستقبل..

وقد شغلت الفوضى التى سادت دنيا الفتاوى جانبا كبيرا من الفكر القرضاوى.. وعكف عليها دارسا ومحللا وناقدا وموجها بحكمة وبصيرة.. وكشف عن الكثير من الران الذى خيم على أجواء الفتوى والمفتين وأيضا المستفتين.. الذين ساهموا بجزء ليس هينا فى تلك الفوضى..

ووضع القرضاوى خلاصة متكاملة لما يجرى فى هذا الجانب فى كتاب قيم به جهد علمى كبير وخلاصة تجربة خبير محنك وعالم جهبذ له باع طويل فى عالم الفتوى جاوز نصف القرن مفتيا ومفكرا ومجتهدا باحثا ومنقبا ومجادلا الحجة بالحجة.. وعنوان الكتاب واضح تماما فى مواجهة المشكلة: «الفتوى بين الانضباط والتسيب».

هذا إلى جانب ما جاء فى مقدمة الجزء الأول من كتاب الفتاوى المعاصرة..

وردَّ فيه بكل موضوعية بالأدلة العقلية والفعلية على كل ما يثار فى عالم الفتوى.. والضلالات الكثيرة على الساحة.. وشرح أيضاً خلاصة منهجه فى الفتوى.. يقول القرضاوى:

من خصائص المنهج الذى سرت عليه: التزام روح التوسط دائما، والاعتدال بين التفريط والافراط بين الذين يريدون أن يتحللوا من عرى الأحكام الثابتة بدعوى مسايرة التطور من المتعبدين بكل جديد، الذين يريدون أن يظل كل ما كان على ما كان من الفتاوى والاقاويل والاعتبارات، تقديسا منهم لكل قديم.

أما الأولون فهم لا يريدون أن يبقى شىء على حاله، ولا يستمر وضع كما كان وأن يغيروا كل شىء، بحجة أن العالم يتطور، والحياة تتغير، وهم الذين سخر منهم بعض الادباء بأنهم يريدون أن يغيروا الدين واللغة والشمس والقمر!

الربا كان حراماً فى الزمن الماضى لأن آخذ الربا ـ المرابى ـ كان هو القوى الغنى، ومعطى الربا كان هو الضعيف المحتاج.

أما الآن، فآخذ الربا هو العامل أو الموظف الضعيف الذى يدخر من دخله دراهم معدودة يودعها فى البنك، ليأخذ عليها فائدة محددة، والبنك الذى يعطيه الفائدة هو الغنى القوى، الذى يربح من وراء إيداع الكثير.

وإذن يقضى التطور بتبديل الحكم فى الربا الذى اعتبره القرآن والسنة من أكبر الكبائر، وأعظم الموبقات، وآذن القرآن فاعله بحرب من الله ورسوله!!

وهذا أمر لا يسيغه عقل، ولا يسمح به نقل: أن ينتقل فعل تكليفى ما من دائرة المحرمات المنصوصة، بل الكبائر المعلومة، إلى دائرة المباحات المشروعة.

أما المقدمات التى استند إليها هؤلاء التطوريون فغير مسلمة، وقائمة على المغالطات فمن أين لهم أن علة تحريم الربا تنحصر فيما ذكروه وصوروه؟..

إن تحريم الربا له أكثر من وجه، وأكثر من علة بعضها اقتصادى، وبعضها اجتماعى، وبعضها سياسى، وبعضها أخلاقى، وقد شرح ذلك أهل الاختصاص فى كتب ورسائل وبحوث شتى، ينبغى لكل معنى بالموضوع الرجوع إليها.

وتصوير آخذ الربا من البنك بأنه الضعيف المستفيد، ليس تصويرا صحيحا على إطلاقه.

فكم من أصحاب ملايين، يودعون فى البنوك أموالهم لعدة سنين، فيأخذون فوائد أكبر، لأن المبالغ كلما كبرت، ومدة الإيداع كلما طالت، كانت الفائدة أكثر.

أما الضعيف المحتاج، فلا يودع ـ إن أودع ـ إلا مبالغ تافهة، وفائدته عليها أقل، واستفادة البنك منه أكبر وهو لا يأخذ من البنك المستغل إلا الفتات من الربح العريض..

فتصوير هذا بأنه هو المستفيد تصوير غير عادل.

ومن العجيب أن من المشتغلين بالفتوى من يتولى تبرير الفوائد باسم الفقه، فى حين يرد عليهم فتاويهم أساتذة «مدنيون» باسم علم الاقتصاد الحديث، ومنطقه ذاته.

لقد ذكرت هذا المثال نموذجا لما يفتى به المتعبدون لصنم التطور، والذين يزعمون لأنفسهم الاجتهاد ليغيروا أحكام الله القطعية.

ومن المقرر المعلوم ان القطعى لا يحل الاجتهاد فيه: وإنما الاجتهاد فى الظنيات.

ومما يحسن تسجيله هنا من مظاهر العبودية لما يسمونه «التطور» ما ذكره رئيس عربى فى خطاب عام له عن المساواة بين الرجل والمرأة قال فيه:

أريد أن ألفت نظركم إلى نقص سأبذل كل ما وسعى لتداركه، قبل أن تصل مهمتى إلى نهايتها وأريد أن أشير بهذا إلى موضوع المساواة بين الرجل والمرأة، وهى مساواة متوفرة فى المدرسة وفى العمل وفى النشاط الفلاحى، وحتى فى الشرطة ولكنها لم تتوفر فى الإرث، حيث بقى للذكر مثل حظ الأنثيين إن هذا المبدأ يجد ما يبرره عندما يكون الرجل قواما على المرأة وقد كانت المرأة بالفعل فى مستوى اجتماعى لا يسمح بإقرار المساواة بينها وبين الرجل. فقد كانت البنت تدفن حية، وتعامل باحتقار، وها هى اليوم تقتحم ميدان العمل، وقد تضطلع بشئون أشقائها الأصغر منها سنا. فهلا يكون من المنطق أن نتوخى طريق الاجتهاد فى تحليلنا لهذه المسألة وأن ننظر فى إمكان تطوير الأحكام الشرعية بحسب ما يقتضيه تطور المجتمع!!

وقد سبق لنا أن حجرنا تعدد الزوجات بالاجتهاد فى مفهوم الآية الكريمة، وباعتبار أن الاسلام يجيز للإمام تعطيل العمل المباح إذا دعت إلى ذلك مصلحة الأمة، ومن حق الحكام بوصفهم أمراء المؤمنين أن يطوروا الأحكام بحسب تطور الشعب، وتطور مفهوم العدل، ونمط الحياة!!

المتزمتون فى الفتوى:

وفى مقابل هؤلاء «العصريين» أو «التقدميين» الذين يريدون أن يحللوا كل شىء بحجة «التطور» وتغير الزمان، ومرونة الشريعة إلخ... نجد آخرين

يريدون أن يحرموا على الناس كل شيء فأقرب شيء إلى ألسنتهم وأقلامهم إطلاق كلمة «حرام» دون مراعاة لخطورة الكلمة، ودون تقديم الأدلة الشافية من نصوص الشرع وقواعده سندا للتحريم فعمل المرأة حرام، والغناء حرام، والموسيقى حرام، والتمثيل حرام، والتليفزيون حرام، والسينما حرام، والتصوير كله حرام، والشركات المساهمة حرام، والجمعيات التعاونية حرام!

والحياة كلها اليوم حرام فى حرام

هذا مع تحذير القرآن والسنة والسلف الصالح من إطلاق كلمة «الحرام» إلا ما علم تحريمه جزما من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى: «قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون؟»

ويقول: «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون».

قال الإمام ابن القيم:

«لا يجوز للمفتى أن يشهد على الله ورسوله بأنه أحل كذا أو حرمه أو جبه أو كرهه إلا مما يعلم أن الأمر فيه كذلك، مما نص الله ورسوله على إباحته أو تحريمه أو إيجابه أو كراهته.

وأما ما وجده فى كتابه الذى تلقاه عمن قلده دينه، فليس له أن يشهد على الله ورسوله به، ويقر الناس بذلك، ولا علم له بحكم الله ورسوله.

قال غير واحد من السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، أو حرم الله كذا، فيقول الله له: كذبت لم أحل كذا، ولم أحرمه وثبت فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وإذا حاصرت حصنا فسألوك أن تنزلهم على حكم الله ورسوله، فلا تنزلهم على حكم الله ورسوله، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك».

وقال الإمام مالك:

لم يكن من أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا الذين يقتدى بهم، ويعول الإسلام عليهم، أن يقولوا: هذا حلال، وهذا حرام ولكن يقول: أنا أكره كذا،

وأحب كذا وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله أما سمعت قول الله تعالى: «قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق..» الآية لأن الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله.

الإعراض عما لا ينفع الناس:

ومن القواعد التى التزمتها: ألا أشغل نفسى ولا جمهورى إلا بما ينفع الناس، ويحتاجون إليه فى واقع حياتهم.

أما الأسئلة التى يريد بها أصحابها المراء والجدل، أو التعالم والتفاصح، أو امتحان المفتى وتعجيزه، أو الخوض فيما لا يحسنونه، أو إثارة الأحقاد والفتن بين الناس، أو نحو ذلك، فكنت أضرب عنها صفحاً، ولا ألقى لها بالاً، لأنها تضر ولا تنفع، وتهدم ولا تبنى، وتفرق ولا تجمع.

كان بعض الناس يبعثون بأسئلة تتضمن ألغازاً شرعية يريدون حلها من مثل: «نوى ولا صلى، وصلى ولا نوى» و«قوم كذبوا ودخلوا الجنة، وقوم صدقوا ودخلوا النار» وأشباه ذلك، فكان ردى عليها الإلقاء فى سلة المهملات لأن الاشتغال بمثل هذه المسائل من عمل الفارغين.

ومثل ذلك الأسئلة التى تتعلق بالأمور الغيبية، مما لم يجىء بتحديده نص معصوم. ومثل ذلك غوامض المسائل الدينية والعقائدية التى لا تحتملها الطاقة العقلية المعتادة لجمهور الناس، ويخشى من الخوض فيها - سؤالاً وجواباً - التشويش على الكثيرين.

فهذا أيضاً مما لا أعتنى بالإجابة عنه إلا إزالة لشبهة، أو رداً لفرية، أو تنبيهاً على قاعدة، أو تصحيحاً لفهم أو نحو ذلك.

ومما قاله فى ذلك الإمام شهاب الدين القرافى:

«ينبغى للمفتى إذا جاءته فتيا فى شأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو فيما يتعلق بالربوبية، يسأل فيها عن أمور لا تصلح لذلك السائل لكونه من العوام الجلف، أو يسأل عن المعضلات، ودقائق الديانات، ومتشابه الآيات والأمور التى لا يخوض فيها إلا كبار العلماء، ويعلم أن الباعث له على ذلك إنما هو الفراغ والفضول والتصدى لما لا يصلح له، فلا يجيبه أصلاً. ويظهر

له الإنكار على مثل هذا ويقول له: اشتغل بما يعنيك من السؤال عن صلاتك وأمور معاملاتك، ولا تخض فيما عساه يهلكك، لعدم استعدادك له.

وإن كان الباعث له شبهة عرضت له: فينبغى أن يقبل عليه، ويتلطف به فى إزالتها عنه بما يصل إليه عقله. فهداية الخلق فرض على من سئل.

قال: والأحسن أن يكون البيان له باللفظ دون الكتابة، فإن اللسان يفهم ما لا يفهم القلم، لأنه حى، والقلم موات. فإن الخلق عباد الله، وأقربهم إليه أنفعهم لعباده، ولا سيما فى أمر الدين وما يرجع إلى العقائد.

وكثيراً ما كنت أطلب من صاحب السؤال إذا أحسست جديته، وخشيت على جمهور المستمعين أو المشاهدين التشويش - أن يلقانى على انفراد، لأستطيع أن آخذ معه وأعطى، بلا حرج ولا خشية.

ومن الأسئلة التى لم أكن أعبأ بها: ما يتعلق بالمفاضلة بين آل البيت والصحابة رضى الله عنهم وما شجر بينهم من خلاف، ونحو ذلك - مما لا طائل تحته وقد أفضى الجميع إلى ربهم، وقضى الله ما كان.

سئل الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز عن قتال أهل صفين، فقال: تلك دماء كف الله عنها يدى، فلا أحب أن يلطخ بها لسانى.

ومن الأسئلة التى يحرص بعض الناس على إثارتها، وتلقيت فى شأنها أكثر من رسالة:

أيهما أفضل عند الله: أبو بكر أم على؟ وأيهما كان أحق بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أيهما أفضل: فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم؟

ومثل ذلك: المفاضلة بين الأنبياء، مثل إسماعيل وأسحق، أو موسى وعيسى.

أسئلة لا يترتب على العلم بها، قوة فى دين، ولا نهضة فى دنيا، ومن جهل الجواب عنها فلا إثم عليه، ومن كون فى كل منها رأيا فهيهات أن يتنازل عنه.

ولقد قلت فى بعض إجاباتى عن مثلها: إنها أشبه بموضوعات الإنشاء التى كان معلمونا - ونحن تلاميذ صغار - يكلفوننا الكتابة فيها تدريباً للقلم، وشحذا للملكات، مثل: المفاضلة بين الليل والنهار، وبين الصيف والشتاء، وبين

الأرض والسماء، وبين القطار والسفينة وغير ذلك مما لا معنى للمفاضلة بين بعضها وبعض عند أهل البصر والبصيرة.

إن الله تعالى ورسوله عابا على بنى إسرائيل كثرة أسئلتهم واختلافهم على أنبيائهم، وسؤالهم فيما لا ضرورة إليه، ولا فائدة منه إلا إعنات أنفسهم. وفى هذا ذكر الله تعالى لنا قصة ذبح البقرة وكثرة أسئلتهم فيها دون حاجة، ولو أخذوا أى بقرة فذبحوها لكانوا ممتثلين للأمر، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم.

وما ذكر الله لنا هذه القصة إلا لتكون لنا عظة وعبرة.

ومن الأسئلة التى أعرضت عنها: ما يتعلق بتفسير الرؤى والأحلام.

وقد أعلنت غير مرة: أن مهمتى بيان الأحكام، لا تفسير الأحلام. وذلك أن الأحكام لها أصول يحتكم إليها، ومصادر يرجع إليها. أما الأحلام فلا ضابط لها ولا قاعدة، ويختلف تأويلها باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان.

وعلى العموم هى تخمين وظن، إلا من وهبه الله الفراسة فى ذلك، وعلمه تأويل الأحاديث «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين».

وطالما قلت للسائلين فى ذلك: أنا لست يوسف الصديق. وإنما أنا يوسف القرضاوي ويوسف الصديق قد خصه الله بذلك، وعلمه ما لم يعلمه غيره.

والحقيقة إنى لا أحسن ذلك، ولست حريصاً على أن أحسنه، فإن ذلك - لو كان - جدير أن يلتهم وقتى كله، لأن أحلام الناس لا تنتهى، واهتمامهم بتفسيرها لا يتوقف وبخاصة النساء اللاتى تشغل الأحلام والرؤى من حياتهن وتفكيرهن حيزاً غير ضئيل.

مخاطبة الناس بلغة العصر

ومن القواعد التى ينبغى على المفتى المعاصر التزامها: أن يخاطب الناس بلغة عصرهم التى يفهمون، متجنباً وعورة المصطلحات الصعبة، وخشونة الألفاظ الغريبة، متوخياً السهولة والدقة.

وقد جاء عن الإمام على: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!».

وقال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» ولكل عصر لسان أو لغة تميزه، وتعبر عن وجهته، فلابد لمن يريد التحدث إلى الناس فى عصرنا أن يفهم لغتهم ويحدثهم بها.

ولا أعنى باللغة مجرد ألفاظ يعبر بها قوم عن أغراضهم، بل ما هو أعمق من ذلك، مما يتصل بخصائص التفكير، وطرائق الفهم والإفهام.

ولغة عصرنا تتطلب عدة أشياء، يجب على المفتى أن يراعيها:

أ- أن يعتمد على مخاطبة العقول بالمنطق، لا على إثارة العواطف بالمبالغات، فمعجزة الإسلام الكبرى معجزة عقلية هى القرآن، الذى تحدى الله به، ولم يتحد الخوارق، مع وقوعها للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولم تعرف البشرية دينا يحترم العقل والعلم كما يحترمه الإسلام.

ب- أن يدع التكلف والتقعر فى استخدام العبارات بالأساليب، ولهذا كنت أستخدم اللغة السهلة القريبة المأنوسة، وربما استخدمت بعض الألفاظ أو الأمثال العامية لتوضيح ما أريد، إيماناً منى بأن جمهور المشاهدين والمستمعين ليسوا فى مستوى واحد من الثقافة والفكر، فمنهم الأستاذ الكبير، ومنهم الطالب الصغير، ومنهم التاجر، ومنهم العامل، وكلهم يجب أن يفهم ويعى، وإفهام المستويات المتفاوتة أمر صعب، ولكنى حرصت عليه قدر استطاعتى، وأنا مؤمن بالوسطية والاعتدال فى كل الأمور، ولهذا كنت بين بين، لا أعلو كل العلو إلى مستوى الخواص فأفقد العوام، ولا أنزل كل النزول إلى العوام فأفقد الخواص، بل جعلت هدفى أن أرضى الخاصة وأفهم العامة معا، وهذا منهجى طول حياتى، وأرجو أن أكون قد وفقت إليه أو قاربت.

ج- أن يذكر الحكم مقروناً بحكمته وعلته، مربوطاً بالفلسفة العامة للإسلام، وهذا ما التزمته فى فتاواى وكتاباتى بصفة عامة، وذلك لأمرين:

الأول: إن هذه هى طريقة القرآن والسنة.

فالقرآن حين يفتى فى المحيض - وقد سألوا عنه - يقول: «ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن»، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم علة الحكم - وهو الأذى - مقدمة للحكم نفسه، وهو الاعتزال.

وفى تقسيم الفىء بين الفئات المستحقة له، ومنهم اليتامى والمساكين وابن السبيل، يذكر الله تعالى الحكمة فى ذلك فيقول: «كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» أى حتى لا يكون المال متداولاً بين طبقة الأغنياء وحدهم، ويحرم منه سائر الطبقات، فهذا مصدر الشرور، وهو أبرز خصائص الرأسمالية الطاغية.

حتى العبادات الشعائرية يأمر بها القرآن مقرونة بعلل وأحكام تقبلها الفطر السليمة، والعقول الرشيدة. ففى الصلاة يقول: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر».

وفى الصيام يقول: «لعلكم تتقون».

وفى الزكاة: «تطهرهم وتزكيهم بها».

وفى الحج: «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات».

وأما فى السنة، فإن من تأمل فتاوى النبى - صلى الله عليه وسلم - رآها مشتملة على حكمة الحكم ونظيره ووجه مشروعيته.

من هذا قوله لعمر حين جاءه منزعجاً، إذ قبل امرأته وهو صائم، فقال له: أرأيت لو تمضمضت ثم مججته، أكان يضر شيئاً؟ قال: لا فنبه على أن مقدمة المحظور لا يلزم أن تكون دائماً محظورة، فإن غاية القبلة أن تكون مقدمة الجماع، فلا يلزم من تحريمه تحريم مقدمته، كما أن وضع الماء فى الفم مقدمة شربه، وليست المقدمة محرمة.

ومن هذا قوله - صلى الله عليه وسلم: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا على ابنة أخيها، ولا على ابنة أختها، فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم «فذكر لهم الحكم، ونبههم على حكمة التحريم، وهو ما يترتب عليه من قطع ما أمر الله به أن يوصل نتيجة الاحتكاك الضرورى بين الضرائر.

ومثل ذلك قوله لبشير بن سعد، وقد خص بعض أولاده بعطية دون الآخرين: «أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء؟ قال: نعم، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم.

وهذا فى القرآن والسنة كثير جداً، مع أن قول الله ورسوله حجة بنفسه، وإن لم تعرف له علة معينة، وحسبنا أنه لا يأمر إلا بخير.

الثانى: أن الشاكين والمشككين فى عصرنا كثيرون، ولم يعد أغلب الناس يقبلون الحكم دون أن يعرفوا مأخذه ومغزاه، ويعوا حكمته وهدفه، وخاصة فيما لم يكن من التعبيدات المحضة.

ولابد أن نعرف طبيعة عصرنا، وطبيعة الناس فيه، ونزيل الحرج من صدورهم ببيان حكم الله فيما شرع، وبذلك يتقبلون الحكم راضين منشرحين، فمن كان مرتاباً ذهب ريبه، ومن كان مؤمناً ازداد إيماناً.

ومع هذا لابد أن نؤكد للناس، أن من حق الله تعالى، أن يكلف عباده ما شاء، بحكم ربوبيته لهم، وعبوديتهم له، فهو وحده له الأمر، كما له الخلق، ولهذا لابد أن يطيعوه فيما أمر، ويصدقوه فيما أخبر، وإن لم يدركوا علة أمره، أو كنه خبره وعليهم أن يقولوا فى الأول: «سمعنا وأطعنا» وفى الثانى: «آمنا به كل من عند ربنا».

إن الله لا يأمر بشىء، ولا ينهى عن شىء، إلا لحكمة، فهو لم يشرع ما شرع عبثاً كما لم يخلق ما خلق باطلاً.

هذه قضية ثابتة جازمة، ولكن لسنا دائماً قادرين على أن نتبين حكمة الله، بالتفصيل، وهذا مقتضى الابتلاء الذى قام عليه أمر التكليف، بل أمر الإنسان «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه».

تجربة فتاوى الإذاعة والتليفزيون

منذ إنشاء إذاعة قطر فى العام ١٩٧٠.. يقدم الشيخ القرضاوى عدداً من البرامج الدينية.. واستفتح أول نشاطه الإعلامى فيها ببرنامج نور وهداية ويقوم بالرد على رسائل المستمعين المتعلقة بأمور الحياة والدين.. وكان للبرنامج مريدون كثر وعشاق ويقدم مرتين فى الأسبوع.. هذا إلى جانب البرامج الموسمية فى شهر رمضان عادة مثل أحاديث الغروب قبل أذان المغرب.. وفى رحاب القرآن.. وفى رحاب السنة النبوية ومشكاة النبوة.. واستمر تقديمها لسنوات طويلة دون توقف وقد كان لها صدى قوى فى قطر ومنطقة الخليج عموماً.. وأحدثت حراكا علمياً وفقهياً ليس فقط بين المشاهدين العاديين ولكن أيضاً بين العلماء والمتخصصين.. وهو ما سجلته المناقشات والمحاورات بين القرضاوى وعدد من العلماء من أمثال العالم

البحاثة الكبير الشيخ عبدالله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعي فى قطر.. والشيخ بن باز فى السعودية وغيرهما.

وعندما أنشىء تليفزيون قطر تولى القرضاوى أيضاً مسئولية الرد على أسئلة وفتاوى المشاهدين.. ومما يذكر أن وقت افتتاح التليفزيون كان الشيخ فى اجازة صيف بلبنان فاتصلوا به من الدوحة ليسجل عدة حلقات فى أحد استوديوهات بيروت ليقدمها التليفزيون وسجلها الشيخ بالثوب والغترة لأنه لم يكن معه زيه الأزهرى المعتاد والحريص عليه.. ولكنه كان يرتدى البدلة الإفرنجية وأطلق على البرنامج «هدى الإسلام».

لما بدأت قناة «الجزيرة» بثها كان من أشهر برامجها «الشريعة والحياة» للشيخ القرضاوى.. وهو برنامج على الهواء.. وقد أحدث انتعاشة كبيرة فى عالم الفتوى فى بلاد الغرب والمسلمين أيضاً.

ونظراً للنجاح الكبير الذى حققه البرنامج فقد تحولت حلقاته إلى مرجع مهم لكثير من الجاليات الإسلامية فى دول الغرب.. وقد شاهدت ذلك بنفسى.. وأدهشنى أن مسلمى فنلندا والنمسا- على سبيل المثال- يحتفظون بشرائط حلقات البرنامج، وهى جزء أساسى فى المكتبة داخل المركز الإسلامى أو المسجد ولمست إعزاز وإعجاب المسلمين من أصول غربية بهذه الحلقات ويعتبرونها مرجعاً ومرشداً فى كثير من المعضلات الفقهية التى تواجههم فى الحياة.

ولعل السبب الأكبر فى ذلك أن البرنامج يذاع على الهواء ويتلقى أسئلة كثيرة من كل البلدان.. حتى أن بعض الحلقات يكون السائلون فيها من الدول الغربية وأمريكا.

الأهم من هذا كله أن الشيخ القرضاوى قدم لنا دراسة علمية جديرة بالاهتمام عن تجربته فى عالم الفتوى سواء على الهواء أو فى الاستديوهات أو حتى فى التليفون فى المركز الإسلامى.. أو مركز السيرة والسنة إذ توقف محللاً آلاف بل ملايين الرسائل التى كانت تصله إلى برامجه وكذا أسئلة المستمعين والمشاهدين.. وأبدى العديد من الملاحظات العلمية والأخلاقية فيما يتعلق بالمفتى والمستفتى وحتى بالوسيلة نفسها يقول:

وقد تبين لى جملة ملاحظات من خلال ممارستى للفتوى فى الإذاعة والتليفزيون سنين عديدة، تلقيت فيها ألوفاً مؤلفة من الرسائل، من بلاد شتى، ومن أصناف شتى، شباب وشيوخ، ورجال ونساء، وخاصة وعامة.

أولى هذه الملاحظات: أن الدين فى مجتمعاتنا لايزال له دور الصدارة فى التوجيه والتأثير، وأن كلمته لا تعدلها كلمة فى قوتها، وأنه ليس شيئاً ثانوياً أو على هامش حياة الناس. بل هو المحور الأساسى، والمقوم الأول لحياتهم.

يدل لذلك هذا السيل المتدفق من الرسائل التى تستفسر عن أمور شتى فى كل جوانب الحياة.

يسألون عن العقائد والغيبيات، عن العبادات والقربات، عن المعاملات والعلاقات، عن الأمور الشخصية، والشئون الأسرية، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية.

أسئلة شتى من هنا وهناك، يريد أصحابها أن يطمئنوا على سلوكهم، ويجتنبوا سخط ربهم.

ولو كان الدين دبر آذانهم، أو بعيداً عن اهتماماتهم، ما بلغت الرسائل هذا الحد من الكثرة والتنوع. فضلاً على الاتصالات الهاتفية، والمقابلات الشخصية.

وهذا يضع أيدينا على جملة حقائق:

الأولى: أن العلمانيين الذين يريدون أن يفرغوا مجتمعاتنا من الدين، أو يحكموا الأمة بغير شريعة الله ـ من الحكام وأعوانهم، ورجال الأحزاب اللادينية ـ إنما يثنون عنان شعوبهم قسراً، ويحكمونها كرهاً ويقودونها رغم أنوفها إلى ما لا تريد ولا تحب.

وهذا ليس فى صالح هذه الشعوب التى تشعر بالتناقض بين عقيدتها، ونظامها، وبين ضميرها وواقعها.

الثانية: أن الدعاة إلى تطبيق الإسلام، عقيدة وشريعة، وعبادة وقيادة، وبعث أمة لتقوم بدورها التاريخى فى هداية البشرية، لا ينبغى لهم أن يجزعوا من يومهم، أو ييأسوا من غدهم، ويفقدوا الأمل فى شعوبهم فإن «أرضية» هذه الشعوب هى الإسلام، و«خامة» أفرادها هى الإيمان. ومهما

تراكم على هذه الخامة الأصيلة من صدأ الغفلة، أو غبار التقليد، فنحن نستطيع بحكها وصقلها أن نجلوها، ونردها إلى أصالتها صافية مشرقة.

ولاشك أن ذلك يحتاج إلى جهد وجهاد.

الثالثة: إن الاتجاه المتطرف، الذى تبناه نفر من غلاة المتدينين المتحمسين - وجمهرتهم من الشباب المخلص حقاً - وأعنى به الاتجاه إلى تكفير جماهير الناس، واعتبارهم مارقين من الدين، مرتدين عنه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً - هذا الاتجاه خاطئ جزماً، لأن هذه الجماهير مازالت مؤمنة بربها وقرآنها ورسولها، ومازالت تسأل عن أمور دينها، محاولة أن تستغنى بالحلال عن الحرام، وبالطاعة عن المعصية.

وما شاب عقيدتها ومفاهيمها وسلوكها من شوائب - نتيجة الجهل والتجهيل والغزو الثقافى - لا يخرجها من الملة، ولا يبعدها عن أهل القبلة.

لا ريب أن فيها العاصى الظالم لنفسه. ولكن فيها المقتصد والسابق بالخيرات بإذن الله.

والملاحظة الثانية: أن المرأة - فى الجملة - أكثر اهتماماً بدينها من الرجل. ويبدو أن ما حباها الله وخصها به من مشاعر الحنان والرحمة والرقة، جعلها أقرب إلى الفطرة الدينية من الرجل.

ولا عجب إن كانت رسائل السيدات والفتيات أكثر وأغزر من رسائل الرجال والفتيان، وحرصهن على التدين أكبر، وخوفهن من سوء الحساب أقوى.

وهذا ما يجعلنا نؤمن بأن الغزو الحضارى الغربى، الفكرى والاجتماعى، الذى استطاع أن يهزم المرأة المسلمة فى عقر دارها، ويجعلها تتحلل من لباسها الشرعى، وتقاليدها الموروثة، لم ينتصر نصراً نهائياً، ولم يفقد المرأة المسلمة عاطفتها الدينية، ولا عقيدتها الإسلامية.

ومازال فى مقدرة الإسلام أن يكسب المعركة فى النهاية، ببعض الجهد والتخطيط والتعاون من دعاته والغيورين عليه.

ومازلنا نرى كثيراً من المتبرجات يعدن باختيارهن إلى حظيرة الاحتشام والالتزام بآداب الإسلام، برغم الجهود الجبارة المبذولة من كل القوى المعادية للإسلام فى الداخل والخارج. حتى طالبات الجامعات - فى بلاد القاهرة

والإسكندرية ودمشق وحلب - ترى منهن العشرات والمئات، قد رجعن إلى دينهن، وتمردن على الأفكار والتقاليد الداخلية.

وأصبح لبس الخمار، والثياب السابغة، أمراً مألوفاً مأنوساً، فى قاعات الكليات الجامعية وساحاتها، بعد أن مرت أيام كان فيها مثل هذا المنظر هو الشذوذ كل الشذوذ.

وليس هذا بغريب، فكثير من السيدات والآنسات - اللائى يلبسن الملابس الغربية العصرية بما فيها من خروج على آداب الشرع - جد حريصات على الصلاة والصيام، والحج والعمرة، والقيام بسائر أركان الإسلام.

ومعنى هذا، أن بذور الدين فى صدورهن لم تمت، وأن شيئاً من التعهد والرعاية لها، خليق بأن يجعلها تنبت وتترعرع، ثم تزهر وتثمر، وتؤتى أكلها عن قريب بإذن ربها. وتتحرر من «الفصام» المشئوم فى حياتها.

والملاحظة الأخيرة: أن المفتى - أو العالم الدينى - فى استطاعته أن ينجح نجاحاً بالغاً، إذا أحسن فهم الإسلام، وأحسن عرضه وإفهامه للجمهور، وعامل الناس بروح الأبوة والأخوة والمحبة، لا بروح الاستعلاء والاتهام.

يجب أن يشعر الجمهور تجاه العالم أنه أب لصغيرهم، وأخ لكبيرهم، وصديق لجميعهم، وأنه ليس «شرطياً» يريد أن يضبطهم متلبسين، ولا «ممثل اتهام» يطلب لهم أقصى العقوبة. بل هو محام يدافع عنهم، وإن كان فى بعض الأحيان قاضياً يحكم بالعدل لهم أو عليهم.

يجب أن يكون الفقيه المفتى مع سائليه كالطبيب النفسى مع مرضاه. لابد أن يثقوا به، ويستريحوا إليه، ويفضوا إليه بذات أنفسهم، ومكنون ما فى صدورهم.

وأحمد الله أن كانت هذه الروح هى جوهر الصلة بينى وبين جمهورى من المستمعين والمشاهدين.

لقد فتحت لهم قلبى وأذنى، ومكتبى وبيتى. أصغى إليهم، وأستمع إلى مشكلاتهم وآهاتهم لمدد قد تطول، برغم أن واجباتى أكثر من أوقاتى.

ولكننى كنت أشعر أن بعض الناس يريد أن يتحدث وينفس عما فى صدره، فيستريح من عبء ثقيل يحمله وحده، فأدع له الفرصة ليريح نفسه، وإن كان

ذلك يزيد من همومى وآلامى، كلما تعرفت على آلام الناس وما أكثرها.

ولقد كاشفنى الكثيرون والكثيرات فى رسائلهم إلى أو فى اتصالاتهم الهاتفية بى، أو فى زياراتهم لى، بأخص أسرارهم الشخصية والعائلية، ائتمنونى على أغلى ما يحتفظون به لأنفسهم.

وهذه ثقة لا تقدر بثمن، ونعمة لا تقابل إلا بالشكر.

كما أن هذا أطلعنى على كثير من المآسى التى لا تتحدث بها الألسن، وكثير من المفاسد التى لا تراها الأعين، وإن كانت تنخر فى عظام المجتمع، وكيانه المعنوى.

وكانت كلمة الدين هى البلسم الشافى، أو على الأقل المرهم الملطف لجراح الكثيرين من هؤلاء.

أدب المستفتى

ومن القضايا المهمة التى نبه إليها القرضاوى بوضوح فى فوضى الفتاوى أدب المستفتى نفسه فإذا كان على المفتى واجبات يجب أن يقوم بها، وآداب يحسن أن يراعيها، فإن على المستفتى مثل ذلك أيضاً.

وأول ما يجب عليه أن يحسن السؤال، فحسن السؤال نصف العلم، كما هو مأثور، وتطبيقاً لهذا المعنى يجب أن يكون سؤاله عما ينفع، أى يسأل فى واقعة يعانيها هو أو غيره ويريد الحكم فيها، ولا يسأل فيما هو مفترض بعيد الوقوع. فهذا من: «أغاليط المسائل» التى جاء الحديث بالنهى عنها «رواه أبو داود».

وقد سأل بعض الصحابة النبى صلى الله عليه وسلم أسئلة لا ثمرة لها، فغضب لذلك غضباً شديداً، كسؤال عبدالله بن حذافة له: من أبى؟ لأن مثل هذا السؤال لا نفع له قط، لأنه إن كان له أب غير الذى ينسب إليه بين الناس، لم يكسب من ذلك إلا أن يفضح أمه، ويزرى نفسه.

وقد عاقب عمر رجلاً جعل كل همه أن يسأل عن المتشابهات، التى لا يتعلق بها حكم عملى، وقد يثير الجرى وراءها مراء وجدلاً لا طائل تحته، إلا إضاعة الأوقات، وبلبلة الأفكار، وإيغار الصدور.

ولما سئل الإمام مالك عن معنى «الاستواء» فى قوله تعالى «استوى على

العرش» غضب وقال للسائل: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة!

وقد روى فى التفسير أن بعض المسلمين سألوا النبى صلى الله عليه وسلم: ما بال الهلال يبدو رقيقاً كالخيط، ثم لايزال ينمو حتى يصير بدراً، ثم ينقص حتى يصير كما كان، فأنزل الله قوله: «يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج» فعدل عن الجواب عن عين سؤالهم إلى الجواب عن منافع الأهلة فى الدين والحياة، فهذا ما يقدرون على فهمه فى ذلك الوقت، وهو كذلك أجدى عليهم وأنفع لهم.

وسائر الأسئلة التى سجلها القرآن للمسلمين فى عصر النبوة كانت أسئلة واقعية تتصل بصميم حياتهم، لا بأخيلة وافتراضات وأغلوطات يدفع إليها حب التسلية وتزجية الفراغ، أو التعالم الأجوف، أو التعنت وتعجيز الغير، أو نحو ذلك من البواعث الرخيصة التى لا وزن لها فى دين ولا أخلاق.

ومن أسئلتهم التى خلدها القرآن «يسألونك عن الخمر والميسر» «يسألونك ماذا ينفقون» «يسألونك عن اليتامى» «يسألونك عن المحيض» «يسألونك ماذا أحل لهم» إلخ.

وقد ظل المسلمون فى عصور ازدهارهم يسألون عما يفيدهم فى دينهم ومعاشهم، ومعادهم، وإذا جمح بأحدهم جواد خياله رده علماؤهم إلى جادة الصواب، وأفهموه أن الإسلام يريد المسلم إيجابياً منتجاً، يعرض عن اللغو، ويشغل نفسه ووقته بالنافع من القول والعمل والفكر.

ولما تخلف المسلمون ـ حضارياً وفكرياً ـ أكثروا من الأسئلة التى لا يصلح بها دين، ولا ترتقى بها دنيا، ولا يزكو عليها فرد، ولا تنهض بها جماعة، وشغل عوام المسلمين بمسائل وتفصيلات لم تخطر ببال أحد من سلف الأمة.

وكان للمتأخرين من علمائهم المقلدين دور كبير فى إذكاء هذه الروح ودعم هذا الاتجاه لأنهم ضيعوا اللباب وشغلوا بالقشور وشغلوا الناس معهم بها حتى أن تدريس الوضوء والطهارة ليستغرق دروس شهر كامل كشهر رمضان.

ولقد بقى من رواسب عصور الانحطاط بقية من الناس رأيت من أسئلتهم العجب العجاب وقرأت فى رسائلهم إلىَّ ما يثير الدهشة ويستفرغ الضحك وشر البلايا ما يضحك كما قيل.

ما لون كلب أهل الكهف؟ وهل كان ذكراً أم أنثى وأين كانوا ومتى كانوا؟ مع ان الله تعالى لم ينص على شىء من ذلك ولو علم فيه خيراً لنا لذكره بل رأينا القرآن يذكر لنا اختلاف أهل الكتاب فى عددهم ما بين ثلاثة وخمسة وسبعة ثم يعقب على ذلك فيخاطب الرسول بقوله: «قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً».

فلم يصرح الله تعالى بعددهم وهو أعلم به ونهى الرسول أن يتعمق فى الجدال معهم تعليماً للأمة ألايشغلوا أنفسهم بمثل هذا الخلاف والجدال.

ومن هذا اللون من الأسئلة ما يثير بعض المتفقهين حول الأمور الغيبية: بأى لغة يتكلم الناس فى القبر؟ بالسريانية؟ أم بالعربية؟ أم بغير هذه وتلك؟

ولقد كان الفقيه التابعى الجليل الإمام عامر الشعبى يستخدم النكتة اللاذعة فى الرد على هذا اللون من الأسئلة الغريبة سأله أحدهم يوماً عن زوجة إبليس!! فقال: ذلك عرس لم أشهده!

وسائل آخر: كيف يخلل لحيته فى الوضوء وهى كثيفة؟ فقال له: انقعها من الليل!

وقد اتبعت هذه الطريقة نفسها فى بعض الأحيان مع بعض الناس.

قال لى بعضهم يوماً وأنا ألقى درساً فى المسجد وهو يتفاصح ويتعالم يا سيدنا الشيخ ما اسم أخت سيدنا موسى التى ذكرها الله فى القرآن؟

فقلت له: مالك ومالها؟ أتريد أن تخطبها؟!! هب ان اسمها مريم أو زليخا أو مارية هل يفيدك هذا شيئاً؟ إن الله لم يذكر لنا اسمها حين قص علينا أمرها ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يبين لنا: ما اسمها، فلماذا نجهد أنفسنا ونعنيها فيما أراحنا الله منه لا نفع لنا فيه؟!

وسامح الله بعض المفسرين الذين يزيدون ويعيدون فى تعيين هذه المبهمات وذكر الأقوال المروية فيها على اختلافها وكلها إسرائيليات لا قيمة لها فى ميزان العلم الحق ولا ثمرة لها فى دين الله ولا دنيا الناس.

دروس الحلال والحرام

لا يمكن الحديث عن جانب الفتوى عند القرضاوى دون التوقف مليا أمام كتابه الاشهر «الحلال والحرام» الذى فتح الباب واسعا أمام الشيخ فى عالم الفقه والفتيا.. ليس فى مصر وحدها بل فى العالم الإسلامى أجمع.

ولكتاب الحلال والحرام قصة عظيمة جديرة بأن تروى.. وسأعرض تفاصيلها كاملة كما خطها الشيخ بقلمه.. ليس لأنها تستحق أن تعرف أو يتوقف أمامها والجهد العلمى المبذول.. والثناء العاطر من كل الجهات فى الداخل والخارج للكتاب ومنهجه وموضوعاته.. ولكن لسبب آخر.. افتقدناه كثيرا على الساحة الاسلامية الآن.. مع خطورة وعظم الأحداث التى يتعرض لها المسلمون فى كل مكان فى ديار الإسلام أو خارجها.

أهم ما يلفت النظر ويستوقف كل صاحب فكر أن كتاب الحلال والحرام نبعت فكرته وتحدد إطاره من وزارة الخارجية وكان استجابة لمخاطبات ومكاتبات السفارات المصرية فى أمريكا وأوروبا.. بناء على حاجات فعلية للمسلمين فى هذه البلدان.

ولم يكن الأمر كلاماً عاماً مبهماً.. أو مجرد تقارير والسلام.. ولكن تم تحديد الموضوعات المطلوبة والقضايا الملحة المطلوب بيان الحكم الشرعى فيها والموقف الإسلامى الواضح منها.. وكان عددها ثلاثين موضوعا فى

جوانب شتى.. فى العبادات والمعاملات والآداب والأخلاق وغيرها مما يحل للمسلم ويحرم عليه:

● أسرعت الخارجية بتنفيذ المهمة وأرسلت مذكرة بالموضوعات المطلوبة إلى جهة الاختصاص فى الأزهر والأوقاف.

● لم تتوان الجهات المختصة فى الاستجابة وعلى الفور عقدت اللجان وتم ترشيح عدد من العلماء الثقات من هيئة كبار العلماء وغيرهم لبحث الأمر وإعداده على أفضل ما يكون.

● إن التعاون الجاد بين الوزارات المختلفة.. لابد وأن تكون ثماره إيجابية وفعالة.. خاصة إذا كان الهدف هو خدمة دين الله والدفاع عنه.

ولاتزال القيمة العلمية للكتاب قائمة حتى اليوم.. وقد طبعت منه طبعات تجاوزت الثلاثين طبعة إلى جانب الطبعات التى تعهد وتكفل بها بعض الأثرياء لتوزيعه بالمجان فى بلادهم حتى تعم الفائدة منه.. وكذلك تم ترجمته إلى عشرات اللغات فى أوروبا وأفريقيا وآسيا.. هذا إلى جانب اللغات المشهورة كالإنجليزية والفرنسية.

وهو ما يؤكد أن المسلمين فى كل مكان من العالم استقبلوا الكتاب بما يستحقه من التقدير.

● أضف إلى هذا أن الكتاب كشف مبكراً عن موهبة ومقدرة علمية فذة لم تأخذ حظها - فى ذلك الوقت - من الشهرة والذيوع.. ففتح الله به وله الأبواب.

قصة تأليف كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» كما يحكيها د. القرضاوى

أعتبر نفسى بدأت الكتابة والتأليف متأخراً نسبيا، ذلك أنى كنت مشغولا بالدعوة الشفهية، وبالخطاب الارتجالى، طوال المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية بالأزهر. فكنت أخطب وأدرس وأحاضر ارتجالا، إلا ما قد أعده من محاور ونقاط رئيسية فى مذكرات خاصة.

ولم ينبهنى أحد - ممن هم أكبر منى - أن لدىَّ ما يمكن أن يكتب ويحرر، وأن من المهم للداعية أن يستخدم القلم، كما يستخدم اللسان، وقد قال العرب قديما: القلم أحد اللسانين. وأقسم الله تعالى فى كتابه الكريم بالقلم ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وكان من دلائل ربوبيته تعالى أنه ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق:٤)

ولعل هذا كان مما اختاره الله لى: ألا أبدأ الكتابة إلا بعد النضج سناً وتحصيلاً. والخير فيما اختاره الله جل ثناؤه.

ولقد كتبت بعض رسائل صغيرة أشرت إليها من قبل، مثل رسالة «قطوف دانية من الكتاب والسنة»، ومثل «رسالتك أيها المسلم» التى صودرت فى المباحث العامة، ولم ترجع إلىّ، ومثل «رسالتكم يا شباب الأزهر» التى نشرتها بعد بعنوان «رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد».

ولكن الكتاب الذى أعتبره بداية حقيقية للتأليف، والذى دخلت به سوق الكتاب والمؤلفين، هو كتاب «الحلال والحرام فى الإسلام».

ولهذا الكتاب قصة يحسن بى أن أحكيها لقرائى هنا، لما فيها من فائدة وعبرة إن شاء الله.

لم يكن يخطر فى بالى فى سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩م أن أكتب فى أمر الحلال والحرام، بل كانت الكتابة فى الفقه لا تحتل منزلة أولية عندى، وإن كنت قد بدأت شيئاً من ذلك فيما كتبته فى مجلة «منبر الإسلام» من فتاوى وأحكام تحت عنوان «يستفتونك» باسم يوسف عبدالله، دون التوقيع باسمى الكامل «القرضاوى» لما يثير من حساسيات لدى جهات الأمن التى تقف بالمرصاد لأى نشاط لى ولأمثالى يتعلق بالجماهير.

وكانت كتابة هذا الباب بتوجيه من أستاذنا «البهى الخولى» مراقب الشئون الدينية فى وزارة الاوقاف فى ذلك العهد، الذى لاحظ عقليتى الفقهية من مناقشاتى معه فى الدروس واللقاءات الخاصة.

ومع هذا لم أكن أنوى أن تكون بداية تأليفى فى «الفقه». ولكن هكذا قدر الله أن يكون أول كتاب حقيقى أدخل به ميدان التأليف العلمى هو «الحلال والحرام فى الإسلام» وهو كتاب فقهى، فكيف تم ذلك؟

إن لتأليف هذا الكتاب قصة طريفة جديرة أن تحكى، فقد وردت إلى وزارة الخارجية المصرية من بعض سفاراتها فى أوروبا وأمريكا، أن المسلمين فى تلك البلاد يحتاجون إلى كتب علمية ميسرة معاصرة فى ثلاثين موضوعا من الموضوعات حددوها، بعضها فى العبادات، وبعضها فى المعاملات، وبعضها فى الآداب والأخلاق، وكان من هذه الموضوعات الثلاثين، موضوع تحت عنوان «ما يحل للمسلم وما يحرم عليه».

وقد كتبت الخارجية المصرية مذكرة بالموضوعات المطلوبة إلى كل من مشيخة الأزهر فى عهد إمامه الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، الذى أحال الموضوع برمته إلى الأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر فى ذلك الوقت.. وإلى وزارة الأوقاف المصرية باعتبارها المؤسسة الدينية الثانية فى مصر، فى عهد وزيرها الشيخ أحمد الباقورى.

وكلفت الجهتان كلتاهما - إدارة الثقافة بالأزهر، ووزارة الأوقاف - عددا من العلماء بالكتابة فى تلك الموضوعات.

وكان الموضوع الذى كلفنى به أستاذنا الدكتور محمد البهى رحمه الله هو: «ما يحل للمسلم وما يحرم عليه» وهو موضوع لم يخطر ببالى أن أكتب فيه من قبل. ولاسيما أن مفرداته مبعثرة فى أبواب الفقه الإسلامى، ومن الصعب نظمها فى عقد واحد، إلا على من شرح الله له صدره، ويسر له أمره، ولهذا دعوت بما دعا به سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٥، ٢٦).

وكان أصعب شىء علىّ هو نقطة البداية: من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ وفى ليلة من الليالى - وأنا مشغول بالموضوع - وفقت إلى تقسيم الموضوع، بما يشبه الإلهام، فقد انقدح فى ذهنى: أن أبدأ الباب الأول من الكتاب بمبادىء عامة فى شأن الحلال والحرام، والباب الثانى يتناول الحلال والحرام فى الحياة الشخصية للمسلم بما يشمل المأكل والمشرب والملبس والزينة، والمسكن والكسب، والباب الثالث يتناول: الحلال والحرام فى الحياة الأسرية، من الزواج وما يتعلق به، وعلاقة الآباء والأمهات بالأولاد، والعلاقة بذوى الأرحام، وما يتعلق بذلك من أمور التبنى والتلقيح الصناعى وغيرها، والباب الرابع يتناول: الحلال والحرام فى الحياة الاجتماعية والعامة للمسلم، بما يشمل المعتقدات والتقاليد والمعاملات، واللهو والترفيه، وعلاقة المسلم بغير المسلم، وما إلى ذلك.

وحينما هديت إلى هذا التقسيم، اعتبرتنى قد وفقت إلى تأليف الكتاب، فما علىّ إلا أن أبحث فى هذه المفردات فى مظانها من كتب الفقه - وخصوصا الفقه العام - والحديث والتفسير، ونحوها، وهو ما هديت اليه بالفعل، وجمعت مادة الكتاب من مظانها، وكتبت له مقدمة بينت فيها منهجى الذى اخترته ورجحته، وهو منهج يقوم على التوسط والاعتدال بين الغلاة والمقصرين، أو بين المتشددين والمتسيبين.

ومما أذكره هنا فى هذه المناسبة: أنى كنت أتردد كثيرا على مكتبة الأزهر، التى هى أحد مبانى الجامع الأزهر القديم، وكانت قريبة من مقر عملى فى

«المكتب الفنى لإدارة الدعوة والإرشاد». وكانت مكتبتى الخاصة محدودة فى ذلك الوقت، كان فيها (نيل الأوطار) للشوكانى، و(سبل السلام) للصنعانى، و(المحلى) لابن حزم وغيرها، لكن كان ينقصها مصادر أصيلة لم أستطع شراءها، ودخلى محدود فى ذلك الحين، فكان لابد من الاستعانة بالمكتبات العامة، وأقربها إلىّ مكتبة الأزهر.

كان مدير المكتبة فضيلة الشيخ أبوالوفا المراغى، شقيق الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر وأحد أفذاذ العلماء فى زمنه، وكان الشيخ أبوالوفا رجلا عالما باحثا، وكنت على مودة وصلة طيبة به، فلما رآنى أتردد كثيرا على المكتبة، وأجمع أمامى عددا من المراجع كل يوم سألنى: فيم تبحث هذه الأيام يا قرضاوى؟ قلت: أبحث فى موضوع كلفت به من مشيخة الأزهر، قال: وما هو؟ قلت: ما يحل للمسلم وما يحرم عليه، قال: وقعت فى مطب يا قرضاوى، ودخلت امتحانا عسيرا دون أن تعرف!

قلت: أى امتحان؟

قال: هذا الموضوع نفسه كلفت بالكتابة فيه من قبل وزارة الأوقاف الشيخ فلان عضو هيئة كبار العلماء. فماذا تفعل فى هذا الرهان؟

قلت له: يا فضيلة الشيخ. ما يدريك لعل الله سبحانه يضع سره فى أضعف خلقه! لقد شرعت فى الموضوع ولن أتراجع عنه، وما توفيقى إلا بالله.

ومرت الأيام، وقد فرغت من الموضوع فى نحو أربعة أشهر على ما أذكر، وقدمته بخط يدى فى كشكول أو كراسة للأستاذ الدكتور محمد البهى، فما كان فى قدرتى المالية أن أعطيه لمن يكتبه على الماكينة.

ولما كنت أمسك قلبى بيدى خوفا على هذه النسخة المبيضة الوحيدة أن تضيع منى، كما ضاعت رسائل لى أخرى من قبل، ولم يكن التصوير معروفا فى ذلك الوقت، فقد احتفظت بمسودتها عندى، لأستفيد منها عند اللزوم.

وأرسل الدكتور البهى مشروع الكتاب إلى الأستاذ الجليل محمد المبارك عميد كلية الشريعة فى الجامعة السورية بدمشق، وأحد القلائل الذين يجمعون بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية العصرية، ويدركون ما

يحتاج إليه المجتمع الغربى المعاصر ويلائمه من ثقافتنا الإسلامية، وهذا سر اختياره لمراجعة الكتاب.

كما أرسل بعض الكتب الأخرى إلى مراجعين آخرين منهم الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، وقد رد الأستاذ الزرقا الكتاب الذى أرسل إليه بأنه دوى المستوى المطلوب. قلت: ربنا يستر ولا يرد كتابى.

وبعد مدة لم تطل أرسل الأستاذ المبارك إلى إدارة الثقافة، يثنى على الكتاب، وينوه بحسن أسلوبه وطريقة معالجته، وتوخيه للاعتدال فيما يختار من آراء، وقد تضمن تقريره بعض أسئلة واستفسارات أجبت سيادته عنها، وبعض مقترحات استجبت لبعضها، ولم أستجب للأخرى، مبينا وجهة نظرى فى ذلك، وقد قبلها الأستاذ المبارك رحمه الله.

ومن اللطائف : أنى حين لقيت الأستاذ المبارك بعد ذلك فى إحدى زياراته للقاهرة فى أيام الوحدة مع سورية، أخبرنى بقصته مع كتابى، قال لى: كنت أقرأ مسودة الكتاب، فيعجبنى تناوله للموضوع، وبيان الحكم والحكمة، وربطه بتعاليم الإسلام العامة، فأقول فى نفسى: هذا الشخص واع فاهم لما يكتب، ولكن الغريب أنه غير معروف، وكان شقيقى مازن المبارك يحضر الدكتوراه فى جامعة القاهرة، فعاد يوماً إلى دمشق، فسألته: هل تعرف شخصا اسمه يوسف القرضاوى؟

قال: كيف لا أعرفه، وكم صليت وراءه الجمعة فى جامع الزمالك بالقاهرة؟ وهو كذا وكذا وكذا؟ وظل يعدد لى من مناقب القرضاوى ما لم أكن أعلمه.

قلت له: الآن زدتنى اطمئناناً إلى هذا الشخص الذى قرأت له ما عرفت به أنى قد تعرفت على عالم جديد له مستقبله إن شاء الله.

تسلمت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية الكتاب، واختار الأستاذ الدكتور محمد البهى أحد المترجمين المعروفين ليبدأ فى ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، وكلما ترجم فصلا أرسله إلى الإدارة ليراجع، ثم يشرع فى الفصل الثانى وهكذا.

وبعد مدة أعاد المترجم الفصل الذى ترجمه، ولم تقبل إدارة الثقافة هذه الترجمة، ورأت أن المترجم غير مؤهل لترجمة هذا النوع من الكتب، فسحبت مسودة الكتاب منه، بحثاً عن مترجم غيره.

ولما رأيت أن هذا الأمر قد يطول، خطرت لدى فكرة نشر الكتاب بالعربية، عسى أن ينتفع به قراؤها، وبالفعل بيضت المسودة التى عندى، وأعددتها للنشر، وسلمتها إلى دار عيسى الحلبى للطباعة والنشر، لتنشره ضمن كتبها، فسلمت الإدارة الكتاب للجنة المكلفة بمراجعة الكتب، وكانت برئاسة الشيخ طاهر الزاوى العالم اللغوى الشرعى الليبى، الذى كان يعيش فى مصر، وقد عين مفتياً للجمهورية الليبية بعد ذلك، وكان من المصححين معه الأخ الباحث الأزهرى مصطفى عبدالواحد (د.مصطفى بعد) فأثنى على الكتاب خيراً، وأوصت اللجنة بطباعته.

وصدر الكتاب بعد نحو ثلاثة أشهر فى طبعته الأولى، وتسلمت ـ لأول مرة ـ حقوق تأليفه (٦٠) ستين جنيهاً مصرياً، كانت بالنسبة لى ثروة لها قيمتها.

وبدأت أوزع بعض النسخ من الكتاب هدايا إلى العلماء الذين أعرفهم ويعرفوننى، وأول نسخة أهديتها إلى شيخنا الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، الذى تصفح الكتاب طويلاً، ومدحه بكلمات شجعتنى، وسررت بها.

والنسخة الثانية ذهبت بها إلى الشيخ أبو الوفا المراغى مدير مكتبة الأزهر الذى كان قد قال لى: إنك دخلت امتحاناً عسيراً دون أن تدرى. وقلت له: هذا هو الكتاب الذى حدثتك عنه من قبل، فأخذه وقرأ فهرسه، وتصفح مقدمته، ونظر فيه طويلاً، ثم قال: لقد نجحت ياقرضاوى فى الامتحان، ما أظن صاحبنا الذى حدثتك عنه، سيوفق إلى مثل ما وفقت إليه، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

والنسخة الثالثة، ذهبت بها إلى أستاذى الذى أحبه وأقدره: الشيخ الدكتور محمد يوسف موسى، أستاذ الفلسفة من قبل، وأستاذ الشريعة اليوم، الذى كان لا يمكن لأحد زيارته إلا بموعد سابق، ولكنه كان يستثينى من هذه القاعدة، ويعزنى كثيراً، وسلمت إليه نسخة من الكتاب، وسألنى عن سبب تأليف هذا الكتاب، فأخبرته بقصة تكليفى به من الأزهر، فقال: عجيب، هذا الموضوع كلف به زميلنا الشيخ فلان عضو جماعة كبار العلماء، وقد كان محتارا: ماذا يكتب فى هذا الموضوع المبعثر المشتت؟ واقترحت عليه بعض الأشياء، ولكن ما أحسبه يهتدى إلى ما هداك الله إليه، بورك فيك يايوسف.

وقد علمت أن الشيخ الكبير كان قد أرسل مشروع كتابه إلى الأوقاف قبل

أن يظهر كتابى، فلما ظهر الكتاب سحبه من الوزارة، ولم أر له أثراً ولم أسمع له خبراً بعد ذلك. ولله الفضل والمنة.

والنسخة الرابعة: سلمتها لفضيلة الشيخ أحمد على الأستاذ بكلية أصول الدين، والذى اختارته الكلية مشرفاً على رسالتى للأستاذية (الدكتوراه).

تصفح الشيخ - رحمه الله - الكتاب، وأطال التصفح فيه، ثم قال لى: لماذا بادرت بطبع هذا الكتاب ونشره؟

قلت له: حفظك الله، وما المانع فى ذلك؟

قال : كان يمكنك أن تقدم هذا الكتاب باعتباره أطروحة أو رسالة للدكتوراه، وهو جدير بذلك، كل ما فى الأمر بعض الجوانب الشكلية، كأن تهتم بذكر المراجع وتوثيقها، وهذا أمر سهل عليك.

قلت له: يافضيلة الشيخ، أنا أريد أن أقدم للدكتوراه رسالة فى موضوع أتعب فيه، ويكون من خصائصه كذا وكذا.

قال لى: ياعبيط، المهم أولاً أن تأخذ (رخصة) حتى يسموك (الدكتور) يوسف القرضاوى، ثم ألف بعد ذلك ما تشاء.

ولقد تبين لى بعد ذلك صدق نصيحة الشيخ أحمد على رحمه الله، حين رفض مشايخ بكلية أصول الدين كتابى الذى أعددته عن (الزكاة) لتكون رسالتى للدكتوراه، فقالوا: إن هذا فقه، وليس بتفسير ولا حديث، ولا يدخل فى علوم القرآن ولا السنة.

قلت لهم: إنه يدخل فى فقه القرآن، وفقه الحديث.

قالوا: هذا أقرب إلى كلية الشريعة منه إلى كلية أصول الدين، وكتب أحد المشايخ رحمه الله إلى الشيخ الدكتور عبدالحليم محمود عميد كلية أصول الدين يعتذر إليه من عدم الإشراف على رسالتى عن (الزكاة) لأن بها (آراء دينية خطيرة لا يستطيع أن يتحمل مسئوليتها).

وأخيراً قبل أحدهم أن يشرف على الرسالة بعد أن الزمنى بحذف عدد من فصولها، وإخراجها من صلب الرسالة.

والنسخة الخامسة أهديتها لشيخنا البهى الخولى، الذى سر بظهور الكتاب سروراً بليغاً، وقال: لن أحكم له أو عليه حتى أقرأه، أو أقرأ ما يكفى منه

للحكم عليه. فلما قابلته بعد ذلك قال: هذا الكتاب صدق نبوءتى. قلت له: وما نبوءتك حفظك الله؟

قال: اختلفت أنا والشيخ الغزالى بعد نشر قصيدتك (السعادة) فى مجلة (منبر الإسلام)، وكان من رأى الشيخ الغزالى ومعه بعض الحاضرين، أنك لديك قابلية أن تكون شاعراً عظيماً إذا تفرغت للشعر وأديت له حقه، وكان من رأيى أن يتفرغ القرضاوى للعلم أولى من تفرغه للشعر، وهب أنه بلغ مرتبة شوقى فى الشعر، فالذى آمله إذا تفرغ للعلم أن يكون - إن شاء الله - فقيه العصر، وأحسب أن هذا الوليد الجديد (الحلال والحرام) يحمل البشارة بتصديق نبوءتى، وأدعو الله أن يحقق أملنا فيك، وألا يقطعك عن الطريق بأى آفة من الآفات.

والنسخة السادسة، كانت لشيخنا الشيخ محمد الغزالى مدير المساجد فى ذلك الوقت، وقد تصفحها بسرعة، وقال: هذا نهج جديد فى كتابة الفقه بروح الداعية.

والنسخة السابعة، أهديتها إلى مدير مجلة الأزهر والعالم والكاتب الأزهرى الأستاذ الشيخ عبدالرحيم فودة.

ومما أذكره هنا: أن الأستاذ الشيخ عبدالرحيم فودة لقينى مرة فى إدارة الأزهر بعد صدور كتاب (الحلال والحرام) وقال لى: أود أن أهنئك ياشيخ يوسف على أمرين:

الأول: على منهجك الرائع، وأسلوبك السلس، وترجيحاتك الموفقة فى كتابك (الحلال والحرام).

والثانى: مخالفتك بصراحة لرأي شيخك وشيخ الأزهر الشيخ شلتوت فى مسألة فوائد البنوك الربوية ونحوها.. وهذه شجاعة قلما تتوافر إلا لمثلك.

قلت له: منهج الشيخ شلتوت هو التحرر من الجمود والتقاليد، وأظنه لن يطالبنا بالتحرر من تقليد أبى حنيفة ومالك لتقليده هو.. إنى أعتقد أنى وإن خالفت الشيخ شلتوت فى بعض آرائه، فإنى على منهج شلتوت فى اتباع الدليل الراجح حيث لاح للباحث، والنظر إلى القول لا إلى قائله، فإن الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال.

وأرسلت أربع نسخ إلى سورية مع أحد الإخوة السوريين الذين يدرسون فى مصر، لكل من الدكتور مصطفى السباعى، والأستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبى، بالإضافة إلى الأستاذ محمد المبارك الذى نشرت خلاصة من تقريره فى آخر الكتاب.

وقد كان صداه طيبا عند الأساتذة الأربعة، حتى قال الشيخ الزرقا لتلاميذه: ان اقتناء هذا الكتاب فرض على كل أسرة مسلمة، والحق ان علماء الشام كانوا أكثر احتفاء بالكتاب من علماء مصر.

وكان من مظاهر ذلك: ان الشيخ ناصر الدين الألباني خرج أحاديثه، وهذا لا يحدث عادة الا للكتب التى لها قيمة علمية.

كما أن الأستاذ الكبير على الطنطاوى رحب به وزكاه، وقرر تدريسه فى مادة (الثقافة الاسلامية) التى كان يدرسها فى كليتى الشريعة والتربية بمكة المكرمة، على حين لم يأخذ الكتاب حقه من الاهتمام فى مصر، ولعل ذلك لأنى انقطعت عن مصر تسع سنوات لم يطبع فيها الكتاب داخل مصر.

وحين قدمت إلى قطر سنة ١٩٦١م وجدت الكتاب قد سبقنى إلى قطر، وأوصله بعض المصريين إلى العلامة الشيخ عبدالله بن زيد المحمود رئيس قضاة قطر، ففرح به وأثنى عليه، ومهد لى الطريق إلى لقائه، فالتقانى بحفاوة وتكريم بالغ.

ولهذا أراد بعض شيوخ آل ثانى فى قطر (الشيخ فهد بن على) ان يطبع الكتاب ليوزعه مجانا على أهل قطر، فطبعه المكتب الاسلامي فى بيروت لصاحبه الشيخ زهير الشاويش، الذى لم أكن عرفته بعد، وأرسل كمية منه إلى قطر، وعرض الأخرى للبيع، واستمر ينشره بعد ذلك إلى اليوم.

ومن الطريف هنا: أن أخانا الشيخ مصطفى جبر وهو أحد المصريين الذين وصلوا إلى قطر قديما مع الأستاذين كمال ناجى وعلى شحاتة قرأ الكتاب فأعجب به إعجابا شديدا، فاستأذننى أن يرسل مجموعة من النسخ مع أحد الإخوة المسافرين إلى باكستان فأرسل نسخته إلى العلامة أبى الأعلى المودودى وعليها إهداء منى، ونسخة إلى جامعة البنجاب بلاهور، وأخرى إلى جامعة كراتشي.

وقد أرسل إليّ الاستاذ المودودى يشكرنى على إهداء الكتاب له، ويقول فى رسالته: إنى أعتز بهذا الكتاب، وأعتبره إضافة جليلة إلى مكتبتى.

أما جامعة البنجاب فقد اهتمت بالكتاب اهتماماً لم أكن أتوقعه فقد تناولته إحدى طالبات الدراسات العليا فى دراستها للماجستير ليكون البحث المكمل للحصول على درجة الماجستير، واسمها جميلة شوكت- الأستاذة الدكتورة جميلة شوكت بعد ذلك - وقد أرسلت تطلب منى خلاصة عن سيرتي الذاتية وكانت رسالتها بإشراف العلامة الاستاذ الدكتور علاء الدين الصديقى رئيس قسم الدراسات الاسلامية، ومدير الجامعة بعد ذلك.

وكذلك حصل طالب آخر- لا أذكر اسمه- بجامعة كراتشى على الماجستير ببحث عن الكتاب، لقد اهتم أساتذة الجامعات فى باكستان بالكتاب، حيث اعتبروه نهجا جديدا فى كتابة الفقه الإسلامى بما يلائم روح العصر، وثقافة العصر، ولغة العصر، مع الحفاظ على الأصول، والاستمداد من التراث.

ومن الطرائف أنى حينما زرت باكستان، وزرت مدينة لاهور بصفة خاصة لأول مرة سنة ١٩٦٩م، وكنت فى أوائل الأربعينيات من عمرى، ولم يكن فى لحيتى ولا فى رأسى شعرة بيضاء، وقد لقينى بعض العلماء الباكستانيين واحتفوا بى احتفاء حارا، ومما أذكره فى تلك الزيارة ان أحدهم سألنى: أنت الشيخ يوسف القرضاى؟ قلت: نعم أنا هو! قال: أنت صاحب الحلال والحرام؟ قلت: نعم أنا هو، قال: الحمد لله، الحمد لله. قلت له: الحمد لله على كل حال، ولكن لماذا تحمد الله هنا خاصة؟ قال: كنت أظن أن مؤلف الحلال والحرام فى الستين أو السبعين من عمره، والحمد لله أراك فى شرخ الشباب، فحمدت الله أنك فى هذه السن، وعسى الله أن ينفع المسلمين بك فى مستقبل السنين. قلت: أدعو الله أن يجعلنى عند حسن ظن المسلمين بى، وأن يغفر لى ما لا يعلمون بفضله وعفوه، إنه عفو كريم.

وقد ترجم الكتاب إلى عدد لا يمكن حصره من اللغات الاسلامية والعالمية وأعتقد ان أول ترجمة له كانت إلى (التركية) حتى أننى حين زرت تركيا لأول مرة فى صيف سنة ١٩٦٧م، وجدت الكتاب طبع مرتين، طبعة (دار الهلال) التى يملكها الأستاذ صالح أوزجان عضو رابطة العالم الاسلامى.

ثم طبعة دار أخرى، وتنازعت هى ودار الهلال أنهما أحق بالكتاب من

الأخرى وترجم الكتاب إلى الأوردية فى باكستان وفى الهند. وترجم إلى عدد من لغات الهند، ومنها (الماليبارية) لغة إخواننا مسلمى ولاية كيرلا فى الهند. وترجم إلى الماليزية والاندونيسية ولما ذهبت فى أوائل الثمانينات إلى (كمبالا) عاصمة أوغندا فى اجتماع مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية، وصلينا الجمعة هناك، وقدمونى لألقى كلمة بعد الصلاة قال مقدمى: هذا يوسف القرضاوى صاحب كتاب (الحلال والحرام) الذى قرأتموه بلغتكم (السواحلية) ولم أكن أعلم ذلك.

ومنذ بضعة عشر عاما كنت أزور الجامعة الاسلامية العالمية فى إسلام أباد، فقال لى مدير الجامعة أخونا وصديقنا الدكتور حسين حامد حسان ونائبه أخى الدكتور العسال: إن لها مجموعة من الطلاب والطالبات من الصين يريدون أن يلتقوا بك لقاء خاصا بعد المحاضرة العامة فرحبت بذلك والتقيت بهم لقاء كان طيبا ونافعا، حول الاسلام فى الصين ورسالة المسلمين هناك ثم بعد اللقاء جاءنى كثير منهم يطلب منى توقيعا على كتاب، فسألتهم: ما هذا الكتاب؟ قالوا: هذا كتابك (الحلا والحرام) مترجما إلي اللغة الصينية.

كما ترجم الكتاب إلى عدد من اللغات الأوروبية مثل الانجليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية وغيرها، كما ترجم إلى البوسنية والالبانية.

ومنذ سنوات أصدر وزير الداخلية الفرنسى قرارا بمنع نشر الكتاب فى فرنسا باللغة الفرنسية أو العربية، وكان قرارا جائرا غير مبرر، احتج عليه كثير من الفرنسيين أنفسهم، حتى أن اتحاد الناشرين فى فرنسا كان ضد الداخلية فى ذلك، وقد انتهى الأمر باعتذار وزير الداخلية، وسحب قراره، وقال: إنه خطأ إدارى ولما سئلت عن ذلك قلت: بل هو خطأ حضارى وثقافى وسياسى، قبل أن يكون خطأ إدارياً.

ولا أزعم ان كتاب (الحلال والحرام) قد حاز رضا جميع الناس، فهذا غير صحيح، وغير ممكن، فإن رضا الناس غاية لا تدرك.. والكتاب ينهج المنهج الوسط فى الأخذ بالأحكام، والوسط لا يعجب الطرفين: طرف اليمين وطرف اليسار.

كما أنه لم يلتزم مذهبا معينا من المذاهب السائدة فلا يتصور أن يعجب

المقلدون المتمسكون بمذاهبهم. وهو يتبنى (التيسير) فلا غرو ان يقف ضده المتشددون، حتى قال عنه من قال: هو كتاب (الحلال والحلال فى الإسلام) إشارة إلى تضييق دائرة الحرام وقد رددت على هؤلاء قائلا: أنصحكم أن تؤلفوا كتابا تسمونه (الحرام والحرام فى الإسلام).

وقد ظهرت بعض الردود على الكتاب، منها: رد الشيخ عبدالحميد طهماز من أفاضل علماء حلب، ومن تلاميذ الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

ومنها: رد الشيخ صالح الفوزان من كبار علماء المملكة السعودية، المسمى (الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام).

ومنها: تعليق (دار الاعتصام) التى طبعت الكتاب سنة ١٩٧٢م وعقبت عليه بالمخالفة فى نقاط عدة. وكأن الأخ أسعد السيد - رحمه الله - طلب منى أن يطبع الكتاب، لأنه ينوى إنشاء دار نشر إسلامية جديدة، يكون الكتاب باكورتها، ولما لم يكن له دار بعد، أعطى الكتاب لدار الاعتصام، فتصرف الإخوة القائمون على الدار هذا التصرف، وردوا على الكتاب الذى نشروه فى قلب الكتاب، ودون علم مؤلفه أو إذنه.

والحقيقة أننى لم أعقب على هذه الردود، لأنها ركزت على الأمور الخلافية التى سيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله، وقد ملت فيها إلى جانب التيسير وفق منهجى الذى اخترته لنفسى، وأطمأننت إلى صوابه، وهو: التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة، اتباعا للأمر النبوى الكريم (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا) متفق عليه.

ولأن منهجى العام: ألا أضيع الوقت فى الرد، ورد الرد، ولا سيما فى القضايا التى لا ينتهى الخلاف فيها، نظرا لتعدد زوايا النظر، بين المقاصديين والحرفيين، وبين من يأخذون بالأيسر ومن يأخذون بالأحوط، وبين من يعيشون فى الماضى ومن يعيشون فى الحاضر، والأعمار أقصر وأنفس من أن ننفقها فى جدال ليس له ثمرة عملية فى النهاية.

ولكنى عنيت فقط بالرد على تعليق (دار الاعتصام) لأنه نشر مع كتابى وفى جلده، ولم يكن تعليقا منفصلا، وقد نشر كذلك دون إذن منى، وهو لا يليق، وقد أغضبنى وضقت به، وأبرقت إلى الأخ أسعد السيد: أن يوقف توزيع الكتاب حتى أكتب ردا عليه لينشر مع الكتاب، ولكن سبق السيف العذل، فقد

نشر الكتاب، ووزع فى الأسواق، ولم يعد يجدى طبع الرد معه، مع أن الرد قد جمع بالفعل وصححت (بروفته) وهو عندى إلى الآن لم ينشر.

وحين أعطيت الكتاب بعدها لمكتبة (وهبة)، واقترحت عليها أن تنشر تعقيب دار الاعتصام وردى عليها: أقنعنى الأخ الحاج وهبة صاحب المكتبة: أن هذا سيزيد الكتاب فى الحجم والسعر، ولا أرى ضرورة لذلك، فآراؤك واضحة ومدللة ومقنعة.

وفى نيتى - إذا مد الله فى العمر ورزقنى البركة والتوفيق - أن أنشر طبعة تتضمن هذا الرد، وبعض الردود على الانتقالات الأخرى، وعلى بعض تعقيبات الشيخ الألبانى على الأحاديث .

ومما أذكره هنا: كتاب سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز إلى فى أواسط السبعينيات، حول كتاب (الحلال والحرام)، وكان كتابا يفيض بالمودة والتقدير من الشيخ رحمه الله، ومما قاله فى مقدمته: إن كتبك لها وزنها وثقلها فى العالم الإسلامى، وتأثيرها فى مثقفيه وشبابه، ولذا تحتاج منك إلى مزيد من التحرى والتثبت، وهذه شهادة من الشيخ الجليل أعتز بها.

ثم ذكر الشيخ ان وزارة الإعلام عرضت عليه كتاب (الحلال والحرام) لينظر فيه: أيفسح له أم يمنع؟ ويرى الشيخ أن فى الكتاب ثمانى مسائل انتقدها المشايخ فى المملكة.

من هذه المسائل: قضية تغطية وجه المرأة، ومنها: قضيةِ الغناء، بآلة وبغير آلة، ومنها قضية: التصوير، ومنها: مودة المسلم للكافر، ومنها: قضية التدخين إلى آخر المسائل الثمانية، التى لا أذكرها الآن بالتفصيل، ويرجو منى الشيخ - عليه رحمة الله - فى نهاية كتابه أن أعاود النظر فى هذا المسائل، لعلى أغير اجتهادى فيها، وأوافق المشايخ فيما انتهوا إليه من رأى.

وقد رددت على الشيخ برسالة قابلت فيها مودته بأحسن منها، أو بمثلها وذكرت له أن من أحب الناس إلى أن أوافقهم فى اجتهادى هو الشيخ ابن باز، لما أكن له من محبة وإجلال، ولما أعتقد فيه من صدق وإخلاص وغيرة على الإسلام والمسلمين، ولكن سنة الله أن يختلف أهل العلم بعضهم مع بعض منذ عصر الصحابة وإلى اليوم، وما ضر الصحابة ولا الأئمة من بعدهم ان اختلفوا فقد اختلفت آراؤهم ولم تختلف قلوبهم وقد قال العلامة ابن قدامة

فى آخر (لمعة الاعتقاد): اختلافهم رحمة واسعة، واتفاقهم حجة قاطعة. وكذلك قال فى مقدمة (المغنى).

وقد رجوت سماحة الشيخ ألا يكون خلافى فى بعض المسائل سببا فى منع دخول كتابى إلى القراء الأشقاء فى المملكة.. فقد قال العلماء: لا إنكار فى المسائل الاجتهادية، والشيخ الألبانى يخالف المشايخ فى بعض الآراء ولا تمنع كتبه.

على أن بعض هذه المسائل قد أخطأ المشايخ فيها فهمهم عنى، مثل مسألة (التدخين) فأنا من المتشددين فيه، وقد ذهبت إلى تحريمه بالدليل.

وبعض المسائل أطلقوها، وأنا أقيدها، فأنا لم أقل بمودة الكافر باطلاق، فالكافر المعادى للمسلمين المحاد لله ولرسوله لا يواد كما نطق القرآن، أما الكافر المسالم فلم ننه عن بره والإقساط إليه، كما قال الله تعالى:﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة:٨).

ولهذا أجاز القرآن للمسلم تزوج الكتابية، كما تقرر سورة المائدة ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ (المائدة: ٥)، ومن مقتضى الزواج المودة بين الزوجين كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ (الروم: ٢١).

وأحسب أن الشيخ قد استجاب لرسالتى، ولم يمنع الكتاب فى تلك المدة من دخول المملكة. هذه قصة كتابى (الحلال والحرام) عسى أن يجد القارىء الكريم فيها منفعة وذكرى.

القرضاوى والجزيرة

سألنى كثير من الأصدقاء والقراء لماذا انتقدت حلقة للكبار فقط إياها فى برنامج الشريعة والحياة للعلامة الكبير د.يوسف القرضاوى؟! والسؤال جاء عقب تأييدهم الكامل لكل ما ورد فى مقالنا «لا.. لا يادكتور قرضاوى» وهو أمر يحمل الكثير من التناقضات وأن كنت اعتبره مؤشرا صادقا على حالة الاضطراب العقلى الفكرى والنفسى التى نعيشها فى المجتمع للدرجة التى فقدنا معها التمييز الحقيقى بين ما نريده ونرضاه، وما نرفضه ونخشاه.

على أية حال نعود لإجابة السؤال: فقلت لهم ببساطة شديدة لعدة أسباب:

أولا: انتقدت الحلقة لأننى أحب الشيخ القرضاوى صادقا من كل قلبى، وأخشى عليه من المتربصين به - فكريا بالطبع - ويحاولون الصيد فى الماء العكر حتى وفى غير العكر.

ثانيا: لأنى أحسست بأن هناك نارا تحت رماد المديح للحلقة، والدعوات المطالبة بإعادة عرضها مرة أخرى، وكأنى أرى من يقرضون على أنيابهم فرحا وشماتة وهم يستعدون لشن حملة ضد شيخنا الجليل توظف فيها هذه الحلقة اللعينة للهجوم عليه.

ثالثا: لأنى أعتقد أن القائمين على البرنامج - الشريعة والحياة - قد تجاوزوا حدود الأدب واللياقة فى التعامل مع الشيخ الجليل.. بدءا من

محاولات خبيثة للتعدى على الحق الطبيعى للدكتور القرضاوى فى البرنامج وإقحام ضيوف آخرين وصلت فى حلم البعض إلى درجة الاقصاء والإبعاد.. فالبرنامج منذ اليوم الأول لبث الجزيرة وقبل أن تبدأ معروف أنه برنامج الشيخ القرضاوى وقام على النفوذ العلمى والأدبى للعالم الجليل واكتسبت الجزيرة به آلاف بل ملايين المشاهدين فى الوطن العربى وأوروبا والمناطق التى يصلها بث الجزيرة، ولا أعتقد أن يكون جزاء الشيخ من الجزيرة هو هذا، وأن يعامل بهذه الطريقة وتضعه الجزيرة فى مواقف ومواضع لا تليق، تحت أى مسمى وأى ادعاء حتى ولو قلنا إنه كان للشيخ حرية الرفض أو المشاركة فى البرنامج أو عدم الحديث فى موضوع لا يرضاه.

أضف إلى هذا القيام بفرض مذيعين حديثى العهد والخبرة بالعمل التليفزيونى أساسا على البرنامج - حتى وان حمل البعض منهم شهادات عليا فى الدراسات الإسلامية، فهذا ليس مبررا ولا مسوغا لمحاورة عالم جليل فى حجم ووزن الشيخ القرضاوى الفكرى على الساحة الإسلامية بل والدولية.

ونلفت الانتباه هنا إلى نقطة مهمة وهى أنه يمكن أن نجد مذيعا ناجحا فى مجال ما، إلا ان ذلك ليس شرطا فى ان ينجح فى برنامج دينى أو حوارى مع كبار ورموز الفكر الإسلامى وكان من نتيجة مثل هذه التصرفات غير المحسوبة أن أفسد أمثال هؤلاء المقدمين للبرنامج الحوار بين الشيخ وجمهوره، وبدلا من أن يكونوا عونا للجمهور فى فهم القضية محل الحوار وتجلية جوانبها المختلفة إذا بهم يشكلون عبئا ثقيلا على القضية والجمهور والمحاور وأصبح ينطبق عليهم المثل القائل: «لا منهم ولا كفاية شرهم».

وأعتقد أن هناك شكوى عامة من هذا الأمر وتحدث إلى بشأنها عدد من القراء والمتابعين لبرنامج الشيخ القرضاوى وقد ترتب على هذا أيضا دون أن يدرى القائمون على الأمر انهم غرسوا فى الجمهور رذيلة - بدلا من غرس الأخلاق الحميدة - ما بعدها رذيلة وهى الجرأة والتطاول على العلماء وتناسى الناس الحقوق والواجبات المفروضة عند الحديث مع كبار العلماء.

لقد نزعوا فضيلة «الحياء» من الجمهور عند مخاطبة العلماء وهى فضيلة كان الأولى أن يكونوا أول الملتزمين بها، لقد بلغ هذا الأمر ذروته فى الحلقة اياها، وشاهدنا من الجمهور من تجرأ بكلام بذىء ليس فى حضرة الشيخ

ولكن موجه إلى الشيخ أيضا وهو أمر لم يكن ليحدث مطلقا حتى ولو كان هذا السائل بمفرده مع الشيخ وأراد أن يسأله حقيقة عن مثل ذاك السؤال.

ومن هنا اقترح على قناة الجزيرة ان تترك الشيخ القرضاوى لبرنامجه وجمهوره دون واسطة واعتقد أن الشيخ له من الخبرة فى التعامل مع الجمهور والكاميرا والميكروفون ما يفوق خبرة «الجزيرة» مجتمعة وأنه يستطيع أن يتدارك أى موقف على الهواء أفضل من أى مذيع محترف بل انه سيملأ الفراغ المحتمل فيما بين الاتصالات وغيرها من أسئلة عبر الفاكس ونحوه وهناك فضائيات تخصص برامج على الهواء لمن هم أقل مستوى علما وخبرة من الدكتور القرضاوى ولا توجد مشكلة.

يذكرنا هذا بالموقف النبيل والكريم من الإذاعى القدير أحمد فراج عندما بدأ برنامج «نور على نور» وكان الضيف الدائم هو الداعية الكبير الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوى.. فبعد فترة من بداية البرنامج كان يقدم ضيفه من بداية الحلقة وانتهى الأمر إلى أن أصبح البرنامج كله للشيخ الشعراوى ولا حاجة لمذيع.

آمل أن تدرس «الجزيرة» هذا الأمر.. وتأخذه مأخذ الجد وعندها يمكنها الإفادة من مذيعها فى برامج أخرى.

وللجميع خالص تحياتى.

(نشرت فى جريدة الشرق القطرية الخميس ٥ نوفمبر ١٩٩٨)

◆ الفصل الثالث عشر

بين الفقه والشعر



عبدالرحمن الوحيد الذى ورث الشعر عن والده

شاعرية د.القرضاوى تستدعى إلى الأذهان فورا العلاقة بين الفقهاء والشعر ولا أقول تثير مواجع وآلاماً بعد أن خاصم الشعر معظم فقهاء ودعاة العصور المتأخرة.. ولا نعرف منهم إلا النذر اليسير.. مع أن المطالع لتاريخنا العظيم سيجد صورا جميلة ورائعة إذ تكشف كثير من الأدبيات القديمة والمعاصرة على السواء علاقة وثيقة بين الفقهاء العظام والشعر.. وكثير منهم سرقه الفقه من الشعر.. ولولا غلبة الفقه وسلطانه الشديد.. لشهدنا قامات شعرية سامقة لا يضارعها أحد من فحول الشعراء المرموقين.

ورغم الجدية والصرامة وحدة العقل والمنطق اللازمة للفقيه.. إلا أن شيطان الشعر كثيرا ما كان يتسلل إلى عالم الفقهاء ونجح كثير من الاعلام فى ترويضه وتهذيبه فخرجت إلينا درر الحكمة وعصارة فلسفة الحياة.. ومناهج المسالك فى الدروب والممالك.. والمذاهب فى الزهد والعفاف والرضا والقناعة.. إلى جانب رؤية خاصة ومتميزة فى الحب والغزل والاسترواح عن النفس بعزة وكرامة وبغير إسفاف.

ولابد من الإشارة إلى أن القارئ لن يعدم شطحات من هنا وهناك.. ومداعبات وبعض الملح التى تنم عن ذكاء وقاد وخفة روح ونفس بحباحة ممراحة.

ولذلك كثيرًا ما نجد فى تراجم الفقهاء والمحدثين.. عبارات مثل: كان فقيها أصوليا.. كاتبا شاعرا.. مجيدا.. أو كان حاله فى العلم والفضل والزهد والعبادة والثقة والفقه والجلالة والورع أشهر من أن يذكر.. وكان أيضا شاعرا أديبا منشئا بليغا له مصنفات كثيرة.. ومثل: كان من أكابر

الحفاظ.. فقيها مفتيا.. ينظم الشعر، أو كان فقيها راوياً من أجلاء العلماء أو كان مؤرخا فقيها حنفيا.. مفتيا.. شاعرا.. خطاطا.. وجيها عند الخلفاء والملوك أو كان من أجله رواة مذهب كذا فقيها نسابة.. أديبا ينظم الشعر.

وكان بعضهم يضاف إلى أوصافه.. فقيها مفتيا.. صاحب طريقة فى الخلاف.. لغويا محبا للآداب.. وهذه كلها أوصاف كانت تجتمع فى شخص واحد جمع إلى فضل الفقه جمال وحلاوة وحكمة وعبقرية الشعر.

وفى العصور المتقدمة وجدنا أسماء وصفات خاصة للفقهاء الشعراء فقالوا مثلاً عن ابن قتيبة إنه أديب الفقهاء ومحدث الأدباء، وكان إماماً كبيرًا ضليعا فى العربية.. عالما باللغة والشعر كثير الرواية عن الأصمعى.. وقالوا عن الإمام الشافعى أحد أئمة الفقه الأربعة الأكثر شهرة إنه شاعر الفقهاء.. وفقيه الشعراء.

وقالوا عنه: لو أراد الشافعى أن يكون شاعرا لغلب شعراء زمانه.. حتى إنه قال عن نفسه محددا موقفه من الأمر بوضوح وثقة

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وقالوا: كان علمه وشعره حكمة ونورا.. ولعل هذا هو السبب الرئيسى الذى جعل معظم أشعاره تشتهر بين الناس وتنتشر وتحفظها عن ظهر قلب وترددها كالأمثال السائرة وقد لا يدرى الكثيرون أنها من أشعار هذا الفقيه الفذ الإمام الشافعى.

ومن مثل هذه الأبيات:

ماحك جلدك مثل ظفرك
فتول أنت جميع أمرك
ما طار طير وارتفع
إلا كما طار وقع
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج
وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدى المساويا

ومن اشعاره التى تفيض حكمة:

ومن لم يذق مر التعليم ساعة
تجرع ذل الجهل طول حياته

★★★

إذا نطق السفيه فلا تجبه
فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرَّجت عنه
وإن خليته كمدا يموت

★★★

شكوت إلى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصى

★★★

لا تعطين الرأى من لا يريده
فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

وحتى الإمام أحمد بن حنبل نسبت إليه بعض الأبيات الشعرية ولعدد من أصحابه وتلاميذه وهناك كثير من الشعراء الفقهاء من أتباع المذهب الحنبلى.. وتوجد منظومات جليلة شدا بها فقيه الحنابلة المشهور ابن القيم الجوزية سواء فى النونية أو غيرها.. اضافة إلى كتابة المعروف «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».. وفى هذا الكتاب نماذج لشعره وشعراء فقهاء آخرين.. وكذلك كان كلام الإمام مالك رضى الله عنه وعبدالله بن المبارك وابن حجر العسقلانى وابن داود الظاهرى.. والقاضى عياض وغيرهم كثير.

والحقيقة أن شعر الفقهاء يحتاج إلى جهود كبيرة علمية مخلصة لالقاء الضوء عليها وبيان ما بها من جواهر ودرر ليكون نبراسا للدعاة ودارسى الفقه من المعاصرين الذين يحصرون أنفسهم خلف أبواب ضيقة من التخصص المميت.. ولا يطلقون لعقولهم وفكرهم العنان فى سماء الفكر الرحيبة.. ويدعون أنفسهم تنهل من كل الموارد والمشارب حتى تغيض وتفيض علما ونورا وحكمة واستشرافا للمستقبل.

وللأسف الشديد فإن كثيرا من الدراسات التى عنيت بشعر الفقهاء توقفت طويلا أمام باب «الغزل» وهو غرض مهم من أغراض الشعر فى كل العصور.. ولكن على ما يبدو فإن الدارسين قد استهواهم الوقوف على نظرة علماء الدين أو الفقهاء للغزل.. وكيف يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم .. وهل سيجنحون إلى طرق الشعراء فى الغواية والوقوع فى فخ الوصف والتشبيب أم كيف سيجمعون بين وقار ورزانة الفقيه وشقاوة ومجون الشعراء الذين يتبعهم الغاوون.. وفى كل واد يهيمون؟!

لكن الجوانب الأخرى والأهم لم تحظ بالقدر الواجب من الدرس والتحليل والإبانة.

أعد الشيخ العلامة على الطنطاوى بحثا قيما عن شعر الفقهاء أو الفقهاء الشعراء.. وركز فيه على «أغزلهم».. وعرض لموقف علماء الدين من الشعر ورد على شبهات تتردد هنا وهناك عن هجرانهم الشعر لأسباب دينية أو لاعتقاد بأن الشعر يزرى بالفقهاء وتوقف أمام ما يزيد على عشرة من فحول الشعر والفقه أيضا ومنهم:

عروة بن أذينة الفقيه المحدث شيخ الإمام مالك يقول:

إن التى زعــمت فــؤادك ملهـــا ... خلقت هواك كمــا خلقت هوى لهــا
فـبك الذى زعـمت بهـا وكـلاكـمـا ... يبـدى لصـاحـبـه الصـبـابة كلهـا
ويبـيـت بين جـــوانحى حب لهـــا ... لو كـان تحت فـراشـهـا لأقلهـا
ولعـمـرها لو كـان حـبك فـوقـهـا ... يومـا وقـد ضـحـيت إذن لأظلهـا
وإذا وجـدت لهـا وسـاوس سلوة ... شـفـع الفـؤاد إلى الضـمـيـر فـسلهـا
بيـضـاء باكـرها النعـيم فـصـاغـهـا ... بلبـاقـة فـأدقـهـا وأجلهـا
منعت تحـيـتـهـا فـقلت لصـاحـبى ... مـا كـان أكـثـرها لنا وأقلهـا
فـدنا فـقـال، لعلهـا مـعـذورة ... من أجل رقـبـتـهـا، فـقلت: لعلهـا

هذه الأبيات التى بلغ من إعجاب الناس بها أن أبا السائب المخزومى لما سمعها حلف أنه لا يأكل بها طعاما إلى الليل وهو القائل، وهذا من أروع الشعر وأحلاه، وهذا شعر شاعر لم ينطق بالشعرتقليدا، وإنما قال عن شعور، ونطق عن حب، فما يخفى كلام المحبين:

قالت (وابثثتها وجدى فبحت به): قد كنت عندى تحب الستر، فاستتر
ألست تبصر من حولى؟ فقلت لها غطى هواك وما ألقى على بصرى

هذا الشاعر الفقيه أوقد الحب فى قلبه نارا لا يطفئها إلا الوصال:

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى عمدت نحو سقاء الماء أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لحر على الأحشاء يتقد!؟

❖ عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، أحد فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم العلم، وكان عمر بن عبدالعزيز يقول فى خلافته: لمجلس من عبيد الله لو كان حيًا أحبّ إلىَّ من الدنيا وما فيها، وإنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع شدة تحريك وشدة تحفظك؟ قال: أين يذهب بكم؟ والله إنى لأعود برأيه ونصيحته ومشورته على بيت المال بألوف وألوف وكان الزهر يقول: سمعت من العلم شيئا كثيراً فظننت أنى اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأنى ليس فى يدى شىء! وهو مع ذلك الشاعر الغزل الذى يقول:

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتمام الفطور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

وكان إذا لقيه ابن المسيب فسأله: أأنت الفقيه الشاعر؟ يقول: «لابد للمصدور من أن ينفث» فلا ينكر عليه ابن المسيب وهو القائل:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ولامك أقوام ولومهم ظلم
ونم عليك الكاشحون وقبلهم عليك الهوى قد نم لو نفع النم
وزادك اغراء بها طول بخلها عليك وأبلى لحم أعظمك الهم
فأصبحت كالنهدى إذ مات حسرة على إثر هند أو كمن سقى السم
ألا من لنفس لا تموت فينقضى شقاها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت اتيان الحبيب تأثما ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها إن كنت تزعم أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

❖ أبو السعادات أسعد بن يحيى السنجارى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٢٢هـ وله شعره ترقص منه القلوب، وتطرب الألباب: حلاوة ألفاظ، وبراعة معنى، وحسن أسلوب، قال فى قصيدة له:

وهواك مـا خطر السلو ببـاله ... ولأنت أعلم فى الغـرام بحـاله
ومـتـى وشى واش إليك بأنه ... سـال هواك فـذاك من عـذاله
أو ليس للكلف المعنى شـاهد ... من حـاله يغنيك عن تسـآله
جـددت ثوب سـقـامـة، وهتكت ... ستر غرامه لو، وصرمت حبل وصاله
أفـزلة سـبـقت له أم خلة ... مـألوفـة من تيـهـه ودلاله

❖ ومن شعر الشيخ الشهروردى الصوفى قوله:

فعاودت قلبى أسأل الصبر وقفة ... عليها فلا قلبى وجدت ولا صبرى
وغابت شموس الوصل عنى وأظلمت ... مسالكه حتى تحيرت فى أمرى

ومن قول ظهير الدين الأهوازى الوزير الفقيه، تلميذ أبى إسحق الشيرازى:

وإنـى لأبـدى فـى هـواك تجـلـدا ... وفى القلب منى لوعـة وغليل
فـلا تحسبن أنى سلوت فـريما ... ترى صـحـة بالمرء وهو عليل

❖ أبو القاسم القشيرى الإمام الصوفى العلم يقول:

لو كنت سـاعـة بيننا مـا بيننا ... ورأيت كـيف تكرر التـوديعـا
لعلمت أن من الدمـوع مـحـدثا ... وعلمت أن من الحـديث دمـوعـا

والبيت الثانى من مرقصات الشعر وكان مع ذلك علامة فى الفقه والتفسير والحديث ومن فقهاء الشافعية الكبار، وهو صاحب الرسالة التى يعتدها الصوفية ككتاب سيبويه عند النحويين، ولا ينصرف الإطلاق إلا لها، ومن شعره:

ومن كـان فى طول الهـوى ذاق لذة ... فـإنى من ليلى لهـا غـيـر ذائق
وأكـثـر شىء نلتـه من وصلهـا ... أمـانى لم تصـدق كـخطفـة بارق

ومن شعر القاضى عبدالوهاب المالكى الفقيه المشهور المتوفى سنة ٤٢٢ والمدفون فى قرافة مصر، وصاحب الخبر المستفيض لما خرج من بغداد وخرج أهلها لوداعه وهم يبكون ويولولون وهو يقول: والله يا أهل بغداد، لو وجدت عندكم رغيفا كل يوم ما فارقتكم ويقول:

سلام على بغداد فى كل موطن ... وحق لها منى سلام مضاعف
فوا الله ما فارقتها عن قلى لها ... وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

ويقول فيها:

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشى فى أزقتها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

وهو معنى جيد وتشبيه عجيب وهو القائل:

متى يصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثنى الأصاغر عن مراد ... وقد جلس الأكابر فى الزوايا
وإنَّ ترفع الوضعاء يوما ... على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالى ... فقد طابت منادمة المنايا

ومن غزله الذى يتغزل فيه بلغة الفقه والقضاء، فيأتى فيه بالمرقص المطرب قوله:

ونائمة قبلتها فتنبهت ... وقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إنى (فديتك) غاصب ... وما حكموا فى غاصب بسوى الرد
خذيها وكفى عن أثيم ظلامة ... وإن أنت لم ترضى فألفا على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه ... على كبد الجانى ألذ من الشهد
فباتت يمينى وهى هميان خصرها ... وباتت يسارى وهى واسطة العقد
فقالت ألم تخبر بأنك زاهد؟ ... فقلت: بلى مازلت أزهد فى الزهد

❖ القاضى الجرجانى مؤلف «الوساطة» على بن عبدالعزيز الفقيه الشافعى، الذى ذكره الشيرازى فى طبقات الفقهاء صاحب الأبيات المعلمة المشهورة.

يقولون: لى فيك انقباض، وإنما — رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم — ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى — ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإنى إذا فاتنى الأمر لم أبت — أقلب طرفى إثره متندما
ولكنه إن جاء عفوًا قبلته — وإن مال لم أتبعه لولا وربما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة — إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسى أن أضاحك عابسا — وأن أتلقى بالمديح مذمما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم — ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا — محياه بالأطماع حتى تجهما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة؟ — إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ويقول أيضا:

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الغنى — وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شيئان حرما — علىّ الغنى: نفسى الأدبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه — مواقف خير من وقوفى بها العسر

وله فى هذا المعنى الشعر الكثير الجيد، أما غزله فسهل حلو ومنه قوله:

ما لى وما لك يا فراق — أبدًا رحيل وانطلاق
يا نفس موتى بعدهم — فكذا يكون الاشتياق

وقوله:

قد برح الحب بمشتاقك — فأوله أحسن أخلاقك
لا تجفه وارع له حقه — فإنه آخر عشاقك

القاضى سوار (الأصغر) بن عبدالله من أهل القرن الثالث يقول:

سلبت عظامى لحمها فتركتها عوارى فى أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فكأنها أنابيب فى أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت باسم الفراق ترعّدت مفاصلها من هول ما تتحذر
خذى بيدى ثم اكشفى الثوب فانظرى بلى جسدى لكننى أتستر
وليس الذى يجرى من العين ماءها ولكنها روح تذوب فتقطر

❖ قاضى القضاة ابن خلكان المشهور، وكان يعشق ابن الملك المسعود بن المظفر، وكان قد تيمه حبه، قال القاضى التبريزى: كنت عنده فى العادلية «دار المجمع العلمى اليوم» فى بعض الليالى، فلما انصرف الناس من عنده قال لى: نم أنت ههنا وألقى على فروة، وقام يدور حول البركة، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبحنا فتوضأنا وصلينا، والبيتان هما:

أنا والله هالك آيس من سلامتى
وأرى القامة التى قد أقامت قيامتى

ولما فشا أمره، منع الملك ابنه من الركوب، فاشتد ذلك على ابن خلكان، فكان مما قال:

إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ورأيتم هجرى وفرط تجنبى
لا تمنعوا عينى القريحة أن ترى يوم الخميس جمالكم فى الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبى ما الذى ألقاه من كمد إذا لم تركب
لرحمتنى ورثيت لى من حالة لولاك لم يك حملها من مذهبى
ومن البلية والرزية أننى أقضى ولا تدرى الذى قد حل بى
قسما بوجهك وهو بدر طالع وبليل طرَّتك التى كالغيهب
لو لم أكن فى رتبة أرعى لها العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت سترى فى هواك ولذ لى خلع العذار ولو ألح مؤنبى
لكن خشيت بأن يقول عواذلى قد جن هذا الشيخ فى هذا الصبى

علق الشيخ طنطاوى على الأبيات بقوله : بل البلية والله أن يكون قاضيا ويعشق الغلمان، هذا مع الثقة بدينه، وأنه لا يطلب حراما ولا يأتيه مختارا غفر الله له.

فارحم فديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذيَّاك النبى
لا تفضحن بحبك الصبَّ الذى جرعته فى الحب أكدر مشرب

❖ محمد بن داوود الظاهرى، مؤلف كتاب «الزهرة» فى الحب، وكان فقيها على مذهب أبيه داوود وكان شاعرًا أبو من شعره:

أنزه فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال محرما
وأحمد من ثقل الهوى ما لو أنه يصب على الصخر الأصم تهدما

❖ أبو الفضل الحصكفى الفقيه الشافعى: ومن شعره:

أشكو إلى الله من نارين: واحدة فى وجنتيه وأخرى منه فى كبدى
ومن سقامين: سقم قد أحل دمى من الجفون وسقم حل فى جسدى
ومن نمومين: دمعى حين أذكره يذيع سرى وواش منه بالرصد
ومن ضعيفين: صبرى حين أبصره ووده ويراه الناس طوع يدى

وروى ابن عبدربه فى كتابه القيم «العقد الفريد» أمثلة كثيرة عن الشعراء الفقهاء.. وقال تحت عنوان: من قال الشعر من الصحابة والتابعين والعلماء المشهورين: كان شعراء النبى صلى الله عليه وسلم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة.

وقال سعيد بن المُسيب: كان أبوبكر شاعراً وعمر شاعراً وعلى أشعر الثلاثة.

ومن شعراء التابعين: عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وهو ابن أخى عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أحد السبعة من فقهاء المدينة.. وله يقول: سعيد بن المسيب: أنت الفقيه الشاعر..

فقال: لابُد للمصدور أن ينفث.

يعنى أنه من كان فى صدره زكام فلابد من أن ينفث زكمة صدره.

يريد أن كل ما اختلج فى صدره شىء من شعر أو غيره ظهر على لسانه.

وقال عُمر بن عبدالعزيز: وددت لو أن لى مجلساً من عبيد الله بن عبدالله ابن عُتبة بن مسعود بدينار.

قال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: ما أحسن الحسنات فى أثر

السيئات وأقبح السيئات فى إثر الحسنات وأحسن من هذا وأقبح من ذلك: الحسنات فى إثر الحسنات والسيئات فى إثر السيئات.

ومن شعراء التابعين عروة بن أذينة وكان من ثقات أصحاب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يروى عنه مالك.

وقال ابن شبرمة أن عُروة بن أذينة يخرج فى الثلث الأخير من الليل إلى سكك البصرة فينادى: يأهل البصرة «أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمون.

أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون».

الصلاة الصلاة.

من شعراء الفقهاء المبرزين عبدالله بن المبارك صاحب الرقائق.

وقال حبان: خرجنا مع ابن المبارك مرابطين إلى الشام فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا كل يوم التفت إلىَّ وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفنيناها وليال وأيام قطعناها فى علم الخلية والبرية وتركناها هنا أبواب الجنة مفتوحة.

قال: فبينما هو يمشى وأنا معه فى أزقة المصيصة إذ لقى سكران قد رفع عقيرته يتغنى ويقول:

أذلنى الهوى فأنا الدليل وليس إلى الذى أهوى سبيل

قال: فأخرج برنامجاً من كمه فكتب البيت.

فقلنا له: أتكتب بيت شعر سمعته من سكران قال: أما سمعتم المثل: «رب جوهرة فى مزيلة» قالوا: نعم.

فهذه جوهرة فى مزيلة.

وبلغ عبيد الله بن عبدالله بن عُتبة بن مسعود عن عمر بن عبدالعزيز بعض ما يكره فكتب إليه:

أتانى عنـــــك هـــذا اليــــوم

قــول «فضقت به وضاق به جوابى

فـــإن تــك عـــــاتباً تعتــــب

وإلا فمـــــا عـــودى إذاً بيراع

غاب وقد فارقت أعظم منك رزءًا
وواريت الأحبـــة فى التـــــراب
وقد عزوا عـــلى إذ أســـلمونى
معاً فلبســـــت بعـــدهم ثيابى

حدّث فرج بن سلام قال: حدثنا عبدالله بن الحكم الواسطى عن بعض أشياخ أهل الشام قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نجران.

فولاه الصلاة والحرب.

ووجه راشد بن عبد ربه السلمى أميراً على القضاء والمظالم.

فقال راشد بن عبدربه:

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر شأوه
وردت عليـــــه ما بعثـــه تماضـــر
وحكمه شيبُ القـــذال عن الصـــبا
وللشـــيب عن بعض الغـــواية زاجر
فأقصر جهلى اليوم وارتد باطـــلى
عن اللهو لما أبيض منى الغـــــدائر
على أنه قد هـــاجه بعـــد صـــحوه
بمعرض ذى الأجـــام عيسٌ بواكـــر
ولما دنت من جانب الغوط أخصـبت
وحلت ولاقاها ســـليم وعـــــامر
فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قر عيناً بالإيـــاب المســـافر.

وكان عبدالله بن عمر يُحب ولده سالما حباً مفرطاً فلامه الناس فى ذلك فقال:

يلوموننى فى سالم وألومهم   وجلدة بين العين والأنف سالم

وقال:

إن ابنى سالماً ليحب الله حباً   لو لـم يخفـه ما عصـاه

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا برز إلى القتال أنشد:

أى يومى من الموت أفـر
يوم لا يقدر أم يوم قـدر
يوم لا يقدر لا أرهبـه
ومن المقدور لا ينجو الحذر

وكان إذا سار بأرض الكوفة يرتجز ويقول:

يا حبذا السير بأرض الكوفة
أرض سـواء سهلة معـروفة
تعرفها جمالنا المعلـوفة

وكان عبدالله بن عباس فى طريقه من البصرة إلى مكة يحدو الإبل ويقول:

أولى إلـى أهـلك يا ربـاب
أولى فقد هان لك الإيـاب

وقال ابن عباس لما كف بصـره

إن يأخذ الله من عينى نورهما
ففى لسانى وقلبى منهما نـور

ودخل كعب بن زهير على النبى صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشد:

ما إن تدوم على حال تكون بها
كما تلون فى أثوابها الغـول
ولا تمسك بالوعد الذى وعدت
إلا كما يُمسك الماء الغـرابيل
كانت مواعيد عُرقوب لها مثلاً
وما مواعيـدها إلا الأباطيـل
ولا يغرنك ما منت وما وعـدت
إن الأمانى والأحلام تضـليل

ثم خرج من هذا إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم.
فكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألفاً.
ومن قول عبيد الله بن عبدالله بن عُتبة بن مسعود فى الغزل:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقـــوام ولومُهمُ ظـــلم
ونم عليك الكاشحون وقبـــل ذا
عليك الهوى قد نمَّ، لو نفع النم
فيا من لنفس لا تموت فينقضى
عناها ولا تحيا حياة لها طعـم

ودخل كعب بن زهير على النبى صلى الله عليه وسلم قبلة صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشد

بانت سعاد فقلبى اليوم متبـــول
مُتيم إثرها لم يفد مكبـــــول
وما سعاد غداة البين إذ رحـــلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجــزاء مـــدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طـــول
ما إن تدوم على حال تكـون بهـا
كما تلون فى أثوابها الغـــول
ولا تمسك بالوعد الذى وعـدت
إلا كما يُمسك الماء الغـــرابيل
كانت مواعيد عرقوب لها مـثلاً
وما مواعيدها إلا الأباطيـــل
ونم عليك الكاشحون وقبـــل ذا
عليك الهوى قد نم ولو نفع النم
فيا من لنفس لا تموت فينقضى
عناها ولا تحيا حياة لها طعـــم

ومن شعر عروة بن أذينة وهو من فقهاء المدينة وعبادها وكان من أرق الناس تشبيبا:

قالت وأبثثتها وجدى وبحـــت به
قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى فقـلت لها
غطى هواك وما ألقى على بصرى

ووقفت عليه امرأة فقالت له: أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقوله:

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى
غدوت نحو سقاء الماء ابتـــرد
هبنى بردت ببرد الماء ظـاهرة
فمن لنار على الأحشاء تتقـــد

والله ما قال هذا رجل صـالح.

وكذبت عدوة الله عليها لعنة الله بل لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدوراً فنفث.

وقدم عروة بن أذينة على هشام بن عبدالملك فى رجال من أهل المدينة فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم فقضاها ثم التفت إلى عُروة فقال له: ألست القائل:

لقد علمـت وخيـر القـول أصـدقه
بأن رزقـــى وإن لـــم آت يأتينــــى
أســـعى له فيعنينـــى تطلبــــه
ولو قعـــدت أتـانى لا يعنينــــى

قال: بلى.

قال: فما أراك إلا قد سعيت له.

قال: سأنظر في أمري يا أمير المؤمنين وخرج عنه

وقال ابن عباس: قال لى عمر بن الخطاب: أنشدنى قول زهير.

فأنشدته قوله فى هرم بن سنان بن حارثة حيث يقول:

قـوم أبوهـم سـنان حين تنسبهم
طابوا وطاب من الأفـلاذ ما ولدوا

لو كان يُعقد فوق الشمس من كـرم
قوم بأولهم أو مجـــدهم قعـــدوا
جـن إذا فزعـــوا إنس إذا آمـــنوا
مرزءون بهاليـــل إذا احتشـــدوا
محسَّدون على ما كان مــــــن
نعم لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال له عمر: ما كان أحب إلى لو كان هذا الشعر فى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

انظر إلى ضنانة عمر بالشعر كيف لم ير أحداً يستحق مثل هذا المدح إلا أهل بيت محمد عليه الصلاة والسلام.

وأسمع رجل عبدالله بن عمر بيت الحطيئة

متى تأته تعشو إلى ضـــوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقـد

فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلم ير أحداً يستحق هذا المدح غير رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذن نصيب بن رياح على عمر بن عبدالعزيز فلم يأذن له فقال: أعلموا أمير المؤمنين أنى قلت شعراً أوله الحمد لله.

فأعلموه.

فأذن له فأدخل عليه وهو يقول: الحمد لله أما بعد يا عمر فقد أتتنا بك الحاجات والقدر فأنت رأس قريش وابن سيدها والرأس فيه يكون السمع والبصر فأمر له بحلية سيفه.

ومدح نصيب بن رياح عبدالله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكسوة ورواحل.

فقيل له: تفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود فقال: أما والله لئن كان عبداً إن شعره لحر وان كان أسود إن ثناءه لأبيض.

وإنما أخذ مالاً يفنى وثياباً تبلى ورواحل تنضى فأعطى مديحاً يروى وثناءه يبقى.

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له: من أنت قال: أنا

ابن هرم بن سنان.
قال: صاحب زهرى قال: نعم.
قال: أما إنه كان يقول فيكم فيحسن.
قال: كذلك كنا وكان طريح الثقفى ناسكاً شاعراً فلما قال فى أبى جعفر المنصور قوله:

أنت ابن مسلنطح البطاح
ولم تعطف عليك الحنى والولج
لو قلت للسيل دع طريقك
والموج عليه كالليل يعتلج
لهم أو كاد أو لكان له
فى سائر الأرض عنك منعرج
طوبى لفرعيك من هنا
وهنا طوبى لأعراقك التى تشج

قال أبو جعفر: بلغنى عن هذا الرجل أنه يتأله فكيف يقول للسيل: دع طريقك.

● نقل عن الإمام الموفق بن قدامة مع غزارة علمه فى الفقه والتفسير والحديث وأصول الفقه والعربية والنحو والحساب والفلك فهو بجانب ذلك كان شاعراً، وله نظم كثير حسن ومنه:

أتغفل يا ابن أحمد والمنايا
شوارع يخترمنك عن قريب
أغرك أن تخطتك الرزايا
فكم للموت من سهم مصيب
كئووس الموت دائرة علينا
وما للمرء بد من نصيب
إلى كم تجعل التسويف دأباً
أما يكفيك إنذار المشيب
أما يكفيك أنك كل حين
تمر بقبر خل أو حبيب
كأنك قد لحقت بهم قريباً
ولا يغنيك إفراط النحيب

ولابن قد امة الحنبلى أيضاً نماذج شعرية:

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا
سوى القبر؟ إنى ان فعلت لأحمق
يخبرنى شيبى بأنى ميت
وشيكا وينعانى إلى فيصدق
تخترق عمرى كل يوم وليلة
فهل مستطيع رقو ما يتخرق
كأنى بجسمى فوق نعشى ممداً
فمن ساكت أو معول يتحرك
إذا سئلوا عنى أجابوا وأعولوا
وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت فى صداع من الأرض ضيق
وأودعت لحدا فوق الصخر مطبق
ويحثو على التراب أوثق صاحب
ويسلمنى للقبر من هو مشفق
فيا رب كن لى مؤنساً يوم وحشتى
فإنى لما أغزلته لمصدق
وما ضرينى أنى إلى الله صائر
ومن هو من أهلى أبر وأرفق

من الجدير بالملاحظة أن هناك من الدعاة الكبار من غلبت شهرتهم الدعوية صفتهم الشاعرية ولم يدر أحد عن نتاجهم الشعرى شيئاً.. إلا بعد وفاتهم.. وهو ما حدث على سبيل المثال مع الداعية الأكبر عليه رحمة الله الشيخ محمد الغزالى.. فقد عرفه الناس العالم الفقيه الأصولى المحدث الأديب الخطيب.. وجهلوا أنه كان شاعراً ذا موهبة خصبة وقريحة معطاءة وقلم مطواع وبيان سائغ.. وقد نشر له ديوان «الحياة الأخرى».. بعد وفاته بعامين وقام على ضبطه وتحقيقه الدكتور مصطفى الشكعة بعد أن قدمه نجلا الشيخ الغزالى إليه بعد وفاة العالم الجليل.

القرضاوى شاعراً

سألت د. القرضاوى عن علاقته بالشعر وكيف بدأت.. فأجابنى وأمارات السعادة ترتسم على وجهه.. وقد تهلل سروراً.. قال:

بدأت حياتى شاعراً، واشتهرت بالشعر أكثر مما اشتهرت بأى شىء آخر لأنى بدأت حياتى أولاً بقراءة الكتب الأدبية، مثل كتب المنفلوطى والرافعى والعقاد وغيرها، ودواوين الشعر المختلفة، وبدأت الشعر من السنة الثانية الابتدائية، وبرزت فيه وألقيت القصائد فى المناسبات الكبرى وكانت تلقى الاستحسان، وكان لى إنتاج كبير فى الشعر، ضاع معظمه فى المحن التى أصابت الإخوان المسلمين فى مصر، وبقى القليل منه نشر فى ديوانين، ديوان تحت اسم «نفحات ولفحات» وديوان: «المسلمون قادمون» هذا إلى جوار المسرحية الشعرية عن «يوسف الصديق» وشعرى يتميز بالسهولة والتدفق والتلقائية.

فعندما اشتغلت بالدعوة والفكر الإسلامى، الحقيقة ألهانى هذا عن الشعر، فأصبحت قلما أقول الشعرُ إلا فى أحوال معينة حينما امتحن بمحنة وأدخل المعتقل، فيكون هذا إجازة إجبارية من العلم، فهناك يصفو الذهن، وتتقد القريحة لقول الشعر، هكذا كان الأمر حينما اعتقلت عام ١٩٥٤ فى عهد الثورة، وبدأت أعود إلى الشعر بعد أن كنت قد هجرته تقريبا، وهناك أنشدت

بعض القصائد المهمة منها قصيدة السعادة والقصيدة النونية الشهيرة وكنا فى المعتقل نقرأ القرآن وليس معنا من الكتب إلا المصاحف، ووجدوا أننا نتسلى بقراءة القرآن وهذه سلوى عظيمة أن يجد الإنسان أنسًا فى كتاب الله، فأخذوا منا المصاحف ولم يبقوا معنا لا ورقة ولا قلما، ولا أى شىء وفى هذه الفترة تفتقت الخواطر عن هذه القصيدة التى عرفت باسم القصيدة النونية، كنت أنشىء الأبيات ولا أستطيع كتابتها لأنى لا أجد ورقة ولا قلما فأحفظها وحينما نلتقى فى دورة المياه لدقائق، يسألنى الإخوان هل هناك من شعر جديد؟! فأقول لهم نعم يوجد كذا فهناك بعض الإخوة يحفظون من أول مرة، ويلقن بعضهم بعضا إلى أن اكتملت هذه القصيدة أو الملحمة فى الواقع فقد زادت عن الثلاثمائة بيت منها هذه الأبيات فى مطلعها: «وأخذ الشيخ القرضاوى يلقى القصيدة بصوته الجهورى المميز ويحفظها عن ظهر قلب وكأنه يقرؤها من الديوان أمامه، وأمام حشد من المعتقلين، جلست أنصت والخوف يتملكنى من براعة التصوير المادى والمعنوى، حيث نقلنى الشيخ القرضاوى إلى قلب المأساة :

هذا القريض بخاطرى فدعونى
أفضى لكم بمدامعى وشجونى
فالشعر دمعى حين يعصرنى الأسى
والشعر عودى عند عزف لحونى
كم قال صحبى أين عز قصائد
تجلى القلوب بلحنها المحزون
ما حيلتى والشعر فيض خواطر
مادمت أبغيه ولا يبغينى
واليوم عاودنى الملاك فهزنى
طربا إلى الإنشاد والتلحين
ألهمتها عصماء تنبع من دمى
ويمدها قلبى وماء عيونى

نونية والنـــــون تحلـــو فى فمـــى أبدا

فكـــــــدت يقـــــال لى ذو النـــــون

صورت فيها ما استطعت بريشـــــــتى

وتركـــــــــت للأيـــــام ما يعيينـــى

ما همـــــــت فيها بالخيـــــال فإن لى

بغـــــرائب الأحـــــداث ما يغنينـــى

أحداث عهـــــــد عصابة حكمـــوا بنى

مصـــــــــر بلا خـــلق ولا قـــــانون

أنســـت مظالمهم مظـــــالم من خلـــوا

حتـــى ترحمنـــــــــا عـــــلى نيرون

حسبوا الزمان أصـــم أعمـــى عنهـــم

قد نومـــــبـــوه بخطبـــــة وطنيـــن

وبراعـــــة التـــــاريخ تســـخر منهـــم

وتقـــــــوم بالتســـــجيل والتـــدوين

وكفى بربـــــك بالخليقـــــة محصـــيا

فى لوحــــــه وكتـــابه المكنـــــــون

كانت هذه القصيدة فى المعتقل، وكلما جاءت فترات أشبه بالاعتقال كالفترة التى قضيتها فى ألمانيا عام ١٩٨٥ بعد أن أصبت بالفقرات فى الظهر وانزلاق غضروفى وذهبت لإجراء عملية جراحية هناك، وحرمت عامها من القيام فى شهر رمضان فى ذلك الوقت تدفق عدد من القصائد، وما بين الحين والحين يظهر الشعر، ومنه الأرجوزة الشهيرة وهى بعنوان «الأصوليون» تتحدث عن الأصوليين على ألسنة أجهزة الاستخبارات وأجهزة الإعلام الغربى التى تصور هؤلاء الأصوليين وكأنهم وحوش مفترسة وكأنهم شياطين، فعلى لسان هؤلاء تحدثت عن الأصوليين وهى قصيدة ساخرة.. منها هذه الأبيات:

أولئكـــــــم هـــم الأصـــوليون

قد خـــربوا الدنيـــا وشـــانوا الدينِ

فجنـــــدوا لحـــربهم كل القـــوى

فمـــا لهم غيـــر العنـــاء مـــن دوا

فكـــــل يـــوم يكســـبون أرضـــا

تمتـــــد طـــولا بينـــنا وعرضـــاً

حتى غـــــزوا ســـاحة أهـــل الفن

وأفسدوا المخـــــرج والمغنـــــى

ومـــن عجيـــب ما نرى ونســـــمع

توبة أهـــل الفـــن هذا المفجـــع

ممثـــلات ترتــــدى الحجـــاب

أليس ذاك العجـــــب العجـــاب

وراقصـــــات يعتـــزلن الرقص

كـــأن هـــذا الرقص كان نقصـــا

من ذا يعيـــب الهـــز للبطـــون

وذاك مـــن روائـــع الفنـــون

أليس مـــن ميـــراثنا الثقـــافى

رياضـــــة البطـــون والأرداف

فيا رجـــال الفن أســـرعوا الخطى

قد أوشكت دولتكم أن تســــقطا

مـــاذا وراء ذلـــك التحجــــب

إلا تآمـــــر أثيـــم أجنبـــى

يدعو نجوم الفـــن أن يتـــوبوا
كأنمـــا كانـــت لهـــم ذنوب
أليس يـدرى هـــؤلاء الســـادة
أن الفنـــون قمـــة العبـــادة
ما الفـــن إلا صـــلوات الـــروح
دعـــك من المتـــون والشـــروح

وهكذا تمضى القصيدة فى هذه السخرية بالذين يتحدثون عن الأصولية والأصوليين بهذه الروح.

وهناك قصيدة أخرى على لسان الأصوليين أنفسهماسمها «أصولى.. أصولى» .. أقول فيها:

أصـــولى أصـــولى.. أجل أنا لا وصـــولى
أصـــولى فلى أصلى ولى نســـبى الحنيـــفى
وأصل أصـــولى القـــرآن دســـتـــورى الإلهى
وسنة أحـــمـــد المخـــتـــار لى زاد ولى رى
وقـــانونى شـــرع الله لا الشـــرع الفـــرنسى
فـمـا يقـضـيـه مـقـضى ومـا ينفـيـه منفى

وتمت القصيدة بهذه الروح ووصلت إلى نحو خمسين بيتا.

فعلاقتى بالشعر علاقة تصل أحيانا إلى حد أنى أقول.. خلاص هجرت الشعر ثم يتدفق حينا بعدد من القصائد.

شاعر بالفطرة

● الحقيقة ان شاعرية القرضاوى كانت لافتة للأنظار منذ أن بدأ رحلته مع الدعوة.. وتوقف أمام قصائده التى كان يلقيها فى المناسبات الدينية عدد من المفكرين والمتابعين للنشاط الدعوى والثقافى.. وكان فى مقدمة من أبدوا إعجابهم بشعر القرضاوى الإمام حسن البنا.

وكثيرا ما كان يرتجل الشعر ويردده وراءه محبوه ومريدوه مثلما كان الحال فى أيام المعتقلات.

وقد نظم الشاعر عام ١٩٥٠م وبين فيها نظرته إلى الشعر ورأيه فيه.. وتم نشرها فى مجلة المباحث القضائية بالقاهرة بتاريخ ١٩٥٠/٦/٢٧ وتبلغ أبيات القصيدة تسعة وعشرين بيتا.. يقول فيها:

أريد له هجرا فيغلبنى حبى ... وأنوى ولكن لا يطاوعنى قلبى
وكيف أطيق الصبر عنه وإنما ... أرى الشعر للوجدان كالماء للعشب
فكم شد من عزم وبصر من عمى ... وأيقظ من نوم وذلل من صعب
لقد بغضت لى الشعر فى مصر شلة ... يبيعونه بالمال للبغى والنهب
فكم سافح قد لقبوه بفاتح ... وكم مسرف سموه ذا الكرم الرحب
وكم فاجر باغ مشوا فى ركابه ... وسموه ليثا وهو أدنأ من كلب

وكم ولغت فى حرمة الناس كفه ... فغطوا عليها كالخضاب على الشيب
إذا كان هذا ديدان الشعر فى الورى ... فما هو إلا السم فى المشرب العذب
وثلة سوء ظنت الشعر معدنا ... يصاغ بجهد كالنحاس وكالصلب
فجاءوا به وزنا أجف من الصفا ... وأثقل من هجر على مهجة الصب
لئن نحتوه كالتماثيل هيئة ... فمن لهمو بالروح والروح من ربى
وشرذمة أخرى سبى اليأس قلبهم ... ولليأس جند كم يميت وكم يسبى!
إذا عرضوا للشعب قال قنوطهم ... عليل قد استعصى على نطس الطب
نسوا ما به من مكرمات كوامن ... كمون اللظى فى الفحم والتبر فى الترب
لك الله شعبا سامه جمع قلة ... فيالك من جمع ويالك من شعب
يريق دماه المترفون لينعموا ... بها خمرة تحلو على اللهو واللعب
يسيغونه لحما فإذا ما تمتعوا ... رموه عظاما كاد يقضى لها نحبى
يساق إلى ما يشتهون كأنه ... قطيع وويل للقطيع من الذئب
وطائفة أخرى أطاعوا هواهمو ... فجازوا إلى اللذات دربا إلى درب
يقولون: ليس المرء إلا فؤاده ... وكيف يعيش المرء جسما بلا قلب؟!
فغاصوا به فى الغيد والحب والهوى ... كأن لم يكن فى القلب معنى سوى الحب
إذا لم يكن فى القلب دين وهمة ... وبغض لطغيان فما هو بالقلب
عجبت لهم قالوا: تماديت فى المنى ... وفى المثل العليا وفى المرتقى الصعب
فأقصر ولا تجهد يراعك إنما ... ستبذر حبا فى ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم: مهلا فما اليأس شيمتى ... سأبذر حبى والثمار من الرب
إذا أنا أبلغت الرسالة جاهدا ... ولم أجد السمع المجيب فما ذنبى؟!
وقفتك يا شعرى على الحق وحده ... فإن لم أنل إلاه قلت لهم: حسبى
وإن قال غر: ثروتى قلت: دعوتى ... وإن قالى لى: حزبى أقول له: ربى
فعش كوكبا يا شعر يهدى إلى العلا ... وينقض رجما للشياطين كالشهب

وحدث عندما نشرت قصيدة السعادة بمجلة «منبر الإسلام» وكان لها ردود فعل واسعة ودار حوار بشأنها بين الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى وكان فى ذلك الوقت مديرا للمساجد بوزارة الأوقاف والدكتور البهى الخولى تركز حول شاعرية القرضاوى وفقهيته وكان من رأى الغزالى ومعه بعض الحاضرين ـ وفقا لرواية د. البهى للقرضاوى ـ ان لديك قابلية لأن تكون شاعرا عظيما إذا تفرغت للشعر وأديت له حقه.. وكان من رأيى (د. البهى) أن يتفرغ القرضاوى للعلم أولى من تفرغه للشعر.. وهب أنه بلغ مرتبة شوقى فى الشعر.. فالذى آمله إذا تفرغ للعلم أن يكون ـ إن شاء الله ـ فقيه العصر.

والقصيدة يبلغ عدد أبياتها ١٧٤ بيتا وهى من شعر التأمل.. وقسمها عدة أجزاء أو أقسام يراها الناس مصدر السعادة أو يرى البعض ان كل قسم هو الذى سيحقق السعادة التى يسعى إليها:

الثراء.. النفوذ.. الغرام.. السكون والخمول.. الإيمان.

يقول فى القصيدة بعد مقدمة تعريفية للسعادة ونظرة البشر إليها:

الثراء!

قالوا: السعادة فى الغنى فأخو الثراء هو السعيد
الأصفر الرنان فى كفيه يلوى كل جيد
يرمى به شركا يصيد من الرغائب ما يصيد
وبه يدين له العصى وقد يلين له الحديد
فإذا أراد.. فكل ما فى هذه الدنيا يريد
وإذا تمنى الشىء جاء كما تمنى.. أو يزيد
والناس خلف ركابه يمشون فى حضر وبيد
يعنو له رب القنا وتهيم ربات القدود
قلت: الغنى فى النفس وهو لعمرك العيش الرغيد
كم عائل راض، وكم مثر على بؤس قعيد
فيقيم فى هم الطريف وفى الحفاظ على التليد
ويذوب فى أطماعه هى ناره وهو الوقود
فهو الشقى بوهمه وبحرصه العانى الكدود
وهو الفقير وان بدأ فى مال قارون العديد
يعدو هنا وهناك فى شغل كطواف البريد
يبتغى المئات فإن وفت يبلغ الألوف من النقود
جشع به كجهنم يشكو: ألا هل من مزيد؟
أما الألى حول الركاب فهم لشهوتهم عبيد
تخذوه صيدا والغبى يظن أنهم المصيد
ويل له ويل إذا عثرت به قدم الجدود
ستراه كالقبر الكثيب وكان كالصرح المشيد
قد عافه الخل الودود كأنه نتن ودود
أمسى نذير الشؤم وهو الأمس كان بشير عيد
أمسى ينقر كالعويل وكان يطرب كالنشيد
أفبعد ذاك تظن أن أخاء الثراء هو السعيد؟

النفوذ

قالوا: السعادة فى النفوذ وسلطة الجاه العتيد
من كالأمير وكالوزير وكالمدير وكالعميد؟
يرنو إلى من دونه فيسابقون لما يريد
وإذا رأى رأياً فذلك وحده الرأى الرشيد
كل يسارع فى هواه وعن رضاه لا يحيد
قلت: اطرحوا هذا المظاهر واسمعوا بيت القصيد
فأخو النفوذ بجاهه يشقى وإن سحب البرود
ما عاش يحرص أن يدوم له النفوذ ويستزيد
متملقاً من فوقه طمع المثوبة والمزيد
ومخافة أن يسقط الكرسى يوماً أو يمى
مترضياً من دونه بعطائه أو بالوعود
يبغى رضا كل الورى ورضا همو شىء بعيد
فتراه يبسم للبغيض كأنه الحب الودود
وتراه يمتدح الغبى كأنه الفطن الرشيد
فأعجب لأزياء الملوك وتحتها نفس العبيد
لا يخدعنك ثلة حاطوا به مثل الجنود
أبصرهمو - إن شئت - حين يجىء بالعزل البريد
تجد النفوذ هوى كما تهوى وتنفرط العقود
ذهب البطانة واختفى الزوار، وانفض الحشود
قد كان سوق منى وكانوا هم كتجار اليهود
وافوه يوم نفاقه وجفوه أيام الركود
وإذا رأوه دعوا: ألا بعداً كما بعدت ثمود
أفبعد ذاك تظن أن أخاً النفوذ هو السعيد؟

الغرام

قالوا: السعادة فى الغرام الحلو.. فى خصر وجيد
فى نرجس العين الضحوك وفى الورود على الخدود
فى ليلة قمراء ليس بها سوى الشهب الشهود
فيها التناجى يستطاب كأنه وتر وعود
قلت: الغرام خرافة كبرى وأحلام شرود
هو فكرة بلهاء أو نزغات شيطان مريد
هو شغل قلب فارغ فقد التطلع للصعود
وهو الضنى، وهو الدموع، وشقوة القلب العميد
ما أضيع الأعمار تقضى فى الهيام، وفى السهود
فى حب غانية لعوب، فى أمانى، فى وعود
الحب حب الأم والأب والحليلة والوليد
حب المعانى والحقائق لا القدود، ولا النهود
حب يدوم مع الزمان فلا خداع ولا كنود
فدع التى تهواك حيث تراك كالزهر النضيد
فإذا تغير دهرك الدوار غيرها الصدود
وإذا رأت مع غيرك الدنيا مشت تحت البنود
أفبعد ذاك تظن عبدالغانيات هو السعيد؟

الإيمان

قل للذى يبغى السعادة هل علمت من السعيد؟
إن السعادة: أن تعيش لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحيران فى وعى رشيد
من أين جئت؟ وأين أذهب؟ لم خلقت؟ وهل أعود؟
فتشيع فى النفس اليقين وتطرد الشك العنيد
وتعلم الفكر السوى وتصنع الخلق الحميد
وترد للنهج المسدد كل ذى عقل شرود
تعطى حياتك قيمة رب الحياة بها يشيد
ليظل طرفك رانيا فى الأفق للهدف البعيد
فتعيش فى الدنيا لأخرى لا تزول ولا تبيد
وتمد أرضك بالسماء وبالملائكة الشهود
وتريك وجه الله فى مرآة نفسك والوجود

الشعر الحديث

● سألت د . القرضاوى عن الشعر الحديث وما ملاحظاته عليه ..

فأجاب: الشعر كما يقول الرافعى رحمه الله صناعة موسيقية.. يعنى لا يمكن أن يتم الشعر بغير وزن.

المشكلة بيننا وبين أصحاب الشعر الحديث مسألة القافية.. هل القافية مطلوبة أم لا؟!

أنا أرى أن القافية من مزايا الشعر العربى.. والشعر الموزون المقفى له وقعه على النفس، ولذلك يسهل حفظه وإنشاده والاستشهاد به فلا تجد أحداً يستشهد لأحد من الشعر الحديث، فهو قلما يحفظ، ولكن يا أخى من السهل أن تستشهد بقصيدة لابن الرومى:

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظيركما عندى

توخى حمام الموت أوسط حبيبتى ... فلله كيف أختار واسطة العقد؟!

يعنى هذا كلام غير ما يقولونه.. بيت تفعيلتين، وبيت ست تفعيلات ولا مانع أن يستخدم الشعر الحر بعض الأحيان لكن لا يكون هو القاعدة والأساس.

لقد نظمت قصيدة فى الشعر الحديث منذ فترة عندما كنت فى عام ١٩٨٥ فى ألمانيا فى رحلة علاج من انزلاق غضروفى وفى هذه الفترة التى أصبحت فيها طريح الفراش تفجر الشعر عندى فأنشأت عددا من القصائد، وكذلك وأنا فى قطر على الفراش أيضا ومنها هذه القصيدة اسمها «المسلمون قادمون» على طريق الشعر الحديث إلى حد ما، وإن كانت هى القصيدة الوحيدة ولم أنسجم معها.

هناك بعض إخواننا وتلاميذنا مثل الشاعر المعروف الاستاذ أحمد الصديق قدمت له ديوانه الأول اسمه: «نداء الحق» وكتبت له مقدمة طويلة وكتبت كثيرا من المقدمات لعدد من الدواوين والشعراء: محمود خليل فى مصر ووليد الأعظمى فى العراق.

وقدمت ديوان «نداء الحق» وذكرت فيه قصيدة من الشعر الحديث وهى شكلها شكل الشعر الحديث ولكن مضمونها غير مضمون الشعر الحديث للاسف لأن عنوانها «ركعتان».. يتكلم عن ركعتين فى الليل لا أحفظ بالضبط ما قاله ولكنها فى غاية الرقة.

من الممكن أن يستخدم الإنسان الشعر الحديث فى بعض الأحيان ولكن لا يكون أساساً وقاعدة.

● لماذا غاب دور الشعر فى الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث؟

د. القرضاوى: هو لم يغب تماما الحقيقة إن الشعر موجود وهناك شعراء فى الدعوة الإسلامية، وقد اهتم بإبراز هؤلاء الشعراء بعض إخوتنا، ومنهم الأستاذ أحمد الجدع والاستاذ حسنى جرار، وأصدروا عشر مجموعات تقريباً تحت عنوان: «شعراء الدعوة الإسلامية فى العصر الحاضر» وجاءوا بعدد من الشعراء موجودين فى العالم الإسلامى ولكن للأسف هؤلاء الشعراء لا يعطون حقهم.

كما أن الشعر لم تعد سوقه رائجة كما كانت فى الزمن الماضى حيث كانت هناك أسواق عكاظ للشعراء، ومساجلات بين الشعراء، وكان للشعر أهمية وكانت هناك مجلات أدبية معروفة فى مصر مثلا، مثل مجلة الثقافة، وكانت هناك منابر يتبارى فيها الشعراء والمناسبات الدينية مثل عيد الهجرة والمولد النبوى والمناسبات الوطنية المختلفة.

● البضاعة تصنع السوق يامولانا؟!

د. القرضاوى: لا أحيانا السوق تشجع على البضاعة فعلا فأسواق عكاظ هذه شجعت الادباء ونمت المواهب وعندما يجد الإنسان سوقا رائجة يحاول أن يصنع لها البضاعة طالما أن هناك من يشترى لها، إنما إذا صنع الإنسان بضاعة ولم يجد لها مشتريا. بعد ذلك لن يصنعها.

فالشعر لم تعد سوقه كما كانت والأدب بصفة عامة تجد أن هناك انحطاطا فى الأدب، لم يعد الأدب مثل ما كان أيام الرافعى والزيات والعقاد وطه حسين والحكيم لم يعد هؤلاء القمم الأدبية موجودة فى عصرنا هناك من يكتبون القصص وغيرها ويستخدمون العامية أحيانا إنما القمم الأدبية

التى أشرنا إليها هذه.. محمود تيمور.. فريد أبو حديد.. أحمد با كثير هذا قمة، سوق الأدب لم تعد كما كانت والصحافة غطت على هذا والناس تهتم بالصحافة والأخيرة تهتم باللغة العامية وليس باللغة الأدبية.

ولذا أقول: إن هناك شعراء للدعوة الإسلامية موجودون لا يستطيع أحد أن ينكر وجودهم صحيح أنهم ليسوا بارزين بالقدر الذى يبرز به الشعراء الممثلين للتوجه الليبرالى أو الماركسى، لأن الإسلاميين لا يبرز بعضهم بعضا كما يفعل دعاة العلمانية ودعاة الماركسية تجد الماركسيين ينفخ بعضهم فى بعض ويعظم بعضهم بعضا كما يقول الشاعر قديما:.

وبقيت فى خلف يزين بعضهم بعض ليدفع معور عن معور

فهم يزين بعضهم بعضا فقبل أن توجد القصيدة يقولون فلان عنده قصيدة فى حالة مخاض الآن ينشىء قصيدة فى الموضوع الفلانى وبعد القصيدة يقولونها ويتحدثون عنها ويضعون حولها هالة.

أما الإسلاميون فلا يفعل أحد لهم ذلك ولا يفعلون هم ذلك لأنفسهم لا ينوه بعضهم ببعض ويعتبرون كأن هذا نوع من الرياء أو مما لا يجوز لا أدرى تفسيره لكن هذا خطأ من غير شك.

يجب أن ينوه الإسلاميون بانتاج بعضهم البعض ويتحدثون عنه ويبرزونه للناس حتى يقاوم التيارات الأخرى.

● لماذا لم ينجح الإسلاميون فى توظيف الأدب لخدمة قضاياهم مثلما فعلت الأطراف الأخرى على الساحة؟!!

●● د. القرضاوى: لم يكن عجزا منا، ولكن فى الواقع أنهم أتيحت لهم فرص لم تتح لنا فإذا نظرنا مثلا إلى بلد فى مصر له القيادة والريادة فى المجال الأدبى والمجال الثقافى بصفة عامة، سنجد مثلا فى عهد عبدالناصر الذى تحدثنا عنه من قبل أتيحت الفرصة للماركسيين ليتولوا أجهزة الإعلام والثقافة والتوجيه فى مصر وبنوا عليها كلها، المجلات، والصحافة والإذاعة والتليفزيون كانوا هم الذين يوجهون هذه الأجهزة، وكان زمامها بأيديهم.

فاستطاعوا أن يوظفوا هذه الأجهزة فى خدمة أهدافهم، وأن يفرضوا

مـصطلحـاتهم وأن تروج هذه، فى وقت كـان النـاس فى حـاجـة إلى المعـرفـة والجديد يثبت فى هذه الفترة، فـثبتوا أشيـاءهم، نحن لم يكن لنـا مثل هذه الفرصة، لقد كنا فى الصدور فى مثل هذه الأشياء.

فلا تلمَ الإسلاميين ولا ترمهم بالعجز حين لم تكن لهم الفرصة التى أتيحت لغيرهم، فقد أتيح للآخرين ما لم يتح للإسلاميين.

فى فترة من الفترات حينما وجد المد الإسلامى، أخذ كبار الكتاب والأدباء، وجذبهم إلى ساحته، وبدأوا يكتبون فى الإسلاميات، العقاد مثلا كان كاتبا وطنيـا ليبـراليـا، وعندمـا برز المد الإسـلامـى أصبح كـاتبـا إسـلامـيـا، كتب العبقريات، كتب الفلسفة القرآنية كتب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، والشيوعية والإنسانية فى ميزان الإسلام، وكتب عددا من الكتب الإسلامية.. حتى طه حسـين كتب على هامش السـيـرة، ومـرآة الإسـلام، وحـتى توفـيق الحكيم كتب محـمد، وجعل السيـرة فى شكل مسـرحى، وكتب بعض الأشـيـاء أقرب ما تكون للإسلام.

محـمد حسين هيكل.. أيضـا، كـان عنده اتجاه فرعونى بدأ يتـجه اتجاها إسلاميا كتب حياة محمد والصديق أبوبكر، والفاروق عمر، وفى منزلَ الوحى وهكذا وجدنا التوجه. فحيث يروج توجه ما يتجه إليه الكتاب.

فى عصر الصحوة الإسلامية هذه بدأ الكتاب يتجهون نحو الإسـلام، ولما بدأت تضـرب الصحـوة الآن بدأوا يبتـعدون عن التيـار الإسـلامى وبدأوا يهاجمونه فى حين أنه فى السنوات الأخيرة كانوا يخطبون وده.

ولهـذا إذا كنـا منصـفـين يجب أن ننظر إلى الأمـر هذه النظرة الشـاملة المتوازنة بحيث نضع الأمور فى موضعها، ولا تلوم الإسلاميين على أمر لم تكن لهم القدرة عليه ولم تتح لهم الفرصة ليأخذوا حظهم فيه.

التقارب بين الإسلاميين والقوميين

● فى الفـتـرة الأخـيـرة حـدث نوع من التـقـارب بين بعض التـيـارات والإسلاميين.. وفى المقدمة مع التيار القومى.

يقول د. القرضاوى:

طبعـا الفـريقـان الآن أحسـا أن الجمـيع فى خطر، وأن القضـايا القـومية

والوطنية فى خطر وأن المنطقة يرتب لها ترتيب جديد، ويراد لها أن تفقد سيادة نفسها. النهضة التى قامت والصحوة التى برزت كل هذا يراد له أن يذهب سدى وأن يضيع هدرا، أحس الجميع بهذا، نحن الآن فى العصر الإسرائيلى، العصر الذى تريد إسرائيل فيه أن تبتلع المنطقة فى جوفها، عصر الشرق الأوسط، يجب أن تختفى كلمة العرب والعروبة، والوطن العربى، والوطن الإسلامى ليظهر شىء جديد اسمه الشرق الأوسط، والشرق الأوسط السيد والقائد فيه هو إسرائيل.

من أجل هذا أحس الجميع بالخطورة، قضية فلسطين تسلم، الاستسلام الذى يسمى سلام، التطبيع الآن الذى يراد فرضه على الأمة وهرولة الجميع إلى هذا التطبيع ولم يعد مجرد تطبيع اقتصادى، إنما يراد أن يكون تطبيعا ثقافيا، وما نراه على الساحة يشهد بهذا بوضوح.

فلا عجب أن يتنادى المخلصون الذين يحرصون على الثوابت الأساسية للأمة أن يلتقوا، محاولين أن يحموا الأمة من هذا الخطر، وينبهوها إلى ما يدور حولها.

الإسلاميون والقوميون نسوا الفوارق بين كلا التيارين، ونظروا إلى الجوامع، لاشك أن هناك نقاط اختلاف وتمايز، وهناك نقاط اتفاق ولقاء، فلابد أن ندع الآن نقاط التمايز والاختلاف ونبحث عن نقاط التوافق والتلاقى. هذه النقاط جعلت كلا الفريقين يلتقى مع الآخر ويقولون يجب أن نقف صفا واحدا أمام الأخطار المحدقة بالأمة وبمستقبل الأمة، ومن أجل هذا أيضا تداعى الفريقان إلى المؤتمر القومى الإسلامى الذى عقد فى بيروت ١٩٩٤ وكنت أحد أعضاء اللجنة التحضيرية فى الجانب الإسلامى، وشاركت فيه لأنى أشعر بالخطر الذى يهدد الأمة، ويجب أن تتصافح الأيدى المتقاربة التى لم تتلوث بما يلوث المنطقة الآن لتقف فى مواجهة هذا الخطر القائم والذى يزداد يوما بعد يوم.

● هل تعتقد أن هذا التحالف الذى فرضته ظروف معينة يمكن أن يستمر مع عمليات الضرب المتلاحقة للتيار الإسلامى؟

●● د. القرضاوى اعتقد أنه من الممكن أن يستمر خصوصا وأن هناك مخلصين، فقد وجدت فى القوميين أناسا مخلصين حقيقة ويجدون التيار

الإسـلامى أنه لا غنى عنه وأنهم يجب أن يدافـعـوا عنه، وأنهم وحـدهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا بدون التيار الإسلامى.

فالتيار الإسلامى هو التيار المتجذر فى الأمة، التيار الذى يحمل معه قواعد الأمة معظمها مع التيار الإسلامى، وهو المعبر عن ضمير أغلبية الأمة ولن يستطيع التيار القومى أن يفعل شيئا يذكر بدون التيار الإسلامى، إنما إذا تعاون التياران يمكن أن يصنعا شيئا، فالمخلصون فى التيار القومى أعتقد أنهم يستمرون فى هذا، ولا أستبعد أن يوجد أناس إذا رأوا التيار الإسلامى يتعرض لهذه الضربات المتلاحقة، والمطاردات المستمرة أن ينفضوا أيديهم من هذا الاتفاق، ويقولوا مالنا ولهؤلاء الناس الذين يقعون كل يوم فرائس للحكومات هذا يضربهم، وهذا يلطهم، وهذا يركلهم ونرجو ألا يحدث مثل هذا.. وأن يظل هذا التلاحم قائما لمصلحة الأمة ومستقبل الأمة على المدى الطويل.

المؤلفات

حدثنى د.القرضاوى عن مؤلفاته والمنهج الذى سلكه فى حياته العلمية والعملية.. قال: إذا أردت أن اتحدث عن المؤلفات، فأول ما ألفت كان مسرحية شعرية ألفتها وأنا طالب فى المرحلة الثانوية كانت عن يوسف الصديق عليه السلام وتتحدث عن قصة سيدنا يوسف على طريقة شوقى فى مصرع كليوباترا ومجنون ليلى وكان لها صدى طيب وتحدثت عنها بعض المجلات الأدبية فى ذلك الوقت من شعر الشباب، ومن اللطائف ان المسرحية عن يوسف الصديق، والمؤلف يوسف القرضاوى، والمطبعة اسمها المطبعة اليوسفية كلها يوسفيات.

وبعد ذلك كان أول ما ألفت رسالة اسمها قطوف دانية من الكتاب والسنة، ورسالة أخرى كانت تحت عنوان «رسالتك أيها المسلم» ولكنها ذهبت إلى المباحث العامة فى ذلك الوقت لمراجعتها ولكنها ذهبت ولم تعد، ومثلها كتاب اسمه «نفحات الجمع» كان عن خطب الجمعة التى كنت أؤديها فى مسجد معروف فى المحلة الكبرى اسمه «مسجد آل طه» وبعض الاخوة ومنهم الأخ أحمد محمد حوطر الأديب الشاعر كان يلخص هذه الكتب على طريقته بأقلام الرصاص يكتبها ويبيضها فى نفس الليلة، واجتمعت بعض الخطب واراد بعض الاخوة ان تصدر فى ديوان خطب، وذهبت مسودة هذا الديوان ايضا، ولكن ذهبت للمباحث ولم تعد أيضا.

ثم كان أول مؤلف حقيقى لى أدخل به، ميدان التاليف حقيقة هو كتاب «الحلال والحرام فى الإسلام» والذى ألفته بتكليف من مشيخة الأزهر فى عهد شيخها وامامها الأكبر شيخها الشيخ محمود شلتوت رحمه الله وبتكليف مباشر من مدير الثقافة الاسلامية بالازهر استاذنا الدكتور محمد البهى وألفت هذا الكتاب بناء على طلب من الجاليات الاسلامية المختلفة فى البلاد الأوروبية والأمريكية كانوا قد طلبوا من الازهر والاوقاف تأليف كتب مبسطة فى عدد من الموضوعات نحو ثلاثين موضوعا منها: ما يحل للمسلم وما يحرم عليه، وكلف عدد من العلماء بالكتابة فى عدد من الموضوعات، ومما كلفت به هذا الموضوع: ما يحل للمسلم وما يحرم عليه، فكان هذا هو كتاب الحلال والحرام فى الإسلام، الذى عرض على اللجنة المختصة فأقرته واثنت عليه وهيىء ليترجم إلى اللغات الاخرى وان كان للأسف.. أخفق الأزهر فى ترجمته لأنه كلف بعض الناس بالترجمة، فترجموا فصلا ولم يعجب الأزهر فكلف آخرين، ولذلك رأيت أنا أن أفضل شيء هو أن أنشره بالعربية لأنه لو انتظرت حتى يترجم فسيضيع العمر وفعلا طبع هذا الكتاب ما يزيد على الخمسين مرة باللغة العربية، لأنه نشر فى

مصر وفى لبنان والجزائر والمغرب وأمريكا والكويت.. طبعة اتحاد المنظمات العالمية الطلابية، وترجم إلى عدد من اللغات الاسلامية والعالمية والشرقية والغربية.

ومن العجب ان يصدر قرار مؤخرا من وزير الداخلية الفرنسى بمصادرة كتاب الحلال والحرام بزعم انه يحمل وجهة نظر معادية للغرب، وهذا كذب فى الحقيقة، لأن الكتاب لا يحمل أية وجهة نظر مثل ما يدعى.. الكتاب يتحدث عن سلوك الانسان المسلم فى حياته الفردية وحياته الأسرية، والاجتماعية ويبين ما هو حلال له وما هو حرام عليه بالعكس الكتاب يتخذ منهج التيسير والتسامح، والذين نقدوا الكتاب نقدوه بأنه يرخص ويسهل أكثر من اللازم، ليس فيه تشدد ولا تعصب ولا شىء من هذا، بل إن آخر فقرة منه فى الفصل الأخير تتحدث عن علاقة المسلم بغير المسلم، يبنى هذا العلاقة على الآيتين من سورة الممتحنة: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين».. ويجعل لأهل الكتاب منزلة خاصة لأن الإسلام أباح أكل ذبائحهم، وأباح مصاهرتهم، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب».

والنصارى لهم منزلة خاصة عن بقية أهل الكتاب، فعجبا أن يقول وزير الداخلية الفرنسى مثل هذا.

الحقيقة ان الكتاب عندما صدر تلقاه العالم الإسلامى بقبول حسن وجاءتنى رسائل شتى من العلماء فى انحاء العالم.. ومنهم الاستاذ أبو الأعلى المورودى رحمه الله الذى وصلته نسخة من الكتاب وقال: إننى أعتز به وأعتبره اضافة جليلة إلى مكتبتى، والاستاذ الشيخ على الطنطاوى أقره فى كلية الشريعة وكلية التربية فى مكة المكرمة وجعله أساسا لمادة الثقافة الاسلامية لعدة سنوات.

وقام الشيخ ناصر الدين الألبانى بتخريج أحاديثه، وكتب الاستاذ محمد المبارك تقريرا عنه، للأزهر وقال: انه خير كتاب فى موضوعه فيما أعلم، وقال الشيخ مصطفى الزرقا: ان هذا الكتاب يجب اقتناؤه على كل أسرة مسلمة، لأن كل أسرة مسلمة لا تستغنى عن أن تعرف ما هو حلال لها وما هو حرام عليها، وبدأ المسلمون فى بلاد شتى يترجمونه إلى لغاتهم، الكردية والاندونيسية، والماليزية، والتركية والانجليزية من سنوات، والفرنسية بعدها، والاسبانية، إلى آخر هذه اللغات المختلفة فى آسيا وافريقيا.

فهذا الكتاب المبارك.. «الحلال والحرام».. أعتبره بداية التأليف الحقيقى لى، وبعد ذلك كتاب الايمان والحياة، وكتاب العبادة فى الإسلام، ومشكلات الفقر وكيف عالجها الإسلام؟ وفقه الزكاة، وكتب الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟ وحتمية الحل الإسلامى وبينات الحل الاسلامى وثقافة الداعية إلى آخر

هذه الكتب التى بلغت ٦٧ كتـابا، وهناك عدد آخر تحت الطبع ستزيد على السبعين ان شاء الله.

● ....؟!

●● فى كتبى هذه أتوخى منهجا معينا هو التبشير فى الدعوة والتيسير فى الفتوى أخذاً بالمنهج النبوى: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» ولذلك إذا كان هناك قولان متكافئان أو متقاربان أحدهما أحوط والآخر أيسر فأنا أختار الأيسر، وأفتى عموم الناس بالأيسر.

سألنى بعضهم: وما دليلك على هذا؟

قلت: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، وانه انكر على أصحابه الذين يطولون فى القراءة بالناس فى الصلاة، وقال من أم بالناس فيلتجوز أو فليخفف فإن وراءه المريض والكبير والضعيف وذا الحاجة، فمعناه نسير بسير أضعفنا.

فالمنهج الذى اتبعته التشديد فى الأصول والتيسير فى الفروع، ولكن دون أن ألوى أعناق النصوص المحكمات، أنا أعمل على أن أوازن بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر، وهذا هو التجديد الحقيقى، وهو كما قال علماؤنا ان الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال ولكن ليس معنى هذا أن نجر النصوص جرا، ونقسرها قسرا على ما لا تدل عليه، ولكن ينبغى أن تفهم النصوص فى ضوء المقاصد، هذا هو الذى يجب أن يحرص الانسان عليه، وهذا هو المنهج الذى اتبعته، أنا من مدرسة المقاصد، هناك أناس من مدرسة الظواهر أى يقفون عند ظواهر النصوص، أنا أحاول أن أغوص إلى مقاصد النصوص الى لبابها إلى أسرارها، هذه هى المدرسة التى أعتقد أننى امثلها، مدرسة الوسطية الاسلامية التى تقوم على أساس الموازنة بين القديم والجديد، السلفية والتجديد والسلفية الحقيقية لا تكون إلا مجددا، والتجديد الحقيقى لا يكون إلا سلفيا.

هذا ما رأيناه فى مدرسة شيخ الاسلام ابن تيمية وتلاميذه ابن القيم وغيره، فهذه مدرسة الموازنة بين القديم والجديد وبين الماضى والحاضر والمستقبل والتى تقدم الاسلام مشروعا حضاريا متكاملا ولا تنظر إلى الجزئيات وتنسى الكليات وتتمسك بالفروع وتهمل الأصول، أو تهتم بالمختلف فيه، وتنسى المتفق عليه او تعنى بالظنيات على حساب القطعيات، فهى مدرسة الوسطية الحقيقية التى يمثلها الصراط المستقيم الذى علمنا الله أن ندعو به كل يوم ما لايقل عن سبع عشرة مرة «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

● ....؟!

●● الحمد لله مؤلفاتى ليست فى جانب واحد من العلوم الشرعية والدراسات

الاسلامية، أنا أكتب فى كل فروع الدراسات الاسلامية، أنا أصلا خريج كلية أصول الدين، وبعض الناس يظننى خريج كلية الشريعة لدراساتى الفقهية المختلفة.. الحلال والحرام، وفقه الزكاة، وفقه الصيام، وبيع المرابحة، والفوائد الربوية.. وهذه الاشياء، حتى ظن الناس ذلك.. فكلية أصول الدين هى كلية الثقافة العامة، وتكوينى تكوين والحمد لله رحب ومتكامل، واستطعت بفضل الله وتوفيقه أن أقرأ فى كل الدراسات الإسلامية، فى التفسير وفى العقيدة وفى الفلسفة، فقد درسنا الفلسفة والتاريخ طوال سنوات كلية أصول الدين، ولذلك عندى هذه النواحى كلها متساوية فدرستها جميعا فى كلية الشريعة وقسم الدراسات الاسلامية وألفت فيها جميعا الفت فى العقيدة وفى التوحيد ووجود الله وألفت فى التفسير الموضوعى للقرآن، «الصبر فى القرآن»، وأكتب الآن فى أشياء أخرى فى التفسير، وتكلمت فى الحديث كيف نتعامل مع السنة النبوية، وخرجت كتاب المنتقى من الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى، وألفت فى الفقهيات وأصول الفقه والاجتهاد فى الشريعة الاسلامية والفتوى بين الانضباط والتسيب إلى آخره.

وألفت فى الدعوة والفكر الاسلامى كتبا مختلفة.

فالحمد لله لست متقوقعا فى ناحية معينة، ككثير من المتخصصين الذين يضيق تخصصهم فإذا خرجوا منه لا يكادون يعرفون شيئا فيصبحون أميين فى بقية النواحى الأخرى.

ولقد بينت فى كتابى «ثقافة الداعية» انه ولابد من الدراسة اللغوية والأدبية والتاريخية والانسانية بل بعض الدراسات العلمية لازمة للداعية.

كتب الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوى

وتصل إلى ١٢٠ كتابا وهى :
الحلال والحرام فى الإسلام
مائة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية
فتاوى معاصرة (٣ أجزاء)
نحو فقه ميسر معاصر
فقه الطهارة
فقه الصيام
فقه الغناء والموسيقى
فقه اللهو والترويح
الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية
مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية
من فقه الدولة فى الإسلام
الفتوى بين الانضباط والتسيب
عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية
الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد
الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط
فى فقه الأقليات
دية المرأة فى الشريعة الإسلامية
فقه الزكاة (جزءان)
مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام
بيع المرابحة للآمر بالشراء
فوائد البنوك هى الربا الحرام
دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى
دور الزكاة فى علاج المشكلات الاقتصادية
الصبر فى القرآن
العقل والعلم فى القرآن الكريم
كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟
كيف نتعامل مع السنة النبوية؟
تفسير سورة الرعد
المدخل لدراسة السنة النبوية

المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان)
السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة
نحو موسوعة للحديث الصحيح مشروع منهج مقترح
وجود الله
حقيقة التوحيد
الإيمان بالقدر
الشفاعة
الحياة الربانية والعلم
النية والإخلاص
التوكل
التوبة إلى الله
ثقافة الداعية
التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا
الإخوان المسلمون ٧٠ عاما فى الدعوة التربية والجهاد
الرسول والعلم
الوقت فى حياة المسلم
رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد
الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى
أين الخلل؟
أوليات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة
فى فقه الأوليات ـ دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة
الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه
الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده
غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى
شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان
الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم
الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد
التطرف العلمانى فى مواجهة الإسلام
من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا
أمتنا بين قرنين
ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق
تاريخنا المفترى عليه

الإسلام والعنف
نحن والغرب : أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة
الدين والسياسة
الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم
درس النكبة الثانية
لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر (جزءان)
قضايا معاصرة على بساط البحث
الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا
الحل الإسلامى فريضة وضرورة
بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين
أعداء الحل الإسلامى
شمول الإسلام
المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة
موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى
السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها
كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف
فصول فى العقيدة بين السلف والخلف
الإيمان والحياة
العبادة فى الإسلام
الخصائص العامة للإسلام
مدخل لمعرفة الإسلام
الإسلام حضارة الغد
الناس والحق
جيل النصر المنشود
خطب الشيخ القرضاوى (سبعة أجزاء)
ابتهالات ودعوات
قطوف دانية من الكتاب والسنة
أصول العمل الخيرى فى الإسلام
الحرية الدينية والتعددية فى نظر الإسلام
كلمات فى الوسطية ومعالمها
الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه
الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن
الشيخ أبوالحسن الندوى كما عرفته
الجوينى.. إمام الحرمين.. بين المؤرخين : الذهبى.. السبكى

فى وداع الإعلام
عمر بن عبدالعزيز الراشد المجدد
نساء مؤمنات
مقومات الفكر الإسلامى عند الإمام البشير الإبراهيمى
نفحات ولفحات - (ديوان شعر)
المسلمون قادمون - (ديوان شعر)
عالم وطاغية - (مسرحية تاريخية)
يوسف الصديق - (مسرحية شعرية)
ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة (٣ أجزاء)
الدين فى عصر العلم
الإسلام والفن
النقاب للمرأة بين القول ببدعته والقول بوجوبه
مركز المرأة فى الحياة الإسلامية
فتاوى للمرأة المسلمة
جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة
الأقليات الدينية والحل الإسلامى
المبشرات بانتصار الإسلام
مستقبل الأصولية الإسلامية
القدس قضية كل مسلم
حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا
فتاوى من أجل فلسطين
مبادىء فى الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية
الأسرة كما يريدها الإسلام
ظاهرة الغلو فى التفكير
التربية السياسية عند حسن البنا
البابا والإسلام

الجوائز

حدثنى الشيخ القرضاوى عن الجوائز التى حصل عليها قائلا:

فى الواقع مما أعتز به أنى ما حصلت من دولة من الدول، ولا من حاكم من الحكام على وسام من الأوسمة، ولا على جائزة من الجوائز.

وكل ما حصلت عليه جائزتان:

جائزة من البنك الإسلامى للتنمية، عن الاقتصاد الاسلامى سنة ١٤١١هـ وكان قرار اللجنة مشرفا والحمد لله بأن ما قدمته للاقتصاد الإسلامى سواء من كتاب الزكاة أو ما ألحق به من كتب فى الاقتصاد الإسلامى اضافة عميقة لها أهميتها ولها فائدتها واستفاد منها المسلمون الاقتصاديون، والفقهاء والباحثون فى انحاء العالم الإسلامى.

ثم حصلت على جائزة الملك فيصل الإسلامية العالمية فى الدراسات الإسلامية كنت رشحت مرات عديدة من جامعة قطر، ومن عدد من الجامعات جامعة الملك عبدالعزيز بمكة، جامعة البترول والمعادن، جامعة أسيوط، كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وعدد من الجامعات والجمعيات والمراكز الإسلامية رشحونى لعدة سنوات، لجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام لكن قدر الله ما شاء فعل، لم أحصل على هذه الجائزة.

وانما حصلت على جائزة الملك فيصل فى الدراسات الاسلامية فى الفقه الإسلامى بالاشترك مع أخينا وشيخنا الشيخ سيد سابق صاحب كتاب فقه السنة الشهير كان ذلك لسنة ١٤١٣هـ، والحمد لله قيمة هذه الجائزة كما قلت للصحافة فى حينها ليست فى قيمتها المادية، فالحمد لله لست فى حاجةإلى قيمتها المادية، وأذكر انى وضعت قيمتها المادية ومثلها معها وقفتها لنشر الدعوة الإسلامية، انما قيمتها فى الناحية الأدبية وانها تحمل اسم رجل من رجالات الإسلام أحبه المسلمون وتعلقوا به، وهو الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله الذى وقف مع القضايا الإسلامية ومع الأمة الإسلامية فى همومها، وكان أمله أن يصلى فى القدس، القدس المحررة، وليس الصلاة تحت أسنة حراب اليهود لهذا كانت للجائزة معناها وقيمتها.

وقد قلت كلمة فى الاحتفال بالجائزة بينت فيها منهجى وقلت: إن اعطائى الجائزة هو تكريم ليس لشخصى وإنما للمنهج الذى أتبعه فى الفقه وهو منهج الوسطية والتيسير فلقى هذا المنهج القبول والتكريم من علماء الأمة وحصل على هذه الجائزة فهذه هى قيمة الجائزة انها تكريم لمنهجى الذى اخترته والحمد لله لنفس فى حياتى، وهو منهج التيسير والتبشير وليس منهج الاعانات ولا منهج التزمت فأحمد الله تعالى أن يسر لى هذا، وهذا هو عاجل بشرى المؤمن كما جاء فى الحديث الشريف.

رابع جائزة عالمية

بعد أن حصل فضيلة العلامة د. يوسف القرضاوى مؤخراً على جائزة سلطان بروناى فى الفقه الإسلامى هذا العام عبر فضيلته عن سعادته بها واعتبر هذا التكريم ليس شخصياً له لكنه تكريم لمبدأ واتجاه يمثله ويتبناه ويدعو إليه، هو مبدأ «الوسطية الإسلامية» وفى

لقاء صحفى لفضيلته عقده بالدوحة تحدث عن رأيه فى مثل هذه الجوائز وقارن بين هذه الجائزة وأول جائزة حصل عليها فى حياته ثم عرج على نشاطه فى ماليزيا التى مر عليها فى طريق عودته من بروناى ملقيا الضوء على أحداثها الاقتصادية والمؤامرة اليهودية عليها.. وأخيراً فتح قلبه لما يوجه إليه من عتاب على كثرة أسفاره ثم مشاركاته فى القضائيات المختلفة ودورها فى نشر الدعوة.

فى البداية تحدث فضيلته عن جائزة الفقه الإسلامى التى حصل عليها فقال: كل سنة تحدد الجائزة فى علم من علوم الإسلام.. فى عامها الأول كانت عن السنة النبوية وعلومها أخذها الشيخ عبدالفتاح أبو غدة يرحمه الله تقديراً لمجموع انتاجه فى حقل السنة وفى عامها الثانى كانت عن القرآن وعلومه وحصل عليها د. عدنان زرزور الاستاذ بجامعة قطر ومعه زميل آخر فى عامها الثالث كانت عن مجموع الجهود والانتاج فى الفقه الإسلامى.

والجائزة تمنح كل سنتين.. ويتم منحها بناء على ترشيح الجهات العلمية لمن يستحقونها.

الحفل أقيم بقاعة المؤتمرات الدولية فى عاصمة بروناى فى الثانى والعشرين من مارس الماضى بحضور ولى العهد حيث كان سلطان بروناى خارج البلاد.. وبعد مراسم احتفالية استلمت الجائزة.. وقد ألقيت كلمة فى الحفل.

قال فضيلته فى هذه الكلمة:

فلم أر ديناً احتفى بالعلم وكرم العلماء مثل الإسلام الذى كان أول ما أنزل الله فيه من الوحى قوله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذى خلق» أمرت هذه الآيات بالقراءة مرتين والقراءة مفتاح العلم ونوهت بالتعليم والقلم وهو أداة نقل العلم من فرد إلى آخر ومن أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل ولهذا اقسم الله تعالى بالقلم فى قوله: «ن والقلم وما يسطرون».

ولكن القراءة التى أمر الله بها ليست مجرد قراءة وإنما هى قراءة باسم الله القراءة باسم الله لا تثمر إلا عملاً نافعاً فهو علم فى حضانة الإيمان ولم نر أمة احتفت بالعلم وضربت الأمثال فى طلبه وتدوينه وخدمته وابتكرت علوماً جمة لم تعرفها الإنسانية من قبل وهذبت علوماً سابقة أضافت إليها وصنفت المكتبات وكرمت العلماء وأعطتهم مكانة لم يعطها غيرهم كما فعلت ذلك امتنا الإسلامية ومن العلوم التى ابتكرها المسلمون وأبدعوا فيها وأصلوا وفرعوا: علم الفقه الذى استبحر وتوسع وتفرع إلى فقه مذهبى يتبع المذاهب المعروفة وفقه عام خارج المذاهب وقبل أن توجد المذاهب مثل فقه الصحابة والتابعين واتباعهم ولا غرو أن اعترفت المؤتمرات العالمية فى القانون المقارن بقيمة هذا الفقه الحقوقية وأصالته التشريعية وأوصت بضرورة اعتباره والاستفادة من تنوعه وثرائه كما فى مؤتمر لاهاى سنة ١٩٣٧م ومؤتمر باريس سنة ١٩٥١م.

علم الفقه أيها السادة هو العلم الذى يضبط مسيرة الحياة الإسلامية ويقود الدورة الحضارية للأمة بأحكام الشرع ومن مزايا هذا الفقه: الشمول، رعاية مصالح الخلق وقال: واحمد الله تعالى أن وفقنى لخدمة هذه الشريعة وخدمة فقهها بعدد من الكتب استقبلها المسلمون فى أنحاء العالم استقبالاً حسناً ابتداء بكتاب «الحلال والحرام» الذى طبع بالعربية أكثر من خمسين مرة وترجم إلى عشرات اللغات فى مشارق الأرض ومغاربها مروراً بـ «فقه الزكاة» فى مجلدين و«فتاوى معاصرة» التى صدر منها جزءان إلى غيرها من الكتب كما أحمده تعالى أن وفقنى إلى أن أنهج المنهج الوسط فى الفقه والفتوى خصوصاً وفى الدعوة والفكر عموماً وقد قال الإمام أبو اسحاق الشاطبى فى «الموافقات» المفتى البالغ ذروة الدرجة هو الذى يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور فلا يذهب بهم مذهب الشدة ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال.

ودلل على ذلك بأن هذا هو الصراط المستقيم الذى جاءت به الشريعة من غير إفراط ولا تفريط وإنه كان المفهوم من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه الأكرمين وإن الخروج إلى أحد الطرفين خروج عن العدل فإن فى طرفى التشديد والانحلال مهلكة ولا تقوم بأحدهما مصلحة الخلق بل أرى أن عصرنا بما يتجدد فيه من أحداث كل يوم وما يمور به من تيارات فكرية وسياسية أحوج ما يكون إلى التيسير الذى أمر به رسولنا العظيم حين قال: يسروا ولا تعسروا وقد نقل الإمام النووى فى مقدمات المجموع كلمة عن الإمام سفيان الثورى ما أحرانا أن نحفظها وننشرها قال: إنما الفقه الرخصة من ثقة أما التشديد فيحسنه كل أحد.

وإنى أعتبر هذه الجائزة التى منحت لى من قبل سلطان بروناى ليست تكريماً لشخصى وإنما هى تكريم لمبدأ واتجاه أمثله وأتبناه وأدعو إليه فى كل ما أكتبه من بحوث ودراسات وما ألقيه من دروس ومحاضرات وهو مبدأ محورى ومركزى بالنسبة لى وهو سمة عامة لفكرى هو مبدأ الوسطية الإسلامية تلك الوسطية التى تتجلى فى التوازن بين المتقابلات بين العقل والنقل فتوفق بين صحيح المنقول وصريح المعقول وتربط بين الدين والدنيا فلا تقبل ديناً يعتزل الدنيا ولا دنيا تنفصل عن الدين وتمزج بين الروحانية والمادية فلا تضيع حق الرب ولاحظ النفس ولا تحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق وتجمع بين الثبات والمرونة: الثبات فى الأهداف والكليات والمرونة فى الوسائل والجزئيات.. وتدعو إلى التسليم فى القطعيات والاجتهاد فى الظنيات وترد المتشابهات إلى المحاكمات وتفهم النصوص الجزئية فى ضوء المقاصد الكلية وتفقه متغيرات العصر فى ضوء ثوابت الشرع وتقتحم المستقبل انطلاقا من استلهام الماضى وفقه الواقع والحاضر وتستفيد من كل الثروة الفهقية لجميع المذاهب المتبوعة وخارج المذاهب تختار منها ما هو اقوى برهانا وارجح ميزانا واليق بتحقيق مقا صد الشرع ومصالح الخلق دون تعصب لرأى قديم ولا عبودية لفكر جديد، وتقتبس من حضارة الغرب والشرق ما يلائمها وما يصلح لها دون انبهار أسر ولا انغلاق حاصر والحكمة ضالة المؤمن انى وجدها فهو أحق بها. هذه الوسطية تجمع فى العقيدة بين السلفية والتجديد وفى الفقه بين الاجتهاد والانضباط وفى الثقافة بين الأصالة والمعاصرة وفى السياسة بين التماسك والانفتاح.

فهى مع ثوابت الشرع فى صلابة الحديد ومع متغيرات العصر فى ليونة الحرير وهى تعتز بالإسلام وتستمسك بعروته الوثقى لا انفصام لها وتتسامح مع مخالفيه وتحاورهم بالتى هى أحسن وهى ترحب بكل جديد نافع كما تستفيد من كل قديم صالح تستلهم تراث الماضى الحافل وتعايش الواقع الماثل: واقع الأمة وواقع أعدائها لا تهون منه ولا تهول فيه وتستشرق المستقبل تحاول أن تقرأه وتخطط له فى ضوء الحاضر يحدوها الأمل ويدفعها الطموح ويقودها الإيمان لا تجنح إلى الغلو والإفراط ولا تركن إلى التسيب والتفريط..

هذه أهم معالم الوسطية الإسلامية التى أؤمن بها واتبناها وأدعو إليها وارى أنها هى المعبرة عن روح الإسلام وعن وسطية الأمة التى أثنى الله عليها بقوله: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» البقرة: ١٤٣ وهذه المدرسة الوسطية لم تبتكر شيئاً من عندها ولم تبتدع جديداً إنما وسطيتها من وسطية الإسلام ذاته التى تعيش الواقع وتتطلع إلى المثال وتمشى فى الأرض وهى ترنو إلى السماء وتعمل للدنيا وعينها على الآخرة وتتعامل مع الخلق وهمها رضا الخالق فتحقق السعادتين ويفوز أهلها بالحسنيين أيها الأخوة فى هذه الآونة الدقيقة التى يعيش فيها المسلمون أحرج موقف

فى تاريخهم الحديث حيث يهدد مسجدهم الأقصى بالزوال لا يكون أمامهم ملاذ إلا دينهم وشريعتهم قرآنهم وسنتهم، يقتبسون منها الضياء، ويلتمسون فيها الدواء، وبهذا ينصرون الله فينصرهم الله.

أعلن فضيلته أن قيمة الجائزة سوف تكون وقفاً لنشر الدعوة والفكر الإسلامى.

بمناسبة الحديث عن جائزة سلطان بروناى.. ما هى الجوائز العالمية التى سبق لفضيلتكم الحصول عليها..؟

حصلت على أربع جوائز عالمية هى على التوالى: جائزة البنك الإسلامى فى التنمية «فى الا قتصاد الإسلامى» وجا ئزة الملك فيصل العالمية وجائزة العطاء العلمى من ماليزيا وجائزة سلطان بروناى هذه التى يمنحها مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية.

ما رأى فضيلتكم فى مثل هذه الجوائز..؟

المبدأ مطلوب ولا بأس به.. والنبى صلى الله عليه وسلم شرع مثل هذه فى الجهاد عندما أمر بالسباق بين الخيل أعطى الفائز الأول.. فمبدأ الجوائز مشروع وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

وإذا كان غير المسلمين ينظمون جواذئز عالمية مثل جائزة نوبل وغيرها فلا مانع أن تكون للمسلمين جوائزهم لتكريم العلماء والذين يبذلون جهداً مميزاً واعتقد أنها عمل إيجابى فى حد ذاته إذا وضعت موضعها وروعيت ظروفها وضوابطها ولم تدخل فيها الأهواء.

ولكن بالنسبة لجوائز حفظ القرآن لفضيلتكم رأى معارض فى الاكثار منها..؟

معارضتى تنصب على المبالغة فى هذه الجوائز بعد أن وصلت قيمة بعضها لمئات الألوف من الدراهم.. وأنا أطالب بأن يعامل أهل العلم كما يعامل أهل الحفظ.. لا أن ينصب التكريم على الحفظة وحدهم.. وليس با لحفظ وحده يحيا القرآن.

لكن فضيلتكم حصلتم على جوائز فى حفظ القرآن..؟

أول جائزة حصلت عليها فى حياتى كانت بسبب حصولى على المركز الأول فى حفظ القرآن بين مراكز مديرية الغربية شمال مصر وكنت وقتها فى العاشرة من عمرى وبعد أن ختمت القرآن بسنة..

كم كانت قيمة هذه الجائزة؟

قيمتها كانت جنيها وربع جنيه مصرى.. وكان هذا المبلغ يعادل ألف جنيه مصرى حالياً.

وما هو إحساسكم وقتها مقارنة بمشاعركم بعد الفوز بجائزة سلطان بروناى؟

سعادتى بالفوز بجنيه وربع كانت أكثر من سعادتى بالفوز بخمسين ألف دولار.. لأن الجائزة الأولى التى حصلت عليها وأنا طفل كانت ثروة كبيرة بالنسبة لى.. وقتها أعطيت العريف أو الشيخ الذى حفظنى القرآن ربع جنيه وادخرت الجنيه لنفسى وكان ثرورة كبيرة بالنسبة لى لم أعرف أين سأنفقها والذى أريد أن أقوله إن تشجيع حفظة القرآن مطلوب.. لكن بشرط أن نشجع التفوق فى النواحى العلمية الأخرى.. فهذه الجوائز التى تمنح للمتفوقين فى الدراسات الإسلامية المختلفة مؤشر طيب.. وكلما كانت الجوائز أكثر وأكبر زاد تشجيع الباحثين والدارسين.

أهم المراجع

● مؤلفات د.يوسف القرضاوى.

- تسجيلات صوتية مع الشيخ القرضاوى.. تمت بصفة خاصة للحوار حول سيرته الذاتية.
- الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث.. تأليف دليب هيرو.. ترجمة عبدالحميد فهمي الجمال.
- الإسلام شريكاً.. تأليف فريتس شتيبات.. ترجمة عبدالغفار مكاوى.
- العقد الفريد.. لابن عبدربه الأندلسى.. (سلسلة الذخائر).

●● بحوث ومقالات:

- فى صحبة القرضاوى بين علوم الدين والدنيا.. المستشار طارق البشرى.
- الشيخ على الطنطاوى.. من غزل الفقهاء.
- فهمى هويدى.. نقلات مهمة فى حياة القرضاوى.
- د.أحمد الربعى.. القرضاوى المعتدل.
- د.محمد سليم العوا.. جهود القرضاوى فى خدمة السنة النبوية.
- د.بشير موسى نافع.. حارس ميراث الإصلاحية الإسلامية.
- قراءة فى جدلية الشيخ والحركة.. حسام تمام

● صحف

- جريدة الجمهورية
- جريدة الشرق القطرية
- جريدة الوطن القطرية
- جريدة الراية القطرية
- الاتحاد الاماراتية
- الشرق الأوسط (السعودية)
- الدستور (المصرية)

●● مواقع إليكترونية:

- موقع د.القرضاوى
- الشبكة الإسلامية
- إسلام أون لاين
- الشهاب
- مكتبة الإمام الصادق
- الإسلام اليوم
- إيلاف
- العربية.. نت
- الإسلام اليوم
- الإسلام.. سؤال وجواب
- موقع الشيخ محمد الغزالى

الفهرس

الموضوع	صفحة
- الإهداء	٥
- هذا الكتاب	٧
- الانطلاقة المباركة	١١
- الرحلة مع الإخوان	١٧
- القرضاوى وحزب التحرير الإسلامى	٣٥
- الترشيح مرشداً للإخوان	٤١
- مع رسائل البنا	٤٧
- شهادة أمريكية للبنا	٥٢
- ما لم يفعله الإخوان	٥٧
- أسرار العلاقة بالسلطة	٦٣
- أيام السادات	٧٢
- القرضاوى وعبدالناصر	٧٨
- عبدالناصر وعهده	٨٢
- مع الرئيس مبارك	٩٩
- التعذيب والعنف والتطرف	١٠١
- الشيخ السياسى	١١٣
- أسرار خاصة جداً	١٤٣
- قصة الزواج الثانى	١٦٨
- حكايتى مع دولة قطر	٢١١
- مع الغزالى	٢٤١
- المعركة مع العلمانية	٢٥٧
- مع الصحوة الإسلامية	٢٧٣
- فى مواجهة التكفير	٢٨٥
- حلم مشيخة الأزهر	٣١١
- المنع من دخول الإمارات	٣٤٤
- على منصة الافتاء	٣٥٧
- بين الفقه والشعر	٣٩٧
- المؤلفات	٤٣٥

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٧٣١

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-236-646-0

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

هذا الكتاب



بدأ الشيخ القرضاوى إخوانيا وعلا نجمه وسطع فى أيامه الأولى مع تزايد المد الاخوانى.. وشيوع الحركة منذ بداياتها على يد مؤسسها الأول الامام حسن البنا.. وساعده نبوغه وتفوقه على أن يفرض نفسه فى الصفوف الأولى للدعوة.. غير آبه بالتنظيم الحركي وقيوده.. بل أحيانا متمردا على بعض القواعد والقوالب التى تفرضها طبيعة الحركة وضرورات التحرك واعداد الكوادر اللازمة لذلك.

فالشيخ القرضاوى فى بساطة شديدة نجم انطلق فى فلك الاخوان ولكنه ظل يحلق بعيدا بعيدا فى سماء الدعوة والفكر الإسلامى. حتى خرج بسهولة - سواء عن قصد أو غير قصد - من المدار الضيق لجماعة محدودة إلى الفلك الواسع والفضاء الرحيب.. مجتهدا ومبدعا ومصلحا ومجددا.

مجاهد خلف



الثمن ٣٥ جنيهاً